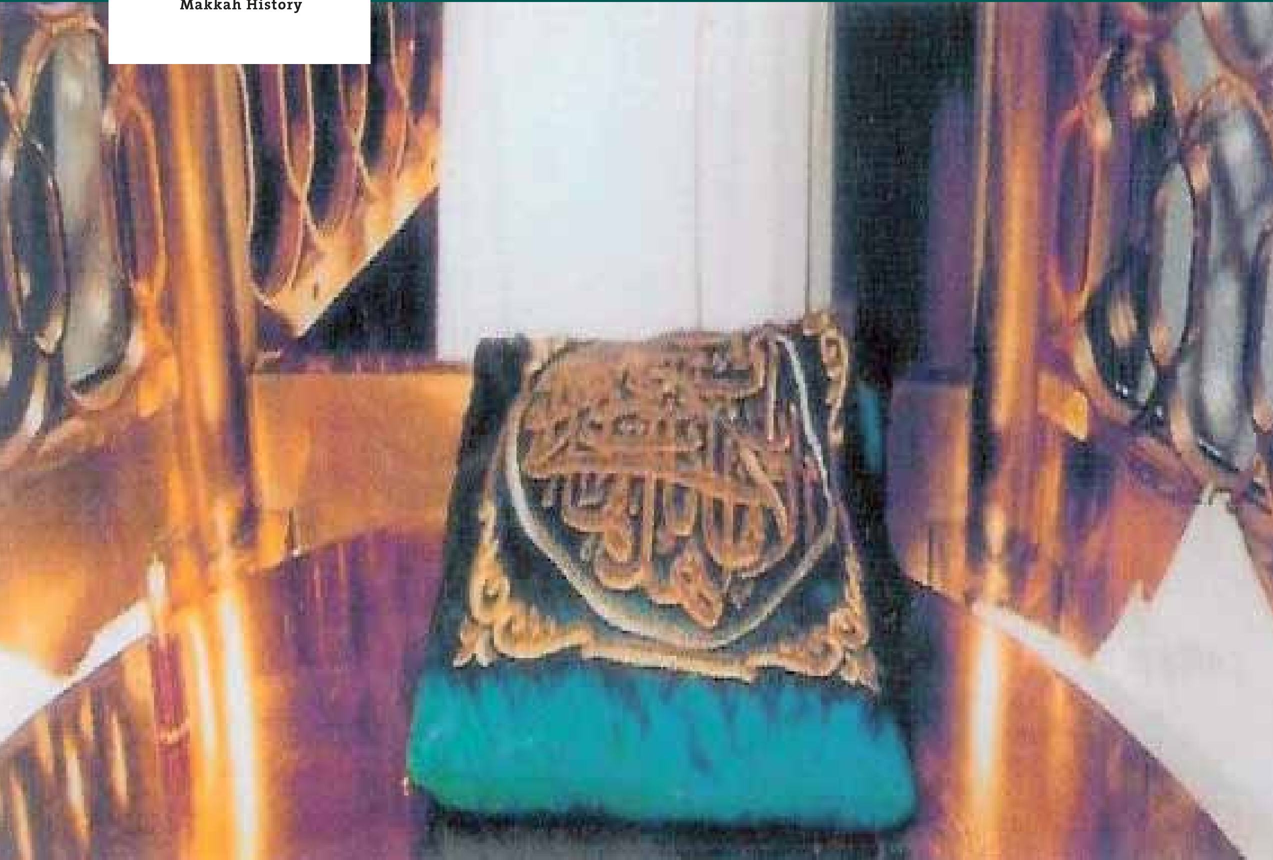
مركز تاريخ مكة المكرمة
The Center of Makkah History

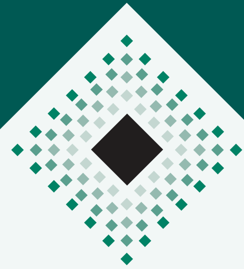
د. فاطمة بنت محمد المباركي



الوظائف في الحرم المكي في العصر المملوكي

(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

د. فاطمة بنت محمد المباركي



الوظائف في الحرم المكي في العصر المملوكي

الوظائف في الحرم المكي
في العصر المملوكي
(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

هذا الكتاب

تحدّث عن الوظائف في المسجد الحرام في عهد دولة المماليك، مبتدئاً بالوظائف الدِّينية مثل الإمام والمؤذن والخطيب والقاضي والفقيه والسَّادن والمحتسب، موضحاً شروط كلّ وظيفة. كما تطرَّق إلى الوظائف الإدارية في المسجد الحرام في ذلك العهد، مثل شيخ الحرم وناظر العمارة، إلى جانبِ وظيفة المطوِّف المستحدثة في ذلك العصر، موضحاً الرواتب والهبات التي يحصل عليها أولئك الموظفون.

وتناول الكتاب أيضاً الوظائف التعليمية في الحرم المكِّي مثل المدرِّس والمؤدِّب والمقرئ معرفاً بشروطها، مشيراً أيضاً إلى الوظائف الخدمية فيه مثل صاحب السِّقاية والوقّاد والفرَّاش والبوَّاب وخُدَّام الحرم وأغواته، مختتماً بالحديث عن تأثير المسجد الحرام في المجتمع المكي في وجود أسَر فيه تسمَّت ببعض أسماء وظائفه.

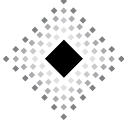


ISBN 978-603-90349-8-8
9786039034988
ردمك: ٨ - ٨ - ٩٠٣٤٩ - ٦٠٣ - ٩٧٨

إصدارات مركز تاريخ مكة المكرمة ١١

الوظائف في الحرم المكي
في العصر المملوكي
(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

د. فاطمة بنت محمد المباركي



مركز تاريخ مكة المكرمة

The Center of
Makkah History

الوظائف في الحرم المكي في العصر المملوكي

(٦٤٨-٩٢٣هـ/١٢٥٠-١٥١٧م)

مركز تاريخ مكة المكرمة، ١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المباركي، فاطمة محمد
الوظائف في الحرم المكي في العصر المملوكي ٦٤٨ ـ ٩٢٣هـ/
فاطمة محمد المباركي ـ مكة المكرمة ١٤٣٥هـ
٥٤٤ ص، ١٧ × ٢٤ سم
ردمك: ٨ ـ ٨ ـ ٩٠٣٤٩ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

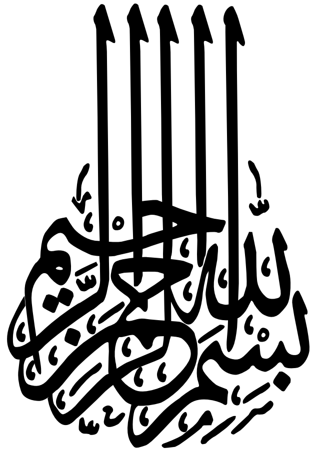
١ـ المسجد الحرام ـ تاريخ ٢ـ مكة المكرمة ـ تاريخ ـ عصر المماليك أ.العنوان

ديوي ٢١٥,١ ١٤٣٥/٦٣١٧

رقم الإيداع: ١٤٣٥/٦٣١٧
ردمك: ٨ ـ ٨ ـ ٩٠٣٤٩ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

صورة الغلاف: الكيس الذي يوضع فيه مفتاح الكعبة لصيانته وحفظه من الضياع أو السرقة نقلًا عن كتاب فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام

المؤلفة: د. فاطمة بنت محمد المباركي
كلية التربية – الجبيل – المملكة العربية السعودية



تقديم

الحمـد للـه ربِّ العالمين، والصلاة والسَّـلام علـى الهادي الأميـن، نبيِّنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبع هُداه إلى يوم الدِّين، أمّا بعد:

فإنّ الله -سـبحانه تعالى- قد أعلى شـأن المسـاجد وعظّم مكانتها ورفع قدرها على باقي بقاع الأرض، حيث أذن الله أن تُرفع ويُذكَر فيها اسمُه، وجعلها منارات إشـعاع في المجتمـع ومنابر للعلـم ومراكز للمعرفة، تُسـهم فـي التعليم والتوعيـة بما يُلقى فيهـا من خُطب وما يقـام فيها من حلق للتدريـس، إلى جانب التئـام الصفوف فيهـا لأداء الرُّكـن الثاني من أركان الإسـلام، وهـي الصلاة التي تُعدّ عمود الإسلام، ولهذا أولاها المسلمون عنايةً فائقةً واهتماماً كبيراً، بناءً على الدور المهم الذي تؤدِّيه.

ويعـدّ المسـجد الحرام مـن أشـرف المسـاجد وأعلاهـا مكانـةً وأكثرها قدسـيةً؛ جعلهُ الله أوَّلَ بيت وُضع للنـاس، وباركه وجعله هُـدى للعالمين، وأمر خليله إبراهيم وابنه إسـماعيل عليهما السلام بتطهيره للطائفين والعاكفين والرُّكّع السُّـجود، وعظّـم أجر الصـلاة فيه على ما سـواه من المسـاجد، وربط بـه الرُّكن الخامـس من أركان الإسـلام وهـو الحجّ الـذي تكتمـل أركانُه بالطـواف بالبيت العتيق والسَّعي بين الصفا والمروة.

وقد شـهد المسجدُ الحرام على مرِّ التاريخ الإسـلامي الطويل عنايةً فائقةً

واهتماماً كبيراً من لـدُن الحكومات والدُّول الإسـلامية المتعاقبة، وذلك بعمارته وتوسـعته وتطهيـره ونظافته، إلى جانـب إيجاد تنظيمـات إداريـة وتعليمية ودينية وخدمية تُسـهّل علـى زُوَّار هذا المـكان الطاهـر أداء نُسـكهم، وتنظِّـم الجوانب الخدمية فيه، وتُعظّم حُرُماته وتُعلي شأنه.

وإنّ المُطّلـع علـى تاريـخ عمارة المسـجد الحـرام والتنظيمـات الإدارية والخدمية فيه يُدرك حجم التطوُّر الهائل الذي حظـي به هذا المكان المقدَّس في عهد الدَّولة السـعودية الزَّاهرة، إذ أنشأت لأجله الرِّئاسـة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسـجد النبوي، وضخّت الأمـوال الضخمة لتعظيـم مكانته، ووظّفت آلاف العاملين الذين يتشـرَّفون بخدمته والعمل فيه، ما بين أئمة ومؤذِّنين وخُطباء ومدرِّسـين، إلى جانب المنظِّمين والقائميـن على النظافة، والسَّـاهرين على أمنه ودقّة العمل وانتظامه فيه.

ويتناول هذا الكتاب الذي نقدِّم له الوظائف في المسـجد الحرام في عهد دولة المماليك، مبتدئاً بالوظائف الدِّينية مثل: الإمام والمؤذِّن والخطيب والقاضي والفقيه والسَّادن والمحتسب، موضحاً شروط كلِّ وظيفة. كما تطرَّق إلى الحديث عن الوظائف الإدارية في المسـجد الحرام في ذلك العهد مثل شيخ الحرم وناظر العمارة، إلى جانب وظيفة المُطوِّف المستحدثة في ذلك العصر، موضحاً الرَّواتب والهبـات التي يحصل عليها أولئك الموظفون، كما تنـاول الكتاب أيضاً الوظائف التعليمية في الحرم المكِّي مثـل: المدرِّس والمؤدِّب والمقرئ، معرِّفاً بشـروطها، مشـيراً أيضاً إلى الوظائف الخدميـة فيه مثل: السـقاية والوقّاد والفـرَّاش والبوَّاب وخُدَّام الحرم وأغواتـه، مختتماً بالحديث عن تأثير المسـجد الحرام في المجتمع المكي في وجود أُسَر فيه تسمَّت ببعض أسماء وظائفه.

وفي إطار سـعي مركز تاريخ مكة المكرمة إلى توثيق الدِّراسات التاريخية المتّصلة بالمسـجد الحرام رأى طباعة هذا الكتاب ونشـره؛ لكونه يوثق جزءاً من

تاريخ ذلك المسجد في عهد دولة المماليك، ويشير إلى التنظيمات الوظيفية فيه، التي تعكس جانباً من اهتمام الحكومات والدُّول الإسلامية المتعاقبة بهذا المكان الطاهر المبارك.

مركز تاريخ مكة المكرمة

المحتويات

مقدمة (*)

الحمد لله الذي أكرمنا بعقيدة الإيمان، وهدانا إلى شريعة الإسلام؛ ليوصلنا إلى سبل السلام، وأبان لنا المعالم والحدود شارات على طريق الأمان، وأصلّي وأسلّم على نبينا محمد الهادي للبشرية، ومنقذ الإنسانية من الضلالة، اللهم صلّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين أما بعد:

فللمسجد الحرام مكانة عظيمة في نفوس المسلمين، نابعة من كونه قبلة المسلمين، وأول بيت وضع للناس لعبادة الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ (آل عمران:٩٦).

كما أنه يمثل مركزًا مهمًا من مراكز الحياة العلمية، وجامعة دينية ضخمة تستقطب المسلمين من أنحاء المعمورة، حيث الكعبة المشرفة التي يفد إليها المسلمون على مدار العام لأداء فريضتهم التي فرضها الله عليهم.

وقد خصَّ الله سبحانه وتعالى هذه البقعة الطاهرة بفضائل كثيرة، تناسب أهمية هذه البقعة ومكانتها العظيمة، حيث إن أجر الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة فيما سواه، وأوجب الله فيها الأمن، وظلَّل أهلها بالأمان

(*) أصل هذا الكتاب رسالة علمية نالت بها الباحثة درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة أم القرى بمكة المكرمة عام ١٤٢٦هـ بإشراف د. فواز بن علي بن جنيدب الدهاس.

والسلام إذ لا قتال فيها، إضافة إلى ذكرها في كثيرٍ من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشـريفة، وذكر مكانتها وأهميتها وتفضيلها على غيرها، وما إلى ذلك من الفضائل الكثيرة التي فصَّلها الفقهاء في كتبهم.

ومن أجل ذلك كانت مكـة المكرمة بصفة عامة والمسـجد الحرام بصفة خاصة، من أهـم المراكز التي اهتم بها المسـلمون اهتمامًا شـديدًا، ووجهوا جل عنايتهم ورعايتهم إليها، فقد اهتم حكام الدول الإسـلامية وأمراؤهم وسلاطينهم منـذ القـدم بأمرها، ويتضـح ذلك جليًـا فيمـا عملته الدول الإسـلامية كافـةً التي تعاقبت على حكمها من إصلاح وترميم وتعيين الموظفين وغير ذلك.

ومما لا شـك فيه أن الاهتمام بالمسـجد الحرام والكعبة المشرفة وظهور الوظائـف بتخصصات شـتى لـم يكن وليـد الحقبـة التاريخيـة التي نحـن بصدد دراسـتها، ولـم ينشـأ بنشـوء الدولة الإسـلاميـة، بل هو أقدم من ذلك بكثير؛ فقد وجدت بعض الوظائف – إن صحت الروايات – قبل أن يشع نور الإسلام، فنرى أنَّ هناك كثيراً من الوظائف القديمة في المسجد الحرام قدم الكعبة نفسها.

ومما يؤيد هذا القول ويقويـه، ما ذكرته كثيرٌ من المصـادر التاريخية التي أظهرت مـدى اهتمام القبائـل التي حكمت مكة قبل الإسـلام بالكعبة المشـرفة، وبلـغ هذا الاهتمام أوج عظمته واتسـاعه عندما تولى «قصي» أمـر مكة المكرمة، ووزع الوظائف بين أولاده، واستمر ذلك إلى أن جاء الإسلام فأقرها.

وسـيركز هذا الكتاب في الوظائف الدينية والإدارية في المسـجد الحرام في عهد دولة المماليك، وسيتطرق إلى الوظائف التعليمية، ويعرج على الوظائف التـي اختـصّ أصحابها بخدمة المسـجد الحـرام والاهتمام بشـؤونه مـن تنظيف وحراسـه وغير ذلك، وهي ما أطلق عليها الوظائف الخدمية، وسيجري الحديث عن البدع التي ظهرت في الحرم المكي حيث ارتبـط بعضها ارتباطًا وثيقًا ببعض الوظائف.

والجدير بالذكر أن هذه الوظائف في العهد المملوكي كانت موضع تنافس شديد داخل المجتمع المكي لما لمتوليها من منزلة ومكانة مرموقة.

ولا شك أن تكليف عدد كبير من الموظفين لخدمة المسجد الحرام وتنوع مهماتهم، واختيارهم من الأكفاء المؤهلين، وإغداق الأموال عليهم نظير أعمالهم، ما هو إلا ظاهرة طبيعية من ظواهر الاهتمام الخاص الذي أولته جميع الحكومات التي تعاقبت على حكم الحجاز للمسجد الحرام؛ لمكانته الدينية في قلوب المسلمين قاطبة، كما أن كثرة الموظفين في المسجد الحرام أدت إلى الإسهام في النهوض بالحركة الاقتصادية، نتيجة إدرار الرزق عليهم بشكل مستمر من قبل حكام البلاد الإسلامية الأخرى وأمرائهم، وما يبعثون به من أموال وصدقات وهدايا، يكون لموظفي المسجد الحرام نصيبٌ وافرٌ منها.

وهناك عدد كبير من المخطوطات والمصادر والمراجع الحديثة، إضافة إلى الرسائل والدوريات العلمية التي رجعت إليها وخدمت البحث بشكل كبير، وجميعها مثبتة في حواشي الرسالة وثبت المصادر والمراجع.

وختامًا.. أتضرع إلى الله سبحانه وتعالى بالشكر والثناء، فله الحمد أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا على ما جاد به وأنعم من إكمال هذا الكتاب.

ثم الشكر لكل من مد لي يد العون والمساعدة، وكان سببًا في اطلاعي على كل ما هو جديد ونافع في كتابي، راجية من المولى ﷻ أن أكون قد وفقت في تقديم ما يليق بهذا البيت الطاهر، وإيفاء الموضوع حقه، وأرجو أن أكون قد أسهمت في تقديم خدمة متواضعة للباحثين والمهتمين بتاريخ مكة المكرمة.

د. فاطمة بنت محمد مباركي

التمهيد

وظائف الحرم المكي
قبيل زمن الدراسة

الوظيفة لغة:

وجمعها الوظائف والوُظُف، ووظَّف الشيء على نفسه ووظَّفه توظيفًا ألزمها إياه، وقد وظفت له توظيفًا على الصبي كل يوم حفظ آيات من كتاب الله ﷻ[1].

في الاصطلاح:

الوظيفة من كل شيء ما يُقدَّر له في كل يوم من رزق أو طعام أو علف أو شراب، ووظفت عليه العمل توظيفًا قدرته[2].

لا شك أن المسجد الحرام قد تفرد بقدسية ومكانة لم تنلها ولم تحظ بها بقعة على وجه الأرض، وهو شرف عظيم وتقدير كبير اكتسبه من وجود الكعبة المشرفة في قلبه، ولتلك المكانة المرموقة وذاك التقدير الكبير اهتم الخلفاء والسلاطين منذ القدم بأمر المسجد الحرام، والعناية بشؤونه كافةً من عمارة وترميم. وتعيين الموظفين الأكفاء به، والاهتمام بوظائف المسجد الحرام، وتعيين الموظفين به أمر قديم سبق العصر المملوكي بمدد طويلة.

---

(١) ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د. ت، ٩/ ٣٥٨.

(٢) المصدر السابق، ٩/ ٣٥٨؛ إبراهيم: رجب عبدالجواد، معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير، ط١، دار الآفاق العربية، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، ص٣٠٤.

والجدير بالذكر أن الوظائف في الحرم المكي قد قُسِّمَتْ عدة أقسام؛ فهناك الوظائف الدينية والوظائف الإدارية والوظائف التعليمية، إضافة إلى الوظائف الخدمية، وقد اشتمل كل قسم من هذه الأقسام على عدد من الوظائف. وقد اختلف عدد هذه الوظائف في كل قسم من هذه الأقسام، ولم يكن ثابتًا هذا العدد، فنرى أنه مع مرور العصور قد تضاف وظيفة معينة إلى قسم معين من هذه الأقسام، كما قد تحذف وظيفة من قسم آخر. أضف إلى ذلك التطورات التي قد تطرأ على بعض هذه الوظائف من عصر إلى آخر. وهذا ما سنوضحه بشيء من التفصيل في أثناء الحديث عن هذه الوظائف حيث سنتناول كل قسم من هذه الأقسام على حدة، مبتدئين بالقسم الأول؛ وهو الوظائف الدينية:

احتوت الوظائف الدينية على عدد من الوظائف، فهناك الإمام والمؤذن والخطيب والقاضي والفقيه وسادن الكعبة، إضافة إلى المحتسب، ونرى أن جميع هذه الوظائف كانت في العصر الأيوبي واستمرت إلى ما بعده، بل كان المسلمون يصلون خلف إمام واحد، يصلي بهم خلف مقام إبراهيم عليه السلام، ولم يأتِ العصر الأيوبي إلا وللحرم المكي أربعة أئمة سنّيّين وإمام خامس زيدي(١)، وكان هذا نتيجة طبيعية للوضع في مكة آنذاك، حيث نرى أن الأيوبيين في تلك الحقبة قد تدخلوا تدخلًا مباشرًا في كثير من شؤون مكة، فأدى إلى خضوعها في بعض الأحيان للأيوبيين خضوعًا مباشرًا(٢).

---

(١) تُعَدُّ الزيدية أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة والجماعة حيث يتصف مذهبهم بالابتعاد عن غلو الاثني عشرية وباقي فرق الشيعة، كما أن نسبتها ترجع إلى مؤسسها زيد بن علي زين العابدين الذي كان يرى صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم جميعًا، ولم يقل أحد منهم بتكفير أحد من الصحابة، ومن مذهبهم جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل. الجهني: مانع حماد، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، ط٣، دار الندوة العالمية، ١٤١٨هـ، ١/ ٨١.

(٢) حسين: جميل حرب محمود، الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ط١، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٦٣.

هذا وقد أورد حرب في كتابه الحجاز واليمن في العصر الأيوبي[(١)]، أن الإمامة في الحرم المكي كانت لأهل السنة على المذهب الشافعي، ولم يحدث أي تعصب أو صراع مذهبي في مكة طوال العصر الأيوبي، بل ساد التسامح الديني والمذهبي جميع ربوعها.

وهذا لا أتفق معه فيه، فمن غير المعقول أن يكون هناك أربعة أئمة سنيين وإمام خامس زيدي، ولا يحدث أي صراع أو تعصب مذهبي من قبل أتباع كل مذهب، وإلا لما صلّى كلٌّ خلف إمامه، وهذا ما يبدو واضحًا وجليًا من خلال رحلة ابن جبير حيث ذكر أن كل طائفة كانت تصلي خلف إمامها بالترتيب، فأول من يبدأ بالصلاة الإمام الشافعي وقد قُدِّم عليهم؛ لأنه المقدم من الإمام العباسي، أما في صلاة المغرب فنرى أن جميع الأئمة الأربعة يصلونها في وقت واحد وذلك لضيق الوقت بين صلاة المغرب والعشاء[(٢)].

إذن يتضح لنا مما سبق أن هناك تعصباً مذهبياً من أتباع كل مذهب، لأنه لو لم يكن هناك تعصب أو صراع لما صلّى جميع الأئمة الأربعة في وقت واحد وصلّى خلف كل إمام أتباع مذهبه. ولعلّ ما قصده حرب أنه لم يكن ذاك التعصب الشديد والصراع المذهبي المتشدد الذي ظهر جليًا في العصر المملوكي حيث وصل التعصب المذهبي إلى أشدّه، فنرى أن المالكي يرفض أن يصلي خلف الحنبلي، ويرفض الشافعي الصلاة خلف الحنفي وهكذا[(٣)].

هذا، وقد كان القضاء في العصر الأيوبي يتبع المذهب الشافعي، إلا

---

(١) حسين: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص١٦٥.

(٢) ابن جبير: محمد بن أحمد، رحلة ابن جبير، دار بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٨٠، ولمزيد من التفصيل انظر ص١٨.

(٣) انظر الفصل الأول، المبحث الأول، الإمام، ص٣٣.

أنه استحدث أربعة قضاة في العصر المملوكي، وبالتحديد في عام ٦٦٣هـ-١٢٦٤م، فأصبح هناك قضاة على المذاهب الأربعة؛ الشافعي والحنفي والمالكي والحنبلي، ويرأسهم القاضي الشافعي لكون الدولة المملوكية تتبع المذهب الشافعي[١].

أما الوظائف الدينية الأخرى فنرى أنها بقيت كما هي، على أساس أن العصر المملوكي امتداد للعصر الأيوبي، إلا أننا نرى أنه قد اعترى بعضها شيء من الفساد، ولعل ذلك لم يحدث إلا في الحقبة التي ضعفت فيها الدولة المملوكية حيث أصبح بعض الموظفين يلي المنصب نظير رشوة يدفعها للحصول عليه[٢]. كما أنهم لم يتقيدوا بالشروط التي وضعها الفقهاء والتي أُعدت شروطًا دقيقة وأساسية لمن يتولى المنصب، وذلك لأهمية هذه الوظائف، وأصبح بعض الأشخاص يلي المنصب لمجرد أنه نديم السلطان أو مضحكه[٣].

أما الوظائف الإدارية فقد شملت شيخ الحرم أو ناظره، وناظر العمارة، والمطوف، ونرى أن وظيفة ناظر الحرم كان يُطلق على متوليها شيخ الحرم، ولم يستبدل هذا اللفظ إلا في العصر الفاطمي فأصبح يطلق عليه ناظر الحرم، وامتدّ ذلك إلى العصر الأيوبي، إلا أنها كانت ضمن نطاق ضيق ومحدود، ولم تنتشر هذه الوظيفة وتتطور بشكل ملحوظ إلا في العصر المملوكي، حيث إنها تعددت وانتشرت واتسع نطاقها[٤].

أما وظيفة ناظر العمارة، وهي من الوظائف المهمة في الحرم المكي،

---

(١) القلقشندي: أبو العباس أحمد، صبح الأعشى في صناعة الإنشا، القاهرة، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م، ٤/ ٣٥؛ ولمزيد من التفصيل انظر الفصل الأول، المبحث الرابع، القاضي، ص٨٩.

(٢) انظر الفصل الأول، المبحث الثاني، المؤذن، ص٥٥.

(٣) انظر الفصل الثاني، المبحث الأول، شيخ الحرم أو ناظره، ص ١٥٩.

(٤) انظر الفصل الثاني، المبحث الأول، شيخ الحرم أو ناظره، ص ١٦٠.

وذلك لما يقوم به صاحبها من عمارة أو ترميم أو تجديد، فنرى أن متوليها كان يُعيَّن برتبة أمير، واستمر الوضع على ما هو عليه إلى العصر المملوكي، إلا أن الوضع قد تغير فيما بعد وأصبحت من ضمن الوظائف التي لا يشترط في متوليها أن يكون أميرًا، ولعل ذلك كان في أواخر العهد المملوكي.

أما وظيفة المطوف، فنرى أن هذه الوظيفة لم تكن في العصر الأيوبي وإنما استحدثت حسبما ذكرت النصوص التاريخية في عهد الجراكسة، وربما يعود السبب في ذلك إلى جهل بعض الحكام باللغة العربية وميل بعضهم الآخر إلى الأبهة، ومن ثم الاعتماد على من يخدمهم ويُبيِّن لهم مشاعر الحج والعمرة[1].

وهكذا نستطيع القول بأن الوظائف الإدارية في العصر الأيوبي كانت وظيفتين فقط وهما ناظر الحرم وناظر العمارة، وقد أضيفت وظيفة المطوف إلى الوظائف الإدارية في العصر المملوكي، وتعد هذه الخطوة من أهم الخطوات التي خطتها الوظائف في الحرم المكي، بل تعد نقطة مهمة وإيجابية، وذلك لأهمية هذه الوظيفة وحاجة الناس إليها وخصوصاً لمن لا يجيد اللغة العربية، فيكون المطوف هو المرشد والدال على مناسك الحج وواجبات العمرة.

أما الوظائف التعليمية، وهي المدرس والمؤدب والمقرئ، فقد ظلت كما هي دون أن يطرأ عليها أي تغيير، فنرى أن كل موظف من هؤلاء الموظفين كان يقوم بعمله على أكمل وجه، وهو تدريس طلبة العلم في المسجد الحرام سواء كانوا كبارًا أو صغارًا، حيث يُعَلَّمُ الكبار في المسجد الحرام، كما يُعَلَّمُ الصغار عادة في المسجد الحرام، ولكن في أماكن خاصة بهم يطلق عليها الكتاتيب، وقد عَلّمَ كل من المدرس والمؤدب والمقرئ طلبة العلم وأقرأهم منذ العصور

(١) انظر الفصل الثاني، المبحث الثالث، المطوف، ص ١٨٧.

الإسلامية الأولى، حيث إن هذه الوظائف قد وجدت منذ فجر الإسلام، وذلك لحث الإسلام المسلمين على طلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة، بل لقد فضل المتعلم على مَنْ سواه حيث قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ﴾(٢).

أما الوظائف الخدمية فقد شملت السقاية والوقاد والفراش والبواب وخدام الحرم وأغواته، ونرى أن هذه الوظائف قد وجدت منذ القدم، فوظيفة السقاية من الوظائف القديمة، التي خصها قُصيّ لبعض أولاده، واستمرت مع الخلفاء العباسيين حتى بعد سقوط بغداد وانتقال الخلافة العباسية إلى مصر، وبعد انتقال الخلافة إلى الأسرة العباسية انشغل أفرادها عن أمر السقاية، فعهدوا بها إلى أشخاص يقومون بالعمل نيابة عنهم، وهكذا أصبحت هذه الوظيفة من ضمن الوظائف الدائمة التي يُعين فيها موظفون يقومون بخدمة رواد المسجد الحرام طوال العام بعد أن كانت موسمية في أيام الحج، ولم تشر المصادر التاريخية التي اطلعت عليها - على حد علمي- إلى أي تطورات أو تغييرات قد طرأت على وظيفتيْ الوقادة والفراشة بالمسجد الحرام.

أما البوابة في المسجد الحرام، فنجد أن بَّوابي المسجد الحرام كانوا منذ القدم من أعيان مكة وعلمائها، كالقضاة والفقهاء، ولا شك أن هذا الوضع قد استمر إلى العصر الأيوبي، وامتدّ إلى العصر المملوكي، ولم يخصص بوابون مختصون ببوابة المسجد الحرام إلا في عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م، حيث عُزل الفقهاء والقضاة، وعُين بوابون من العوام الجهلة(٣).

---

(١) سورة الزمر: الآية ٩.

(٢) سورة المجادلة: الآية ١١.

(٣) انظر الفصل الرابع، المبحث الرابع، البواب، ص ٢٩٥.

أما وظيفة خدام الحرم وأغواته، فكانت من ضمن الوظائف التي استحدثت في العصر الأيوبي، حيث كان القائمون على خدمة الكعبة الشريفة قبل العصر الأيوبي أمراء مكة وولاتها، وكانوا هم المسؤولين عن كل قصور يحصل من قبل خدم المسجد الحرام أمام الخلفاء والملوك. وأول من استخدمهم لهذا الغرض هو صلاح الدين الأيوبي(١) في أيام ولايته، وقد أوقف صلاح الدين الذي وضع قاعدة الخدام في الحرم النبوي - عليهم الأوقاف، وكان الموقوف عليهم نحو عشرين خادمًا رسميًا بمكة المكرمة، ثم من بعدهم خدام الحرم النبوي(٢).

ويبدو أن مراسم تعيين موظفي المسجد الحرام وعزلهم في العصر الأيوبي، كما هي في مدة البحث -العصر المملوكي- فقد كان يُعيَّن الموظف من قبل السلطان، ولا يستطيع أن يباشر عمله إلا بعد قراءة قرار تعيينه في المسجد الحرام.

وقد حظي موظفو المسجد الحرام باهتمام بالغ ورعاية خاصة من قبل الأمراء والسلاطين والملوك من بني أيوب، فقد حرص هؤلاء السلاطين منذ العصور الإسلامية الأولى على إرسال الأموال الوفيرة إلى سكان الحرمين الشريفين، وقد اختلف هؤلاء السلاطين والأمراء في تخصيص هذه الأموال؛ فبعضهم خصَّصها لتُصرف على الأمراء والوزراء، وبعضهم خصصها لتصرف على فقراء الحرم والمحتاجين، في حين خصَّصها بعضهم لتُنفق على أصحاب المناصب في المسجد الحرام، وغيرهم خصَّصها لتُصرف على العلماء وطلبة

---

(١) سلطان الدولة الأيوبية، ولد عام ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م، بقلعة تكريت، كان والده أيوب بن شاذى واليًا بها، توفي عام ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م. بن شداد: بهاء الدين، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشيال، ط١، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص٣١، ٣٦٣.

(٢) باقاسي: عائشة عبدالله، بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، دار مكة، ١٩٨٠م، ص٨١.

العلم من بــاب مد يد العون لهؤلاء الطلبة وتشـجيعهم على تلقـي العلم وقطف ثمـاره والتحلـي بجواهـره الثمينـة، ففـي عـام ٦١١هــ/ ١٢١٤م، حـج الملـك عيسـى بن الملـك العـادل الأيوبـي[١]، وتصدق فـي الحرميـن بمال عظيـم، نال العلماء وطلبة العلم منـه نصيبًا كبيرًا[٢]. وفي عام ٦٣٥هــ/ ١٢٣٧م، قدم الملك المنصور نـور الدين عمر بـن علي بن رسـول[٣] إلى مكـة معتمرًا، وتصـدق فيها بأموال جزيلة في محاولة منه لخطب ود أشـراف مكـة والمجاورين والعلماء بها وعامة أهل مكة[٤].

ولا يُعد ذلك مسـتغربًا على سـلاطين وملوك بني أيـوب وغيرهم، وذلك

---

(١) هـو عيسـى (الملك المعظـم) ابن محمـد (الملـك العـادل) أبي بكر بـن أيوب، شـرف الدين الأيوبي: سـلطان الشـام مـن علماء الملـوك، كان له مـا بين بلاد حمـص والعريـش، كان وافر الحرمـة فارسًـا شـجاعًا، كان عالمًـا بفقـه الحنفيـة والعربيـة. جعل لـكل من يحفـظ المفصل للزمخشـري مئة دينـار وخلعه، فحفظـه جماعة. لــه كتـاب فـي «العروض» و«ديوان شـعر». خلـف آثارًا منهـا «المدرسـة المعظمية» فـي صالحية دمشـق، مولـده بالقاهرة ومنشـأه ووفاته بدمشـق. توفي عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م. الزركلي: خير الدين، الأعلام، ط٦، دار العلم للملايين – بيروت، ١٩٨٤م، ٥/ ١٠٧–١٠٨.

(٢) الفاسـي: تقي الدين محمد بن أحمد، شـفاء الغرام بأخبار البلد الحـرام، تحقيق عمر تدمري، ط١، دار الكتاب العربي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ٢/ ٣٧٣.

(٣) هو عمر بن علي بن رسـول بن هارون بن أبي الفتح الغسـاني من ذرية جبلة بـن الأيهم الملك المنصور، نـور الدين أبو الفتح، صاحـب اليمن ومكة، ولي الحصون الوصابيـة وأقام فيها مدة ثم ولاه مكة المشـرفة، اسـتنابه الملك المسـعود علـى بلاد اليمـن في عام ٦٢٠هــ/ ١٢٢٣م وفي عـام ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م توجه إلى مكـة معتمرًا وتصدق فيها بأمـوال جزيلة، مما صنعه من المآثر في مكة: أنه أرسـل بقناديل من الذهـب والفضة للكعبة في سـنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م على يد ابن النصيري وعلق القناديل فيها، وعمّر بها المدرسـة التي له بالجانب الغربي من المسـجد الحرام، توفي مقتولًا عام ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م بقصر الجند. الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد عبدالقـادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ٥/ ٣٦٠–٣٦٥.

(٤) المقريـزي: أحمد بـن علي، السـلوك لمعرفـة دول الملـوك، تحقيق محمـد زيـادة، ط٢، دار الكتب، ١٩٧٠م، ج١ مج١/ ٢٢٥.

لما اشتهر عنهم من حبهم للعلم والعلماء، فكان صلاح الدين يجمع حوله رجال العلم ويحضر مجالسهم ويستمع إليهم ويشاركهم في أبحاثهم[١].

ومـن الغريب في العصـر الأيوبي أن التجديـد أو الترميـم والإصلاح، أو النفقة علـى الحرم المكـي كان ممنوعًا بأمر أميـر مكة، لذا نرى كثيـراً من فاعلي الخيـر من الأثرياء لا يسـتطيعون القيام بـأي ترميم أو تجديد، بـل نجدهم يقفون عاجزيـن ومكتوفي الأيدي أمام هذا القرار. ولو سُـمح بذلـك لأنفق محبو الخير من الأغنياء الشـيء الكثير من أموالهم عليــه[٢]. أو كما قال ابـن جبير في رحلته «لجعـل الراغبـون فـي نفقات البر مـن أهل الجـدة حيطانه عسـجدًا وترابه عنبرا لكنهم لا يجدون السبيل إلى ذلك»[٣].

وكانـت لا تكفـى موافقـة السـلطان الأيوبـي علـى عمـل أي ترميـم فـي المسجد الحرام، بل لا بد وأن تدعم موافقته بموافقة شريف مكة، إضافة إلى دفع قدرٍ لا بـأس به من الأموال، ربما يسـاوي ما سـينفقه على ذلك العمـل، وهذا ما حدا ببعضهـم إلى التحايل علـى الأمراء، وخير ما نستشـهد به في هـذا المقام ما فعلـه أحد دهاة العجم عندمـا قـدم للحج في مدة إمرة الأمير مكثر[٤] فرأى تنـور زمزم وقبته على شـكل غيـر مرضٍ، فذهـب للأمير مكثـر، وطلب منـه أن يجدد التنـور وقبته، حيث قال له: «أريد أن أتأنق في بناء تنـور زمزم وطيه وتجديد قبته،

---

(١) السبكي: تاج الدين عبدالوهاب، طبقات الشـافعية الكبرى، ط٢، دار المعرفة، بيروت، د. ت، ٤/ ٣٣٠.

(٢) حسين: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص١٨٩.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص٩٩.

(٤) هو مكثر بن عيسى بن فليته بن قاسم بن محمد بن جعفر الحسين المكي، ولي مكة سنين، كـان ابتـداء ولايته على مكة في عام ٥٧١هــ/ ١١٧٥م، توفى عام ٦٠٠هـ/ ١٢٠٣م، الفاسـي: تقي الديـن محمد بن أحمد، العقـد الثمين في تاريخ البلـد الأمين، تحقيق فؤاد السـيد، ١٣٨٤هـ- ١٩٦٥م، ٧/ ٢٧٤-٢٧٩.

وأبلغ في ذلك الغاية الممكنة، وأنفق من صميم مالي، ولك عليّ في ذلك شرط أبلغ بالتزامه لك غرض المقصود، وهو أن تجعل ثقة من قبلك يقيد مبلغ النفقة في ذلك، فإذا استوفى البناء التمام وانتهت النفقة منتهاها، وتحصلت محصلة بذلت لك مثلها جزاء على إباحتك لي ذلك»[(١)].

ففرح الأمير مكثر بذلك طمعًا فيما سيحصل عليه، وشرع الرجل في تنفيذ المشروع وتأنق فيه قدر استطاعته، والمحاسب يقيد كل ما ينفق من صغيره وكبيرة، والأمير مكثر يطلع على ذلك أولًا بأول. وينتظر بفارغ الصبر وقت انتهاء هذا المشروع؛ ليقبض ما يساوي تلك النفقات، وعندما أوشكت الأعمال على نهايتها، ولم يبقَ سوى أن يُعطى الأمير مكثر آلاف الدنانير التي وعده الرجل إياها، مع توقعه أن يُعطى هدية عظيمة لتفضله بالموافقة على القيام بذلك العمل، وفي الليلة التي يُفترض أن يذهب فيها الرجل للأميرِ ركب واختفى ولم يُعثر له على أثر. فكاد يجن جنون الأمير وندم ندمًا كثيرًا؛ لأنه لم يضعه تحت الحيطة[(٢)].

ولم تشر المصادر التاريخية - على حد علمي - إلى السبب الرئيس لهذا المنع، حيث لا يوجد سبب مقنع يجعل الأمراء يقومون بمنع فاعلي الخير من فعل الترميمات والتجديدات في المسجد الحرام، وربما يكون ذلك بسبب تعليمات من قبل السلطان تمنع ذلك، أو لعل السبب في ذلك رغبة السلطة الأيوبية في الانضباط والتنظيم، وحتى لا يأتي أي شخص ويعمل في الحرم المكي إصلاحات غير متقنة، فلو فتحت المجال لأي متبرع لفعل بالحرم ما يريد من تصاميم وألوان، بل قد يكون ذا مذهب مخالف فيضع إشارات لمذهبه في تصميمه للمسجد وعمارته، ويكون هناك ازدواجية في التصاميم. وبذلك يكون

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٩٩؛ حسين: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص١٨٩-١٩٠.
(٢) حسين: الحجاز واليمن في العصر الأيوبي، ص١٩٠.

ما فعلته الدولـة الأيوبية خيرًا للمسـجد الحرام كما هو دليل واضـح على رغبتها في أن يكون العمل متقنًا تضمن فيه سلامة الموجودين داخل المسجد الحرام.

أما الأعياد والمواسم الدينية والاحتفالات العائلية في الحجاز في العصر الأيوبـي، فقد كـان لأهل مكـة احتفالات دينيـة متعددة في مختلف المناسـبات، فنرى أن ليلة النصف من شـعبان، وهي من الليالي المعظمة عندهم؛ يبادرون إلى أعمال البر، كما يجتمعون في المسجد الحرام في هذه الليلة، ويقومون بالطواف والصلاة(١)، وقد اسـتمرت هذه العادة حتى العصر المملوكي، حيث تحدث عنها ابن بطوطة في رحلته(٢).

وإذا أهلَّ هلال شـهر رمضان المبـارك، فإن الاحتفال يكـون عظيمًا بقدر عظمة هذا الشهر، فيبدأ الاحتفال في المسـجد الحرام من تجديد الحصر وتكثير الشـمع والمشـاعل حتى يتلألأ الحرم نـورًا وضيـاءً، وتتفرق الأئمـة لأداء صلاة التراويح(٣).

كما يحتفـل أهل مكة بأولادهـم عند تمـام حفظهم القـرآن، وتُقام لأجل ذلك الولائم من قبل أهل الصبي(٤).

---

(١) والاحتفال بليلة النصف من شـعبان من ا لبدع المحدثة في الدين، وقد ناقشـناها في موضعها، انظر الفصل الخامس، المبحث الرابع، جهود العلماء فـي التأثير في المجتمع المكي ومحاربة البدع، ص ٤٠٧.

(٢) ابن بطوطة: محمد بن عبدالله، رحلة ابن بطوطة، تحقيق على الكناني، ط٤، مؤسسـة الرسالة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ١/ ١٨٣.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٧-١٢٨.

(٤) ابن فهد: عمر بـن فهد، إتحاف الـورى بأخبار أم القـرى، تحقيق عبدالكريم بـاز، ط١، جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ٤/ ٦١٨-٦١٩؛ وتعد هذه العادة من البدع المحدثـة في الدين أيضًا، انظر الفصـل الخامـس، المبحث الرابع، جهـود العلماء في التأثير فـي المجتمع المكي ومحاربة البدع، ص٤٠٧.

وكان لمكة المكرمة دور قيادي في الحفاظ على تراث العرب والمسلمين في العقيدة الإسلامية وأيضاً كان لها دور قيادي في العلم والثقافة منذ فجر الإسلام، فقد إثرت حلقات العلم في المسجد الحرام تأثيراً بارزاً في الحياة العلمية والثقافية في بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، وقد أشار ابن جبير إلى حلقات العلم في المسجد الحرام في مكة المكرمة حينما زارها في عصر صلاح الدين الأيوبي[١].

وقد ازدحم المسجد الحرام برجال الحديث والقرَّاء في العصر الأيوبي، كما غصَّ بكثيرٍ من طلبة العلم الذين جاؤوا من شتى بقاع الأرض؛ ليغرفوا من معين هذا العلم الذي لا ينضب، في ظل وجود كثيرٍ من كبار العلماء الذين كانت لهم حلقات علم يلقون فيها شتى العلوم والمعارف، ولعل السبب الرئيس لاتجاه هؤلاء العلماء إلى مكة المكرمة دون سواها هو مكانتها الكبرى وقدسيتها التي اكتسبتها من وجود المسجد الحرام، ناهيك عن الاستقرار السياسي وبعدها عن الفتن السياسية[٢].

وكانت حلقات العلم تُعقد يوميًا من قبل الشيخ في المسجد الحرام، وتضم حلقة العلم طلبة من جميع الطبقات بلا تفرقة، وبكل تواضع، وكان كل عالم يلقي على طلبته العلوم التي تبحَّر فيها، حيث لم تسِر الدراسة وفق منهج محدد أو مناهج مقررة[٣].

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٧١-٧٢.

(٢) سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق مسفر الغامدي، جامعة أم القرى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ١/ ٩٦، باقاسي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص١٠١-١٠٢.

(٣) عبدالله: عبدالرحمن صالح، تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ط١، دار الفكر، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م، ص٤١.

وعادة لا يحصل طلاب العلـم على الإجازات العلمية من أسـاتذتهم إلا بعـد إتقانهم لما درسـوه وتمكنهم منـه، حينئذٍ يمنح الأسـتاذ طالبه إجـازة علمية تؤهله للتدريس[١].

ولـم تقتصر فائدة الدروس الملقاه في المسجد الحرام على المكيين فقط، بل نهل من هذه المدرسة العلمية الشـاملة، وذاق حلاوة علومها كثير من العلماء الذين وفدوا إلى مكة المكرمة لتلقي كثيرٍ من العلوم والمعارف من جميع أصقاع العالم، حيث إن المسجد الحرام يعدُّ جامعة إسلامية شاملة[٢].

هـذا، وقـد أدت الكتاتيب أثـراً علميًا بـارزًا في بـلاد الحجاز فـي العصر الأيوبـي، فكانت جنبًا إلـى جنب مع حلقات العلم في المسـجد الحرام؛ لتسـهم في نشـر العلم وكثيرٍ من المعارف، وقد اتخذ الكُتَّاب المسجد الحرام مقرًا لهم، إذ إن بعض معلمي الأطفال كانوا يؤدون رسالتهم العلمية في المسجد الحرام[٣].

وهكـذا يتضح لنـا مدى ازدهـار الحركة العلميـة في العهـد الأيوبي، فقد شـهدت بلاد الحجـاز عامة ومكـة المكرمـة خاصة في العصـر الأيوبـي ازدهارًا علميًا وثقافـيًا، كما شهد موظفو المسجد الحرام اهتمامًا خاصًا من قبل سلاطين وأمراء بني أيوب، واقتفى الممـاليك أثر بني أيوب في الاهتمام بموظفي المسجد الحرام وواصلـوا أعطياتهم وهباتهـم لأهالي مكة المكرمـة وأصحاب المناصب خاصة، كما واصلوا الاهتمام بالحركة العلمية والثقافية، فأدى ذلك إلى النهوض بها وازدهارها.

---

(١) الشـامخ: محمد عبدالرحمن، التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثماني، ط٢، دار العلـوم، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص١٨-١٩.

(٢) المرجع السابق، ص١٠-١٤.

(٣) عبدالله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص٥٥.

الفصل الأول

الوظائف الدينية

المبحث الأول: الإمام.

المبحث الثاني: المؤذن.

المبحث الثالث: الخطيب.

المبحث الرابع: القاضي.

المبحث الخامس: الفقيه.

المبحث السادس: سادن الكعبة.

المبحث السابع: المحتسب.

المبحث الأول

الإمام

للمسجد الحرام مكانة كبيرة في نفوس المسلمين، تنبع هذه المكانة من كونه بيت الله الحرام ومهبط الوحي. ومن هنا نبعت مكانته وقدسيته، لأن المسجد الحرام هو خير البقاع وأشرفها لدينا؛ كان لزامًا علينا الاهتمام به وبشؤونه وهذا ما جعل السلاطين والأمراء يحرصون أولًا وأخيرًا على الاهتمام به، وذلك من خلال الاهتمام بعمارته وتعيين الموظفين به والإشراف عليهم، بل واختيارهم من الأكفاء لشغل هذه الوظائف المهمة والتي تنبع أهميتها بلا شك من أهمية ومكانة البيت العتيق.

هذا، وتنقسم الوظائف في المسجد الحرام إلى وظائف دينية وإدارية وتعليمية وخدمية، وإن كانت كلها مهمة، إلا أننا نرى أن الوظيفة الدينية تعتلي هذه الوظائف.

الإمام لغة:

مأخوذ من أَمَّ القوم، أي: تقدمهم، والإمام ما ائتم به من رئيس وغيره[1].

اصطلاحًا:

من يؤم المسلمين للصلوات الخمس المكتوبات وصلاة العيدين

---

(١) ابن منظور: اللسان، ١/ ١٠٩.

والتراويح في شهر رمضان المبارك، وسمي الإمام إمامًا لأنه قدوة يتبعه المأمومون[١].

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

وتعدُّ الإمامة من الوظائف الدينية المهمة، والتي تأتي في المرتبة الأولى من الوظائف الدينية، وتنبع أهميتها من أهمية الصلاة فهي الركن الثاني من أركان الإسلام، حيث كان الرسول ﷺ يؤم المسلمين في جميع صلواتهم، وفي شهر رمضان المبارك وفي صلاة العيدين، لذلك كان لها مكانة كبيرة عند المسلمين، وهذا ما عزا للاهتمام بها من قبل الأمراء والملوك وحكام الأقاليم منذ العصور الأولى للإسلام[٣].

شروط الإمامة:

قد بين الرسول ﷺ الأحقَّ بالإمامة من المسلمين في كثير من الأحاديث النبوية، نذكر منها: عن قتيبة قال أنبأنا فضيل بن عياض عن الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أوس بن ضمعج عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله، فإن كانوا في القراءة سواء فأقدمهم في الهجرة، فإن كانوا في الهجرة سواء فأعلمهم بالسنة، فإن كانوا في السنة سواء فأقدمهم سنًا، ولا تؤمَّ الرّجلَ في سلطانه ولا تقعد على تكرمته إلا أن يأذن لك»[٤].

(١) ابن عباد: إسماعيل، المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن، تحقيق محمد حسن، ط١، عالم الكتب، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ٤٦٠-٤٦١؛ العز بن فهد: عبدالعزيز بن عمر، بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق عبدالرحمن أبو الخيور، جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ، ٣/ ٧٩٢.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٣) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٦٩.

(٤) النسائي: أبو عبدالرحمن بن شعيب، سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، د. ت، ١/ ٧٦؛ الحجاوي: شرف الدين أبو النجا، الروض المربع بشرح زاد المستقنع، ط٨، دار الكتب العلمية - بيروت، د. ت، ١/ ٨٠.

وقد ذكرت بعض المصادر أهم الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يؤم الناس ويعدونه قدوة لهم، وهي:

أن يكون متزوجًا، والأحسن تلاوة ودينًا وخلقًا وخلقة والأشرف نسبًا والأحسن صفة[١].

ولأهمية الإمامة ومكانتها الدينية، وضع الفقهاء شروطًا رئيسة ودقيقة لمن يتولى الإمامة، بل أصبح لزامًا على من يتولاها توافر هذه الشروط فيه، وهي:

١ - أن يكون رجلًا مسلمًا.

٢ - أن يكون رجلًا عادلًا.

٣ - أن يكون سليم اللفظ واللسان.

٤ - أن يكون قارئًا فقيهًا[٢].

٥ - أن يكون بالغًا.

٦ - أن يكون عاقلًا.

٧ - أن يكون سليمًا من الأمراض التي تنقض الطهارة، كسلس البول وغيره.

٨ - أن يكون سليم الجسم، صحيحه، أي: قادرًا على أداء حركات الصلاة بشكل سليم.

٩ - أن يكون طاهرًا من الحدث والخبث.

١٠ - أن لا يكون فاسقًا، مبتدعًا، أو مشكوكًا في نسبه[٣].

---

(١) الجزيري: عبدالرحمن، الفقه على المذاهب الأربعة، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ١/ ٤٢٨-٤٢٩.

(٢) الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد، الأحكام السلطانية والولايات الدينية، ط٣، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي - القاهرة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص١٠١-١٠٢؛ ابن الإخوة: محمد بن محمد القرشي، معالم القربة في أحكام الحسبة، تحقيق محمد شعبان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م، ص٢٦٤.

(٣) الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، ١/ ٤٢٩.

وهناك بعض الاختلاف بين الفقهاء المسلمين في اشتراط النسب القرشي أو العصبية[١].

وقد اشترط بعض الفقهاء المسلمين حضور الإمام إلى المسجد في أول الوقت، وعليه الانتظار إلى أن يجتمع الناس، ما لم يطل أو يفحش انتظاره، ثم يبادر بصلاته ويؤديها على أكمل وجه[٢].

كما اشترط آخرون الحرية[٣]، ولم يشترطها بعضهم؛ لأنها ليست شرطًا أساسيًا للإمامة، مدلّلين على ذلك بما فعله الرسول ﷺ عندما صلّى خلف مولى له[٤].

وهكذا تتضح لنا صحة الصّلاة خلف الفاسق، وقياسًا عليه ومن باب أولى أن تصح الصّلاة خلف العبد والصغير؛ لأن الرق والصغر والفسق شروطٌ أساسية للولاية وليس للإمامة.

ولذا فالصغير والعبد والفاسق لا يُمنع أيٌّ منهم من الإمامةِ، ولكن يُمنع من الولاية[٥].

مراسم تعيين أئمة المقامات:

أئمة المقامات الأربعة يعينون من قبل الخليفة أو السلطان، ولا يمارسون عملهم إلا بعد قراءة مرسوم التعيين في المسجد الحرام وبحضور أعيان مكة[٦].

---

(١) الباشا: حسن، الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية، دار النهضة العربية – القاهرة، ١٩٦٦م، ١/ ٩٣.

(٢) السبكي: تاج الدين عبدالوهاب، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد النجار، ط٢، مكتبة الخانجي – القاهرة، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص١١٤.

(٣) أبو فارس: محمد الحاج عبدالقادر، تقرير عن رسالة القاضي أبي يعلي الفراء وكتابه الأحكام السلطانية، ط١، جامعة الأزهر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٣٧٩-٣٨٠.

(٤) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٠١-١٠٢.

(٥) المصدر السابق، ص١٠١-١٠٢.

(٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٠٢، ٥٣٨.

ويـدل ذلـك دلالة واضحـة على أهميـة هـذه الوظيفة خاصـة والوظائف الدينية عامة دون سواها من الوظائف.

كما أنني لا أعتقد أن المراسم نفسها التي تتم في تعيين الإمام أو المؤذن أو غيرها من الوظائف الدينية بشـكل عام، تتم في الوظائـف الأخرى كالخدمية مثلًا؛ فنجد على سـبيل المثـال أن ناظر الحرم يقوم بعـزل الفراش[١]، بينمـا لا يتم تعيين الإمام وعزله إلا بقرار سلطاني يقرأ في المسجد الحرام أمام أعيان مكة وقضاتها.

ففي عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م ولي الشريف أبو البركات محمد بن أبي الخير محمد بـن عبدالرحمـن الحسـني الفاسـي[٢] إمامـة المالكيـة بالمسـجد الحـرام بتفويض من السلطان المملوكي، لا من قاضي القضاة الشافعي، ووصل إلى مكة في خامس الحجة، وفي بكرة السـادس من الحجة قرئ توقيعـه بالإمامة بحضرة أمير الحـاج وغيره من الأعيـان وباشر الصلاة في ظهر هذا اليـوم[٣]. وكان يصل إلى الأئمة مع قرار التعيين خِلع[٤] تكون شبيهة بخلع الخطيب[٥].

وفي حالـة خلوِّ منصـب إمامـة أحد المقامـات بمـوت الإمام مثـلًا، فإن لقاضي مكـة أن يعين أحـدًا مكانه، إلـى أن يرد أمر السـلطان إما بتعييـن غيره أو إقراره في الوظيفة[٦].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٤٠.

(٢) هو محمد بن أبي الخير محمد بن عبدالرحمن الحسني الفاسي، المكي، المالكي، اشتهر بتقي الدين، يكنى أبا البركات ويلقب بالجمال، ولد بمكة عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨هـ، ونشـأ بها، وولي إمامة المالكية بالمسـجد الحرام، توفي عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٨م، بمكة ودفن بالمعلاة. الفاسـي: العقد الثمين، ٢/ ٣٧٥-٣٧٦.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٣٨.

(٤) الخلعة من الثياب: ما خلعته، فطرحتـه على آخر أو لـم تطرحه. وكل ثوب تخلعه عنك خلعة، وخلـع عليـه خلعـة والخلعة ما يُهدى إلى الإمام بعد تعيينه. ابن منظور: اللسان، ٢/ ٢٩٧.

(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٧١.

(٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٠٢.

ومن حق شريف مكة أن يمنع الإمام المعين من قبل القاضي من أداء عمله وتعيين غيره، ولكن ذلك يكون في المدة التي تسبق وصول قرار السلطان إلى مكة بتعيين إمام مكان الإمام المتوفى، فمتى وصل قرار السلطان، عُدَّ قرار كل من شريف مكة وقاضيها لاغيًا[1].

وعادة يفوض السلطان قاضي القضاة الشافعي بمصر بترشيح الشخص المطلوب تعيينه لمنصب الإمامة بأحد المقامات في المسجد الحرام، فيصل إلى مكة مرسوم السلطان وتفويض من القاضي الشافعي بمصر للشخص المعين في هذا المنصب[2].

أضف إلى ذلك أن التعيين في هذه الوظيفة قد يخضع لرغبة السلطان وهذا يفتح باب الوساطة والمحسوبية، فيتولى بعد وفاة الإمام ابنه[3]، أو أخوه[4]، أو أحد أقاربه[5]، دون توافر الشروط التي ذكرها الفقهاء، والتي يجب أن تتوافر فيمن يلي هذا المنصب.

ومن التجاوزات في التعيين أحيانًا أن السلطان يعين طفلًا رضيعًا في السنة الأولى من عمره مكان والده المتوفى على أن يقوم أحد أقاربه بمهمات الوظيفة حتى يبلغ الصغير[6].

ومع تدخل الوساطة والمحسوبية في التعيين لهذا المنصب، فإنه لا يعين في وظيفة الإمامة شخص أمرد[7] ولو كان كفئاً للوظيفة وأهلاً لها[8].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٠٢.
(٢) المصدر السابق، ٣/ ٥٣٨-٥٤٩.
(٣) المصدر السابق، ٣/ ١٩٨.
(٤) المصدر السابق، ٣/ ١٠٢-٢٩٣.
(٥) المصدر السابق، ٣/ ٢٧٩.
(٦) المصدر السابق، ٣/ ٣١٤، ٤/ ٢٨١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٥/ ٢٤٤.
(٧) أمرد: الشاب الذي بلغ خروج لحيته وطرّ شاربه ولم تبد لحيته. ابن منظور: اللسان، ٦/ ٣٧.
(٨) السخاوي: الضوء اللامع، ٤/ ٩١؛ الطاسان: الوظائف الدينية، ص٢٩٣.

وللإمام أن يجعل له نائبًا، وعادة يكون أحد أقربائه ممن يلمس فيه القدرة على تأدية واجبات الوظيفة[١]، كما أن له الحق في أن يتنازل عن حقه في الإمامة إذا كان له شريك في الوظيفة، وعادة يكون تنازله لمرض ألمَّ به أو لعجزه عن القيام بواجبات الوظيفة، وغالبًا يكون المتنازل له هو ابنه[٢] أو قريبه[٣] وأحيانًا يكون النائب من خارج أسرة الإمام[٤].

وفي حال وجود عدة شركاء في وظيفة الإمامة، فإنهم عادة يتفقون على إقامة نائب واحد لهم جميعًا[٥]، أما إذا مات أحد المشتركين في منصب الإمامة فعادة يخلفه أبناؤه في نصيبه في الوظيفة، ويدخلون شركاء مع بقية الشركاء[٦].

ولا يُعزل الإمام من منصبه إلا بقرار سلطاني يقرأ في المسجد الحرام أمام جمع من أعيان مكة[٧].

وإضافةً إلى تولِّي الإمام لوظيفته في المسجد الحرام، نجد بعض الأئمة ممن سبق توليهم الإمامة في المسجد النبوي أو الأقصى يطلق على هؤلاء إمام المساجد الثلاثة، في حين يطلق على من تولى الإمامة في المسجد الحرام أو المسجد النبوي إمام المسجدين، ولكن تولّي الإمام للإمامة في هذه المساجد يكون في أوقات مختلفة[٨].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٩١؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٢.
(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٥٥.
(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٦١٠.
(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ١٧٣.
(٥) المصدر السابق، ٥/ ١٠٢.
(٦) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٦٨.
(٧) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ١٣١-١٣٢.
(٨) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٤٢٢؛ الطاسان: الوظائف الدينية، ص٢٩٣.

وقد يجمع بعض الأئمة إضافة إلى وظيفتهم الرئيسة وظائف دينية أخرى منها:

١ - الخطابة[١].

٢ - الإفتاء[٢].

٣ - التدريس[٣].

٤ - الإعادة[٤].

٥ - القضاء[٥].

٦ - الحسبة[٦].

٧ - نظر المدارس[٧].

٨ - نظر الأربطة[٨].

أما إمام المالكية، فله وظيفة خاصة به، وهي الإشارة للحجاج بالانصراف من عرفات يوم الوقفة بعد أن يتحقق من غروب الشمس[٩].

وعرفت وظيفة الإمامة في المسجد الحرام نظام التوريث في الأسر

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٢٣٥، ٥/ ٢٦٢.

(٢) المصدر السابق، ٤/ ٢٣٥، ٤٢٢، ٥/ ١٤٣.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٦، ٥/ ١٤٣.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٢٦٣.

(٥) المصدر السابق، ٣/ ١٩٨.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٥٩؛ ابن فهد: عمر بن فهد، معجم الشيوخ، تحقيق محمد الزاهي، دار اليمامة - الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٢٤٢-٢٤٤.

(٧) نظر المدارس: ناظر المدارس هو المشرف على شؤون المدرسة. السخاوي: الضوء اللامع، ١٠/ ١٢.

(٨) ناظر الأربطة: هو الذي يتولى شؤون الأربطة. المصدر السابق، ١٠/ ٤٥.

(٩) ابن جبير: الرحلة، ص١٣٦؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٢٤.

العلمية بمكـة المكرمة، فنرى أن الإمامـة والقضاء كانتا في بيت الطبريين[١] سـنة ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م، ولم تزل إمامة المقام مخصوصة بهم لا مدخل معهم في ذلك لأجنبي، وكان كل منهم يباشـر ذلك ولا يحتـاج لإذن جديد؛ وذلك لوقوع الإذن المطلق لهم زمـن السلاطين السابقين والأشـراف المتقدمين[٢].

تعدد الأئمة في المسجد الحرام:

مع انتشـار الإسـلام وظهور المذاهـب الفقهيـة الأربعة وتعدد المسـاجد وكثرتها، بـدأت تظهر ظاهـرة تعـدد الأئمـة علـى المذاهـب المختلفـة، وأصبح هناك أربعة أئمة سـنيين وإمام خامس زيدي، وأصبح النـاس يصلّون خلف أربعة أئمة بعد أن كانت صلاتهم خلف إمام واحد[٣].

---

(١) الطبريون: هم الذين يرجعون في نسبهم إلى طبرسـتان، لا طبرية الشـام. وهـؤلاء قد هاجروا من مكة إلى أمصار إسـلامية أخرى في غمرة مـن هاجر أيام الفتن والاضطرابات التي سـادت مكة وبـلاد الحجاز فـي أوائل القـرن الرابع الهجـري. وأول من قـدم منهم أبو معشـر الطبري المسـمى بعبدالكريم بن عبدالصمد بن محمد بن علي بن محمد القطـان الطبري المتوفي عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م. وقد اسـتمرت الأسرة الطبرية تتصدر الوجاهة في بلد الله الحرام ستة قرون منذ قدوم جدها رضـي الدين ومجاورته في مكـة المكرمة، وظلت تعتلـي أعلى المناصب في القضـاء والإمامة والخطابـة والتدريـس والفتوى ونشـر العلم والتأليـف، وقد امتـد مجد هذه الأسرة في الحجاز من القرن السادس إلى القرن الثاني عشر الهجري وقد انقرضت هذه الأسرة في القرن الثاني عشـر الهجري، أو قبله بقليل. الردادي: عائض، الأسـرة الطبرية المكية، ط١، دار الرفاعي، ١٤١٦هــ/ ١٩٩٥م، ص٢٨-٢٩؛ المالكي: سـليمان، الطبريون، مؤرخو مكة.. أنشـطتهم العلميـة ووظائفهم فـي الحرم المكـي، جريدة النـدوة، ١٥ شـعبان، ١٤٢٣هـ/ ٢١ أكتوبر ٢٠٠٢م، السنة ٤٦، العدد ١٣٨٢، ١/ ١٣.

(٢) ابـن فهـد: إتحـاف الـورى، ٣/ ١٠٤؛ العز بـن فهـد: بلـوغ القـرى، ٣/ ٧٩٢؛ أبو سـليمان: عبدالوهاب إبراهيم، الحرم الشريف الجامع والجامعة، نادي مكة الثقافي، د. ت، ص٣٢.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص٧٨؛ التجيبي: القاسـم بن يوسـف السبتي، مسـتفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبدالحفيظ منصـور، الدار العربيـة للكتاب – تونس، ١٣٩٥هــ/ ١٩٧٥م، ص٢٩٥-٢٩٧؛ البلوي: خالد بن عيسى، تاج المفرق في تحلية علماء المشرق، تحقيق الحسن السائح، صندوق إحياء التراث الإسلامي، د. ت، ١/ ٣٠٦.

فهـذا الإمـام المالكـي يصلـي بالمالكيـة، وذاك الشـافعي يصلـي بالشـوافع، وذاك الحنفـي يصلـي بالأحنـاف، وهـذا الحنبلـي يصلـي بالحنابلة[١].

وظاهـرة تعـدد الأئمـة تُعَـدُّ من أهـم البـدع وأشـدها خطـرًا علـى الأمة الإسلامية، لما سببته من فرقة وعداء بين المسلمين نتيجة تعصب أحدهم لمذهبه دون مذهب غيره، بل قد وصل ببعضهم التعصب والتشـدد بأن لا يصلي شـافعي خلـف مالكـي، ولا حنفـي خلف حنبلـي، برغـم أن جميـع الأئمة علـى الكتاب والسـنة في صلاته وجميع تصرفاته، ولكن مع ذلك نجد أن شـقة الخلاف تزداد وتكبر[٢].

وانتقلت هذه الظاهرة، بل هـذه البدعة المضلة إلى مكـة المكرمة، وبعد أن كان جميع المسـلمين يتوجهون إلى الله تعالى في صلاتهم خلف إمام واحد يقـف عند مقـام إبراهيـم الخليـل عليه السلام[٣]، أصبحوا يصلـون في المسـجد الحرام خلف أربعـة أئمة سـنيين وإمام خامـس زيدي وصـار أتباع كل مذهـب يصلون خلف إمامهم[٤].

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٧٨؛ بدر: فايز، وقفة أمام الكعبة، مؤسسة الجريسي، د. ت، ص١٥٨.

(٢) الفاسـي: شـفاء الغرام، ١/ ٣٩٣-٣٩٤؛ ولمزيـد من التفصيل عـن هذه البدعة المسـببة لفرقة المسلمين وانتشار العداء بينهم أنظر الفصل الخامس، المبحث الرابع جهود العلماء في التأثير على المجتمع المكي، كما سنبين كيف أمكن السيطرة عليها وإبطالها ومحاربة العلماء لها.

(٣) المقام: هو الحجـر الذي وقف عليـه الخليل لما بنى الكعبـة، وقيل لما أذن بالحـج، وقيل لما غسـلت زوجة ابنه إسـماعيل رأسـه، ومقام إبراهيم بشـرق البيت، والركن العراقـي على يمينه والباب والركن الأسود على يساره. ابن عبد ربه: أبو عمر الأندلسي: العقد الفريد، تحقيق عمر عبدالسـلام تدمـري، دار الكتاب العربـي – بيروت، د. ت، ٧/ ٢٤٨؛ الفاسـي: العقـد الثمين، ١/ ٢٤٤، انظر الصورة رقم (١) صورة لمقام إبراهيم عليه السلام.

(٤) ابن جبيـر: الرحلـة، ص٧٨؛ الطاسـان: محمد صالـح، الوظائـف الدينية والإدارية بالمسـجد الحرام في عهد دولة المماليك، مجلة العصور، م٥، ج٢، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٢٩٠.

وبذلك أنشئت حول الكعبة المشرفة أربعة مقامات لكل من المذاهب الأربعة (الحنفي – المالكي – الشافعي – الحنبلي) إضافة إلى مقام الزيدية، والذي لم يكن دائم الوجود[١].

وظاهرة تعدد الأئمة في المسجد الحرام ظاهرة قديمة، وهذا ما يثبت من خلال زيارات كثير من الرَّحالين عندما زاروا مكة المكرمة، حيث ذكروا تعدد الأئمة بالمسجد الحرام ورؤيتهم لذلك عند حديثهم عن الحرم المكي الشريف[٢].

وفيما يبدو أن إنشاء هذه المقامات كان في منتصف القرن الخامس الهجري، فقد ذكر الفاسي أن الحنفي والمالكي كانا موجودَيْن في سنة ٤٩٧هـ/ ١١٠٣م، ولكن الحنبلي لم يكن موجودًا، كما ذكر ما يدل على وجود مقام الشافعي، إضافة إلى المقام الزيدي، أما المقام الحنبلي فقد كان موجودًا في عشر ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م، أي بعد وجود المقامات الأخرى[٣].

والجدير بالذكر أن المذهب الشافعي هو المذهب المقدم على بقية المذاهب لأنه يُعَدُّ مذهب الدولة الحاكمة، يليه في ذلك الحنفي ثم المالكي وأخيرًا الحنبلي[٤].

---

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٦٩-٧٠، لمزيد من التفصيل انظر غاية المرام حيث أشار إلى أنه في عام ٧٢٥هـ وصل إلى مكة العسكر المصري المجرد لليمن نصرة للملك المجاهد صاحب اليمن علي بن داود بن رسول فعند ذلك خرج الإمام الزيدي من مكة وأقام بوادي مرّ. العز بن فهد: عبدالعزيز بن عمر، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام، تحقيق فهيم شلتوت، ط١، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ، ٢/ ١١٨.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٨٠؛ التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٩٧-٢٩٨؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ٩٨-٩٩.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٩٥.

(٤) حكم العباسيون الحجاز وكانوا على المذهب الشافعي، وقبل أن يحكم المماليك الحجاز كان هناك صراع بين العباسيين والفاطميين على حكم مكة، كما كان هناك صراع مع الصليحيين حكام اليمن، ثم بعد ذلك انتقل الحكم إلى المماليك – منذ سقوط بغداد – والذين كانوا أيضًا على المذهب =

ويقع كل مقام من هـذه المقامات في موضع معين في المسـجد الحرام، فالمقام الشـافعي يلي مقام إبراهيـم، ومقام الحنفـي يلي الحِجْر تحـت حطيم[1] مصنوع له، ويقع المقام المالكي قبالة الركن اليماني، بينما يصلي الحنبلي ما بين الحجر الأسود والركن اليماني[2]، أما مقام الزيديـة فقد أشار التجيبي السبتي إلى أنه كان يقف بين الركنينْ اليمانيينْ[3].

وعـادة يقـرب موقـف الأئمـة الأربعة بعضهـم من بعـض فـي الصلوات الليلية، أمّا في الصلوات النهارية فتتباعد مواقفهم بعضهم من بعض إلى ما تحت السقائف، وذلك فرارًا من شدة الحر، حيث حرارة الشمس وحرقتها[4].

كيفية صلاة الأئمة:

أمـا كيفية صـلاة الأئمة في المقامـات الأربعة في المسـجد الحـرام؛ فإن الشـافعي يصلّي أولًا، ثم الحنفي، ويليه المالكي، وأخيرًا الحنبلي إلا أنه قد تقدم

= نفسه. العبدلي: عائشـة مانع، إمارة الحاج في عصر الدولة المملوكية وأثرها على الأوضاع الداخلية بمكة المكرمة، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص٢٧٨.

(١) الحطيم: بناء مسـتدير على شـكل نصف دائرة أحد طرفيـه محاذٍ للركن الشـامي والآخر محاذٍ للركـن الغربـي، وهو مغلـف بالرخام، ومـا بين جـدار الكعبة الشـمالي وبين الحطيـم المكان المعروف بالحجر. ويسـمى حطيماً لأن الناس كان يحطمون هنالـك بالإيمان ويسـتجاب فيه الدعاء على الظالم للمظلوم. الأزرقـي: أبو الوليد، أخبار مكة وما جـاء فيها من الآثار، تحقيق رشدي ملحس، ط٢، دار الثقافة – مكة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م، ٢/ ٢٤ الحاشية.

(٢) ابـن جبيـر: الرحلـة، ص٧٨-٧٩؛ ابـن بطوطـة: الرحلـة، ١/ ١٧٩؛ الفاسـي: العقـد الثمين، ١/ ٢٥٥-٢٥٦؛ ابن ظهيرة: جمال الديـن، الجامع اللطيف في فضل مكـة وأهلها وبناء البيت الشـريف، ط٤، المكتبة الشـعبية – بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص١٣٣، انظـر الصورة رقم (٢) صورة المقامات في المسجد الحرام.

(٣) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٩٥-٢٩٧.

(٤) العبيكان: طرفـه، الحياة العلميـة والاجتماعية في مكة في القرنين السـابع والثامـن الهجريين، مطابع الناشر العربي – الرياض، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص٢٥٦-٢٥٧.

الحنفي على المالكي في سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م[(١)] - وهذا الترتيب يكون في غير صلاة المغرب التي يصلونها مجتمعين، وقد انفرد الشّافعي بصلاة المغرب في أيام الموسم من سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م، إلى سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٣م[(٢)].

أما صلاة المغرب، فإنهم يصلونها في وقت واحد، كل إمام يصلي بطائفته، وذلك لضيق الوقت بين صلاة المغرب والعشاء، فيبدأ مؤذن الشافعي بالإقامة، ثم يقيم بقية مؤذني الأئمة، وربما دخل على المصلين في هذه الصلاة كثير من السهو والغفلة وذلك لاجتماع التكبير، فربما ركع المالكي لركوع الشافعي، وقد يسجد الحنفي لسجود الحنبلي.

فنرى كل أذن مصيخة لصوت إمامها ومؤذنه، ولكن برغم ذلك يحدث السهو والغفلة، ويحدث الاختلاط على كثير من الناس[(٣)].

وقد أنكر كثير من علماء المسلمين هذا العمل، والذي يُعَدُّ بدعة مضلة في الدين، لما قد يسببه من فرقة للمسلمين وبلبلة للمصلين، فنجد أنه قد أبطل هذا العمل في سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م من قبل الملك الناصر فرج[(٤)]، واكتفي بالشافعي

---

(١) الفاسي: تقي الدين أحمد، الزهور المقتطفة، إعداد حمد المهنا، ط١، مكتبة الأوقاف - الكويت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٦٩-٧٠؛ الأسدي: أحمد بن محمد المكي، إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، تحقيق الحافظ غلام مصطفى، ط١، دار الصحوة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص١٩٦.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٢٥٦.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص٧٨-٧٩؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٧٩؛ انظر أيضًا حلاق: حسان، مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطة، ط١، دار النهضة العربية - بيروت، ١٩٩٦م، ص٤٦-٤٨ و١٦١.

(٤) هو فرج بن برقوق بن أنس الناصر الجركسي المصري، ولد عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م، استقر في المملكة بعهد من أبيه وبعده في شوال سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، اعتقل في عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م واستفتوا العلماء بوجوب قتله لارتكاب المحرمات والمظالم، فقتل في السنة نفسها ودفن بمقابر دمشق. وكان سلطانًا جبارًا ظالمًا طامعًا في أموال الرعايا. السخاوي: شمس الدين محمد بن عبدالرحمن، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ط١، دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ٦/ ١٦٨.

ليصلي بالناس واستمر ذلك مدة غير طويلة، لكن ما لبث أن عاد مرة أخرى بأمر من الملك المؤيد أبي النصر شيخ صاحب مصر[١]، ولعل مردَّ ذلك لتعصب الملك المؤيد أبي النصر شيخ الذي أمر بأن يصلي الأئمة الثلاثة المغرب، كما كانوا يصلون قبل ذلك، وبالفعل قد تم ذلك في عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م[٢].

حكم صلاة الأئمة في المسجد الحرام:

أما حكم صلاة الأئمة الثلاثة - الحنفي والمالكي والحنبلي - في الفرائض على هذا النحو وهذه الصفة، فقد اختلف فيه علماء المالكية، فقد أفتى الشيخ الإمام أبو القاسم عبدالرحمن بن الحسين بن الحباب المالكي[٣] في سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م بمنع الصلاة على هذه الصفة أو بأئمة متعددة وعدم جوازها على مذاهب العلماء الأربعة[٤]. وإن كان قد أفتى بجواز ذلك شداد بن المقدم[٥] وعبدالسلام عتيق[٦] وأبو الطاهر بن عوف الزهري[٧] وهم من فقهاء

(١) هو السلطان الملك المؤيد أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبدالله المحمودي الظاهري، ولد عام ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م، أصله من مماليك الظاهر برقوق، استولى على الملك بعد القبض على الملك الناصر فرج وقتله، توفي عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م، ودفن بالقبة. المصدر السابق، ٣/ ٣٠٨.

(٢) ابن الضياء القرشي: أبو البقاء محمد بن أحمد، أحوال مكة المشرفة، تحقيق عبدالكريم الباز، د.ت، ١/ ٢٣٢؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٣٢-١٣٣؛ الطبري: علي بن عبدالقادر، الأرج المسكي في التاريخ المكي، تحقيق أشرف أحمد الجمال، ط١، المكتبة التجارية - مكة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م، ص١٧٣-١٧٤؛ السنجاري: علي تقي الدين، منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم، تحقيق ماجدة زكريا، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ٢/ ٤١٦؛ ولمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع انظر الفصل الخامس، المبحث الرابع جهود العلماء في التأثير في المجتمع المكي والرجوع إلى بدعة تعدد الأئمة وزوالها.

(٣) لم أعثر له على ترجمة في المصادر المتداولة.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٥١٦.

(٥) لم أعثر له على ترجمة في المصادر المتداولة.

(٦) لم أعثر له على ترجمة في المصادر المتداولة.

(٧) لم أعثر له على ترجمة في المصادر المتداولة.

المالكيـة بالإسـكندرية، إلا أن الحبـاب رد عليهم فـي ذلك بقولـه: «إن أبا بكر الطرسوسي ويحيي الزياتي شيخ شـداد بن المقدم لم يصليا خلف إمام المالكية في الحرم الشـريف ركعة مع كونه مغموصًا عليه، قال: ولا شيء أقبح من جهل الإنسـان بحال شـيوخه»[١].

كما أنه نقل ما يوافق فتـواه عن جماعة من الشـافعية والحنفية والمالكية، فمن الشـافعية أبو النجيب مدرس النظامية[٢]، ويوسـف الدمشقي صاحب أسعد البهتي، ومن المالكية عمر المقدسي والشريف الغزنوي من الحنفية[٣].

وقـد حرّم العلماء صلاة أئمة متعددة في مسـجد واحد، فإن صلوا مرتبين في وقـت واحد، حرم ذلك لما فيه من التشـويش على المصليـن، وإذا ترتبوا بأن يصلي أحدهم وإذا انتهى صلى الآخر وهكذا فهو مكروه[٤].

وقد أفتى بمنع الصلاة بأئمـة متعددة وجماعات مترتبة بالمسـجد الحرام جمـع مـن العلمـاء كالإمـام إسـحاق الغسـاني المالكـي ﵀، وقـد منـع الإمـام أحمد ﵁ من إقامة صلاة واحدة بجماعتين في المسـجد الحرام. كما أن مذهب الإمـام الشـافعي ومالك وأبـي حنيفة ﵃ منـع إقامة صـلاة بإمامَيْن في مسـجد

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٩٤-٣٩٥؛ العقد الثمين، ١/ ٢٥٦.

(٢) تنسـب المدرسـة النظامية إلـى الوزير نظـام الملـك أبي علي الحسـن بن علي بن إسـحاق بن العبـاس الطوسـي وزيـر ملك شـاه بن ألـب أرسـلان بن داود بـن ميكال بـن سـلجوق، وهي فـي مدينة بغـداد، وقد شـرع فـي بنائهـا سـنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٤م وفرغت فـي ذي القعدة سـنة ٤٥٩هـ/ ١٠٦٦م. ابن خلكان: أبي العباس شـمس الديـن أحمد، وفيات الأعيـان وأنباء أبناء الزمان، تحقيـق محمد عبدالحميـد، مكتبة النهضة المصريـة - القاهـرة، د. ت، ١/ ١٨٠؛ ابن جماعة: بدر الديـن الكناني، تذكـرة السـامع والمتكلم فـي أدب العالم والمتعلـم، دار الكتب العلمية - بيروت، د. ت، ص٢١٣.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٩٤-٣٩٥؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٥١٧-٥١٨.

(٤) الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، ص١/ ٣٢٩-٣٣٠.

واحـد، وذكر جماعـة من علمـاء المالكيـة والحنفيـة أنهـم أنكروا صـلاة الأئمة الأربعة في المسجد الحرام على هذه الصفة وأن المنع من ذلك هو مذهب الإمام مالـك والشـافعي وأحمد وأبـي حنيفة، ومـا منع ذلـك إلا لأنه مخالـفٌ لما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والسـلف الصالح، كما أنه منافٍ لحكمة مشروعية الجماعـة من ائتـلاف القلوب وجمع كلمـة المسـلمين، إضافة إلى ما يسـببه من تشـويش واختـلاط في الصـلاة التي هـي أعظـم أركان الإسـلام بعد الشـهادتيْن والتلاعب بها(١).

كيفية صلاة الأئمة الأربعة في رمضان:

أمـا في رمضان فنرى أن الأئمـة الثلاثة – غير الشـافعي – يجتمعون على صلاة العشاء(٢).

ومع حلول هذا الشـهر الكريم يقع الاحتفال في المسـجد الحرام من تكثير الشـمع والمشـاعل وتجديـد الحصر حتـى يتـلألأ الحرم المكـي نورًا ويسـطع ضياءً. ثـم تتفـرق الأئمة الأربعـة لإقامة صـلاة التراويـح، فنرى كل إمام من الأئمة الأربعة يؤم جماعة في المسـجد الحرام، وعليه أن يقرأ القرآن الكريـم كاملًا مقسـمًا علـى ليالي رمضـان حيث يقرأ فـي كل ليلة مـن ليالي رمضان جـزءًا واحـدًا، وأول من يختـم القرآن مـن الأئمة الأربعـة هو الإمام الشـافعي وذلك في ليلة «سبع وعشـرين» ويقع الاحتفال لهذه الليلة المباركة قبل ذلك بيومين أو ثلاثة.

---

(١) محفـوظ: علـي، الإبـداع فـي مضـار الابتـداع، ط٥، المكتبـة العلميـة – المدينـة المنـورة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ص١٥٤-١٥٨.

(٢) باشـا: إبراهيم رفعت، مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية، ط١، دار الكتب المصرية – القاهرة، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م، ١/ ٢٥٢.

ويقام إزاء حطيم إمام الشافعية خشب عظام بائنة الارتفاع موصول بين كل ثلاث منها بأذرع من الأعواد الوثيقة فاتصل منها صف كاد يمسك نصف الحرم عرضًا، ووصلت بالحطيم المذكور، وعلت طبقة منها طبقة أخرى حتى استكملت ثلاث طبقات، فكانت الطبقة العليا فيها خشبة مستطيلة مغروزة كلها مسامير محددة الأطراف لاصقًا بعضها ببعض نصب عليها الشمع، والطبقتان تحتها ألواح مثقوبة ثقبًا متصلًا، وضعت فيها زجاجات المصابيح ذوات الأنابيب المنبعثة من أسفلها. وقد تدلت من جوانب الألواح والخشب وجميع الأذرع قناديل متفاوتة في الحجم وتخللها أشباه الأطباق المبسوطة من الصفر، وقد انتظم كل طبق منها ثلاث سلاسل تقلها في الهواء وخرقت كلها ثقبًا ووضعت فيها الزجاجات ذات الأنابيب من أسفل تلك الأطباق الصفرية، بحيث لا يزيد كل أنبوب منها على الآخر في الطول، وأُوقدت فيها المصابيح ثم وصلت بالحطيم الثاني المقابل للركن الجنوبي من قبة زمزم خشب على الصفة المذكورة متصلة إلى الركن الآنف الذكر، وأوقد الشمع الذي في رأس القبة وصففت طرة شباكها شمعًا مما يقابل البيت، وحف المقام الإبراهيمي بمحراب من الأعواد المشرجبة[1] المخرمة محفوفة الأعلى بمسامير حديدة الأطراف على الهيئة المذكورة، وجللت كلها شمعًا، ونصب عن يمين مقام إبراهيم ويساره شمع كبير الحجم في أواني مناسبة لحجمه، ووضعت الأواني على الكراسي التي يصرفها السدنة مطالع عند الإيقاد، وحلل جدار الحجر شمعًا في أواني من الصفر، فجاءت وكأنها كوكبة نور ساطع أو قمر متوهج وأحدقت بالحرم المشاعيل، وأوقد جميع ما ذكر[2].

---

(١) المشرجبة: شرجب، الطويل، وفي التهذيب: من الرجال الطويل وقيل: هو الطويل القوائم العاري أعالي العظم. ابن منظور: اللسان، ٣/ ٤١٥، والمقصود بها هنا الأعواد الطويلة.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٧-١٣٣.

وأحدق بشرفات الحرم كلها صبيان مكة، ووضعت بيد كل صبي منهم كرة من الخرق المشبعة زيتًا فوضعوها متقدة في رؤوس الشرفات، وأخذت كل طائفة منهم ناحية من نواحي المسجد الأربع، فأخذت كل طائفة تباري الأخرى في سرعة إيقادها، وفي أثناء ذلك يرفعون أصواتهم بـ (يا رب. يا رب) بلسان واحد. فيرتج الحرم لأصواتهم. وكلما اكتمل إيقاد الشمع زاد شعاع الأنوار حتى يخيل للرائي أن النار تشب من شرفة إلى أخرى، فلا تقع الأبصار على هذه الأنوار وذلك المنظر إلا شغلته وبهرته[(١)].

ثم يتقدم الإمام الشافعي، فيصلي فريضة العشاء الآخرة، ثم يبدأ بقراءة سورة القدر وإليها يكون انتهاء قراءة الأئمة في الليلة التي قبلها، وفي تلك الساعة يتوقف جميع الأئمة عن صلاة التراويح، بل ويمسكون عنها تعظيمًا وإجلالًا لختمة المقام، ثم يحضرونها متبركين فيختم الإمام الشافعي في تسليمتيْن ثم يقوم خطيبًا مستقبلًا المقام، فإذا فرغ عاد الأئمة إلى صلاتهم وانفضّ الجميع بعد أن استطارت نفوسهم خشوعًا وسالت أعينهم دموعًا[(٢)].

ثم كانت ليلة «تسع وعشرين»، وكان المختتم فيها بقية الأئمة ملتزمين بإلقاء الخطبة بعد الختم، فيكون أولهم ختمًا للقرآن الإمام المالكي فتعد أمام محرابه ستة أعواد على هيئة دائرة محراب مرتفعة عن الأرض دون القامة يعترض كل اثنين منها عود مبسوط فأدير أعلاها بالشمع وأحدق داخل الدائرة شمع متوسط، ونصبت للشمع في المحراب أثافي[(٣)]

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٧-١٣٣؛ الأنصاري: عبدالقدوس، مع ابن جبير في رحلته، ط١، المطبعة العربية الحديثة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص١٨٧.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٧-١٣٣؛ ابن بطوطة، الرحلة، ١/ ١٨٥.

(٣) أثافي: الحجر الذي توضع عليه القدر ومفردها أثفية. ابن منظور: اللسان، ١/ ٤٠.

من الأحجار، فجاء الاحتفال مختصرًا عن احتفال ختم إمام الشافعية ولكن رغم ذلك فهو حفل التعاظم والاستكبار الذي يحفه التواضع والاستصغار لله الواحد الجبار، ثم يتلو المالكي في ختمه للقرآن الكريم سائر الأئمة في هذه الليلة[١].

والشافعي أكثر الأئمة اجتهادًا في صلاة التراويح؛ وذلك أنه يكمل التراويح التي هي عشر تسليمات، ثم يدخل الطواف مع جماعة فإذا فرغ من الأسبوع – سبعة أشواط حول الكعبة – تضرب الفرقعة الخطيبية[٢] ضربة يسمعها من في المسجد الحرام، وذلك لعلو صوتها وكأنها إيذانٌ بالعودة إلى الصلاة مرة أخرى، ثم يصلي ركعتين، ثم يعود ويطوف سبعة أشواط أخرى، وهكذا إلى أن يكمل عشرين ركعة، ثم يصلي الشفع والوتر، وعادة لا يزيد سائر الأئمة على ذلك شيئًا، ويتناوب لصلاة التراويح خمسة أئمة[٣].

وفي صلاة التراويح خلف الصبيان اختلاف، فقد قال مشايخ العراق وبعض مشايخ بلخ: لا تجوز، وقال غيرهم: إنها تجوز، وقد قال نصير بن يحيي بجوازها إذا كان الصبي ابن عشر سنين، وقال السرخسي: إِنها لا تجوز؛ لأن الصبي غير مخاطب وصلاته غير صحيحة فبذلك تكون إمامته كإمامة المجنون، أما إذا كان الصبي يؤم الصبيان، فإنه يجوز لأنَّ صلاة الإمام مثل صلاة المقتدي[٤].

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٣٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١/ ١٨٥.

(٢) الفرقعة نوع من الكرابيج يُضرب بها في الهواء فتحدث صوتًا مدويًا، وهي من الوسائل المستخدمة لتنبيه الناس. ابن جبير: الرحلة، ص١٢٢–١٢٣؛ ولمزيد من التفصيل انظر بدعة الفرقعة الخطيبية في الفصل الخامس، المبحث الرابع، ص ٤٣٥.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٨٤.

(٤) ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ٢٣٤.

رواتب الأئمة:

هناك من يتطوع بالإمامة تطوعًا، أي دون أجر يتقاضاه على وظيفته، ومنهم من يؤم الناس في صلاة التراويح تطوعًا[(١)].

هذا للمتطوعين، أما الموظفون من قبل السلطان، فإنهم عادة، يتقاضون أجرًا على أداء وظيفتهم.

فقد عينت وثيقة السلطان الأشرف شعبان[(٢)] للحرم المكي أربعة أئمة لإمامة الصلوات الخمس براتب سنوي قدره ٤٠٠ درهم لكل واحد، وهو ما يعادل ٣٣ وثلث الدرهم شهريًا، ولم يكن هذا الراتب هو كل ما يتقاضاه الإمام، بل كان يأخذ زيادة على ما هو مقرر له، وذلك عن طريق الهدايا والهبات والصدقات التي كانت تصل من حكام وأمراء بعض الدول الإسلامية الأخرى[(٣)].

---

(١) ابن العماد: أبو الفلاح عبدالحي الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، دار الأفاق الجديدة – بيروت، د. ت، ٧/ ٣٦١ – ٣٦٢.

(٢) هو الملك الأشرف شعبان بن الملك الأمجد حسين بن السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان الملك المنصور قلاوون الصالحي. ولد عام ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م بقلعة الجبل، تولى المملكة بعد ابن عمه المنصور وله من العمر عشر سنين. توفي مقتولًا في خامس ذي القعدة عام ٧٧٨هـ/ ١٣٧٦م. كان حصينًا محسنًا مقربًا للعلماء والفقراء، مقتديًا بالأمور الشرعية. والوثيقة المنسوبة كتبت يوم الاثنين ٣ جمادى الآخرة عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، وتنقسم ثلاثة أقسام: الأول: وهو تحديد أعيان الوقف وما يشتمل عليه من أراضٍ وأشجار وآبار ودور وغيرها. والقسم الثاني: يشتمل على توزيع ريع هذا الوقف. والقسم الثالث: يتعلق بناظر الوقف وسلطانه وكيفية اختياره بعد وفاة الأشرف شعبان، كما شملت الوثيقة ترميم المسجد الحرام والرواتب المقررة لموظفي المسجد الحرام. ابن دقماق: إبراهيم بن محمد، الجوهر الثمين في سير الخلفاء، تحقيق سعيد عاشور، جامعة أم القرى، د. ت، ص٤٠٩–٤٣٥؛ القحطاني: راشد سعد راشد، أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين، الرياض، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

(٣) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٩.

ومع ذلك نجد أن هناك اختلافاً في حكم أخذ الإمام أجرًا على وظيفته، فمنهم من يرى أنه يجوز أخذ الإمام - أي إمام الصلوات الخمس المكتوبات ومؤذنه - رزقًا على أدائه الإمامة، ويجوز للمؤذن أخذ أجر على الأذان، وذلك من بيت المال من سهم المصالح، ومنهم من منع ذلك كأبي حنيفة[1].

(١) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص١٠٢.

المبحث الثاني

المؤذن

الأذان

في اللغة:

معناه الإعلام[١]. قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ﴾[٢] أي أعلمهم.

في الشرع:

الإعلام بدخول وقت الصلاة بذكر مخصوص[٣].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾[٤].

وهي إحدى الوظائف الدينية التي يقوم فيها المؤذن بالنداء للصلاة المكتوبة في أوقاتها المعلومة، وقد ينوب المؤذن عن الإمام في الإمامة عندما يضطره عذر للتخلف عن الصلاة[٥].

---

(١) ابن منظور: اللسان، ١/ ٥٦.

(٢) سورة الحج: الآية ٢٧.

(٣) ابن منظور: اللسان، ١/ ٥٦؛ الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، ١/ ٣٠١؛ الطيار: عبدالله ابن محمد، الصلاة. وصف مفصل للصلاة بمقدماتها مقرون بالدليل من الكتاب والسنة، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٦٤.

(٤) سورة الجمعة: الآية ٩.

(٥) الدهاس: فواز علي، المدارس في مكة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، العدد الثاني، السنة الأولى، ربيع الأول ١٤٢١هـ، الرياض، ص٣٤.

وهي وظيفة دينية قديمة، فقد شرع الأذان في السنة الأولى من الهجرة النبوية[١].

والأذان والإقامة من خصائص الأمة الإسلامية، وللمؤذن أجر كبير وثواب عظيم، وقد ذكرت كثيرٌ من الكتب الفقهية أحاديث كثيرة تدل على فضل المؤذنين وتفضيلهم على غيرهم من الناس، فقد قال رسول الله ﷺ: «المؤذنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة»[٢].

الشروط الواجب توافرها في المؤذن:

لأهمية الأذان وفضل المؤذن وأجره العظيم، اشترط الفقهاء عددًا من الشروط المهمة التي يجب أن تتوافر في المؤذن وهي:

١ - الإسلام.

٢ - العقل.

٣ - الذكورة.

٤ - أن يكون عدلًا وثقة، أمينًا.

٥ - أن يكون عارفًا بأوقات الصلاة.

٦ - يستحب أن يكون حسن الصوت والهيئة والخلق.

ويسن عند الأذان:

١ - الطهارة.

٢ - أن يكون قائمًا.

---

(١) الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، ١/ ٣١١.

(٢) مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، صحيح مسلم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٠م، ١/ ٢٩٠.

٣ - أن يكون مستقبل القبلة.

٤ - أن يلتفت في الحيعلتين يمينًا وشمالًا وصدره إلى جهة القبلة.

٥ - أن يؤذن في مكان عالٍ.

والترتيب في الأذان شرط من شروطه[١].

كيفية بدء الأذان:

متى حان وقت الصلاة، فلا بد من عمل ينبه الغافل حتى يكون الاجتماع للصلاة عامًا، ولهذا فقد ائتمر النبي ﷺ مع أصحابه، فقال بعضهم: نرفع راية وقت الصلاة ليراها الناس، فلم يرضوا بذلك؛ لأنها لا تفيد النائم ولا الغافل، وقال آخرون: نشعل نارًا على مرتفع من الهضاب، فلم يقبل أيضًا، ثم أشار آخرون ببوق وهو ما كانت تستعمله اليهود في صلواتهم، فكرهه رسول الله ﷺ؛ لأنه لا يحب تقليد اليهود في أي عمل، ثم أشار آخرون بالناقوس، وهو ما يستعمله النصارى، فكرهه الرسول أيضًا، وأشار بعضهم بالنداء، فيقوم بعض الناس إذا حانت الصلاة بالنداء بها، فقبل هذا الرأي. وكان أحد المنادين عبدالله بن زيد الأنصاري[٢]، فبينما هو بين النائم واليقظان عرض له شخص وقال: ألا أعلمك كلمات تقولها عند النداء بالصلاة؟ فقال: بلى، فقال له: قل: الله أكبر، الله أكبر، مرتيْن، وتشهد مرتين، ثم قل: حي على الصلاة مرتيْن، حي على الفلاح مرتيْن. ثم كبر ربك مرتين ثم قل لا إله إلا الله. فلما استيقظ ذهب

(١) ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٢٦٧-٢٦٩؛ السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص١١٥؛ الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، ١/ ٣١٥ - ٣١٧.

(٢) هو عبدالله بن زيد بن ثعلبة بن عبدالله بن ثعلبة الأنصاري، رائي الأذان، جاءت عنه عدة أحاديث: ستة، أو سبعة، وجزم البغوي بأن ماله غير حديث الأذان وحديث عند الترمذي وفي النسائي له حديث، استشهد يوم أحد. ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الفكر - بيروت، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ٢/ ٣١٢.

للنبي ﷺ وأخبره برؤياه فقال: «إنها لرؤيا حق»، ثم قال: «لقن ذلك بلالًا»[١]. فإنه أندى صوتًا منك. وبينما بلال يؤذن إذ جاء عمر يجر رداءَه فقال: والله لقد رأيت مثله يا رسول الله، وكان بلال أحد مؤذنيه بالمدينة المنورة، والآخر عبدالله بن أم مكتوم. وكان بلال يقول في أذان الصبح بعد حي على الفلاح: «الصلاة خير من النوم» وقد أقره الرسول ﷺ على ذلك[٢].

وقد رُفع الأذان لأول مرة في المسجد الحرام يوم الفتح، عندما رقي بلال وأذن على ظهر الكعبة بأمر من الرسول ﷺ[٣].

الإقامة

في اللغة:

مصدر أقام.

في الشرع:

إعلام بالقيام إلى الصلاة بذكر مخصوص[٤].

---

(١) هو بلال بن رباح القرشي التيمي، مولاهم، أبو عبدالله، مؤذن رسول الله ﷺ قديمًا، وعذب في الله تعالى: وهو أول من أذن في الإسلام، اختلف في تاريخ وفاته فقيل: في طاعون عمواس، وقيل: عام ٢٠هـ/ ٦٤٠م، وقيل: عام ٢١هـ/ ٦٤١م. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٢٤٤-٢٤٦.

(٢) الحنفي: علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني، بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، ط١، دار الكتاب العربي - بيروت، ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م، ١/ ١٤٧؛ النووي: أبو زكريا محيي الدين بن شرف، المجموع، دار الفكر، د. ت، ٣/ ٧٥-٧٦؛ بك: محمد الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، ط١٨، المكتبة التجارية الكبرى - مصر، ١٩٦٥م، ص٩٢-٩٤.

(٣) الأزرقي: أبو الوليد، تاريخ مكة شرفها الله تعالى، تحقيق هشام عطا وآخرون، ط٢، المكتبة التجارية - مكة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ١/ ٢٨٧.

(٤) الحجاوي: الروض المربع، ١/ ٤٢.

سنن الإقامة:

١ - يسن أن يحدرها - أي يسرع فيها.

٢ - أن يقف على كل جملة كالأذان.

٣ - أن يكون المقيم هو المؤذن[١].

وقد اختلفت الروايات في نص الإقامة، فرواها محمد بن إدريس الشافعي مفردة إلا لفظ «قد قامت الصلاة» فمثنى[٢]، ورواهـا مالك بن أنس مفردة كلها[٣] بينما رواها أبو حنيفة النعمان مثنى كلها[٤].

ويسن أيضاً تحسين الصوت في قراءة القرآن، ويُسن تحسينه أيضًا في الأذان؛ لأن الصوت الحسن أبلغ في أن يصل إلى القلوب، بل ويحركها ويوقظ النفس، ويطرد الملل عن الفؤاد ويدمر كل سأم وكآبة قد تتسللا إلى النفس، أضف إلى أن له مفعولَ السحر في تنشيط الهمم، بل هو أشبه ما يكون بمطر هطل على أرض قاحلة فاخضرت وأثمرت، وكذلك هو الصوت الحسن وتأثيره على النفس البشرية، والصوت الحسن الرنان يزداد جمالًا وجاذبية كلما ازداد صاحبه معرفة وعلمًا وحفظًا لأصول التجويد والقراءات، ولعل أبلغ مثال على ذلك ما قد ذكرناه سالفًا من رد الرسول ﷺ لما أخبره عبدالله بن زيد الأنصاري أن شخصًا علمه بين اليقظة والمنام كلمات الأذان، فقال الرسول: «لقن بلالًا فإنه أندى صوتًا منك»[٥].

---

(١) النووي: المجموع، ٣/ ١٢١؛ الجار الله: عبدالله، رسالة إلى أئمة المساجد والمؤذنين والمأمومين، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص١٣٥.

(٢) الشافعي: أبو عبدالله محمد بن إدريس، الأم، ط١، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م، ١/ ٨٥.

(٣) مالك: أبو عبدالله مالك بن أنس، الموطأ، دار إحياء التراث العربي، د. ت، ١/ ٧١.

(٤) الكاساني: بدائع الصنائع، ١/ ١٤٨.

(٥) ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق عبدالقادر الحمد، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ٢/ ٩٣؛ الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ١٣٠-١٣٣.

منائر المسجد الحرام:

وأما منائر[١] المسجد الحرام المخصصة للأذان فهي سبع:

- **أحدها:** منارة باب العمرة، وأول من عمرها أبو جعفر المنصور، ثم صاحب الموصل[٢]، بعد تهدمها، ثم السلطان سليمان[٣] وكانت لرئيس المؤذنين.
- **ثانيها:** منارة باب السلام، وأول من عمرها المهدي العباسي[٤]، ثم الناصر فرج، وهي أيضًا لرئيس المؤذنين خصوصاً في رمضان[٥].
- **ثالثها:** منارة باب علي، وأول من عمرها المهدي العباسي ثم السلطان سليمان، فبنيت من الحجر الأصفر الشميسي، وجعل لها دوران، غيّر رأسها على أسلوب منائر الروم.
- **رابعها:** منارة الحزورة، وأول من عمرها المهدي العباسي، ثم صاحب الموصل بعد هدمها وهي دوران، وقد فرغ من بنائها في عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م.

---

(١) المنارة: هي التي يؤذن عليها، وهي المئذنة. ابن منظور: اللسان، ٦/ ٤٥٧٢.

(٢) صاحب الموصل هو الأشرف شعبان بن حسين. القطبي: عبدالكريم بن محب الدين، إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، تحقيق أحمد محمد الجمال وآخرون، ط١، دار الرفاعي – الرياض، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٤٠-١٤١.

(٣) السلطان الغازي سليمان خان الأول القانوني ولد عام ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م، وهو عاشر ملوك آل عثمان. اشتهر بالقانوني لما وضعه من الأنظمة الداخلية في جميع فروع الحكومة، توفي عام ٩٧٤هـ/ ١٥٦٦م عن ٧٤ سنة، وكانت مدة حكمه ٤٨ سنة قضاها في توسيع نطاق الدولة وإعلاء شأنها. بك: محمد فريد المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، دار الجيل – بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص٧٩، ١٠٧.

(٤) هو محمد بن عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن عباس الهاشمي الخليفة، أبو عبدالله المهدي بن أبي جعفر المنصور العباسي. بويع بمكة بالخلافة بعد موت أبيه بها وكان أبوه عهد إليه بالخلافة، واستمر حتى مات سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م عن ثلاث وستين سنة، كان ممن وسع الحرم المكي وعمره، كانت خلافته عشر سنين وشهرًا. الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢١٩.

(٥) لمعرفة موقع هذه المنائر انظر الصورة رقم (٣) ص ٤٧٨.

- **خامسها**: منارة باب الزيادة، وأول من عمرها المعتضد العباسي[١] حين عمر الزيادة، ثم الأشرف برسباي[٢].
- **سادسها**: منارة السلطان قايتباي[٣] في مدرسته المعروفة على المسعى، وهي ثلاثة أدوار، وبني نظيرها على عقد باب مسجد الخيف بمنى، وفرغ من عمارتها في عام ٨٨٢هـ-١٤٧٧م.
- **سابعها**: منارة السلطان الأعظم سليمان خان، رأسها على أسلوب منائر الروم. وقد بناها قاسم بك[٤]، وفرغ من عمارتها في سنة ٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م[٥].

---

(١) هو أحمد بن الموفق بن المتوكل العباسي الملقب بالمعتضد بالله، وهو الحاكم العباسي السادس عشر، حكم من ٢٧٩ - ٢٨٩ هـ/ ٨٩٢ - ٩٠٢ م، تسلم إدارة البلاد بعد موت والده، مات عام ٢٨٩ هـ/ ٩٠٢ م. العسيري أحمد معمور، موجز التاريخ الإسلامي، ط ٣، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤ م، ص ١٩١ - ١٩٢.

(٢) هو السلطان برسباي بن عبدالله الملكي الأشرف أبو النصر الدقماقي الظاهري الجركسي، سلطان الديار المصرية، تسلطن يوم الاثنين ٨ ربيع الآخر سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م، وتوفي يوم السبت ١٣ ذي الحجة سنة ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م. ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف، الدليل الشافي على المنهل الصافي، تحقيق فهيم شلتوت، مكتبة الخانجي - مصر، د.ت، ١/ ٣٧٤؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٨.

(٣) قايتباي الجركسي المحمودي الأشرفي ثم الظاهري أحد ملوك الديار المصرية، ولد تقريبًا سنة ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م، وهب وتصدق وأظهر من تواضعه وخشوعه في طوافه وعبادته له من المآثر، كعمارة مسجد الخيف كما أنشأ بجانب المسجد الحرام عند باب السلام مدرسة جليلة كما أنشأ بالمدينة النبوية مدرسة بديعة وبنى المسجد الشريف بعد الحريق. توفي عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م. السخاوي: الضوء اللامع، ٢٠١-٢١١.

(٤) لم أعثر له «على» ترجمة في المصادر المتداولة.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص٦٨؛ النهروالي: محمد بن أحمد، الإعلام بأعلام بيت الله الحرام، مطبعة المدرسة المحروسة، مدينة غتنقه، ١٣٧١هـ، ص٢٢٥؛ القطبي: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، ص١٤٠-١٤١؛ القليوبي: شهاب الدين، هذا تاريخ مكة، مخطوط - مكتبة الحرم المكي، رقم ٢٧٠٤، ورقة ١٩ أ، انظر الصورتين رقم (٣) و(٤) المآذن في المسجد الحرام.

رئيس الموذنين:

وهو كبير المؤذنين، الذي يقتدي به مؤذنو المنائر الأخرى، ولا يمكنهم الأذان إلا بعد افتتاحه له[١].

وكان رئيس المؤذنين من قديم يؤذن بمنارة باب العمرة[٢]، ثم أصبح للمؤذنين في العصر المملوكي رئيس يؤذن على سطح قبة زمزم، ويبلغ خلف إمام الشافعية في الصلوات[٣].

ولكل منارة من منائر المسجد الحرام مؤذن يؤذن عليها بالأذان الشرعي[٤].

وكبيرهم يعرف بـ «الرئيس» ولا يمكنهم الأذان إلا بعد افتتاحه له[٥] – كما سبقت الإشارة إليه –، ويتضح أن وظيفة الأذان تكاد تكون وراثية في الأسرة الواحدة، وأغلب المؤذنين من أسرة الكازروني[٦]، بل تعد هذه الأسرة من أشهر الأسر التي تولت الأذان في مكة المكرمة من قبل العهد المملوكي، واستمرت طوال مدة حكم المماليك، وتنسب هذه الأسرة للمؤذن عبدالسلام

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ١٦٥، ٢١٤؛ الطبري: الأرج المسكي، ص١٨٧؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٢/ ٥٦٠.
(٢) الطبري: الأرج المسكي، ص١٨٧.
(٣) ابن جبير: الرحلة، ص٧٧؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٦٣؛ النهروالي: الأعلام، ص٤٢٥؛ الأسدي: إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام، ص١٩١.
(٤) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٨.
(٥) الطبري: الأرج المسكي، ص١٨٧.
(٦) نسبة إلى كازرون وهي مدينة بفارس بين البحرين وشيراز، وإليها ينسب جماعة من أهل العلم. الحموي: ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان، ط١، طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م، ٧/ ٢٠٦.

الكازروني[١] وأخيه عبدالمؤمن[٢]. ولهم رئاسة المؤذنين في الحرم المكي الشريف[٣].

وتنحصر مهمة رئيس المؤذنين - كما أسلفنا في بدء الأذان قبل غيره من المؤذنين في المسجد الحرام؛ ولذلك كان لا بد له من معرفة وقت دخول الصلاة بدقة.

ولا يعرف بالتحديد متى بدأت تسمية رئيس المؤذنين بهذا الاسم، إلا أنها قديمة، بل لعلها بدأت قبل عهد المماليك، حيث إِن أسرة الكازروني تولت الأذان بالمسجد الحرام قبل عهد المماليك، واستمرت في هذه الوظيفة طوال مدة العهد المملوكي.

المزولة:

هي الساعة الشمسية التي يعين بها الوقت بظل الشاخص الذي يثبت عليها، والجمع مزاول، وكانت المزاول مستعملة إلى القرن الثاني عشر الهجري[٤].

وكان الغرض الرئيس من المزولة هو معرفة وقت الصلاة بدقة، كما وضعت المزولة في المسجد الحرام لمعرفة الماضي والباقي من الوقت، وعادة تستخدم المزولة لمعرفة الوقت إذا كانت السماء صحوًا لا غيم فيها[٥].

---

(١) هو عبدالسلام بن أبي المعالي بن أبي الخير بن ذاكر بن أحمد بن الحسن بن شهريار الكازروني، أبو محمد المكي، مؤذن الحرم الشريف، لم يعرف تاريخ ميلاده، كان من شيوخ الصوفية، أقام بمكة مجاورًا أكثر عمره، حج ما يقارب ٥٠ حجة، توفي عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م بمكة المكرمة. الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٧٤.

(٢) لم أعثر له على ترجمة في المصادر المتداولة.

(٣) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٧٦.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٣٨؛ الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٣، ٥/ ١٠٢.

(٥) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٣، ٥/ ١٠٢.

وتوجد في المسجد الحرام مزوله بالمقام الشافعي فوق بئر زمزم، يعمل بها رئيس المؤذنين وإلى جانبها ظلة المؤذن التي فيها خزانة لطيفة فيها مناكيب[١] لمعرفة أوقات الصلاة[٢].

ظلة المؤذنين:

الظلة والمظلة سواء، وهو ما يستظل به من الشمس، والظلة: الشيء يُستتر به من الحر والبرد[٣].

وأول من عمل الظلة للمؤذنين التي على سطح المسجد ليؤذن فيها المؤذنون يوم الجمعة، عبدالله بن محمد بن عمران الطلحي[٤] وهو أمير مكة، وكان ذلك في خلافة هارون الرشيد، وكان المؤذنون قبل ذلك يجلسون هناك يوم الجمعة في الشمس في الصيف والشتاء. ولم تزل الظلة على حالها حتى عُمِّر المسجد في خلافة جعفر المتوكل على الله[٥] في سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م، فهدمت هذه الظلة ثم عمرت مرة أخرى وزيد فيها[٦].

---

(١) نكب الإناء ينكبه نكبًا: هراق ما فيه، ولا يكون إلا من شيء غير سيال كالتراب ونحوه. ابن منظور: اللسان، ٦/ ٤٥٣٥. وربما المقصود بالمناكيب الزجاجية الأواني الزجاجية التي يوضع فيها الرمل وتعرف بالساعات الرملية والغرض منها معرفة الوقت.

(٢) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٣٤؛ الأسدي: إخبار الكرام، ص١٩١.

(٣) ابن منظور: اللسان، ٤/ ٢٧٥٤- ٢٧٥٥.

(٤) هو عبدالله بن محمد بن عمران بن إبراهيم بن محمد السجاد بن طلحة بن عبيدالله القرشي التيمي، أمير مكة المكرمة وقاضي مكة والمدينة، ولا يعرف متى كانت وفاته. الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٤١٧-٤١٨.

(٥) هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد، بويع بالخلافة بعد أخيه الواثق سنة ٢٣٢هـ/ ٧٤٩م رفع المحنة بخلق القرآن وأظهر السنة، قتل سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م وعمره أربعون سنة وكانت خلافته ١٤ سنة وتسعة أشهر وثمانية أيام. المصدر السابق، ص١١٧-١١٩.

(٦) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ٩٩؛ السيوطي: جلال الدين، الوسائل إلى معرفة الأوائل، تحقيق عبدالرحمن الجوزو، ط١، دار مكتبة الحياة – بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص٥٥.

أما في يـوم الجمعة، فـإن رئيس المؤذنين يسـير أمـام الخطيـب عند دخول المسـجد الحرام ويكون لابسًـا السـواد وعلى عاتقه السـيف ممسـكًا به، فـإذا صعد الخطيب أول درجة من درج المنبر، قلده رئيس المؤذنين السـيف، فيضرب به ضربة قوية يسمعها الحاضرون، ثم يصعد المنبر فيسلم عن يمينه وشماله ويرد عليه الناس، ثم يقعد ويؤذن رئيس المؤذنين ثم يتبعه المؤذنون في ذلك في حين واحد[١].

مراسم تعيين المؤذنين وعزلهم:

لقـد كان قرار تعييـن المـؤذن وعزله يصدر عـن طريق القاضي الشـافعي بمكة[٢]، وأحيانًا يصدر من قبل الأمير الباش المقيم بمكة المكرمة[٣].

وعلى رئيس المؤذنين أن يدعو للسلطان عندما يتولى بعد قراءة نبأ توليته، ويكون دعاء الرئيس من فوق سطح زمزم[٤].

أما التنظيـم الخـاص لأداء المـؤذن لوظيفته، فإنـه يدعو للشـريف عندما يطـوف في مطلـع كل شـهر، ويكون ذلك مـن فوق سـطح زمزم، كمـا أن رئيس المؤذنين يهنئ الشريف بدخول الشهر[٥].

ويحرص المـؤذن الزمزمي أو رئيـس المؤذنين في المسـجد الحرام على

(١) ابن جبيـر: الرحلـة، ص٧٢-٧٤؛ التجيبي: مسـتفاد الرحلة والاغتـراب، ص٣٠٠-٣٠١؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٧٩-١٨٠.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٦٦؛ السخاوي: الضوء اللامع، ١١/ ١٠٠.

(٣) الأمير البـاش: هو رئيـس العسـكر المقيم بمكة مـن قبل السـلطان صاحب مصـر حيث جعل سـلاطين المماليك مجموعة من الجند تقيم بمكة وجعلوا لهم رئيسًا، والباش اسم لوظيفة في العصر المملوكي تعني رئيس الجند وذلك إذا كان عدد الجند مئة يكون رئيسـهم باش. الباشا: الفنون الإسلامية، ١/ ٢٩٣.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٧٨-٤٨٢.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ص٧٤-٧٥.

الدعاء للخليفة العباسي بمصر كل ليلة من على سطح زمزم، إضافةً إلى دعائه للسلطان وصاحب اليمن وشريف مكة[١]. ويدل ذلك دلالة واضحة وجلية على ما لهؤلاء الحكام من محبة ومكانة سامية في نفوس أهل الحجاز[٢].

وقد كان على المؤذن الزمزمي أن يدعو من فوق بئر زمزم لأعيان مكة وأشرافهم من الحكام إذا ماتوا، فيقوم بالنداء للصلاة على جنائزهم[٣].

أضف إلى ذلك أنه كان على المؤذنين ذكر بعض المدائح النبوية كل ليلة بعد أذان العشاء ولكن عندما أرسل المؤيد شيخ تغري برمش[٤] إلى الحجاز وعلى يده مراسيم تتضمن النظر في أحوال مكة المشرفة، منع المؤذنين من المدائح النبوية، وكان ذلك في عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م[٥].

كما يقوم المؤذنون بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير خلف كل

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٩٦-٤٩٧.

(٢) نواب: عواطف محمد، الرحلات المغربية والأندلسية، مكتبة الملك فهد الوطنية – الرياض، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٢٠٩.

(٣) السخاوي: محمد بن عبدالرحمن، التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، د. ت، ص٢٩١؛ الضوء اللامع، ٢/ ١٣٥.

(٤) هو تغري برمش بن يوسف التركماني الحنفي، يُلقب زين الدين، ويُكنى أبا المحاسن، نزيل القاهرة والحرمين، كان يتعصب للحنفية مع محبته لأهل الحديث والتنويه بهم، وتعصبه لأهل السنة، من مآثره: منع المؤذنين من المدائح النبوية، ومنعه الخطباء من الصغار في ليالي ختم القرآن في شهر رمضان وإيقاد مشاعل المقامات التي بالمسجد الحرام في العشر الأواخر من رمضان وليلة العيد وليلة هلال شهر رجب وليلة هلال ربيع الأول وغيرها لما يحصل للمصلين والطائفين من التشويش ولما يحصل من كثرة اجتماع الرجال والنساء لسماع الخطب ورؤية الوقيد، توفي في عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م، ودفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٢٥١-٢٥٥؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٣١-٣٣.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٢٥٢؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٧/ ١٥٩-١٦٠. والمدائح النبوية من البدع المستحدثة في الدين، وقد تناولناها بشيء من التفصيل في الفصل الخاص بذلك، ص٤٤٢-٤٤٣.

صلاة[١]، إضافةً إلى ذلك الدعوة لصلاة الاستسقاء والكسوف[٢]، وعليهم التسبيح آخر الليل من مناراتهم[٣]، وعلى المؤذنين إيقاظ الناس لتناول السحور في شهر رمضان المبارك[٤].

ولما كان الأذان من على منائرهم لا يسمعه الناس كافةً من سكان مكة، أصبح يسحِّر جماعة من المؤذنين على جبال مكة في كل جبل مؤذن[٥]، وهذه الجبال هي جبل أبي قبيس[٦] وجبل لعلع[٧] وجبل الأحمر[٨]، وجبل الحارث[٩].

وهناك طريقة يتبعها المؤذنون وهم في منائرهم عند التسحير وتنبيه الناس لوقت الإمساك في ليالي رمضان، وذلك بأن تنصب في أعلى كل منارة خشبة على رأسها عود معترض، يعلق فيه قنديلان كبيران من الزجاج يوقدان، فإذا قرب الفجر، وقع الإيذان بالقطع وأُطفئ القنديلان، ثم بعد ذلك يبدأ المؤذنون بالأذان، والناس يراقبون القنديلين فمتى أطفئت أقلعوا عن الأكل وبدؤوا بالإمساك[١٠].

---

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٨٨.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٢٩-٣٠.

(٣) المصدر السابق، ٤/ ١٩٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٥/ ٣٤، ١١/ ١٠٦.

(٤) النهروالي: الأعلام، ص٤٢٥.

(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٨٨.

(٦) وهو من أشهر جبال مكة وليس من أكبرها تراه يشرف على الكعبة المشرفة من مطلع الشمس. البلادي: عاتق بن غيث، معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ط١، دار مكة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٢٤٩.

(٧) لعلع: اليوم من جبال مكة، ولكنه اسم حديث فيما يبدو حيث إن كثيراً من أسماء الجبال قد تغيرت مع مرور الزمن. المرجع السابق، ص٢٧١-٢٧٢.

(٨) الجبل الأحمر: اسم جبل مشرف على قعيقعان بمكة وكان يسمى في الجاهلية الأعرف. الحموي: معجم البلدان، ١/ ١٤٤.

(٩) لم أعثر له على تعريف في المصادر المتداولة.

(١٠) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٨٤؛ انظر أيضًا العوامري بك: أحمد وآخرون، مهذب رحلة ابن بطوطة، القاهرة، ١٩٣٨م، ص١٢٧.

أما ليلـة عيد الفطر، فـإن مؤذني المسـجد الحرام يقضون تلـك الليلة في منائرهم مهللين ومكبرين ومسبحين الله تعالى[١].

ويسـتحب اتخـاذ مُؤَذِّنيْـنِ للمسـجد الواحد، يـؤذن أحدهما قبـل طلوع الفجر، في حين يـؤذن الآخر عند طلوعه، كما كان بلال وابـن أم مكتوم يفعلان، ويمكن اتخاذ ثلاثة مؤذنين أو أربعة بحسـب الحاجة، فقد اتخذ عثمان ﵁ أربعة مؤذنين للحاجة عند كثرة الناس، كما كان لرسول الله ﷺ مؤذنان، يعني بالمدينة، في وقت واحد[٢].

وهنــاك مؤذنـون وأئمـة للمـدارس الملاصقة للحـرم المكي الشـريف؛ كمدرسة سلطان اليمن، ومدرسة السلطان قايتباي[٣].

المؤقت:

وهـي وظيفة في المسـجد الحـرام، وقـد ارتبطـت ارتباطًـا وثيقًـا بوظيفة المؤذن، والمؤقت أو الميقاتي هو من يتولى إعلام الناس بالوقت من خلال مزولة لمعرفة الوقت أو من خلال خزانة فيها مناكيب زجاجية لمعرفة الوقت، كما سبقت الإشـارة إليه - وهذه الوظيفة يتولاهـا مؤذن من مؤذني المسـجد الحرام، وأحيانًا يتولاها شـخص آخر غير المؤذنين، وهي وظيفة مسـتقلة لا بـد لمتوليها أن يكون عارفًا بعلم الميقات، وفن الهيئة، وعلم الفلك، وجهة القبلة على الخصوص[٤].

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٢١؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٢٣.

(٢) بلطه جي: علي عبدالحميد، صحيح مسلم بشرح الإمام محيي الدين أبي زكريا يحيي بن شرف النووي، ط١، دار الخير، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ٤/ ٦٤-٦٥.

(٣) النهروالي: الأعلام، ص٢٢٦، ٢٣٥؛ الحسين: غاية الأماني، ١/ ٤٣٣.

(٤) السـبكي: معيـد النعم ومبيـد النقـم، ص١١٥؛ الجزيـري: عبدالقادر بـن محمـد، درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة، أعده للنشـر حمد الجاسر، ط١، دار اليمامة - الرياض، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ١/ ٣٤٠.

وعادة يستعين الميقاتي بالأجهزة الفلكية المتوافرة عنده مثل المزولة[١].

المكبر:

كان صوت الإمام لا يسمعه جميع المأمومين، لذا احتاج كل إمام من أئمة المقامات الأربعة إلى مبلِّغ تسمى وظيفته «مكبراً»، والمكبر مأخوذة من كبّر أي قال: الله أكبر، والتكبير التعظيم[٢]. وأحيانًا يحتاج أئمة المقامات إلى أكثر من مكبر في كل مقام بحسب كثرة المأمومين[٣].

وقد يصلون إلى ستة مكبرين في بعض المقامات[٤]، إضافةً إلى ذلك قد يشترك اثنان في وظيفة التكبير، وأحيانًا يقوم بهذه الوظيفة أحد المؤذنين[٥].

ولا تزال المكبرية موجودة إلى الآن في المسجد الحرام يؤذن منها المؤذنون ويجلس بها المكبرون في الأعياد.

وقد تكون للمكبر وظائف أخرى غير وظيفة التكبير، فنجد أنه قد يجمع بين أكثر من وظيفة مثل:

١ - التكبير والأذان.

٢ - النيابة عن الرئيس في الأذان على زمزم.

٣ - التكبير والفراشة في المسجد الحرام[٦].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٣٦٥؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٢٣٨.

(٢) ابن منظور: اللسان، ٥/ ٣٦٥.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٤٨، ٤/ ٤٤٥، ٦/ ٦٤؛ ابن فهد: جار الله، نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، تحقيق محمد الحبيب الهيله، ط١، مؤسسة الفرقان، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ١/ ٩٧، ٤٣٢، ٥٤٤، ٢/ ٦٣٧.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٦١٨.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٣١٩.

(٦) ابن فهد: عمر بن فهد، الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق عبدالملك بن دهيش، ط١، مكتبة النهضة الحديثة، دار خضر - بيروت، د. ت، ١/ ٢١١، ٢/ ٧٥٦، ١٣٢٢، ١٣٤٦، ١٣٦١.

ومن مهمات المكبر قراءة آية الكرسي، ثم سورة الإخلاص بعد الصلاة عند زمزم[١].

وتوجد فوق سقف مقام الحنفي ظلة للمبلغين[٢].

المادح:

وهو الذي يقرأ مدائح سيدنا محمد ﷺ من القصائد المشهورة، ويكون ذلك بعد صلاة العصر يوم الاثنين والخميس والجمعة، ثم يختم بقراءة ما يتيسر له قراءته من القرآن الكريم، وأخيرًا يدعو للسلطان ولوالديْه ولذريته ولجميع المسلمين[٣].

ويبدو أن المادح له مكانة كبيرة وحظوة عظيمة لدى السلطان، فنجد أنه قد يعينه في وظيفة أخرى، وهي الأذان على سطح زمزم، ويتقاضى نظير عمله كمادح ٣٦٠ درهمًا، ونظير عمله كمؤذن ٤٠٠ درهم سنويًا، فيكون بذلك مجموع ما يتقاضاه على هاتين الوظيفتين ٧٦٠ درهمًا[٤]. ولكن كما سبقت الإشارة إليه من أن هذه المدائح من البدع التي منعها تغري برمش في عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م.

وفي بعض الأوقات قد ينصب ويعين مؤذن زيدي في المسجد الحرام بطلب من أشراف مكة، ولكنه ما يلبث أن يمنع من ذلك بعد بدئه بمدة قصيرة[٥].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٦٩.
(٢) الأسدي: أخبار الكرام، ص١٩٦.
(٣) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٨.
(٤) المرجع السابق، ص٩٨.
(٥) المقريزي: السلوك، ج١- مج٣/ ٩٤٠-٩٤١؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ١٣٧، ١٨٤، ٢٦٢، ٢٦٥.

ومن المستغرب أن لا يكون هناك سلطة معينة أو جهة تشرف مباشرة على عمل المؤذنين في الحرم المكي الشريف، هذا يؤدي أحيانًا إلى أن يرشي أحدهم رئيس المؤذنين ليفعل ما يريد، فيفعل رئيس المؤذنين ذلك، ولا أحد يمنعه أو يحاسبه على ذلك الفعل[١].

وإضافة إلى تولّي المؤذن وظيفة الأذان في المسجد الحرام، إلا أنه يتولى إلى جانب وظيفته وظائف أخرى ومنها:

١ - رئاسة الحرم[٢].

٢ - مشيخة الفراشين، وأمانة شمع الحرم وزيته[٣].

٣ - رئاسة أمر زمزم وسقاية العباس[٤].

٤ - تأديب الأطفال بالمسجد الحرام[٥].

٥ - نائب المحتسب[٦].

وللأذان فضل عظيم ودور كبير في حقن دماء المسلمين فقد جاء في صحيح البخاري: «حدثنا قتيبة قال: حدثنا إسماعيل بن جعفر عن حميد عن أنس بن مالك أن النبي ﷺ كان إذا غزا بنا قومًا لم يكن يغزو بنا حتى يصبح وينظر فإن سمع أذانًا كفّ عنهم وإن لم يسمع أذانًا أغار عليهم، قال: فخرجنا إلى خيبر فانتهينا إليهم ليلًا فلما أصبح ولم يسمع أذانًا ركب وركبت خلف أبي طلحة وإن قدمي لتمس قدم النبي ﷺ، قال: فخرجوا إلينا بمكاتلهم ومساحيهم فلما رأوا

---

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٥٤-٣٨٨.
(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٧٣.
(٣) المصدر السابق، ٣/ ٢٦؛ ابن فهد: الدر الكمين، ٢/ ٧٥٦ - ٩٣٣.
(٤) ابن العماد: شذرات الذهب، ٦/ ٢٥٥.
(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ٨/ ١١٨.
(٦) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٢١٢.

النبي ﷺ قال: الله أكبر، الله أكبر خربت خيبر إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[١].

رواتب المؤذنين:

لقد رتبت وثيقة الأشرف شعبان بن حسين خمسة مؤذنين من الجليِّ الصوت، ويصرف لهم مقابل ذلك مبلغ ألفي درهم سنويًا. بواقع ٣٣ درهمًا وثلث الدرهم شهريًا لكل واحد منهم[٢].

كما عينت وثيقة عائشة بنت برجك بنت عبدالله الأقبغاوي[٣]، وزوجها تاني بك بن عبدالله الألياسي[٤] في حجة وقفهما على تخصيص ثمانمئة درهم أو ما يقوم مقامها من نقود تصرف كجامكية[٥] للمؤذنين والفراشين والوقادين في حرميْ مكة والمدينة، حسب ما يراه الناظر[٦] ويؤدي إليه اجتهاده[٧].

وهناك من يرى بأن لا يأخذ المؤذن أجرًا على أذانه، مدللين على ذلك

(١) البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، دار الفكر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ١/ ١٥١-١٥٢.

(٢) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٨.

(٣) لم أعثر لها على ترجمة في المصادر المتداولة.

(٤) هو تاني بك الألياسي الأشرفي، برسباي، مات في عام ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م، ودفن في حلب. السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٢٦.

(٥) الجامكية: جمع جامكيات، مرتب خدام الدولة من العسكرية، والملكية، وهي كلمة تركية. ابن زنبل: أحمد الرمال، آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني، تحقيق: عبدالمنعم عامر، ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص٣٠٦؛ المنجد الأبجدي، ص٣١٤.

(٦) الناظر: اسم هذه الوظيفة مأخوذ إما من النظر الذي هو رأي العين؛ لأنه يدير نظره في أمور ما ينظر فيه، وإما من النظر الذي بمعنى الفكر؛ لأنه يفكر فيما فيه المصلحة لذلك. القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٥.

(٧) حجة وقف عائشة بنت برجك بن عبدالله الأقبغاوي وزوجها تاني بك بن عبدالله الألياسي، المؤرخة في ١٢ جمادى الآخرة، سنة ٨٦٤هـ، حجة رقم (١٢٣)، دار الوثائق القومية بمصر.

بقول الرسـول ﷺ في حديث هذا نصـه: «عن عثمان بن أبي العـاص قال: إن من آخر ما عهد إليّ رسول الله ﷺ: ان أتخذ مؤذنًا لا يأخذ على أذانه أجرًا»[(١)].

ولكن ربما يكون ذلك في حالات استثنائية، أو للمؤذن المتطوع الذي لا يأخذ أجرًا على أداء وظيفته، فلا يكون أذانه وظيفة رسمية، بل يؤذن متى شاء من غير إلزامه بذلك. أضـف إلى ذلك أن المؤذن المتطوع لا بـد أن يكون له وظيفة أخرى أو عمل آخر يقتات به، وهَذا قد يؤدي إلى تأخير الأذان، ولذلك كان لا بد من اتخاذ مؤذن رسمي؛ ليقوم بالأذان في أوقاته دون تأخير.

أمـا المـؤذن الرسـمي الـذي يعين بصفـة رسـمية ومن قبـل السـلطان أو القاضي وتصبح وظيفته إلزامية، وكان لزامًا عليه الأذان في أوقات الصلاة، فإنني أرى أنـه لا بـد أن يأخذ أجـرًا على وظيفته مـن أجل أن يقتـات به وأهلـه. إلاَّ إن رفض هو الأجر وتطوع بالأذان احتسابًا.

ويرى كلٌّ من الشافعي والنووي، أن يكون المؤذن متطوعًا، فإن لم يوجد مؤذن أميـن لازم يؤذن متطوعًـا، فلا بأس أن يـرزق المؤذن مـن خمس الخمس سهم النبي ﷺ، ولا يجوز أن يرزق من الفيء أو الصدقات[(٢)].

أمـا المكبـرون، فقد رتبـت وثيقة الأشـرف شـعبان أربعـة مكبرين خلف الأئمـة الأربعـة المقيمين في المسـجد الحـرام، يصـرف لهم مبلـغ ٨٠٠ درهم، يقسم بينهم بالتساوي، وبذلك يكون راتب المكبر سـنويًا مئتي درهم، بواقع ستة عشـر درهمًا شـهريًا، وهو أقل من الفئات الأخـرى راتبًا، ولعل السـبب في ذلك

---

(١) الألبانـي: محمد ناصـر الدين، صحيح سـنن الترمذي باختصار السـند، ط٨، مكتـب التربية – الريـاض، ١٤١٨هـ، ١/ ٦٧.

(٢) الشافعي: الأم، ١/ ٨٤؛ النووي: المجموع، ٣/ ١٢٥.

يعود إلى ما يتقاضـاه المكبر من رواتب من جهات أخـرى أو ما يحصل عليه من أوقاف[١].

ففي عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م حج محمد بن قانصوه الغوري[٢]، ففرغ صدقة نال منها المكبرون عشرين دينارًا لكل واحد منهم[٣].

---

(١) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٩.

(٢) قانصوه الغوري الأشـرفي الجركسـي سـيف الدين أبو النصر، تسـلطن في يوم السبت مستهل شوال سـنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م، وأقام سـلطانًا ١٥سـنة و٩ أشـهر و٢٥يوم، قُتل في معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م. ابن العماد: شذرات الذهب، ٨/ ١١٣.

(٣) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٧٧.

المبحث الثالث

الخطيب

في اللغة:

مصدر الخطيب، خطب، وتقول: خطب الخاطب على المنبر، واختطب يخطب خطابةَ، وهو اسم للكلام الذي يتكلم به الخطيب[1].

في الاصطلاح:

يطلق على من يؤدي خطبة صلاة الجمعة والعيدين ويوم عرفة[2].

ووظيفة الخطيب من الوظائف الدينية المهمة في المسجد الحرام، وهي سنة بدأ بها الرسول ﷺ، وكان هو من يقوم بهذه الشعيرة أو من ينيبهم عنه، ثم تبعه في ذلك الخلفاء من بعده وساروا على نهجه. وعندما انتشر الإسلام في جميع أصقاع البلاد وكثرت الجوامع والمساجد، أصبح يقوم بهذه المهمة موظف يُعيَّن خِصِّيصَى لأدائها وما يتبعها من دروس الوعظ والإرشاد، والخطبة في صلاة الجمعة والعيدين شرط أساسي لا تصح الصلاة إلا بها[3].

---

(١) ابن منظور: اللسان، ٢/ ٢٧٥؛ الزبيدي: محب الدين محمد مرتضى، تاج العروس من جواهر القاموس، ط١، المطبعة الخيرية – مصر، ١٣٠٦هـ، ١/ ٢٣٧.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص١٤٨؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ١/ ٤٧٨، ٤٨٠.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٣٩، ٥/ ٤٦٣؛ الباشا، الفنون الإسلامية، ١/ ٤٧٨، ٤٨٠.

الشروط الواجب توافرها في الخطيب:

لما تمتعت به هذه الوظيفة من أهمية كبرى، أوجب الفقهاء عددًا من الشروط التي يجب أن تتوافر في الخطيب وهي:

١ - أن يكون مسلمًا.

٢ - أن يكون بالغًا.

٣ - أن يكون ذكرًا.

٤ - أن يكون عاقلًا.

٥ - أن يكون قارئًا، عارفًا لأحكام الصلاة والخطبة.

٦ - أن يكون سليمًا من الأمراض والأعذار، كسلس البول.

٧ - أن يكون سليمًا من العيوب اللفظية، كاللثغ ونحوه.

٨ - أن يكون صوته مسموعًا.

٩ - أن تكون الخطبة باللغة العربية.

ومن سنن الخطبة:

١ - أن يكون طاهرًا من الحدثين، فإن لم يكن صحت مع الكراهة.

٢ - أن يخطب وهو قائمٌ.

٣ - أن يكون حسن الهيئة والمنظر[1].

ويستحب للمسلم عند ذهابه إلى صلاة الجمعة أن يكون في أحسن هيئة، ومن ذلك ما ورد في صحيح البخاري عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من طهر

(١) الجزيري: الفقه على المذاهب الأربعة، ١/ ٣٥٢-٣٥٥، ٣٩١-٣٩٦ و٤٠٣، ٤٠٩ - ٤١٢.

ويدّهن من دهنه أو يمس من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى»[١].

وروى مالك عن ابن شهاب عن ابن السباق أن رسول الله ﷺ قال في جمعة من الجمع: «يا معشر المسلمين إن هذا يوم جعله الله عيدًا للمسلمين، فاغتسلوا، ومن كان منكم عنده طيب فلا يضره أن يمس منه، وعليكم بالسواك»[٢].

وإذا كان حُسن المظهر وجمال اللبس يطلبان من الناس كافةً، فيكون من الخطيب والإمام أولى، فيُطلب منهما ذلك، ولكن في حدود التواضع[٣].

وهناك من يرى بأن استقامة الخطيب وعلو مكانته وتفقهه في الدين وتقدمه في السن شروطًا أساسية لتؤهله لهذا المنصب الديني الكبير والمهم، بل تُعدُّ من الشروط الواجب توافرها في الخطيب[٤].

وكما أن هناك شروطًا يجب توافرها في الخطيب، هناك أمور يكره منه فعلها، كالالتفات في الخطبة والدق على درج المنبر في أثناء صعوده، والدعاء إذا انتهى صعوده قبل أن يجلس، والمبالغة في وصف السلاطين عند الدعاء لهم، والإسراع في الخطبة الثانية، وإطالة الخطبة على الناس، والإتيان بألفاظ يصعب فهمها[٥].

---

(١) البخاري: صحيح البخاري، ١/ ٢١٣.
(٢) الشافعي: الأم، ١/ ١٩٦-١٩٧.
(٣) الكردي: التاريخ القويم، م٢، ٤/ ٣٩٩.
(٤) أبو سليمان: الحرم الشريف، ص٣٣.
(٥) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص١١٢؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ١/ ٤٨٣-٤٨٤.

مراسم تعيين الخطيب وعزله:

لأهمية الخطابة ومكانتها نرى أن متوليها في العصر المملوكي لا بد أن يصدر قرار تعيينه من قبل السلطان(١). ففي عام ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م، جيء لأولاد الخطيب أبي بكر النويري(٢) بمرسوم يتضمن الإذن لهم بالخطبة(٣).

ولا بد أن يُقرأ قرار التعيين في الحرم المكي ويحضر القراءة أعيان مكة وعلماؤها. وإذا حل موعد الخطبة خرج الخطيب المُعيَّن من بيته في موكب يحفُّ به جماعة من علماء مكة وأعيانها(٤)، وفي هذا دلالة واضحة على مكانة الخطيب.

وكما أن التعيين يصدر به قرار سلطاني، نجد أن العزل أيضًا لا بد أن يصدر به قرار سلطاني(٥).

وفي بعض الأحيان يفوِّض السلطان المملوكي، أحد رجال دولته الوافدين إلى مكة المكرمة بعزل الخطيب وتعيين غيره، ولكن ذلك لا يتم إلا بعد أن يشاور شريف مكة(٦).

وقد يُعين السلطان ابن الخطيب بعد وفاته في الوظيفة(٧) أو ينصِّب أحد

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٧٥.

(٢) أبو بكر بن محمد بن محمد بن أحمد بن عبدالعزيز العقيلي النويري الأصل المكي الشافعي، ولد عام ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م بمكة ونشأ بها، فحفظ القرآن وصلى به في المسجد الحرام، ولي خطابة المسجد الحرام شريكًا لعمه أبي القاسم ثم لابنه محب الدين، توفي عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م. السخاوي: الضوء اللامع، ١١/ ٨٧.

(٣) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٦٦-٦٧.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٨٠، ٥٠٩، ٤/ ١٢٨.

(٥) المصدر السابق، ٣/ ٣٢٤.

(٦) المصدر السابق، ٣/ ٤٣٧؛ العز بن فهد، بلوغ القرى، ٢/ ٦٦-٦٧.

(٧) ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، تحقيق محمد جاد الحق، ط٢، دار الكتب الحديثة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٦٦م، ١/ ٣١٧؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٠٦.

أفراد أسرته في تلك الوظيفة[١]، كما قد يُعينُ ابنًا قاصرًا للخطيب المتوفى؛ ليحل محل والده في المنصب.

وفي هذه الحالة يقوم أحد أقارب الصبي بمهمات الخطابة حتى يبلغ الصبي رشده[٢]، ففي عام ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م، مات خطيب المسجد الحرام أبو الفضل محمد بن القاضي محب الدين النويري، فوُلّيَ عوضه ولده أبو القاسم واستنيب عنه – إلى حين صلاحه – أبو اليمن محمد بن محمد بن علي النويري[٣].

ولا يستطيع الخطيب ممارسة عمله إلا بعد قراءة قرار التعيين في الحرم المكي أمام أعيان مكة وعلمائها، وعادة يصل مع قرار التعيين خلعة مقدمة من السلطان للخطيب[٤]، وهي عبارة عن كاملية بفرو سمور[٥].

وعادة يبدأ الخطيب ممارسة عمله من أول جمعة بعد قراءة قرار تعيينه في المسجد الحرام[٦]، حيث يخرج الخطيب من بيته في موكب كبير، يمشي

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٠١، ٢٦٨.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٦١٠.

(٣) محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن عبدالعزيز أبو اليمن النويري المكي الشافعي ولد عام ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م بمكة، نشأ بها فحفظ القرآن وجوّده، والرسالة لابن أبي زيد في فروع المالكية، ثم تحول شافعيًا فحفظ المنهاج، وولي نظر المسجد الحرام وناب في خطابة بلده عن قريبة أبي الفضل النويري ثم عن ولده أبي القاسم، كان متعبدًا كثير الطواف، توفي عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م بمكة. ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦١٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ١٤٣.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٨٠، ٤٨٨، ٤٦٩، ٥٠٩، ٤/ ١٢٨؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص١٨٦.

(٥) الكاملية: هي العباءة، والسمور: حيوان ثديي يشبه النمس، يتخذ من جلده فرو ثمين، يقطن ببلاد الروس وراء بلاد الترك. الفيومي: أحمد بن محمد، المصباح المنير، مكتبة لبنان – بيروت، ١٩٨٧م، ص١٠٩.

(٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٠٩–٥١٠، ٤/ ٣٠٥.

معه في هذا الموكب جمع من أعيان مكة إلى المسجد الحرام، وعندما يخرج لإلقاء الخطبة يكون لابسًا السواد[١]؛ لأنه شعار الدولة العباسية، ثم يُلْقِي الخطبة على المنبر في المسجد الحرام، قريبًا من باب الكعبة[٢].

كيفية أداء الخطيب لخطبته:

العادة في يوم الجمعة أن يلصق المنبر إلى سفح الكعبة بين الحجر الأسود والركن العراقي، فإذا خرج الخطيب لإلقاء الخطبة لبس ثوبَ سوادٍ، واعَتّم بعمامة سوداء، وعليه طيلسان أسود[٣]، ويمشي عليه السكينة والوقار، وهو يتهادى بين رايتيْن سوداويْن يمسكهما رجلان من المؤذنين، وبين يديه أحد القومة[٤] في يديه الفرقعة، وهي عود في طرفه جلد رقيق مفتول ينفضه في الهواء، فيسمع صوته من بداخل الحرم؛ وذلك لعلوّ صوته وقوته، فيكون ذلك إعلامًا بخروج الخطيب، ولا يزال ينفضها حتى يقرب من المنبر، حينها يقبِّل الحجر الأسود ويدعو عنده، ثم يتوجه إلى المنبر والمؤذن الزمزمي - رئيس المؤذنين - بين يديه لابسًا السواد وعلى عاتقه سيف ممسكًا به بيده.

وتركز الرايتان على جانبي المنبر، فعند صعوده أول درجة من درج

---

(١) ابن طولون: شمس الدين محمد. مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى، الدار المصرية - القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م، ٢/ ٢٣.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٨٠، ٥٢٨.

(٣) الطيلسان: كساء مدور أخضر لا أسفل له، لحمته أو سداه من صوف يلبسه الخواص من العلماء والمشايخ وهو من لباس العجم، وهو معرب عن تالسان، وفُسّر بكساء يُلقى على الكتف. شير: السيدادى، الألفاظ الفارسية المعربة، ط٢، دار العرب - القاهرة، ١٩٨٧-١٩٨٨م، ص١٥.

(٤) القومة أو المقوم: هو من يفسح الطريق للخطيب. السالمي: عبدالحفيظ بن حمدي، الحياة الدينية في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٢٤هـ-١٤٢٥هـ، ص١٥٥.

المنبر، يقلده المؤذن السيف، فيضرب بنصل السيف ضربة يسمعها جميع الحاضرين، ثم يضرب في الدرجة الثانية والثالثة.

فإذا استوى في أعلى الدرجات ضرب ضربة رابعة، ثم هتف داعيًا بدعاء خفي مستقبلًا القبلة، ثم يقبل على الناس فيسلم عن يمينه وشماله، وبعد أن يرد الناس عليه السّلامَ، يقعد ثم يؤذن المؤذنون في أعلى قبة زمزم في وقت واحد، فإذا فرغ الأذان قام لإلقاء الخطبة، فيذكر الناس ويعظهم ويرشدهم، ثم يجلس الجلسة التي بين الخطبتين.

ثم يضرب بالسيف ضربة خامسة، وبعدها يقوم لإلقاء الخطبة الثانية والتي يُكثر فيها من الصلاة على محمد ﷺ ويقول في أثنائها: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ما طاف بهذا البيت طائف» ويشير بإصبعه نحو البيت الكريم قائلًا: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ما وقف بعرفة واقف» ويترضى على الخلفاء الأربعة وسائر الصحابة والحسن والحسين وأمهما، وخديجة رضي الله عنها، ثم يدعو للخليفة العباسي، ثم للسلطان، ثم لشريف مكة، وأحيانًا يدعو لغيرهم من أمراء البلاد الإسلامية وسلاطينهم [١].

وإذا فرغ من الصلاة خرج والرايتان عن يمينه وشماله، والفرقعة أمامه على الصفة التي دخل بها، وكأن ذلك إيذانٌ بانصراف الخطيب والفراغ من الصلاة، ثم بعد ذلك يُعاد المنبر إلى موضعه عند المقام [٢].

---

(١) وذلك حسب التأثير السياسي الموجود في الحجاز. ابن جبير: الرحلة، ص٧٢-٧٤؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٧٩-١٨٠؛ المقريزي: السلوك، ج٤، مج١، ٢٤٠-٢٤١؛ الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة، ٢/ ١٥١٢.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٧٢-٧٤؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٧٩ -١٨٠.

وعندما يفرغ الخطيب يقبِّل الحجر الأسود مرة أخرى[١]. وعلى الخطيب أن يدعو للسلطان المتوفى ويدعو للسلطان المعين أيضًا[٢].

أما في صلاة العيدين فيأتي الخطيب بالصفة والهيئة اللتين يأتي بهما في يوم الجمعة، إلا أنه يصلي بالناس أولًا خلف المقام، ثم يصعد المنبر ويخطب خطبة بليغة، فإذا فرغ أقبل الناس على بعضهم بالسلام والمصافحة والاستغفار[٣].

وفي اليوم السابع من ذي الحجة يخطب الخطيب إثر صلاة الظهر خطبة غاية في البلاغة، يُعلِّم الناس فيها مناسكهم، كما يعلمهم بيوم الوقفة[٤].

كما يخطب الخطيب يوم النحر، ويوم النفر الأول في مسجد الخيف في منى، وهذه عادة منقطعة لا يقوم بها كل الخطباء[٥].

وأما في صلاة الاستسقاء[٦]، فيدخل الخطيب بالهيئة نفسها إلا أنه يكون لابسًا ثيابًا بيضاء فُيخرج مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه الموجود في قبة الشراب، ثم يُفتح باب الكعبة، ويوضع المصحف على العتبة الشريفة ثم يضعونه في مقام إبراهيم عليه السلام، ثم يدعو الخطيب لأداء صلاة الاستسقاء، فيصلي

---

(١) لعل سبب ذلك هو الاقتداء بعبدالله بن الزبير رضي الله عنهما الذي يروى أنه أول من قَبّل الحجر الأسود قبل صلاة الجمعة وبعدها فاستحسن ذلك الولاة. الأزرقي: تاريخ مكة، ٢/ ٣٦٧؛ السيوطي: الوسائل إلى معرفة الأوائل، ص٥٢.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٧٨، ٤٨٢.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٢؛ ابن بطوطة، الرحلة، ١/ ١٢٣.

(٤) ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٨٥-١٨٦.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٦٢؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص١٤٨؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٨/ ٧٤، ١٤٨.

(٦) ما سيذكر هنا من بعض الأعمال التي لم تثبت شرعاً هي من البدع المذمومة.

الخطيب خلف المقام المتخذ مصلًّى، ثم بعد الصلاة يصعد للمنبر ويخطب ويعظ الناس ويأمرهم بالإقلاع عن المعاصي والمنكرات، ثم في الخطبة الثانية يقلب رداءه ويستقبل القبلة(١).

كما يقوم الخطيب بإمامة المسلمين في صلاة الخسوف(٢) والكسوف(٣)، والصلاة على الغائب وصلاة الجنازة(٤).

وعادة تكون الخطبة في وجه الكعبة، وهو جهة بابها، والسبب في ذلك هو أن حدّ المسجد الحرام منذ بدء الإسلام وما قبله هو المطاف المفروش بالرخام الأبيض المحيط بجوانب الكعبة المشرفة والذي يُسمى اليوم «الصحن»(٥)، وقد مُنع نقل المنبر عند خطبة الجمعة من مكانه بجانب المقام إلى ظهر الكعبة(٦)، ولما كان الناس يتجهون نحو الكعبة، فمن الضروري أن يكون موقف الخطيب على المنبر بلصق الكعبة ووجهه إليهم ثم بعد حصول الزيادات في المسجد الحرام أصبح مكان المنبر في آخر حدود المطاف بجانب مقام إبراهيم عليه السلام، جهة باب الكعبة أيضًا(٧).

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٨٠؛ ابن بطوطة: الرحلة ١/ ١٥٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٠-٣١، ٤/ ٢٩-٣١، وإخراج مصحف عثمان في حالة وجود قَحط من البدع الضالة، لمزيد من التفصيل انظر الفصل الخامس، المبحث الرابع: جهود العلماء في التأثير في المجتمع المكي ومحاربة البدع، ص٤٣٠.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٧٨.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٣١٨.

(٤) المصدر السابق، ٣/ ٥٧٣، ٤/ ٤١٧.

(٥) الكردي: التاريخ القويم، م٢، ٤/ ٤٠٣.

(٦) ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي، إنباء الغمر بأنباء العمر، تحقيق حسن حبشي، مطابع الأهرام، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ٣/ ٣٨٢.

(٧) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٤٠٣.

منابر المسجد الحرام:

كان الخلفاء والولاة يخطبون بمكة المشرفة منذ عهد الرسول ﷺ في المسجد الحرام، قيامًا على أرجلهم. على الأرض، في وجه الكعبة بلصقها، وفي حجر إسماعيل عليه السلام. إلى خلافة أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان، فهو أول من خطب على منبر مكة المكرمة، قدم به من الشام سنة حج في خلافته في عام ٤٤هـ/ ٦٦٤م، وهو منبر صغير من ثلاث درجات[1]. وقد ظل منبر معاوية هذا حتى حج هارون الرشيد سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م، وموسى بن عيسى[2] عامل له على مصر، فأهدى له منبرًا عظيمًا ذا تسع درجات فكان هو منبر مكة، ثم أخذ منبر مكة القديم فجعل بعرفة[3]، وعندما أراد الواثق بالله[4] الحج، كتب فُعمل له ثلاثة منابر، منبر بمكة والآخر في منى والثالث بعرفة[5].

ثم جُعل بعد ذلك عدة منابر للحرم المكي، منها منبر عمله وزير المقتدي العباسي، وكان ذلك المنبر غاية في العظمة والفخامة، استقام بألف دينار،

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ١٠٠؛ الفاسي، شفاء الغرام، ١/ ٤٣٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٣٤.

(٢) هو موسى بن عيسى بن موسى بن محمد العباسي الهاشمي: أمير من آل عباس، كان جوادًا عاقلًا، ولي الحرمين للمنصور المهدي مدة طويلة، ثم ولي اليمن للمهدي، وولي مصر للرشيد سنة ١٧١هـ/ ٧٨٧م، أقام ببغداد إلى أن توفي عام ١٨٣هـ/ ٧٧٩م. الزركلي: الأعلام، ٧/ ٣٢٦.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ١٠٠؛ الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٣٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٢٢٢، البتنوني: محمد لبيب، الرحلة الحجازية، ط٢، ١٣٢٩هـ، ص١٠٠.

(٤) هو هارون الواثق بالله بن المعتصم، ولد عام ١٨٦هـ/ ٨٠٢م ولي الخلافة عام ٢٢٧هـ/ ٨٤١م، سمي بالمأمون الأصغر لأدبه وفضله، كان شاعرًا يقول الشعر ويجزل العطاء للسفراء، توفي عام ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م، وبموته انتهى العصر الذهبي للدولة العباسية. حسن: حسن إبراهيم، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ط١٣، دار الجبل – بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ٢/ ٦٨.

(٥) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ١٠٠؛ الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٣٩، انظر الصورة رقم (٥) صورة للمنبر في المسجد الحرام.

وقد نُقش عليه بالذهب «لا إله إلا الله محمد رسول الله. الإمام المقتدي بالله أمير المؤمنين» ولما وصل إلى مكة أحرقه المصريون: لأنه بعث به من أجل أن يُخطب عليه للخليفة المقتدي[١]، إلا أن المصريين منعوا ذلك، وخطبوا للمستنصر العبيدي[٢] صاحب مصر وأحرقوا المنبر[٣].

ولم تشر المصادر التاريخية في أي عام أرسل وزير المقتدي هذا المنبر، كما لم تذكر هل استمر المنبر الفاطمي أم ظلوا يخطبون على الأرض إلى أن أُرسل منبر الأشرف شعبان.

والظاهر أن المنبر الفاطمي بقي حتى عُمل منبر آخر في عهد الأشرف شعبان صاحب مصر في عام ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م[٤]. وقد استمر هذا المنبر، وظلت الخطبة عليه إحدى وثلاثين سنة، إلى أن غيّره الظاهر برقوق[٥] صاحب مصر في

(١) هو أبو القاسم عبدالله بن ذخيرة الدين محمد بن الإمام القائم عبدالله بن القادر بالله بن المقتدر بن المعتضد، بويع بعد موت جده، وكان جده لقبه بالمقتدي، ولما تولى الخلافة لم يكن له منها إلا الاسم، وصار محكومًا عليه، توفي فجأة سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م، وكانت خلافته ١٩ سنة وثلاثة أشهر. ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص١٥٩.

(٢) هو المستنصر بالله معد بن الظاهر علي بن الحاكم منصور بن العزيز العبيدي، تولى الديار المصرية بعد أبيه الظاهر سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م وجرت في أيامه شدائد وفتن خربت مصر فيها، مات عام ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م. المصدر السابق، ص٢٠٩.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٣٩؛ ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ٢٢٨ – ٢٢٩؛ باشا: مرآة الحرمين، ١/ ٢٥٢ – ٢٥٣، وفي هذا دلالة واضحة على التنافس بين العباسيين والفاطميين.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٣٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٠٤.

(٥) هو برقوق بن آنص الجركسي، السلطان الملك الظاهر أبو سعيد، صاحب الديار المصرية والشامية والحجازية، بويع بالسلطنة سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، وخلع عام ٧٩١هـ، له مآثر حسنة منها عمارته للمسجد الحرام، كما أنشأ مدرسة حسنة بين القصرين بالقاهرة قرر بها دروسًا في المذاهب الأربعة، كانت مدة سلطته الأولى والثانية ١٦ سنة وستة أشهر، توفي عام ٨١٤هـ/ ١٤١١م. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٢٢٩.

عام ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م، وكان هذا المنبر عوضًا عن المنبر الذي أنشأه الأشرف شعبان(١). وقد بقي هذا المنبر واستمر يخطب عليه الخطباء إلى أن أرسل الملك المؤيد أبو النصر صاحب مصر منبرًا آخر في عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، فخطب عليه في سابع ذي الحجة، وهجرت الخطبة على الذي قبله(٢).

ولعل هذا المنبر استمر وظل الناس يخطبون عليه إلى أن أرسل السلطان خُشقدم(٣) منبرًا من الخشب في عام ٨٦٦هـ/ ١٤٦١م، وخطب عليه بمكة ثاني ذي الحجة(٤)، وبقي هذا المنبر إلى أن أرسل الملك الأشرف قايتباي الظاهري منبرًا من خشب في عام ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م(٥)، كما قد وصل إلى مكة المكرمة في الخامس والعشرين من ذي القعدة منبر فُركِّب في جهة باب السلام، وجُرّ إلى المطاف، وخطب عليه الخطيب في أول ذي الحجة في سنة ٨٧٩هـ/ ١٤٧٤م(٦).

وإضافة إلى تولي الخطيب لهذا المنصب، قد يتولى وظائف دينية أخرى منها:

١ - القضاء، بل نجد عادة أن من يتولى الخطابة في الحرم المكي هم قضاه مكة(٧).

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٣٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٩٦.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٣٩؛ العقد الثمين، ١/ ٢٥٥؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٢٨.

(٣) هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد سيف الدين خشقدم بن عبدالله الناصري المؤيدي، تسلطن في عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م، أصله رومي الجنس، طلبه الخواجا ناصر الدين إلى الديار المصرية في حدود ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، مات خشقدم في عام ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م، ودفن بمدرسته التي أنشأها بالصحراء بالقرب من قبة النصر. السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ١٧٥.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٣١؛ السنجاري: منائح الكرم، ٣/ ٦٧.

(٥) النهروالي: الأعلام، ص٢٢٤.

(٦) الجزيري: الدرر الفرائد، ٢/ ٧٥٤؛ النهروالي: الأعلام، ص٢٢٤.

(٧) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٥٢، ٣/ ٤٠٦.

٢ - الإمامة في المسجد الحرام[١].

٣ - نظر المسجد الحرام.

٤ - الحسبة.

٥ - نظر الأوقاف.

٦ - نظر الأربطة[٢].

٧ - نظر الميضأة[٣].

٨ - التدريس[٤].

٩ - الإفتاء[٥].

والعادة عند أهل مكة في العشر الأواخر من رمضان أن يختم فيها أبناؤهم القرآن الكريم ويحضر الختم القاضي والفقهاء وأعيان مكة، ويكون الذي يختم أحد أبناء أعيان مكة، فإذا ختم الصبي نُصب له منبر مزين بالحرير، وتوقد الشموع، ثم بعد ذلك يخطب، فإذا فرغ من خطبته، استدعى أبوه الناس إلى منزله، فأطعمهم الأطعمة الكثيرة والحلوى[٦].

إلا أنها قد أُبطلت هذه العادة في سنة ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، من قبل الأمير تغري برمش[٧].

---

(١) ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٦٨٠.
(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٤٥، ٤٠٦.
(٣) المصدر السابق، ٤/ ٥٦٤.
(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ١٠٩.
(٥) المصدر السابق، ٢/ ١٩.
(٦) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٧؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٨٥.
(٧) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٢٥٥؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٢٧.

رواتب الخطباء:

أما راتب الخطيب، فنرى أن المصادر لم تحدد ذلك، ولكنه كان يتقاضى راتبًا من بيت مال المسلمين، ولكن برغم ذلك فقد كانت تلحقه كثير من الصدقات الواصلة لمكة، ففي عام ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م، وصلت صدقة كبيرة من الدولة العثمانية، خُصَّ منها الخطيب بخمسين دينار، وأخذ كذلك الخطيب من الصدقة البنغالية أربعين دينارًا، وكان ذلك في عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م[١].

وكان نصيب الخطيب من صدقة ناظر الخواص[٢] السلطانية عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م، ست أشرفيات[٣]، وعندما وزعت صدقة اليمن، أخذ الخطيب خمسة وثلاثين أشرفيًّا. وعندما حج السلطان قانصوه الغوري في عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، أخذ الخطيب المكي ثلاثين دينارًا[٤].

---

(١) لقد كان السادة وأمراء الممالك الإسلامية في الهند وغيرها يدفعون صدقاتهم لفقراء مكة أو لإنشاء مرافق ومبرات بها. العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٦٨.

(٢) نظر الخاص: وظيفة مستحدثة، أحدثها السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وأصل موضوعها التحدث فيما هو خاص بمال السلطان، وصاحب هذه الوظيفة لا يقدر على الاستقلال بأمر إلا بمراجعة السلطان. القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٣٠.

(٣) الأشرفية: دينار ينسب للأشرف. العز بن فهد: غاية المرام، ٣/ ٥٦٨.

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩١.

المبحث الرابع

القاضي

القضاء في اللغة:

معناه القطع والفصل، يقال، قضى، يقضي، قضاءً فهو قاضٍ إذا حكم وفصل[1].

وهو أيضاً إحكام الشيء وإمضاؤه والفراغ منه[2]، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾[4].

وشرعاً عُرِّف عدة تعريفات لا تعارض بينها، منها:

أنه: «تبيين الحكم الشرعي والإلزام به، وفصل الحكومات»[5] أي: فصل الخصومات[6].

---

(١) ابن منظور: اللسان، ٥/ ٢٧٨؛ الفيومي: المصباح المنير، ص١٩٣؛ الباشا: حسن، الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م، ص٤٢٤.

(٢) ابن منظور: اللسان، ٥/ ٢٧٨.

(٣) سورة النمل: الآية ٧٨.

(٤) سورة النساء: الآية ٦٥.

(٥) حاشية الروض المربع ٧/ ٥٠٨.

(٦) الشرح الممتع على زاد المستقنع ١٥/ ٢٣٥.

وقيل: هو «فصل الخصومات وقطع المنازعات»[١].

وقيل: «الإلزام وفصل الخصومات»[٢].

والقضاء وإن كان أساسه الفصل في الخصومات إما صلحًا أو حكمًا، أو بإقامة حد، إلا أنه من أجلّ الوظائف الدينية في المجتمع الإسلامي عموماً والمجتمع المكي خصوصاً، وسمي القاضي قاضيًا، لأنه يقطع الخصومة بين الخصميْن بالحكم[٣].

ولأهمية القضاء ومكانته في المجتمع الإسلامي، أجاز الشرع للحاكم المسلم أن يجبر شخصًا على تولِّي وظيفة القضاء إذا لم يوجد أكفأ منه، بل قد أجاز الشرع أيضًا تعزيره بالضرب والحبس في حال إصراره على رفض الوظيفة، وخير ما نستشهد به في هذا المقام، أن المنصور طلب أبا حنيفة للقضاء فأبى، فحلف المنصور ليفعلنَّ، وحلف أبو حنيفة أنه لا يفعل، فقال له الربيع[٤]: يحلف أمير المؤمنين وتحلف أنت؟ فقال: أمير المؤمنين أقدر على كفارة يمينه مني. فحبسه المنصور أيامًا، ثم أحضره، فقال له: يا أمير المؤمنين: أنا لا أصلح للقضاء، فإن كنت صادقًا فلا أصلح، وإن كنت كاذبًا فلا أصلح للكذب، فرده إلى الحبس وضربه بالسياط، فلم يل، فأطلقه[٥].

---

(١) الدر المختار ٥/ ٣٥٢.

(٢) الإقناع ٤/ ٣٦٣.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٥١؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٢/ ٨٣٤.

(٤) الربيع بن يونس بن محمد بن أبي فروة كيسان، من موالي بني العباسي، أبو الفضل، وزير من العقلاء الموصوفين بالحزم. اتخذه المنصور العباسي حاجبًا ثم استوزره، وكان متهيبًا محسنًا إدارة الشؤون. عاش إلى خلافة المهدي العباسي وحظي عنده، ولد عام ١١١هـ/ ٧٣٠م، توفي عام ١٦٩هـ/ ٧٨٦م. البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي، تاريخ بغداد أو مدينة السلام، المكتبة السلفية – المدينة المنورة، د. ت، ٨/ ٤١٤.

(٥) ابن أبي الدم: شهاب الدين إبراهيم بن عبدالله، أدب القضاء أو الدرر المنظومات في الأقضية والحكومات، تحقيق محمد عطا، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٢٨.

وهكذا يتعين على إمام المسلمين أن يولِّي من يرى أنه كفء لشغل وظيفة القضاء، خصوصاً إذا لم يوجد في البلد غيره أو أكفأ منه، ومتى امتنع من الإجابة فهو آثم، والأصحُّ أن يجبره الإمام على ذلك[١].

الشروط الواجب توافرها في القاضي:

لقد وضع الفقهاء شروطًا دقيقة وأساسية يجب أن تتوافر فيمن يتولى القضاء وهي:

١ - الإسلام.

٢ - البلوغ.

٣ - الذكورة.

٤ - العقل.

٥ - الحرية.

٦ - سلامة الحواس.

٧ - العدالة.

٨ - الاجتهاد.

٩ - العلم بالأحكام الشرعية[٢].

وكان يشترط فيهم خبرة لغوية ومعرفة بأعراف المجتمع[٣]، ولم تشر المصادر التاريخية إلى وجود مبنى خاص كانت تُعقد فيه المحاكمات بين الخصوم إلا أن كثيرًا من المصادر التاريخية أشارت إلى أن المحاكمات كانت

(١) ابن أبي الدم: أدب القضاء، ص٤٢.
(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٦٥-٦٦؛ السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص٥٥-٥٨.
(٣) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٨٩.

تُعقد في المسجد الحرام، هذا وقد بنى ناظر الحرم سودون المحمدي[١] دكة[٢] عند باب البغلة[٣] - أحد أبواب المسجد الحرام -؛ ليجلس عليها أبو اليمن النويري، للحكم فيها وكان ذلك في عام ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م[٤]، إلا أن هذه الدكة قد أزيلت بعد عقد مجلس حضره صاحب مكة وأمير الحج المصري، والقضاة، وأعيان الحجاج، واتفق رأي الجماعة بإخراجها وإزالتها لأنها محدثٌ يستحق الزوال. وكان ذلك في ١١ الحجة من سنة ٨٤٦هـ/ ١٤٤٢م[٥].

وربما منعت الدكة وعُدَّتْ محدثة، لخوفهم أن يتخذ البوابون كل في بابه دكة، وبذلك تضايق الداخل والخارج من المسجد الحرام، أو لعلهم خافوا أن يضع كل بواب من البوابين دكة في بابه ويقوم كل منهم بالقضاء والإفتاء، من عرف ومن لم يعرف، وبذلك يُدخِلون على الدين ما ليس فيه، فلذلك قاموا بهدمها من باب سد الذرائع. والله أعلم.

كما كان بعض القضاة يعقدون مجالسهم في بعض المباني العامة؛

---

(١) هو: سودون المحمدي، مملوك سودون المحمدي الظاهري برقوق، ناظر الحرم المكي الشريف، جدد مقام السادة الحنفية في سنة ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م، ولاه السيد بركات نظر الحرم عوضًا عن داود الكيلاني، كان دينًا عفيفًا، مات بدمشق سنة ٨٥٠هـ/ ١٤٤٦م. ابن فهد: الدر الكمين، ٢/ ٧٦٢.

(٢) الدكة: بناء يُسّطح أعلاه، والدكة والدكان الذي يُقعد عليه، وهي لفظ عربي معناه المصطبة أو الصُّفّة. ابن منظور: اللسان، ٢/ ١٤٠٤؛ دهمان: محمد أحمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ط١، دار الفكر - دمشق، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٧٦.

(٣) في الجانب الجنوبي من المسجد الحرام، وسماه الأزرقي باب بني سفيان بن عبد الأسد. الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ٨٩؛ الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٢٣٨.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ١٧٤؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص١٦.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ١٩٨؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص٤٧.

كالمدارس، أو في بيوتهم[١]، والأفضل جلوس القاضي في صدر مجلسه ليعرفه الداخل عليه ببديهة النظر[٢].

وقد انقسمت المحاكمات في مكة المكرمة في العهد المملوكي قسمين هما:

١ - **جلسات محاكمات عليا**: ويرأسها عادة شريف مكة[٣]، ويحضر معه أمير الترك بمكة، كما يحضر القضاة الأربعة وأعيان مكة، وإذا كان الشريف غائبًا يرأس الجلسة أمير الترك[٤]، أو ناظر الحرم[٥]، أو القاضي الشافعي[٦]، وعادة تُعرض في هذه المحاكمات قضية أحد كبار رجال الدولة أو أحد العلماء أو أحد الأعيان طرفًا فيها، ويكون حضور القضاة عادة لمشاورتهم وأخذ رأيهم، ولكن القرار والحكم النهائي بيد رئيس الجلسة سواء كان شريف مكة أو أمير الترك أو الناظر، إلا أن قرار الشريف يُعَدُّ لاغيًا إذا وردت الأوامر من مصر بوجوب نقضه[٧].

٢ - **جلسات محاكمات عادية**: ويرأسها القاضي الشافعي[٨] وهو المقدم في مذهبه على المذاهب الأخرى؛ لأنه مذهب الدولة العباسية والمملوكية، ويحضر مجلس القضاء الكاتب والشهود، وعادة تكون لحل الخصومات

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ١٢٠؛ انظر أيضًا الطاسان: محمد صالح، القضاء في مكة في العهد المملوكي، مجلة العصور، م٦، ج٢، ١٩٩١م، ص٣١٢.

(٢) الماوردي: أبو الحسن بن محمد، أدب القاضي، تحقيق محيي السرحان، مطبعة العاني – بغداد، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، ٢/ ٢٤٣.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ١١٥، ١٧٢-١٧٣.

(٤) المصدر السابق، ٤/ ٧٢-٧٣.

(٥) المصدر السابق، ٤/ ١٨٤.

(٦) السخاوي: التبر المسبوك، ص١٧٥.

(٧) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ١٩٨؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص٤٧.

(٨) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ١٧٢.

العادية، أما إذا تعلق الأمـر ببعض أحوال البلد الاقتصادية أو الاجتماعية، فيحضر مع القاضي الشافعي القضاة الثلاثة الآخرون[١].

وقد وردت في بعض المصادر التاريخية بعض أنواع العقوبات التي كانت تصـدر، ومن هـذه العقوبات، التشـهير، والشـنق، والضـرب المبرح، والسـجن، والتعزيـر، وكشـف الـرأس، والمنع مـن العمـل، إذا كان ممـن يعمل فـي وظيفة دينية[٢].

مراسـم تعـيين القـاضـي:

لأهميـة القضاء وعلـو منزلتـه وكونه مـن الوظائـف ذات القيمـة العلمية السـامية، كان لا يُعيـن القاضـي إلا بأمـر من السـلطان[٣]، ويسـمى القـرار الذي يُعيـن به القاضي من قبل السـلطان «مثـالاً أو مرسـوماً»[٤] ويُقرأ قـرار التعيين في المسـجد الحرام بحضور أعيـان مكـة وعلمائها[٥]، وبعـد قراءة المرسـوم يلبس القاضي خلعة التعيين، والتي تأتي عادة مع مرسـوم التعييـن، وتكون كاملية بفرو سـمّور[٦]، ففي سـنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م، خُلع على القاضي الشافعي خلعة بيضاء، وفي سـنة ٩٠٣هــ/ ١٤٩٧م لبـس القاضي الشـافعي خلعـة، والقاضـي الحنفي

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٢٣٥-٢٣٦.
(٢) المصدر السابق، ٤/ ١١٥، ١٧٢، ٤٢٩؛ السـخاوي: التبر المسبوك، ص١٧، ١٧٦؛ الطاسان: القضاء في مكة، ص٣١٦.
(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٥.
(٤) المثال أو المرسـوم: هـو القرار الـذي يصدره السـلطان، والمرسـوم يكتبه مسـتوفي الصحبة، ويوقع عليه السـلطان، وفي ديوان الصحبة تثبت التواقيع والمراسـيم السـلطانية. القلقشـندي: صبح الأعشى، ٤/ ٢٩.
(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٤٢، ٤٥٨، ٤/ ٣٨١، ٤٥٢.
(٦) المصدر السابق، ٤/ ٣٩٥، ٤٨٣، ٥٠٧؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص١٨٦.

طرحة[١]، وفي سنة ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م، لبس قاضي القضاة الشافعي خلعة زرقاء بمقلب[٢] سّمور، وفي عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، ارتدى القاضي المالكي خلعة من المخمل بفرو سنجاب بمقلب سمّور، وهي من خلع السلطان للسيد الشريف بركات وخصَّه بها، وكانت تساوي خمسين دينارًا[٣]، ومما سبق يتضح لنا أنه كان للخلع أنواع وألوان مختلفة، كما كانت تصل للقضاة أثواب وشاشات من سلاطين البلدان الأخرى، وذلك عندما وصل للقضاة في عام ٩٠٤هـ-١٤٩٨م، فوط وأثواب كل ثوب ستة عشر ذراعًا[٤].

وعادة يخرج القاضي المعين من المسجد الحرام من باب الصفا إلى بيته راكبًا[٥].

وكما أن تعيين القاضي يتم عن طريق مرسوم سلطاني، فإن عزل القاضي يتم أيضًا عن طريق مرسوم سلطاني[٦]، وقد يُعزل القاضي إذا كثرت الشكوى منه[٧].

ونرى أن السلطان المملوكي هو الذي يعين القضاة تعيينًا مباشرًا ويعزلهم متى شاء، وهذا يدل على أهمية منصب القضاء ومكانته؛ إذ يأتي في الأهمية بعد منصب ولاية مكة[٨].

---

(١) الطرحة: غطاء يضعه القضاة على العمامة وكان مختصًا بالشافعية ثم استعمله الأحناف، وأول من طالب بوضع الطرحة من الأحناف هو السراج الهندي قاضي الحنفية في سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م، مساواة بالشافعية وأجيب إلى ذلك ولكنه توفي قبل أن يتم له الزي. ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤١٨، دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص١٠٧.

(٢) قلب الثوب: حوّله. ابن منظور: اللسان، ٥/ ٣٧١٣، ولعل المقصود بذلك أن جلد السمّور يقلب وتصنع منه الخلعة.

(٣) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٦٥، ٣/ ٧٩٠.

(٤) ابن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٦٥، ٣/ ٧٩٠.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٣٩.

(٦) المصدر السابق، ٣/ ٢٩٦، ٣٥٨، ٤٢٣، ٤٥٤.

(٧) العز بن فهد: غاية المرام، ٢/ ٥٩٥.

(٨) السليمان: علي بن حسين، العلاقات الحجازية المصرية زمن سلاطين المماليك، جامعة القاهرة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ص١٣٩.

وكانت العادة أن يستشير السلطان القاضي الشافعي عندما يريد تولية أحد قضاة المذاهب الأخرى، ومما يدل على ذلك غضب القاضي الشافعي وثورته بمكة في عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م، وذلك بسبب تولية إمام وقاضٍ مالكي بغير إذنه واستشارته[١].

مهمات القاضي وواجباته:

لأهمية القضاء، كان القاضي يقوم بعدة مهمات وهي:

١ - حضور قراءة المراسيم الواصلة من مصر عند الحطيم في الحرم المكي، مثل تعيين القضاة أو عزلهم[٢].

٢ - تحديد يوم الوقوف بعرفات، وذلك بتثبت رؤية الهلال[٣].

٣ - الإشراف على تنظيف المسجد الحرام، إذا دخل فيه السيل[٤].

٤ - المحافظة على أموال اليتامى[٥].

٥ - المشاركة في الإصلاحات والترميمات في المسجد الحرام، وهذا ما حدث في عام ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م، عندما انكسر بالرواق[٦] الغربي ثلاث خشبات، واحدة بالرواق الأوسط أمام باب العمرة، والاثنتان الأخريان فوق الدكة أمام دار السلسلة، وشرع النشارون بنشر الأخشاب التي

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٣٨؛ السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٣٩-١٤٠.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٢٩.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٢٣٣، ٤٧٢، ٥١٩، ٤/ ٢٤٧.

(٤) المصدر السابق، ٣/ ٢١٢ - ٢١٣.

(٥) المصدر السابق، ٣/ ٤٥١.

(٦) رواق البيت مقدمه، والرواق سقيفة للدراسة في مسجد أو غيره، والجمع أروقة. ابن منظور: اللسان، ٣/ ١٤٩؛ البقلي: محمد قنديل، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م، ص١٦٤.

أحضرها ناظر المسجد الحرام القاضي الجمالي أبو السعود بن ظهيرة من ثاني يوم[١].

٦ - فصل الخصومات والمنازعات وقطع التشاجر، إما بالصلح وإما بالحكم[٢].

٧ - الفصل في الخصومات على المناصب الدينية في المسجد الحرام[٣].

٨ - مراقبة الوعاظ والمدرسين بالحرم، ومعاقبة المخالفين، بمنعهم من العمل أو حبسهم[٤].

٩ - منع التعدي على حدود المسجد الحرام والمسعى[٥].

١٠ - عقد النكاح بين المتزوجين، وقد كان القاضي يذهب لعقد النكاح في منزل أصحاب الزواج، وأحيانًا يُقام العقد في المسجد الحرام بحضور القضاة والفقهاء والعلماء، وكان القاضي يحصل على مكافأة من قبل أصحاب الزواج، نظير قيامه بعقد النكاح[٦].

١١ - منع أصحاب الوظائف الدينية من أئمة ومحدثين ووعاظ من القيام بأعمالهم في حال الشكوى أو خروجهم عن أمر من أمور الدين[٧]، مثلما حدث في سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م، عندما مات الشريف عجلان بمكة، وطيف به حول الكعبة وقت صلاة الجمعة والخطيب على المنبر قبل أن يفتتح الخطبة، وسكت الخطيب حتى فرغوا من الطواف به، وكان

---

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٦١ -٦٢.
(٢) المصدر السابق، ٢/ ٥٤؛ الطاسان: القضاء في مكة، ص٣٠٤.
(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٧٢ -٧٣.
(٤) المصدر السابق، ٤/ ١٧٢.
(٥) المصدر السابق، ٤/ ٥٢٧ -٥٢٨.
(٦) المصدر السابق، ٤/ ٤٢٨.
(٧) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٤١٧؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص١٧.

ابنه يطوف معه، وجعله في مقام إبراهيم، وتقدم أبو القاسم بن الشّقيف الزيدي[١] للصلاة عليه، فمنعه قاضي مكة شهاب الدين الطبري، وصلَّى عليه بحضرة عجلان، ولم يقل شيئًا[٢].

وقد يجمع بعض القضاة بين عدد كبير من الوظائف، بل والمنافسة عليها والسعي لها بطرق شتى، ومن الوظائف التي جُمع بعضها لبعض القضاة إضافة إلى القضاء:

١ - الخطابة في المسجد الحرام[٣].

٢ - نظر المسجد الحرام - أي الإشراف على الأعمال التي تتم داخل الحرم ومراقبة العاملين.

٣ - الحسبة.

٤ - نظر الأربطة[٤].

٥ - نظر المطهرة[٥].

٦ - التدريس في المسجد الحرام أو في بعض مدارس مكة[٦].

(١) هو أبو القاسم بن محمد بن حسين بن محمد المعروف بابن الشقيف، كان كبير الزيدية بمكة ثم عقد له مجلس بحضرة القاضي عز الدين بن جماعة بمكة واستُتِيبَ فيه وأشهد على نفسه وكتب بخطه أنه تبرأ إلى الله من اعتقاد أهل البدع الزيدية والإمامية وغيرهم وأنه يواظب على الجمعة والجماعة وكان ذلك عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م. مات في عام ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م بمكة المكرمة. الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ٣١٣.

(٢) المصدر السابق، ٤/ ٤١٧؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٣٢؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص١٧.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٧٧؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٦٨، ٢٨٦، ٢٩٦.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٨، ٤٠٦، ٤/ ٧٣.

(٥) المصدر السابق، ٣/ ٦٠٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ٢١٤، والمطهرة: الإناء الذي يتوضأ به ويتطهر به، والجمع المطاهر، والمطهرة: البيت الذي يتطهر فيه. ابن منظور: اللسان، ٤/ ٢٧١٣.

(٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٦٨، ٤٨٥.

٧ - البوابة لأبواب المسجد الحرام[١].

٨ - نظر الأوقاف[٢].

٩ - قضاء الحرمين - مكة المكرمة والمدينة المنورة[٣].

وعندما يُعزل قاضٍ متولٍّ لعدد من الوظائف فإن العزل عادة يشمل جميع الوظائف، وتكـون أحيانًا جميع وظائفه مـن نصيب من يخلفـه[٤]. وعندما يتوفى القاضـي ولـه عدد مـن الوظائف، فإنهـا عادة تكـون من نصيـب ابنـه[٥]. أو ممن يخلفه[٦].

ومما يجـب التنويه إليه بـأن القضاة كانوا يشـاركون فـي تقريب وجهات النظر بين شـريف مكة وسـلاطين الدول الإسـلامية، كما قد تظهر الحاجة أحيانًا إلى إرسـالهم سـفراء؛ لأنهم بطبيعة الحال أقـدر من غيرهم علـى معالجة الأمور بروية وحكمة، كمـا يؤدي القاضي عملاً بـارزًا في المهمـات الصعبة وخصوصًا عندمـا يعلـم الشـريف أن السـلطان غيـر راضٍ عنه، فيطلـب من القاضـي معرفة السبب وعلاج المشكلة[٧].

وللقاضي أثرٌ بارز في المشـاركـة في المناسـبات الدينية المهمة، كغسـل

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٤٥.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٧٧.

(٣) ابن فهـد: الـدر الكميـن، ٢/ ٨٦٧، ٨٩٨، ١١٢٩، ١٢٨٨، ٣/ ١٥٥٩، ١٥٩٠؛ ابـن فهد: نيل المنى، ١/ ٢٥٠-٢٥٣.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٥٨.

(٥) المصدر السابق، ٣/ ٤٠٦.

(٦) المصدر السابق، ٣/ ٣٤٥.

(٧) المصـدر السـابق، ٣/ ٤٥١، ٤٥٨؛ الزهرانـي: عائـض محمـد عائـض، التاريـخ السياسـي والحضاري لمكة المكرمة من خلال كتاب نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى، رسالة دكتوراه غير منشورة - جامعة أم القرى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ص٧٠٣.

الكعبة المشرفة[١]، ويصلي أيضًا صلاة الاستسقاء ولكن قبل الصلاة يأمر الناس بالتوبة والاستغفار ثم الصيام ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع يصلى بهم، فيصلي بهم ركعتيْن، يقرأ في إحداهما بـ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ وفي الثانية «الغاشية» ثم يصعد المنبر ويخطب ثم يحوّل رداءه ويحوّل الناس ارديتهم اتباعًا للسنة النبوية[٢].

ويصلِّي أيضًا صلاة العيد، فيأتي لابسًا السواد، ثم يصعد إلى المنبر بعد أداء الصلاة فيخطب خطبة بليغة، والمؤذنون قعود دونه في أدراج المنبر، فعند افتتاحه فصول الخطبة بالتكبير، يكبرون بتكبيره، إلى أن يفرغ من الخطبة، ثم بعد ذلك يقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة والتسليم والدعاء وهم مسرورون فرحون بما آتاهم الله من فضله[٣].

والجدير بالذكر أن القاضي كان يتولى بوابة أبواب المسجد الحرام، إلى أن جاء مرسوم في عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م، يقضي بعزل البوابين القدامى - وكانوا قضاة وفقهاء - وتولية بوابين ليس لهم حرفة ولا صناعة ولا شغل، فقراء مساكين[٤]: والسبب في اختيارهم فقراء مساكين لا شغل لهم ولا حرفة ولا صناعة لأن في ذلك إعانة لهم.

قضاة المذاهب الأربعة:

لقد استحدث في مصر في عصر المماليك لأول مرة سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م، تعيين أربعة قضاة (الشافعي، الحنفي، المالكي، الحنبلي)

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٦٢١.
(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٣٨-١٣٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٢٩-٣١.
(٣) ابن جبير: الرحلة، ص١٣٤.
(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٤٥؛ ابن فهد: نيل المنى، ١/ ٣٠٨، لمزيد من التفصيل انظر الفصل الرابع: الوظائف الخدمية، المبحث الرابع: البواب، ص٢٩٩.

ويرأسـهم القاضي الشـافعي؛ لكون الدولة المملوكية تتبع المذهب الشـافعي[١]. ورغم أن سياسـة المماليك قد دعت إلى التسـامح الديني ورحابة الصدر بتوليتها أربعـة قضـاة، إلا أنهـا عملت على توسـيع شـقّة الخلاف بزيـادة الحساسـية بين الأشـخاص المتوليـن، حتى أن هـؤلاء العلماء قـد تناسـوا أنهم أبنـاء دين واحد وعاملوا بعضهـم معاملة جافـة[٢]. وكان القضاء قبـل ذلك يتبع أحـكام المذهب الشـافعي، إلا أن السـلطان الظاهـر بيبـرس[٣] رأى أن القاضي الشـافعي لا يوافق على إجـازة الأحكام التي لا تتفق ومذهبه، وفي هـذا تضييق على الناس، لذا فقد أُشـير عليه بإحداث وظائف أربعة قضاة على المذاهب السنية، ومنذ ذلك الوقت صار في مصر وغيرها من البـلاد التي تتبع الدولة المملوكيـة أربعة قضاة، يحكم كل منهـم بمذهبه ويأتي الشـافعي فـي مقدمتهم، ثـم الحنفي فالمالكـي وأخيرًا الحنبلي[٤].

أمـا القضاء في مكـة المكرمة، فـكان يتبـع المذهب الشـافعي، والقاضي بمكة كان شـافعيًا حتى عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م، حيث اسـتحدثت وظيفة القاضي الحنفي[٥]، ثم اسـتحدثت وظيفة القاضي المالكي في سـنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م[٦].

(١) ابـن إياس: محمد بـن أحمد، بدائع الزهـور في وقائع الدهـور، تحقيق محمـد مصطفى، ط١، فرانز شتاينر – فيسادن، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ١/ ٣٢١.

(٢) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٣٩-١٤٠.

(٣) هـو الملـك الظاهر بيبـرس البندقـداري العلائـي، بويـع بالسـلطنة وتلقـب بالظاهر في سـنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م في سـنة ٦٦٠هــ/ ١٢٦١م، رتب السـلطان الملك الظاهر بمصـر والقاهرة أربعة قضاة، لكل مذهب قاض ورتب لهم نواباً، مات السلطان بدمشـق سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م وعمره ٥٧ سـنة، فكانت مملكته سـبع عشـرة سـنة وشـهرين. ابـن دقمـاق: الجوهـر الثمين، ص٢٧١-٢٨٣.

(٤) المقريزي: السلوك، ج١، مج١/ ٥٤٠؛ الطبري: الأرج المسكي، ص٢٢٦.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٣٧.

(٦) المصدر السابق، ٣/ ٤٤٢.

أما القاضـي الحنبلي فكان آخرهم حيـث كان في عام ٨٠٩هــ/ ١٤٠٦م[١]، وقد تعددت وظائف قضـاة المذاهب، فقـد كان قضاة المذاهـب يجمعون إضافة إلى وظيفتهم وظائف أخرى وهي:

١ - إمامة مقام مذهبه بالمسجد الحرام[٢].

٢ - مشيخة الحرم المكي ونظره[٣].

٣ - بوابة أبواب الحرم المكي[٤].

٤ - الحسبة[٥].

٥ - التدريس[٦].

٦ - الإعادة[٧].

٧ - الإفتاء[٨].

٨ - نظر الأربطة[٩].

٩ - نظر المطاهر[١٠].

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ٤/ ٣٣٣.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب، ٧/ ١٧٧، ٢٧٧-٢٧٨.
(٣) المصدر السابق، ٨/ ٢٤٧.
(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٤٥.
(٥) الطاسان: القضاء في مكة، ص٣١٠.
(٦) ابن العماد: شذرات الذهب، ٧/ ١٦٨، ٣٢٩.
(٧) الطاسان: القضاء في مكة، ص٣١٠.
(٨) ابن العماد: شذرات الذهب، ٧/ ١٦٨، ٣٢٩.
(٩) الطاسان: القضاء في مكة، ص٣١٠.
(١٠) المرجع السابق، ص٣١٠.

كما وُجد هناك قاضي القضاة، وهو رئيس القضاة - أي كبيرهم -؛ ومهمته النظر في الأحكام الشرعية ودور الضرب وضبط العيار[١].

ولكثرة مهمات القاضي وتشعبها احتاج أن يكون له نائبٌ أو نواب، ينوبون عنه في بعض مهماته، وغالبًا ما يعين القاضي ابنه[٢]، أو أحد أقاربه[٣]، وقد يكون النائب على مذهب مخالف لمن ينوب عنه إلى أن صدر مرسوم للقاضي الشافعي في عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م، يقضي بأن لا يستنيب أحد من القضاة في غير مذهبه[٤].

وعادة يصدر قرار تعيين النائب من السلطان بمصر[٥]، وهناك ظاهرة ملحوظة ارتبطت بمنصب القضاء في مكة المكرمة ألا وهي نظام الوراثة في الأسرة الواحدة، مع أن السلطان المملوكي هو الذي يصدر قرار تعيين القاضي، إلا أننا نشاهد أن هذا المنصب لا يتعدى بعض البيوتات العريقة، فكان معظم القضاة في مكة المكرمة من «الفاسيين[٦] والطبريين والظهيريين والنويريين»، بل ويكاد القضاء أن يكون وراثيًا فيهم، وإن كان الطبريون قد حصلوا على النصيب

---

(١) المقريزي: أبو العباس أحمد بن علي، الخطط المقريزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، ط١، مكتبة مدبولي، ١٩٩٨م، ٢/ ١٥٢، والضرب من سك العملة وضبط العيار: يقال: عيّرت تعييرًا إذا وزنت واحدًا واحدًا. ابن منظور: اللسان، ٤/ ٦٢٣.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٥٤.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٤٨٠.

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٧٨٨-٧٨٩، ٣/ ٥٩.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٥٨.

(٦) عائلة الفاسيين: أول من نزل منهم في مكة محمد بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أحمد الحسني الفاسي، حيث يذكر أنه استوطن مكة منذ عام (٦٨٧هـ/ ١٢٨٨م) على أنه قدم في العام الذي قبله أي (٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م)، وقد توفي سنة (٧١٩هـ/ ١٣١٧م) بمصر ودفن بالقرافة، ويرجع نسب هذه الأسرة إلى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ومن هنا جاء لقب الحسني. الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٦٦-٣٦٧.

الأكبر، وذلك بسبب انقسامهم فريقين (شافعية ومالكية...) فربما تولى أحدهم قضاء الشافعية، في حين يتولى الآخر قضاء المالكية أو إمامتها[١]، ولكن هذا لا يعني عدم وجود قضاة من غير هذه الأسر العريقة، فمن القضاة الذين لا ينتمون إلى الأسر السابقة الذكر طاهر بن بشير الإربلي[٢].

وكان قضاة المذهبين الحنبلي والحنفي قلة، ولم يشتهروا كشهرة قضاة الشافعية والمالكية[٣].

وقد تأثر نظام القضاء في مكة المكرمة بنظام القضاء في الدولة المملوكية، بل كان تابعًا له؛ لكون الحجاز تابعًا للدولة المملوكية وتحت نفوذها، وقد أولت الدولة المملوكية الحجاز اهتماما خاصًا لوجود الحرميْن الشريفين، فإشرافها على الأماكن المقدسة في الحجاز يعطيها مزيدًا من الهيبة والاحترام والمكانة المهمة أمام المسلمين[٤].

رواتب القضاة:

لقد أشارت الوثائق في أوجه صرفها بتعيين رواتب للقضاة وتحديدها، ومن أهم هذه الوثائق وثيقة السلطان الأشرف شعبان، حيث حددت الوثيقة

---

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٤١.

(٢) هو طاهر بن بشير، قاضي الحرم، هذا ما وُجد بخطه في مكتوبين ثبتا عليه في شهر رمضان سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، ولم يُعرف من حاله سوى ذلك. ابن المستوفى: شرف الدين أبو البركات، تاريخ إربل، تحقيق سامي السيد، بغداد، ١٩٨٠م، ٢/ ٥٧٠؛ الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٢٩٣.

(٣) العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية بمكة، ص٢٥٥.

(٤) الطاسان: القضاء في مكة، ص٣٠١، وهذا هو ديدن الدول الإسلامية التي تعاقبت على حكم مكة فقد كانوا في تنافس مستمر على السيطرة على الحرمين الشريفين؛ لأن ذلك يعطيهم شرعية أمام المسلمين.

مبلغ ألـف درهم نقرة[١] للقاضي، شـريطة أن يكـون نظره على ما قرره السـلطان الأشـرف شـعبان على الوظائف المقـررة بالحـرم المكي، بحيث تكون مسـتمرة على الدوام[٢].

كما كانت تصـل صدقات مالية لبعـض القضاة نظير خدماتهـم، ففي عام ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م، وصلـت صدقـة كبيـرة مـن العثمانييـن، حصل القضـاة على سـبعين دينار من الظاهر ومـن الباطن مئه دينار، بـل أحيانًا يُمَّيز أحـد القضاة عن غيره فـي العطاء، مثلما حـدث في عام ٨٩٩هــ/ ١٤٩٣م، وزعـت صدقة أُعطي القاضي الشافعي منها مئة دينار، والقضاةُ الباقون عشرين ديناراً[٣].

كمـــا كانت تصـل إلى القضـاة بعض الصدقـات والرواتب من سـلاطين البلدان الإسـلامية وأمرائهم، فقـد أمر السـلطان المنصور قـلاوون المملوكي[٤] بصـرف النفقـات لأشـراف مكـة وعلمائهـا وقضاتها وأصحـاب المناصـب بها، وأجرى لهم الرواتب[٥]، كما كان الملك الناصر يبعث مرتبات القضاة[٦].

(١) الدراهـم النقـرة: أصل موضوعهـا أن يكـون ثلثاها من فضـة وثلثها مـن نحـاس، وتطبع بدور الضرب بالسـكة السـلطانية ويكون منها دراهم صحاح وقُراضات مكسـرة. القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/ ٤٣٩.

(٢) القحطانـي: أوقاف السـلطان الأشـرف شـعبان، ص١٠١، وقاضـي الحكم هو المسـؤول عن مراقبـة الوظائف الـواردة بهـذه الوقفية ومتابعة قيـام كل واحد بما اشـترط عليه مـن واجب أو مهمات بها نظير راتبه الذي خُصص له.

(٣) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٦٤.

(٤) هو السـلطان الملك المنصور سـيف الدين أبو المعالي وأبـو الفتح قلاوون بـن عبدالله الألفي التركي الصالحي النجمي، السابع من ملوك الترك بالديار المصرية والرابع ممن مسَّه الرق، ملك الديار المصرية بعد خلع الملك السـعيد وصـار مدبر مملكة الملك العادل بدر الدين سـلامش إلى أن خلع سلامش وتسلطن المنصور في سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م، توفي عام ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م وتسلطن بعده ابنه الملك الأشرف خليل. ابن العماد: شذرات الذهب، ٥/ ٤٠٩.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٤٤.

(٦) ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٨٩.

زِيّ القضاة:

أما زيُّ القضاة فنرى أن بعض المصادر التاريخية قد وصفت الخلعة السنوية التي تصل للقاضي، وهي مكونة من كاملية بفرو سمّور للقاضي الشافعي[١].

أما خلعة القاضي المالكي فهي جبتان من صوف؛ إحداهما خضراء والفوقانية بيضاء وفوق العمامة طرحة[٢]. ولم تذكر المصادر شيئًا عن خلع بقية القضاة، وهذه الخلع تلبس عادة عند قراءة قرار التعيين، كما سبقت الإشارة إليه.

ولم تشر المصادر التاريخية إلى نوعية اللباس الذي يلبسه قضاة مكة، إلا أن السيوطي وصف زِيّ القضاة في كتابه «حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة» [٣]، كما وصف القلقشندي في كتابه «صبح الأعشى» [٤]، زِيّ القضاة في مصر. ولأجل أن مكة تُعَدُّ تابعة للدولة المملوكية كان القضاة فيها أحياناً يلبسون الزي نفسه الذي يلبسه قضاة مصر، بل ربما ينطبق ذلك على بقية القضاة في البلدان التابعة للدولة المملوكية، حيث ذكر «أن القضاة يلبسون العمائم من الشاشات[٥] الكبار للغاية، ثم منهم من يرسل بين كتفيه ذؤابة[٦]

---

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ص١٨٦.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٦٠٣.

(٣) السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن محمد، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، مطبعة الموسوعات، مصر، د. ت، ٢/ ١٩٠/ ١٩١.

(٤) القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٢٤.

(٥) الشاش: قماش يوضع للجروح وعلى العمائم، وتجمع على شاشات، وقد تطلق على قماش الحطة، واستعمل أيضًا كنوع من زينة الحريم، ويزخرف بالذهب واللؤلؤ، وقد شاع استعماله في القرن الثامن الهجري وبولغ كثيرًا في الإنفاق عليه. إبراهيم: رجب عبدالجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث، تقديم محمود حجازي، ط١، الشركة الدولية للطباعة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٢٥١-٢٥٢.

(٦) ذؤابة: هي ما يسترسل من أطراف العمامة على الكتفين، وكان القضاة والعلماء في العصر المملوكي يرتدون العمائم الكبار وكان لبعضهم أطراف عمائم (أي ذوائب) تسترسل على الكتفين حتى تبلغ قربوس سروجهم. المرجع السابق، ص١٨٥.

تلحق قربوس[١] سرجه إذا ركب، ومنهم من يجعل عوض الذؤابة الطيلسان الفائق، ويلبس فوق ثيابه دلقًا[٢] متسع الأكمام طويلها، مفتوحًا فوق كتفيه بغير تفريج، سابلًا على قدميه، ويتميز قضاة القضاء الشافعي والحنفي بلبس طرحة تستر عمامته، وتنسدل على ظهره، وكان قبل ذلك مختصًا بالشافعي، ومن دون هذه منهم مَنْ تكون عمامته ألطف، ويلبس بدل الدلق فرجية[٣]، مفرجة من قدّامه من أعلاها إلى أسفلها، مزررة بالأزرار، وليس فيهم من يلبس الحرير، ولا ما غلب فيه الحرير، وإن كان شتاء، كان الفوقاني من ملبوسهم من الصوف الأبيض الملطّي، ولا يلبسون الملوّن إلا في بيوتهم، وربما لبسه بعضهم من الصوف في الطرقات، ويلبسون الخفاف من الأديم الطائفي بغير مهاميز»[٤].

وينبغي أن يكون القاضي نظيف الجسد، يأخذ شعره ويقلم ظفره، وأن يزيلُ الرائحة المكروهة من بدنه، وأن يستعمل من الطيب ما يخفى لونه وتظهر رائحته[٥].

---

(١) القربوس: حنو السرج وهما قربوسان. شير: الألفاظ الفارسية المعربة، ص١٢٤.

(٢) الدَلَق: بفتحتين وهي دويبة كالسمّور جلدها أبيض يُصنع منه فراء ويقال له فاقم بالتركية. ابن منظور: اللسان، ١٠/ ١٠٣؛ شير: الألفاظ الفارسية المعربة، ص٦٥.

(٣) فرجية: ثوب واسع فضفاض طويل الأكمام مفرّج من قدام من أعلاه إلى أسفله ومزرر بالأزرار له كمّان واسعان طويلان يتجاوزان قليلًا أطراف الأصابع، وهذا الثوب يعمل من الجوخ عادة، وقد كان هذا الثوب ملبوس العلماء والقضاة في مصر. وهي عادة لباس العلماء، وربما نسبت إلى السلطان فرج أحد سلاطين المماليك. إبراهيم: المعجم العربي لأسماء الملابس، ص٣٥١.

(٤) المهماز: آلة من الحديد تكون في رجل الفارس فوق كعبه وفوق الخف، ومؤخرة أصبع محدد الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحركت وأسرعت في المشي أو جدّت في العدو، وهو تارة يكون ذهباً خالصاً وتارة يكون من فضة، وتارة يكون من حديد مطلي بالذهب أو الفضة، وقد اعتاد القضاة والعلماء في زماننا تركه. القلقشندي: صبح الأعشى، ٢/ ١٣٦؛ البقلي: التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص٣٣٤. ولعل المقصود بالمهاميز هنا الأربطة.

(٥) الماوردي: أدب القاضي، ٢/ ٢٤٢، ٢٤٣.

وإذا كانت النظافة واستعمال الطيب مطلوبة من جميع الناس، وجمال الهيئة والمنظر مطالب أساسية يُطالب بها جميع الناس، بغض النظر عن المركز والمنصب والطبقة، فالقاضي أولى بذلك من غيره؛ لما تميز به منصبه الديني من أهمية كبرى ومكانة مرموقة في المجتمع المكي، ناهيك عن المكانة السامية في جميع البلدان الإسلامية.

المبحث الخامس

الفقيه

الفقه في اللغة:

العلم بالشيء والفهم له(١). ومنه قوله تعالى: ﴿لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾(٢).

والفقه في الاصطلاح:

هو العلم بالأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، فالفقيه هو العالم بالأحكام الشرعية(٣)، كما يُطلق الفقه على معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب، والندب، والإباحة، والكراهة، والمنع، والحرمة، معرفة مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله، وما قرره الشارع من الأدلة لاستنباط الأحكام منها(٤).

والفقيه من كان شديد الفهم، عالمًا، ذكيًا، عالمًا بالفقه(٥)، وربما يدرس

(١) ابن عباد: المحيط في اللغة، ٣/ ٣٤٧؛ ابن منظور: اللسان، ٥/ ١٥٠؛ الزبيدي: تاج العروس، ٩/ ٤٠٢.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

(٣) المنجد في اللغة والأعلام، ط٢٥، دار المشرق - بيروت، د. ت، ١/ ٥٩١؛ النباهين: علي سالم، نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر، ط١، دار الفكر العربي، ١٩٨١م، ص٣٠٧.

(٤) ابن خلدون: عبدالرحمن، المقدمة، ط٤، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص٤٤٥؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٢١٦.

(٥) المنجد الأبجدي، ط٢، دار المشرق - بيروت، ١٩٦٧م، ص٧٦٩.

الفقيه هذا العلم ويؤلف فيه، وكان الفقهاء هم القراء، ثم صاروا بعد ذلك جماعة تتبحر في علوم القرآن والشريعة الإسلامية، وقد كان الفقه والقراءة والتفسير والحديث علمًا واحدًا ثم ظهر بعد ذلك التخصص، وُسميّ علماء الفقه بالفقهاء، وإن كان الفقه يجمع كل هذه العلوم، كما كان يُطلق لقب الفقيه من باب المجاز على من يُؤَدّب الأيتام ومعلمي الكتاتيب، وقد ورد بهذه الدلالة بعض الوثائق المملوكية[١].

وقد ازدهر علم الفقه بمكة المكرمة خلال العصر المملوكي ازدهارا عظيمًا، والدليل على ذلك تخصص كثير من كبار العلماء في هذا العلم والتصدي لتدريسه في المسجد الحرام، والمدارس المحيطة به.

ومن أشهر علماء الفقه الذين درَّسوا علم الفقه وأصوله بالحرم المكي خلال العهد المملوكي: الشيخ عبدالرحمن بن محمد الأنصاري[٢]، وقد كان من أشهر علماء الفقه بالمسجد الحرام، واستفاد منه طلبة العلم استفادة عظيمة، حيث درّس الفقه بالمسجد الحرام وكان مشهورًا به[٣].

وأما الشيخ محمد بن أحمد الأنصاري المكي[٤]. فقد تصدى لتدريس

(١) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص١٠٧-١٠٨ و١١٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ٦/ ٢٢؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٢/ ٨٠٧-٨٠٨، ٨٢٠.

(٢) عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر بن علي بن يوسف الأنصاري الذروي المكي الشافعي، ويعرف بابن الجمال المصري، ولد بمكة ونشأ بها، ودرس علم الفقه على عدد من العلماء وأجاز له عدد منهم، واشتغل بتدريس الفقه واشتهر بمعرفته، وانتفع به عدد من طلبة العلم، توفي عام ٨٣٤هـ/ ١٤٣٠م، ودفن بالمعلاة. السخاوي: الضوء اللامع، ٤/ ١٢٦.

(٣) المصدر السابق، ٤/ ١٢٦.

(٤) محمد بن أحمد بن محمد بن عبدالمعطي الأنصاري المكي، أبو عبدالله بن الشيخ أبي العباس النحوي، قرأ الفقه على الشيخ عبدالرحمن الفاسي، تصدى لتدريس الفقه بعد والده، توفي عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م، ودفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٨٣، ٨٤.

الفقه في المسجد الحرام بعد والده[١]. وقد تصدى كثير من العلماء لتدريس الفقه في المسجد الحرام، حيث زخرت المصادر التاريخية بذكر كثير من العلماء الذين درَّسوا الفقه في الحرم المكي[٢].

وتكمن أهمية الفقيه وأهمية وظيفته في الدور الذي يقوم به؛ حيث يتصدى الفقهاء لتعليم الناس ووعظهم وتوجيههم إلى أمور دينهم، وعادة تُعقد مجالس العلم في حلقات المسجد، حيث كان لكل فقيه حلقته الخاصة به، وإضافة إلى إرشاد الناس، كان الفقيه يقوم بأعمال كثيرة لها صلة وثيقة بالدين، لذلك كان لزامًا على الفقيه أن يكون ملمًا بالفقه[٣].

والجدير بالذكر أن أبرز علماء الفقه بمكة المكرمة قضاتها، بل إن منصب القضاء لا يتقلده عادة إلا من كان متقنًا لعلم الفقه. وقد عمل قضاة مكة في تدريس الفقه بالمسجد الحرام ونهل من علمهم الواسع كثير من طلبة العلم[٤].

ولم تشر المصادر التاريخية التي اطلعت عليها إلى مراسم تعيين الفقهاء وعزلهم، ولكن إذا كان علماء الفقه بمكة المكرمة هم قضاتها. فنحن نستشف من ذلك أن مراسم تعيين الفقهاء وعزلهم هي مراسم تعيين القضاة نفسها[٥].

وانقسم الفقهاء منذ ظهور الفقه مذاهب: فهناك فقهاء السنة، وفقهاء

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٨٤.
(٢) انظر ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ١/ ٢٣٥؛ ابن فهد: الدر الكمين، ٢/ ١١١٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ٩٨.
(٣) الباشا: الفنون الإسلامية، ص٨٠٩ -٨١٣.
(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٠٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ١٨٢، ١١/ ٧٤.
(٥) انظر مراسم تعيين القضاة في المبحث الرابع: القاضي، ص ٩٤-٩٦.

الشيعة، وانقسم فقهاء السنة أربعة مذاهب مهمة، وهي المذهب الشافعي، والمذهب المالكي، والمذهب الحنبلي، والمذهب الحنفي[١].

وقد كان لكل مذهب من المذاهب ركن خاص به في المسجد الحرام، يُدرّس فيه الفقه، فنرى أن كل إمام من الأئمة الأربعة يدّرس ويصلي في ركنه المخصص له، فالإمام الشافعي خلف مقام إبراهيم، والإمام المالكي عند الركن اليماني، والحنفي مكانه أمام الميزاب، والإمام الحنبلي ما بين الحجر الأسود والركن اليماني، إضافة إلى وجود إمام خاص لفرقة الزيدية[٢].

وربما كان هؤلاء الأئمة يدرّسون الكتب ويستنبطون الأحكام من خلال المذاهب التي قاموا بتدريسها.

وكانت أكثر حلقات العلم تدريسًا في الحرم المكي حلقات علماء الشافعية، والحنفية، فهذا نزيل مكة عبدالله بن أبي بكر المعروف بالكردي (ت٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م)، اتخذ مجلسًا لتدريس فقه الشافعية، وكان يقوم بقراءة «الحاوي الصغير»[٣] على جماعة من أهل مكة والوافدين إليها، والذين كانوا يجتمعون عنده لهذا الغرض[٤].

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٠٢، ٢٠٧، ٣/ ١١٢، ٥/ ١٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٥؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٢/ ٨٠٨.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٧٨-٧٩؛ الفاسي: الزهور المقتطفة، ص١٤١. انظر المبحث الأول، الإمام، ص٤١.

(٣) الحاوي الصغير في الفروع للشيخ نجم الدين عبدالغفار بن عبدالكريم القزويني الشافعي المتوفى عام ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م، وهو من الكتب المعتَدّ بها بين الشافعية. حاجي خليفة: مصطفى بن عبدالله أفندي، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار العلوم الحديثة – بيروت، د. ت، ١/ ٦٢٥، ٦٢٧.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٣٢٧.

وقد كان أغلب علماء مكة المكرمة وفقهائها على المذهب الشافعي، وهذا يدل دلالة واضحة على أن أكثر طلبة العلم كانوا يدرسون الفقه الشافعي في الحرم المكي.

وهناك عدد كبير من المجاورين، الذين أثرو تأثيراً مهماً وبارزًا في تدريس الفقه في المسجد الحرام، بل قد تخصص بعضهم في تدريس الفقه الشافعي، مثل محمد بن أحمد بن عماد الأقفهسي (ت٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م)[(١)] الذي قرأ عليه المحب بن أبي السعادات بن ظهيرة كتابين من تأليفه، وقد برع في الفقه وأقرأ به في القاهرة ومكة المكرمة[(٢)].

وفي سنة ٨٧٢هـ/ ١٤٦٧م، جاور بمكة المكرمة محمد بن مراهم شمس الدين الشرواني[(٣)] القاهري، وأقرأ فيها بالحرم المكي جزء الحج من كتاب «إحياء علوم الدين»[(٤)] للغزالي وغيره[(٥)].

وهكذا نرى مدى إفادة المجاورين لأهل مكة المكرمة، وإذا كانوا أفادوا فقد استفادوا أيضًا من علمائها وقضاتها، ويدل هذا دلالة واضحة على التبادل الثقافي بين علماء مكة والمجاورين لها.

أما فقهاءُ المذاهب الأربعة، فقد كان لهم أثر مهم وإيجابي في تدريس

---

(١) أقفهس: اسم بلد بمصر بالصعيد من كورة البهنسا. الحموي: معجم البلدان، ١/ ٣١٢.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٢٤-٢٥.

(٣) نسبة إلى مدينة شروان وهي من نواحي الأبواب الذي تسميه الفرس بندر بناها أنو شروان. الحموي: معجم البلدان، ٥/ ٢٥٨.

(٤) إحياء علوم الدين للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي المتوفى بطوس عام ٥٠٥هـ/ ١١١١م، وهو من أجلّ كتب المواعظ وأعظمها، وهو مرتب على أربعة أقسام ربع العبادات وربع العادات وربع المهلكات وربع المنجيات في كل منها عشرة كتب. حاجي خليفة: كشف الظنون، ١/ ٢٣.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ١٠/ ٤٨.

الفقه في الحرم المكي، ومنهم عبدالرحمن بن محمد بن محمد الفاسي (ت٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)، الذي كان له مجلسٌ لتدريس الفقه في المسجد الحرام، تناول فيه كتب المالكية مثل «الرسالة»[١] و«مختصر ابن الحاجب الفرعي»[٢] و«مختصر ابن الجلاب»[٣] و«الموطأ»[٤]، وقد استفاد من علمه الغزير كثير من طلبة العلم في المسجد الحرام[٥].

وهناك أيضًا شمس الدين البساطي (ت٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م) فقيه المالكية، والذي أقرأ بالمسجد الحرام حين مجاورته بها «المختصر الفرعي لابن الحاجب» في خمسة أشهر في نحو مئة وعشرين مجلسًا[٦].

وهناك أيضًا معمر بن يحيي بن أبي الخير المكي المالكي (ت٨٩٧هـ/ ١٤٩١م)، والذي درّس أيضًا بالمسجد الحرام في الفقه والأصول وغيرها من العلوم[٧].

---

(١) هي رسالة ابن أبي زيد في الفقه المالكي، للإمام أبي محمد عبدالله بن أبي زيد المالكي القيرواني المتوفى عام ٣٨٩هـ/ ٩٩٨م. حاجي خليفة: كشف الظنون، ١/ ٨٤١.

(٢) وهو مختصر في فروع المالكية شرحه محمد بن حسن المالقي المتوفى، ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م. حاجي خليفة: كشف الظنون، ٢/ ١٦٢٥.

(٣) نسبة إلى عبيدالله بن الحسن بن الجلاب البصري، أبي القاسم البغدادي، فقيه أصولي، توفي عند منصرفه من الحج، في عام ٣٧٨هـ/ ٩٨٨م، وله كتب منها كتاب في «مسائل الخلاف» وكتاب «التفريع في المذهب». البغدادي: إسماعيل باشا، هدية العارفين، دار العلوم الحديثة – بيروت، د. ت، ١/ ٦٤٧؛ كحالة: رضا، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي – بيروت، د. ت، ٦/ ٢٣٨-٢٣٩.

(٤) كتاب في الفقه والحديث للإمام مالك بن أنس المتوفى عام ١٧٩هـ/ ٧٩٥م. حاجي خليفة: كشف الظنون، ٢/ ١٩٠٧.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٥٧ – ٥٨.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٥.

(٧) المصدر السابق، ١٠/ ١٦٢.

ومن كبار فقهاء الشافعية بمكة محمد بن عبدالله بن ظهيرة، والذي كان كثير الاستحضار للفقه، وصنَّف شرحًا على الحاوي الصغير، وكان أكثر من يفتي بمكة حيث كانت ترد إليه كثير من الفتاوى من بلاد الطائف وليّه[١].

كما كان لأحمد بن عبدالله الغزي حلقة في المسجد الحرام يقرئ فيها[٢].

كما درّس بالحرمين الشريفين محمد بن عبدالقادر بن عمر السنجاري الشيرازي المعروف بالسكاكيني (ت٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م)، وقد انتفع به كثير من الطلبة فيهما، ومهر في القراءات والفقه حيث قيل: إنه أقرأ الحاوي ثلاثين مرة[٣].

وممن اشتهر من علماء المذهب الحنفي في تدريس الفقه في المسجد الحرام، المعيد الحنفي محمد بن محمود بن محمود الخوارزمي المكي (٨١٣هـ/ ١٤١٠م)، وقد عُرف بالمعيد؛ لكونه كان معيدًا بدرس يلبغا، وكان عارفًا بالعربية مشاركًا في الفقه، أخذ عنه كثير من فقهاء مكة والمدينة، كما كان إمام مقام الحنفية بمكة[٤].

وعندما جاور بالحرمين الشريفين فقيه الأحناف بمصر كمال الدين بن الهمام محمد بن عبدالواحد السيواسي (ت٨٦١هـ/ ١٤٥١م)، نشر فيها علمًا

---

(١) لِيّه: وادٍ فحل من أودية الطائف، كثير المياه والزرع والأهل، ويسيل من السراة الواقعة جنوب غرب الطائف، أعلاه لثقيف وأسفله لنصر بن معاوية. الفاسي: العقد الثمين، ١/ ١٩٥؛ البلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص٢٧٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ٣/ ٢٠٣، ٢٠٤؛ الشوكاني: محمد بن علي، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار المعرفة – بيروت، د. ت، ١/ ٧٥.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ٨/ ٦٧، ٦٩.

(٤) المصدر السابق، ١٠/ ٤٥، ٤٦.

واسعًا، واستفاد منه طلبة الحرمين، وسمع عليه فيها خلق كثير منهم السخاوي، كما أخذ عنه كثير من العلماء[١].

أما علماء الحنابلة، فقد كان نشاطهم ضئيلًا في تدريس الفقه وعلومه في المسجد الحرام، ولعل من أهم الذين درّسوا في المسجد الحرام محمد بن أحمد بن سعيد المقدسي ثم الحلبي الحنبلي (ت٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)، درّس الفقه، وله مؤلفات وتصانيف فيه مثل «الشافي في الكافي»[٢] وغيرها من المؤلفات، وقد سمع منه كثير من العلماء، كما كان إمامًا عالمًا، كثير الاستحضار لفروع مذهبه[٣].

وهناك الكثير من علماء المذاهب الأربعة الذين درّسوا في المسجد الحرام وبرعوا في علم الفقه وغيره من العلوم، إضافة إلى كثير من علماء الأسر المكية التي شاركت في هذا العلم -كالفاسيين، والطبريين، والظهيريين - وإن كان المجال لا يسمح بذكرهم إلا أنهم قد أثروا تأثيراً بارزًا ومهمًا في تدريس الفقه في المسجد الحرام، وما هؤلاء العلماء الذين ذكرناهم إلا على سبيل المثال لا الحصر.

كيفية تعليم الفقه في المسجد الحرام:

لقد كان يُعَلَّمُ الفقه في المسجد الحرام عن طريق كتاب أو عدة كتب على الشيخ الفقيه، وعادة يكون الكتاب المقروء إما من تأليف الشيخ أو من الكتب

(١) السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، القاهرة، ١٩٦٤م، ١/ ١٦٦.

(٢) الشافي في اختيار الكافي للشيخ أبي البقاء محمد بن أحمد بن الضياء المكي المتوفى سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م. حاجي خليفة: كشف الظنون، ٢/ ١٠٢٢.

(٣) ابن فهد: معجم الشيوخ، ص٢٠٤، ٢٠٥؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٦٣.

التي أُلفت سلفًا في علم الفقه، فالشيخ عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي[١]، قرأ على الشيخ النجم الطبري كتاب الحاوي وكتاب التنبيه[٢].

وكان غالب التعليم عن طريق حفظ كتب العلم عن ظهر غيب، ثم تسميعها على العلماء، وقد كان العلماء يحفظون عددًا كبيرًا من كتب العلم في الفقه وغيره، فقد حفظ الشيخ أبو بكر بن محمد بن أبي بكر الذروي[٣] كتاب المنهاج في الفقه وكتاب مختصر ابن الحاجب في أصول الفقه، وغيرها من الكتب العلمية[٤].

وكان بعض طلبة العلم يأخذون العلم عن عدد من العلماء، ولا يقتصرون في ذلك على عالم واحد، وخير ما نستشهد به في هذا المقام الشيخ محمد بن أحمد بن قاسم الحرازي[٥] الذي أخذ علم الفقه عن والده الشيخ أحمد، ولم يكتف بذلك، بل درس الفقه أيضًا على الشيخ نجم الدين الأصفواني[٦]، وقد

(١) هو عبدالله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي اليمني، شيخ الحرم، يلقب عفيف الدين ولد سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م تقريبًا، أخذ عن عدد من العلماء، كان عارفًا بالفقه والأصلين والعربية وغيرها من العلوم، توفي بمكة عام ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م، ودفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٣١٩- ٣٢٢.

(٢) المصدر السابق، ٤/ ٣٢٠.

(٣) أبو بكر بن محمد بن أبي بكر بن علي بن يوسف الذروي الأصل المكي، فخر الدين بن جمال الدين المعروف والده بالمرشدي المصري، حفظ «المنهاج» في الفقه «ومختصر ابن الحاجب» في الأصول وغير ذلك، توفي يوم عرفة سنة ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م. المصدر السابق، ٦/ ٢٧٢-٢٧٣.

(٤) المصدر السابق، ٦/ ٢٧٢.

(٥) هو محمد بن أحمد بن قاسم بن عبدالرحمن العمري: أبو الفضل، المعروف بابن الحرازي، المكي، الشافعي، أخذ الفقه عن والده الشيخ شهاب الدين الحرازي والشيخ نجم الدين الأصفواني، درس وأفتى ووعظ، كما كان يعمل ميعادًا في آخر النهار عند الأسطوانة الحمراء، توفي بمكة في عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م. المصدر السابق، ٢/ ٧٣.

(٦) المصدر السابق، ٢/ ٧٣؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ٢/ ٣٥٠.

كان العلماء إذا آنسوا من طالب النبوغ والفهم الواسع والمقدرة على استنباط الأحكام أجازوه بالتدريس والإفتاء[١].

وقد يجمع الفقهاء بين عدد من الوظائف من أهمها:

١ - الإفتاء[٢].

٢ - القضاء[٣].

٣ - التدريس[٤].

٤ - الإمامة[٥].

رواتب الفقهاء:

لم تذكر المصادر التاريخية ما يتقاضاه الفقيه بالتحديد، نظير عمله في المسجد الحرام، ولكنها ذكرت أن بعض الملوك قد يقوم بإنشاء بعض المدارس جانب المسجد الحرام، ويوقفها على الفقهاء، مثلما فعل الملك المنصور صاحب اليمن، عندما عمَّر مدرسة بالجانب الغربي من المسجد الحرام وأوقفها على الفقهاء الشافعية[٦].

وقد كان يحصل الفقهاء على نصيب من الصدقات والهدايا التي كانت تصل من بعض الملوك والأمراء، شأنهم في ذلك شأن موظفي المسجد الحرام،

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٤٨.

(٢) الفاسي، العقد الثمين، ٣/ ٣٦؛ الغازي: عبدالله بن محمد، إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام، مخطوط - مكتبة الحرم المكي الشريف، رقم ٢٧٤٤، تاريخ، ٢/ ١٣٧.

(٣) ابن فهد: معجم الشيوخ، ص٢٠٤ - ٢٠٥.

(٤) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ٣/ ٢٠٣.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ١٠/ ٤٥ - ٤٦.

(٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٠ و٢١٨.

ففي عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م، حجَّ الظاهر بيبرس، وقام في أثناء حجّه بأعمال بر كثيرة، وشملت صدقته جميع أهل مكة فضلًا عن اهتمامه الخاص بالفقهاء(١).

وفي عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، حج الملك الناصر محمد بن قلاوون(٢)، وتصدق على أهل الحرم والفقهاء(٣).

الإفتاء:

وهناك وظيفة في المسجد الحرام ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بوظيفة الفقيه، وهي وظيفة «المفتي»، وقبل أن نتطرق للحديث عن وظيفة المفتي، ومهمته لا بد من ذكر تعريف موجز لهذه الوظيفة.

في اللغة:

أفتاه في الأمر: أبان له، وأفتى الرجل في المسألة، واستفتيته فيها فأفتاني إفتاء، وفتى وفتوى اسمان يوضعان موضع الإفتاء، والفتيا والفُتوى والفَتوى، ما أفتى به الفقيه(٤).

قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ﴾(٥).

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٩٧؛ الهمزاني: بندر محمد، أثر السلاطين والأمراء والأعيان في تنشيط الحركة العلمية في مكة، مجلة كلية اللغة العربية، العدد العشرون، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، ص٤٦٦.

(٢) هو الملك الناصر محمد بن قلاوون الصالحي، تولى المملكة بعد قتل أخيه الأشرف في عام ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م، فلما كان عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م عزل فكانت مدة ملكه ١١ شهرًا وأيامًا، ثم حبس على كرسي المملكة في عام ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م وهو ابن ١٤ سنة واستمرت مملكته الثانية ١٠ سنين وأشهر، ثم تسلطن في عام ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، وفي عام ٧١٥هـ/ ١٣١٥م قام بإبطال المكوس، وفي عام ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م مات الملك الناصر محمد بن قلاوون ومولده سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م وعمره ٥٧ وأشهر. ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص٣١٦، ٣٢٩، ٣٤١، ٣٦٣.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ١٩٩؛ الجزيري: الدرر الفرائد، ١/ ٦٣٨؛ انظر أيضًا الهمزاني: أثر السلاطين والأمراء، ص٤٦٧.

(٤) ابن منظور: اللسان، ٥/ ٣٣٤٨.

(٥) سورة النساء: الآية ١٧٦.

والفتوى: اسم من أفتى العالم إذا بيّن الحكم، واستفتيته سألته أن يُفتي[١].

في الاصطلاح:

اسم وظيفة دينية، والمفتي هو الذي يفتي في الأمور الدينية، ويرد على السائلين بخصوص الحرام والحلال، ويحل المشكلات الدينية المتعلقة بالشرع[٢].

ويُفهم من سياق الكلام أن مهمة المفتي مهمة دينية بحتة، تتلخص في الرد على أسئلة الناس وفتاويهم والمسائل المتعلقة بأمورهم الدينية والدنيوية، وما يحدث لهم من حوادث[٣].

ولذلك كان لزامًا على المفتي أن يكون عالمًا، ومتمكنًا في الفقه والشريعة والحديث وغيرها من العلوم الدينية[٤].

والفتيا في صدر الإسلام مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وكان الخلفاء يستفتون كبار الصحابة فيما يعرض لهم من الحوادث، فقد استفتى عمرُ عبدَالرحمن بن عوف[٥] فيمن قتل أرنبًا في الحرم، كما كان عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس، إذا قدما موسم الحج يجلسان للناس في رحاب الحرمين الشريفين، يستفتونهم في أمور دينهم ودنياهم، فكان

(١) الفيومي: المصباح المنير، ص١٧٥.
(٢) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص١٠١-١٠٥؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٣/ ١١١٦.
(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ١١٠-١١١.
(٤) السبكي: معيد النعم، ٦٧، ١٠١- ١٠٤؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٣/ ١١١٦.
(٥) عبدالرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عبد بن الحارث بن زهرة، بن كلاب القرشي الزهري، أبو محمد، أحد العشرة المبشرين بالجنة، كان إسلامه قبل دخول الرسول ﷺ دار الأرقم وسماه عبدالرحمن، شهد بدرًا وأحدًا، وشهد المشاهد كلها مع النبي ﷺ، قال النبي ﷺ في حقه: «أمين في السماء وأمين في الأرض» وكان أمينه على نسائه، كثير أفعال الخير، توفي عام ٣١هـ/ ٦٥١م وهو ابن ٧٥ سنة ودفن بالبقيع. الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٥٠.

ابن عباس يجيب ويفتي في كل ما سُـئل عنه، وكان ابن عمر يرد أكثر مما يفتي[١].

ولخطر الفتيـا كان الصحابة يحيلون على بعضهم فيها، وكان المتصدرون لها منهم على كثرتهم سـبعة عشـر صحابيًا، وإنمـا كانـوا يتباعـدون عنها خوف الخطأ في الأحكام[٢].

وعادة تقرأ الفتاوى في الحرم المكي الشـريف بحضـور القضاة والأعيان على رؤوس الأشهاد[٣].

وقد كان أكثر مـن يفتي بمكة المكرمة هم القضـاة الأربعة، وكان كثير من العلمـاء يتحرجون من الإفتـاء لوجود القضـاة الأربعة بمكـة، وذلك لأن القضاة على درجة كبيرة من العلـم الشرعي ومـرد الفتيا إليهم، وغالبًا ما كان المـُفتـون من غير القضـاة يفتون باللسـان[٤]، ويدل ذلك دلالـة واضحة على احترام هـؤلاء المفتين لقضاة مكة المكرمة، كما يدل على أن قضاة مكة كانوا يكتبون فتاويهم ويرسـلون بها إلى من يسـأل في مكة المكرمـة وخارجها[٥]، وكان الإفتاء غالبًا ما يتم في المسـجد الحرام، ومنهم من يفتي في أماكن مثل

(١) الذهبي: محمد بن أحمد، سـير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط١، مؤسسة الرسـالة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ٣/ ٢٢١-٢٢٢؛ طراوة: حجازي حسـن، دور الحـج في إثراء الحركـة العلمية فـي الحرمين الشـريفين في عهـدي الراشـدين والأمويـين، ط١، مكتبة زهراء الشـرق - القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٨٥؛ الخضري: محمد بك، إتمام الوفاء في سـيرة الخلفاء، المكتبة الثقافية - بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص١١٥-١١٦.

(٢) الخضري: إتمام الوفاء، ص١١٦.

(٣) العز بن فهد: غاية المرام، ٢/ ٤١٦.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ٥/ ١٨٣.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٠٤-٢٠٥.

المشـاعر؛ وذلـك لإجابـة الحجاج في موسـم الحـج وخصوصاً فيمـا يتعلق بالمناسك[١].

وعـادة لا يفتـي مـن العلمـاء إلا مـن كان عالمًـا بالفقـه، وإذا درس على يديه أحد الطلبـة ولمس فيه العلـم والقدرة على اسـتنباط الأحـكام الفقهية، أذن له بالإفتـاء[٢]، وكان العالم المفتي بمكـة في العصر المملوكـي يحصل على إذن بالإفتاء من عـدد من العلماء الذيـن درس على أيديهم، وتلقى منهـم العلوم التي سوف يفتي بها[٣].

وكان بعـض العلمـاء إذا أنـس من عالـم غـزارةً في العلـم وفهمـاً عميقاً للأحـكام، طلـب منـه أن يفتي المسـلمين فيمـا يحتاجـون إليـه، وخير مـا يمثل ذلك طلب الشـيخ ابن خشـيش[٤] من الشـيخ أحمد بن أبي بكر عبدالله بن خليل القسطلاني المعروف بابن خليل المالكي[٥]. أن يفتي الناس، وذلك لما لمسه فيه من علم واسع وفهم عميق لأحكام الشريعة[٦].

صـور الإفـتـاء:

كان العلمـاء بمكة المكرمة من غيـر القضاة يفتون من يسـألهم، ولكن لا

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ١٧٠.

(٢) المصدر السابق، ٢/ ٤٨.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٨٩-٩٠.

(٤) محمد بن عيسى بن سالم بن علي الأزدي الدوسـي، الفقيه، الإمام، مفتي الحرمين، المعروف بابن خشـيش، ولد عـام ٦٠١هـ/ ١٢٠٤م، وتوفي عام ٦٧٤هـ/ ١٢٧٥م. المصدر السـابق، ٢/ ٣٣٠-٣٣١.

(٥) أحمد بـن أبي بكر عبدالله بن خليل بـن إبراهيم بن يحيي، يكني أبا الفضـل ويُعرف بابن خليل المكي الشـافعي، أذن له ابن خشـيش بالإفتاء، حيث طلـب منه بأن يلبي حاجتـه وهي أن يفتي الناس، مات سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م، بمكة ودفن بالمعلاة. المصدر السابق، ٣/ ٣٦-٣٧.

(٦) المصدر السابق، ٣/ ٣٧.

تكتب فتواهم وإنما تكون فتوى شفهية – كما سبقت الإشارة إليه – وقد اشتهر عدد من هؤلاء العلماء منهم:

الشيخ عبدالوهاب بن عبدالله بن أسعد اليافعي (ت٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م)، فقد ورد أنه كان يفتي باللسان قليلًا، وذلك لاشتغاله بالتجارة[١].

ومن العلماء من يفتي كتابة، وهو ما يُسمى الإفتاء المكتوب، وهو الأسئلة التي ترد إلى العلماء من خارج مكة، وكان أشهر من كتب فتياه وأرسل بها الشيخ محمد بن عبدالله بن ظهيرة (ت٨١٧هـ/ ١٤١٤م)، فكان يكتب فتاويه ويرسل بها إلى اليمن والطائف وقراها، وهذا يدل دلالة واضحة وجلية على مدى شهرة هذا المفتي وغزارة علمه[٢].

وإضافة إلى تولي المفتي وظيفة الإفتاء، فإنه يتولى وظائف أخرى منها:

١ – الإمامة[٣].

٢ – التدريس[٤].

٣ – القضاء[٥].

٤ – فقيه[٦].

٥ – الخطابة[٧].

٦ – الإفتاء في الحرمين الشريفين[٨].

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ١٤٣.
(٢) المصدر السابق، ٢/ ٢٠٤.
(٣) المصدر السابق، ٤/ ٢٣٥، ٥/ ١٤٣.
(٤) المصدر السابق، ٥/ ١٤٣؛ ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ١٥٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٨/ ٦٨.
(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٤٦؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٣/ ١١١٧.
(٦) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٣٦.
(٧) المصدر السابق، ٤/ ٢٣٥.
(٨) المصدر السابق، ٢/ ٤٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ١/ ١٥٩، ٢/ ٩١٢.

المبحث السادس

سادن الكعبة

في اللغة:

السادن: خادم الكعبة، والجمع السدنة، والسدانة بالكسر الخدمة[1].

في الاصطلاح:

سدانة الكعبة أي: حجابتها وفتح بابها وإغلاقه وتلبيس كسوتها وإخراج القديم منها وسائر خدمتها، وما يتعلق بشؤونها ومقابلة زوارها وما يرد إليها وما يخرج منها، فإنه خاص ومتعلق بسدنتها بني أبي طلحة العبدريين الشيبيين الفاتحين بيت الله الحرام[2].

والسدنة حُجّاب البيت وقومة الأصنام في الجاهلية، وهو الأصل[3].

تاريخ السدانة في الجاهلية والإسلام:

السدانة وظيفة قديمة يعود تاريخها إلى بناء الكعبة نفسها، فكانت بيد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ثم في أولادهما، ثم أصبحت بيد جرهم، وبقيت فيهم

---

(١) ابن منظور: اللسان، ٣/ ١٩٧٧؛ الفيومي: المصباح المنير، ص١٠٣.

(٢) ابن منظور: اللسان، ٣/ ١٩٧٧؛ المنجد الأبجدي، ص٥٤٣؛ الحجبي: حسن بن عبدالقادر علي بن محمد الشيبي، هامش الإتمام على إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام، مخطوط، مكتبة الحرم المكي الشريف، رقم ٢٤٢١، تاريخ، ورقة ١١٣.

(٣) ابن منظور: اللسان، ٣/ ١٩٧٧.

نحو ثلاثمئة سنة فأكلوا مال الكعبة، واستحلوا حرمها، فصارت سدانة البيت ومفاتيحه إلى خزاعة، وبقيت بيدهم إلى أن انتهت إلى أبي غبشان، وكان رئيس قريش يومئذ قصي بن كلاب، فاجتمع مع أبي غبشان، فاشترى قصي منه سدانة البيت بزق خمر، وتسلم مفاتيحه وأشهد عليه بذلك، وأرسل ابنه عبد الدار بها إلى البيت فرفع صوته وقال: يا معشر قريش هذه المفاتيح، مفاتيح أبيكم إسماعيل، قد ردَّها الله عليكم من غير عار ولا ظلم، فلما صحا أبو غبشان ندم على ما فعل، وبذلك ولي قصي البيت وأمر مكة، وصارت إليه الحجابة والسقاية والرفادة[١] والندوة[٢] واللواء[٣]. ثم لما كبر قصي فوّض أمر هذه الوظائف إلى أبنائه، فكانت الرفادة والسقاية لعبد مناف، والسدانة واللواء والندوة لعبد الدار، ثم أخذها بعد عبد الدار ابنه عثمان ثم وليها بعد عثمان ابنه عبد العزى وبعد عبد العزى ابنه أبو طلحة عبدالله، ولم يزل ينتقل أمرها في الأولاد حتى انتهت في زمن النبي ﷺ إلى عثمان بن طلحة بن عبد الدار[٤]. فلما فتح النبي ﷺ مكة في السنة الثامنة من الهجرة، استدعى من عثمان فتح الباب؛ لتدخل عائشة رضي الله عنها الكعبة، ولكنه امتنع من فتحها في الليل محتجًا بأن ذلك لم تجرِ به عادة[٥]، وصعد السطح، وأبى أن يدفع المفتاح

---

(١) الرفادة: أصلها خراج من قريش كانت تخرجه من أموالها إلى قصي ليصنع به طعامًا للحجاج يأكله من ليس له سعة. ابن هشام: أبو محمد عبدالملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، ط٢، مصر، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، ١/ ١٣٥؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٧٤.

(٢) دار الندوة: هي الشورى يتشاورون فيها فيما نزل بهم من جسام الأمور ويزوجون فيها بناتهم، وتعقد برئاسة قصي. ابن هشام: السيرة النبوية، ١/ ١٢٥؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٧٤.

(٣) اللواء: لواء الحرب وهي الإشراف على شؤون الحرب ولا تعقد راية الحرب إلاّ بيد قصي. ابن هشام: السيرة النبوية، ١/ ١٢٥؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٧٤.

(٤) ابن كثير: عماد الدين إسماعيل، البداية والنهاية، ط١، مكتبة المعارف - بيروت، ١٩٦٦م، ٢/ ٢٠٥، ٢١١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٢٦٢-٢٦٤.

(٥) القلقشندي: أبو العباس أحمد، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، ط ١، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٣١٠.

إلى الرسول ﷺ وقال: لو علمت أنه رسول الله لم أمنعه، فلوى علي بن أبي طالب يده وأخذ منه المفتاح وفتح ودخل رسول الله ﷺ الكعبة وصلى ركعتيْن، وعندما خرج، قال العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: بأبي أنت وأمي يا رسول الله أعطنا الحجابة مع السقاية، فأنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾[1] فأمر الرسول ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن يرد المفتاح إلى عثمان، ويعتذر له، فقال عثمان: أكْرَهْتَ وآذيت ثم جئت تَرفقُ؟ فقال له علي: لقد أنزل الله تعالى في شأنك قرآنًا، وقرأ عليه الآية، فقال عثمان: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. ثم هبط جبريل عليه السلام على النبي ﷺ فأخبره أن السدانة في أولاد عثمان أبدًا، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: فما سمعتها من رسول الله قبل تلك الساعة، فتلاها، ثم دعا عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح وقال: غيبوه[2].

عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه عن النبي ﷺ لما ناول عثمان المفتاح قال له: غيِّبه[3]. ثم قال ﷺ: «خذوها يا بني أبي طلحة تالدة خالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم».

يا عثمان: «إن الله سبحانه وتعالى استأمنكم على بيته، فخذوه بأمانة الله عزّ وجلّ»[4]. فخرج عثمان بن طلحة إلى هجرته مع النبي ﷺ وأقام ابن عمه

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٨.

(٢) الطبري: أبو العباس أحمد بن عبدالله، القرى لقاصد أم القرى، تحقيق مصطفى السقا، دار الكتب العلمية - بيروت، د. ت، ص٥٠٣-٥٠٦؛ التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٦٠-٢٦٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٢٦٤-٢٦٥؛ نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص٣١٠؛ ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ٧٨-٨٠.

(٣) الفاكهي: أبو عبدالله محمد بن إسحاق، أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه، تحقيق عبدالملك بن دهيش، ط١، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٧٨م، ٥/ ٢٣٥.

(٤) الأزرقي: تاريخ مكة، ١/ ٢٧٨.

شيبة بن عثمان بن أبي طلحة[١]، فلم يزل يحجب وولده وولد أخيه وهب بن عثمان حتى قدم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة وولده مسافع بن طلحة بن أبي طلحة من المدينة المنورة - وكانوا بها دهرًا طويلًا - فلما قدموا حجبوا مع بني عمهم، فولد أبي طلحة جميعًا يحجبون[٢].

ويتضح مما ذُكر أن الحجابة كانت لبني عبد الدار في الجاهلية، وهي من الوظائف التي أقرها الرسول ﷺ، وبذلك لا يجوز لأحد أن ينزعها منهم، ولا أن يشرك معهم غيرهم إذا حافظوا على حرمته، ولازموا في خدمته الأدب، أما إذا لم يحفظوا حرمته فلا يَبْعد أن يجعل عليهم مشرفًا يمنعهم من هتك حرمته[٣].

وسدنة الكعبة يُسمون أحيانًا «الحجبة أو بني شيبة» نسبة إلى شيبة بن عثمان بن أبي طلحة عبدالله بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي، وفي قصي يجتمع نسبهم مع نسب النبي ﷺ[٤]، وهم بطن من عبد الدار من قريش من العدنانية، وهم حجبة الكعبة المعروفون ببني شيبة إلى اليوم[٥].

---

(١) هو شيبة بن عثمان بن طلحة ويقال: ابن أبي طلحة بن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي القرشي العبدري الحجبي المكي، يكنى أبا عثمان وقيل: أبا صفية، أسلم يوم الفتح وقيل: يوم خيبر ودفع رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة إليه وإلى ابن عمه عثمان بن طلحة بن أبي طلحة بأمر الله ووحيه، وكان شيبة قد خرج مع رسول الله ﷺ يوم حنين مشركًا يريد أن يقتل رسول الله غرة فأقبل يريده فرآه رسول الله ﷺ فقال: «يا شيبه هلّم، لا أم لك» فقذف الله في قلبه الرعب ودنا من الرسول فوضع يده على صدره ثم قال: «أخسأ عنك الشيطان» فأخذه ونزع فقذف الله في قلبه الإيمان فأسلم وقاتل مع الرسول ﷺ وكان ممن صبر معه يومئذ، وكان من خيار المسلمين. الفيروز أبادي: مجد الدين أبو طاهر محمد، إثارة الحجون لزيارة الحجون، مخطوط، جامعة الرياض، شؤون المكتبات، تحت رقم ١٨٤، ورقة ١٢؛ الشيبي: طلحة حسن، تحقيق المرام، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص١٠٠-١٠١.

(٢) ابن الضياء القرشي: أحوال مكة، ١/ ٧٨-٨٠.

(٣) الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٥٠٦؛ الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٢١١؛ ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ٨٢؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٧٣.

(٤) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٦٠.

(٥) القلقشندي: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص٣١٠.

وقد ترك سدنة الكعبة بنو عبد الدار، هذا الاسم بعد دخولهم في الدين الإسلامي؛ لأن عبد الدار معناه عبد الكعبة - والعبودية لله وحده - وانتسبوا إلى جدهم شيبة بن عثمان، وشيبة هو اسمه وليس وصفًا له[١].

والعادة عند السدنة أن يتولى سدانة الكعبة أكبرهم سنًا[٢]، وقد صرّح الفقهاء بتقديم أكبر السدنة، ولا يجوز تقديم أصغرهم على أكبرهم، ولو كان غير مرضي الحال، وليس لأحد عزله، ولو حُكم عليه بالحبس المؤبد ولو جُن جنونًا مطبقًا، بل يوكل من هو أرأف بحاله منهم[٣].

وأول من تولى السدانة في العهد المملوكي هو «إدريس بن غانم بن مفرج العبدري الشيبي»، أبو غانم المكي[٤] وكان ذلك في عام ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م[٥].

مراسم تعيين سدنة الكعبة وعزلهم:

لا يتولى السادن مهمات عمله إلا بعد صدور مرسوم سلطاني بذلك، مع أن هذه الأسرة قد وضعت لها نظامًا تسير عليه في تعيين السادن[٦]. وذلك لإقرار ما اتفقت عليه هذه الأسرة من اختيار السادن الجديد، والذي يكون عادة أكبرهم سنًا -كما سبقت الإشارة إليه - ولا يخلف الابن أباه في هذه الوظيفة، كما هو الحال في الوظائف الدينية الأخرى إلا في حالات نادرة، وذلك عندما يكون الابن هو أكبر الموجودين، حينها تنتقل هذه الوظيفة من الآباء إلى أكابر الأبناء[٧].

---

(١) الشيبي: تحقيق المرام، ص١٠٢.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٢٣، ٣٥٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ١١/ ١١.

(٣) الحجبي: محمد صالح، إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام، تحقيق إسماعيل حافظ، نادي مكة الأدبي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م، ص٢٧٩.

(٤) هو إدريس بن غانم بن مفرج العبدري الشيبي، أبو غانم المكي، شيخ الحجبة فاتح الكعبة، كان واليًا في سنة ٦٥٧هـ/ ١٢٥٨م. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٧٥.

(٥) المصدر السابق، ٣/ ١٧٥.

(٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٧٠، ٦١٠.

(٧) علي: جواد، تاريخ العرب قبل الإسلام، مطبعة المجمع العلمي، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م، ٥/ ١٨٨.

وأحيانًا يعين شريف مكة أحد أفراد الأسرة سادنًا في حالة غياب السادن الرسمي خارج مكـة[١]، ويصبح هذا التعيين مُلْغًى بورود أمر السـلطان بتثبيت أحدهما[٢]، أما فـي حالة وفاة السـادن وتعيين السـلطان سـادنًا مكانه، وكان السـادن الجديد خارج مكة، فإن السـلطان يُعين نائبًا عنه من الأسرة نفسـها إلى أن يحضر السادن المعين إلى مكة[٣]. وكذلك الحال إذا توفي السـادن وعين السلطان سادناً، وكان خارج مكة فيقوم بهذه المهمة أحد أفراد أسـرته إلى أن يحضر[٤]، ويعين السـادن نائبًا له من الأسـرة ذاتها في حالة عجزه عن القيام بمهمات الوظيفة[٥]، وإذا غاب السـادن خارج مكة فالعادة أن يتولى ابنه القيام بواجبات الوظيفة لحين عودته[٦]، أو يقوم بهذه المهمة أحد أفراد أسرته[٧].

وكانت تصـل الخلـع إلى شـيخ الحجبة مـن قبل السـلطان، يرسـلها مع خادمه[٨]، ومما شـوهد أن السـادن لا يتولى وظيفته مدة طويلة؛ وذلك لأن الذي يتولاها عـادة يكون أكبر العائلـة، فيتولاها وهو طاعن في السـن، فلا يسـتمر في الوظيفة عادة إلا أشـهر[٩]، ولكن هذا لا ينفي أن هناك من السـدنة من يتولى أكثر من خمس سنين، بل منهم من قد تصل مدة مباشرته إلى أربعين سنة[١٠].

وكما أن تعيين السادن لا يتم إلا بقرار سلطاني، فكذلك عزله أيضاً لا يتم

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٧٠.
(٢) المصدر السابق، ٣/ ٢٧٠.
(٣) المصدر السابق، ٣/ ٢٧٠.
(٤) المصدر السابق، ٣/ ٦١٠.
(٥) المصدر السابق، ٣/ ٢٣٩.
(٦) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٣؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ٣/ ٣٥٩.
(٧) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ١٢٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٧٠.
(٨) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٨١.
(٩) المصدر السابق، ٤/ ١٠٤.
(١٠) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٠٠، ٣/ ٢٤، ٦/ ٢٥٢.

إلا بقرار سلطاني، وعادة يكون سبب عزل السادن ارتكابه لأمور تسيء لوظيفته ووضعه، أو لأمور خاصة تعود لعلاقة السلطان بالسادن[(١)].

أهم مهمات السادن وواجباته:

١ - فتح الكعبة الشريفة في مواعيد فتحها، أي أن مفتاح الكعبة يكون عند السادن، ولا يفتح بابها إلا هو أو من ينيبه عنه[(٢)]، وبذلك لا يحق لأحد المداخلة في أدنى شؤون الكعبة بغير إذن السدنة[(٣)].

٢ - الإشراف على الأعمال كافةً التي تتم داخل الكعبة وخارجها من إصلاحات وترميمات للكعبة الشريفة[(٤)].

٣ - تفقد بناء الكعبة وملاحظته والإخبار عما تحتاج إليه من إصلاحات[(٥)].

٤ - حفظ الهدايا التي ترد إلى الكعبة، وتُحفظ عادة داخل الكعبة[(٦)].

٥ - غسل الكعبة الشريفة، ويتم ذلك بحضور قضاة مكة وأعيانها في حفل يليق بذلك[(٧)].

٦ - خياطة ستارة الكعبة المشرفة إذا مزقتها الريح[(٨)].

٧ - وضع الكسوة الجديدة وخلع الكسوة القديمة[(٩)].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٥٩، ٣٧١.
(٢) ابن الضياء القرشي: أحوال مكة، ١/ ٧٨؛ النهروالي: الأعلام، ص٤٦.
(٣) الحجبي: هامش الإتمام، ورقة ١١٣.
(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢١٢، ٢١٥، ٤/ ٦٣٨؛ النهروالي: الأعلام، ص٢٠٧.
(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٩٧.
(٦) المقريزي: السلوك، ج٢، مج٢/ ٣٦٣.
(٧) النهروالي: الأعلام، ص٢٢٦.
(٨) ابن جبير: الرحلة، ص١٤٤.
(٩) المصدر السابق، ص١٥٨؛ ابن بطوطة: الرحلة، ص١٧١.

وإضافة إلى تولي بعض السدنة لسدانة الكعبة المشرفة نجد أن بعضهم قد تولَّى إلى جانب سدانة الكعبة وظائف أخرى منها:

١ - القضاء[١].

٢ - نظر الحرم[٢].

وكانت العادة في مكة قديمًا أن لا يُطلق لقب الشيخ إلا على السادن، وممن اجتمعت لديهم السدانة ومشيخة الحرم أو نظره مثل الشيخ أحمد بن ديلم بن محمد الشيبي[٣]، واستمر في سدانة البيت، ومشيخة الحرم أربعين سنة[٤].

٣ - الأذان[٥].

٤ - مشيخة المدارس[٦].

وكان بعض السدنة يأخذ أجرة على من يدخل الكعبة يوم فتحها، ولذلك أفتى العلماء بعدم جواز أخذهم ذلك، وأجازوا أخذهم المال إذا كان من باب البر والصلة على وجه التبرر، وذلك استنادًا إلى قول الرسول ﷺ: «وكلوا

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٣٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ١٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٧/ ٢٢٤.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٢٤٥؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٣٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ١٣.

(٣) هو أحمد بن ديلم بن محمد بن إسماعيل بن عبدالرحمن بن ديلم بن محمد الشيبي الحجبي، مجد الدين أبو العباس المكي، شيخ الحجبة وفاتح الكعبة، ولد عام ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، ولي فتح الكعبة نحو أربعين سنة، توفي عام ٧١٢هـ/ ١٣١٢م بمكة. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٢٣.

(٤) المصدر السابق، ٣/ ٢٤؛ الحجبي: إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٥) الطاسان: الوظائف الدينية والإدارية، ص٢٩٦.

(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ١٢٢؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٧٤.

بالمعروف» كما أجازوا أخذهم مرتبًا من بيت المال مقابل ما يقومون به من خدمة البيت والقيام بمصالح الكعبة[١]. وقد اختلف العلماء في التصرف في كسوة الكعبة القديمة عندما تُستبدل بكسوة جديدة، فمنهم من قال: لا يجوز قطع شيء من أستار الكعبة ولا شراؤه من بني شيبة، ومن حمل من ذلك شيئًا فعليه رده، كما لا يجوز وضعه بين أوراق المصاحف[٢].

ومنهم من قال بجوازه، والذي يظهر أن كسوة الكعبة المشرفة، إذا كانت من قبل السلطان من بيت مال المسلمين، فأمرها راجع إليه، يعطيها لمن يشاء من الشيبيين أو غيرهم، وإن كانت من أوقاف السلاطين أو غيرهم، فأمرها راجع إلى شرط الواقف فيها، فهي لمن عينها له، وإن جهل شرط الواقف فيها عُمل فيها بما جرت العادة، وهي أخذ بني شيبة لها والتصرف فيها بالبيع أو غيره[٣].

ومما يدل دلالة واضحة على جواز بيعها والتصرف فيها، حديث عائشة رضي الله عنها عندما جاءها شيبة بن عثمان، وذكر لها أنهم يأخذون الكسوة القديمة ويقومون بدفنها في حفرة عميقة، أو بئر من أجل أن لا يلبسها جنب أو حائض، فأجابته بأن ذلك فعل خاطئ وأنه لا شيء في بيعها، كما أنه لا يضرها من لبسها من حائض أو جنب[٤].

كما يجوز قسمتها فيمن يراه الناظر في أمرها، والدلالة على ذلك ما فعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما نزع كسوة البيت وقسَّمها على الحاج[٥].

---

(١) الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٥٠٦؛ الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٢١١؛ ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ٨٢؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٧٣-٧٤.

(٢) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٤٦٥.

(٣) النهراولي: الأعلام، ص٧١-٧٢.

(٤) الأزرقي: تاريخ مكة، ١/ ٢٧٢.

(٥) المصدر السابق، ١/ ٢٧٠-٢٧٢؛ الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٥٢١.

وأما تقسيم الكسوة بين آل الشيبي، فكلهم في ذلك سواء؛ الشيخ والشاب والطفل والذكر والأنثى، تقسم بينهم بالسوية، باستثناء رئيسهم - صاحب المفتاح - فله سهمان وذلك باتفاقهم جميعًا، وهذه قاعدة ثابتة، سار عليها آل الشيبي من قديم الزمان إلى وقتنا الحاضر[١].

كما أن أشراف مكة يأخذون من سدنة البيت ستارة باب الكعبة وكسوة مقام إبراهيم عليه السلام ويهدونها لمن يرجونه من أمراء بعض البلاد الإسلامية وحكامها[٢].

أما عند استبدالِ باب الكعبة بباب جديد فإن لسدنة البيت الشريف كل الحق في أخذ الحلية المصفحة على الباب القديم، وتقسيمها بينهم[٣].

مكانة السدانة في المجتمع المكي:

لسدانة الكعبة مكانة كبيرة عند أهل مكة، وللسادن وأسرته منزلة اجتماعية محترمة، ومما يدل على ذلك أن السادن عند فتح الكعبة المشرفة يدخل وحده فيها ثم يغلق الباب خلفه، ويصلي ركعتين، ثم يدخل الشيبيون بعده ويسدون الباب خلفهم، ويفعلون مثلما فعل، ثم بعد ذلك يُفتح الباب ويبادر الناس بالدخول[٤].

وللسدنة مكانة كبيرة ومهمة عند سلاطين البلاد الإسلامية وأمرائها،

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٦/ ٢٧٩؛ الحجبي: هامش الإتمام، ورقة ١٠٤؛ باسلامة: حسين عبدالله، تاريخ الكعبة المعظمة، عمارتها وكسوتها وسدانتها، ط١، تهامة للنشر - جدة، ١٣٥٤هـ، ص٣٧٧.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٢٠٥.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، مج٢/ ٣٦٣.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص٧٠؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٥٥.

فعندما يرسل أحدهم هدايا لأهل مكة، يكون عادة لسدنة البيت الشريف نصيب منها[١].

ويدل ذلك دلالة واضحة على أهمية هذه الوظيفة الدينية المهمة، والتي أقرها الرسول ﷺ لهم بأمر من الله سبحانه وتعالى منذ زمن بعيد.

فتح الكعبة في الجاهلية والإسلام:

أما فتح الكعبة المشرفة فهو يختلف من عصر إلى آخر؛ ففي الجاهلية كانت تُفتح في كل يوم اثنين وخميس، ومنهم من ذكر بأنها تفتح أيضًا يوم الجمعة[٢].

أما في الإسلام فكانت تفتح كل يوم اثنين وجمعة، كما تفتح في يوم مولد النبي ﷺ[٣]، إضافة إلى أنها تفتح كل يوم في شهر رجب، وفتحها يكون أول بزوغ الشمس[٤]، ويخصص يوم التاسع والعشرين من شهر رجب للنساء دون مشاركة الرجال لهن[٥]. وقد أوقف فتح الكعبة كل يوم من شهر رجب واقتصر فتحها على يوم التاسع والعشرين للنساء ولكن يشاركهن الرجال في الدخول[٦].

وتفتح الكعبة أيضًا يوم عيد الفطر بعد صلاة العيد، فيكون أول من يُبكِّر

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٨١، ولمزيد من التفصيل انظر الفصل الخامس، المبحث الثالث: مكانة الوظيفة الدينية في المجتمع المكي، ص٣٩٢-٣٩٤.

(٢) الأزرقي: تاريخ مكة، ١/ ١٩٧؛ الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٥٠٣؛ الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٢٢٨؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٧٥.

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٥٥، والاحتفال بمولد الرسول ﷺ من العادات القديمة. بل من البدع المحدثة في الدين الإسلامي، حيث يُعمل احتفالُ عظيمٌ لهذه المناسبة. وما زالت بعض الدول الإسلامية تحتفل بهذه المناسبة إلى يومنا الحاضر، رغم أنها بدعة.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص٧٠؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٥٥؛ الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٢٢٨.

(٥) ابن جبير: الرحلة، ١١٣، ١١٥، ١١٦.

(٦) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٢٠٩.

إلى المسـجد الحرام الشـيبيون فيفتحون بـاب الكعبـة ويقعد كبيرهم فـي عتبتها وسـائرهم بين يديه إلى أن يأتي أمير مكـة فيتلقونه، ثم يطوف بالبيت أسـبوعًا[١]. كمـا تفتح فـي يـوم السـادس والعشـرين مـن ذي القعـدة، ويُخصص هـذا اليوم لأعيانهـا مـن أجل غسـلها[٢]، ولكـن هناك من ذكـر بأنها تغسـل في يوم السـابع والعشـرين من شـهر ذي القعدة وتُرفع أثواب الكعبة إلى قدر القامة والنصف من جميع جهاتها الأربع، ويُسـمى ذلـك «بإحرام الكعبة» والأصـل في ذلك حتى لا تنالها أيدي الحجاج فتبلى وتقطع[٣].

وتُفتح الكعبة المشرفة في بعض أيام المواسم في الثمانية من ذي الحجة ولياليها، وذلك من أجل البر المأخوذ ممن يدخلها من الحجاج، وهو لا يحل إلا بطيب نفس ممن يدفعه[٤].

وتُفتح فـي أيام عيـد الأضحـى للعراقييـن والخراسـانيين وغيرهـم ممن يصل مع الركب العراقي[٥] ثم تفتح في أول جمعة من محرم[٦]، وتفتح أيضًا عند زيـارة أحد كبار رجـال الدولة فيدخلها هو والسـادن، ثم تدخل حاشـيته بعده إذا خرج[٧].

أما كيفية فتح الكعبة فيكون ذلك أول بزوغ الشمس، يُقبل البيت الشيبيون

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٣٤؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٨٥.
(٢) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٢٢٩.
(٣) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٤٦٥؛ ابـن بطوطـة: الرحلـة، ١/ ١٦٨، وإحرامها يعني إحاطتها بقماش أبيض من الخارج على ارتفاع نحو مترين من أرضية المطاف. البتنوني: الرحلة الحجازية، ص١٠٩.
(٤) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٢٢٩.
(٥) ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٧١.
(٦) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٢١٠.
(٧) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٥-١٢٦.

فيبادر منهم من ينقل كرسياً كبيراً يشبه المنبر الواسع له تسعة أدراج مستطيلة، وقد وضعت له قوائم من الخشب لها أربع بكرات يجري عليها الكرسي، ويُلصق إلى جدار الكعبة الشريفة فيكون درجه الأعلى متصلًا بالعتبة الكريمة(١)، ثم يصعد كبير الشيبيين وبيده المفتاح ومعه السدنة حيث يمسكون الستر المسبل على باب الكعبة المسمى «البرقع» فإذا فتح الباب قبَّل العتبة ثم دخل البيت وحده وسد الباب خلفه وصلى ركعتين، ثم يدخل الشيبيون ويسدون الباب أيضًا ويصلون ركعتين - كما سبقت الإشارة إليه - ثم يُفتح الباب ويبادر الناس بالدخول، وفي أثناء محاولة فتح باب الكعبة المشرفة يقف الناس مستقبلين الباب بأبصار خاشعة، وقلوب ضارعة وأيدٍ مبسوطة إلى الله سبحانه وتعالى، فإذا فُتح كبروا ونادوا [**اللهم افتح لنا أبواب رحمتك ومغفرتك يا أرحم الراحمين**] ثم دخلوا بسلام(٢).

كيس مفتاح الكعبة:

لا يفوتنا بأن ننوه بأنه كان هناك كيس يوضع فيه مفتاح الكعبة المشرفة، ولم تذكر المصادر التاريخية من الذي أحدث هذا الكيس، ولا متى حدث ذلك، ويبدو أن ذلك حدث عندما اختصت مصر بصنع كسوة الكعبة، فُعمل كيس المفتاح تبعًا لكسوة الكعبة المشرفة، وكسوة مقام إبراهيم وباب الكعبة، وستارة باب التوبة - وهو الباب الموصل لسطح الكعبة من داخلها - وتحسين منظر كيس المفتاح وزخرفته تابعان لكسوة الكعبة المشرفة، وكل ذلك يكون في بلاد مصر(٣).

والغرض الرئيس من هذا الكيس هو حفظ مفتاح الكعبة المشرفة وصيانته

(١) النهروالي: الأعلام، ص٢٢٦، ٢٢٧، انظر الصورة رقم (٦) صورة درج الكعبة.
(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٧٠؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٥٥.
(٣) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٢٠٨.

من الضياع أو السرقة أو ما شابه ذلك، وهو من الأطلس الساسي الأخضر، مقاسه ذراع وثمن، وموضوع عليه مخيش فضة[١] ملبس بالذهب البندقي الأصفر، زنته ٤٥ مثقالًا، وكنتير ششخانة[٢] أبيض، وترتر[٣] فضة أبيض، وهو مبطن بالأطلس الساسي الأخضر ومركب عليه قيطان بشرابتين مصنوعتين من قصب ومخيش عقادي أصفر وكنتير ششخانة، وكيس مفتاح الكعبة المزركش بالمخيش الأصفر المطلي بالبندقي الأحمر على الأطلس الحرير الأخضر به ترتر ملون وكنتير أصفر مبطن بالأطلس الحرير الأخضر به شرابتان وكنتير وقيطان قصب[٤].

أما مكان هذا الكيس فهو إلى جانب باب الكعبة على يسار الداخل حيث توجد طاولة من الخشب مغطاة بستارة من الحرير الأخضر موضوع عليها كيس مفتاح الكعبة الشريفة[٥].

وربما كانت هذه الطاولة أو هذا الكرسي موجوداً داخل الكعبة المشرفة منذ قديم الزمان، وربما قبل الإسلام، وقد يكون هذا الكرسي لجلوس كبير سدنة الكعبة عليه عند فتحها، ولا بأس في ذلك ما دام الجلوس بالأدب اللائق ببيت الله الحرام، وخصوصاً من كان من سدنة البيت وخدمه[٦].

أما كسوة الكعبة، فإنها تُسلم للحجبة في يوم عيد الأضحى ثم توضع على سطح الكعبة، وفي اليوم الثالث عشر من شهر ذي الحجة تسبل الكسوة

---

(١) نوع من الطلاء الفضي. باشا: مرآة الحرمين، ١/ ٢٩٤.
(٢) نوع ملفوف من المخيش. المرجع السابق، ١/ ٢٩٤.
(٣) الترتر: دوائر مثقوبة من وسطها. باشا: مرآة الحرمين، ١/ ٢٩٦.
(٤) المرجع السابق، ١/ ٨ و٢٩٦، انظر الصورة رقم (٧) صورة لكيس مفتاح الكعبة المشرفة. انظر الصورة رقم (٨) مفتاح الكعبة المشرفة.
(٥) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص١٠٨.
(٦) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٢٠٩.

على الكعبة[١] إلا أن ذلك العمل أصبح يُعمل في يوم عيد الأضحى، وفي بعض السنوات عُمل به يوم الثالث أو الرابع من ذي الحجة[٢].

غسل الكعبة:

أما غسل الكعبة المشرفة، فقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما دخل مكة يوم الفتح أمر بلالًا فرقى على ظهر الكعبة فأذّن بالصلاة وقام المسلمون وتجردوا في الأزر وأخذوا الدلاء وارتجزوا على زمزم فغسلوا الكعبة، ظهرها وبطنها، ولم يدعوا أثرًا من آثار الشرك والمشركين إلا محوه وغسلوه[٣]. واتباعًا لما فعله الرسول ﷺ، أصبح غسل الكعبة المشرفة سنة متبعة إلى يومنا الحاضر.

وتغسل الكعبة بماء زمزم من داخلها قدر قامة ومن خارجها قدر قامة، ويقوم بذلك السادن وأسرته وأعيان مكة ويتم ذلك في حفل بهيج[٤].

وقد كان غسل الكعبة في زمن ابن جبير في القرن السادس الهجري في اليوم الذي يلي يوم دخول النساء إلى الكعبة، والسبب في ذلك أن كثيرًا من النساء يدخلن أبناءَهن الصغار والرضع معهن فتغسل تكريمًا وتنزيهًا من النجاسة[٥]، وكانت تُغسل في زمن الفاسي، يوم ٢٦ من ذي القعدة[٦].

كما أنها تُغسل في غير هذه الأيام، وخصوصاً عندما يأمر السلطان بذلك،

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٥٧؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٦٧.
(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٢٠٤.
(٣) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٧٥-٧٦.
(٤) التجيبي: مستفاد الرحلة، ص٤٦٥؛ النهراولي: الأعلام، ص٢٢٦.
(٥) ابن جبيبر: الرحلة، ص١١٦.
(٦) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٢٢٩.

أو عندما يرى رؤيا تقتضي ذلك، فتغسل وتطيب[١]. وجرت العادة بأن تُرسل مع الكسوة كل سنة «غلايتان»[٢] من النحاس مملوءَتان بماء الورد النقي، لتغسل به الكعبة المشرفة[٣].

وأول من أجرى للكعبة وظيفة الطيب لكل صلاة، معاوية فكان يبعث بالطيب والمجمر والخلوف في الموسم وفي رجب[٤].

رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «طيبوا البيت، فإن ذلك من تطهيره. وروي عنها أنها قالت: «لأن أطيب الكعبة أحب إليّ من أهدي لها ذهبًا وفضة»[٥]. ولا يجوز أخذ شيء من طيب الكعبة لا للتبرك ولا لغيره[٦].

ولكرسي الكعبة المشرفة[٧] - والذي سبقت الإشارة إليه في كيفية فتح الكعبة - مجموعة من الموظفين، وظيفتهم دفع الكرسي من موضعه في المسجد الحرام إلى باب الكعبة حين فتحها، ثم إعادته إلى موضعه بعد غلق الباب، يطلق عليهم لقب «خدام درجة الكعبة»[٨].

وعادة يرسل السلاطين درجة الكعبة إلى المسجد الحرام، مثلما حدث

---

(١) النهراولي: الإعلام، ص٢٢٦؛ السنجاري: منائح الكرم، ٣/ ٨٥-٨٦.

(٢) الغلاية: الوعاء الذي يوضع فيه ماء الورد لحفظه. باشا: مرآة الحرمين، ١/ ٣٠٠.

(٣) المرجع السابق، ١/ ٣٠٠.

(٤) الأزرقي: تاريخ مكة، ١/ ٢٦٦؛ الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٥٢٢؛ ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ١٦٦؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٧٠.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٢٢٨.

(٦) المصدر السابق، ١/ ٢٢٨.

(٧) هو السلم الذي يرتقي عليه الناس للصعود إلى الكعبة المشرفة، انظر ابن جبير: الرحلة، ص٧٠.

(٨) ابن فهد: معجم الشيوخ، ص٦٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٥/ ١٦٧.

في عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، عندما أرسل الملك المؤيد صاحب مصر درجة للكعبة المشرفة، فنصبت للرقي عليها، وأُعرض عن التي قبلها(١).

رواتب السدنة:

قررت وثيقة الأشرف شعبان مبلغ ألف وخمسمئة درهم لسدنة الكعبة المشرفة ومن معهم(٢)، ولم تذكر الوثيقة إن كانوا يتقاضون مرتبات من جهات أخرى، كما لم تذكر هذه الوثيقة أو غيرها، أو أي من المصادر التاريخية عدد السدنة أو ما يخص كلًا منهم.

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية حصول السدنة على نصيب من الصدقات التي كانت تصل إلى مكة المكرمة، ففي عام ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م، وصلت صدقة كبيرة من الدولة العثمانية، نال شيخ الحجبة منها ثلاثين دينارًا، وفي سنة ٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م، وصلت صدقة العثمانيين ونال الشيبيون منها مئتي دينار(٣).

وفي عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م، وصلت الصدقة البنغالية، وكان نصيب شيخ الكعبة المشرفة أربعين دينارًا(٤).

وفي عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م، فرّق ناظر الخواص عندما قدم مكة صدقة جزيلة. خص خدام السُلم الذي يصعد عليه لفتح باب الكعبة كل واحد بأشرفي، وكانت مهمتهم تنظيف درج السلم(٥).

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٣٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٢٨؛ النهروالي: الأعلام، ص٢٢٥.
(٢) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٢.
(٣) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٧٤.
(٤) المصدر السابق، ٢/ ٨٨.
(٥) المصدر السابق، ٣/ ٧٩٦.

كما نال السادن من الصدقة اليمانية خمسة دنانير. وكان ذلك في عام ٩١٨هـ/ ١٥١٢م[١].

ومما أوقف على مصالح الحرمين الشريفين وشؤونهما ما نصت عليه حجة وقف أم الحسن ابنة أبي عبدالله محمد بن محمد البلقيني[٢]، وذلك بتخصيص الثلث الثاني من ريع وقفهما، يُقّسم بين شيخ الشيبة خدام البيت الحرام، وخدام الدرجة الشريفة نصفين بالسوية[٣].

---

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٦.

(٢) أم الحسن ابنة أبي عبدالله محمد بن محمد البلقيني، ولدت عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م، حجت وجاورت بلاد الحرمين الشريفين، كانت حية سنة ٨٩٦هـ/ ١٥٨٧م. ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف، المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق فهيم شلتوت، جامعة أم القرى - مكة، د. ت، ٢/ ١٣٨.

(٣) حجة وقف أم الحسن ابنة أبي عبدالله محمد بن محمد البلقيني، المؤرخة في ٣صفر، سنة ٩١٧هـ، رقم الوثيقة (٧٣)، دار الوثائق القومية بمصر.

المبحث السابع

المحتسب

في اللغة:

مصدر احتسابك الأجر على الله. واحتسب فيه احتسابًا، والاحتساب طلب الأجر.

والاسم الحسبة بالكسر هو الأجر، والحسبة في الأجر أي حسن التدبير والنظر فيه(١).

في الشرع:

الحسبة هي أمرٌ بالمعروف إذا ظهر تركه ونهيٌ عن المنكر إذا ظهر فعله(٢).

قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ

---

(١) ابن منظور: اللسان، ٢/ ٨٦٦-٨٦٧؛ الفيومي: المصباح المنير، ص٥٢.

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٤٠؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٥١؛ لقبال: موسى، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي (نشأتها وتطورها)، ط١، الشركة الوطنية - الجزائر، ١٩٧١م، ص٢٠.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾[١].

وقال ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان»[٢].

والحسبة نظام إسلامي من شأنه الإشراف على جميع المرافق العامة، وتنظيم عقاب المذنبين. كما أنها منصبٌ دينيٌّ متصلٌ بالقضاء[٣].

ويفهم من سياق الكلام أن الحسبة بمعناها الشامل، هي مهمة الأنبياء والمرسلين، ومن أهم خصال المؤمنين، بل تُعَدُّ من أهم خصال الأمة الإسلامية التي وصفها الله تعالى بالخيرية -كما سبقت الإشارة إليه -.

نشأة الحسبة:

هي وظيفة قديمة نشأت تحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[٤]. ومن ثم أصبحت هذه الوظيفة ذات صبغة شرعية دينية[٥].

ومما لا يمكن تجاهله، ومن الأهمية بمكان القول بأن نظام الحسبة نشأ قبل تكوين الدولة الإسلامية، وقد عُرف أيام الرسول ﷺ بوصفه مفهوماً دينياً،

---

(١) سورة المائدة: الآيتان ٧٨- ٧٩.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، ١/ ١٦٩؛ الشهاوي: إبراهيم دسوقي، الحسبة في الإسلام، مكتبة دار العروبة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م، ص١١.

(٣) النباهين: نظام التربية الإسلامية، ص٧٤.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٠٤.

(٥) الماوردي: الأحكام السلطانية، ص٢٢٧؛ أبو يعلى: محمد بن الحسين الفراء، الأحكام السلطانية، تحقيق محمد الفقي، ط٢، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، ص٢٨٤، الباشا: الفنون الإسلامية، ٣/ ١٠٢٩.

وأول من مارس مهمات الحسبة هو الرسول ﷺ وذلك عندما أنكر على بائع الطعام أن يجعل ما أصابته السماء فابتلّ وسط الصبرة، فقد روى مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ مرّ على صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللًا. فقال: «ما هذا يا صاحب الطعام؟» قال: أصابته السماء يا رسول الله. قال: «أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني»[(١)]، كما نهى عن تلقي الركبان كما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ولا تلقوا الركبان ولا يبيع حاضر لباد»[(٢)]. وعلى سنته ونهجه سار الخلفاء الراشدون من بعده، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أحرصهم على ذلك، بل يُعَدُّ أول من وضع نظام الحسبة ومارس مهماتها من الناحية العملية، فاستخدم الدرة والسوط في معاقبة المخالفين، ومن شدة حرصه على انتشار العدل والتراحم والشفقة بين أفراد الأمة الإسلامية قيامه بضرب جمَّال؛ لأنه أثقل على جمله، كما أَدَّب التجار الذين تجمعوا حول بضائعهم، ولم يتركوا منفذًا للمرور[(٣)].

وقد وسَّع الفاروق رضي الله عنه دائرة عمل الحسبة، وكما كلَّف الرجال لمراقبة الأسواق، كلف النساء أيضًا، فقد كلَّف من النساء، الشفاء بنت عبدالله الأنصارية[(٤)] للقيام بمهمة الحسبة في بعض أسواق المدينة فيما يخص شؤون النساء[(٥)].

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، ١/ ٩٩.

(٢) البخاري: صحيح البخاري، ٣/ ٢٧.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٥٢؛ لقبال: الحسبة المذهبية، ص٢٢؛ حلاق: حسان: الإدارة المحلية الإسلامية – المحتسب، الدار الجامعية – بيروت، ١٩٨٠م، ص١٤.

(٤) هي الشفاء بنت عبدالله بن عبد شمس بن خالد القرشية العدوية، أسلمت قبل الهجرة، كان عمر رضي الله عنه يقدمها في الرأي، وولاها شيئًا من أمر السوق. الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ٤٠٦.

(٥) الفاسي، العقد الثمين، ٦/ ٤٠٦؛ الظاهر: خالد خليل وآخرون، نظام الحسبة، ط١، دار المسيرة – عمَّان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ص٧٢.

ولأهمية الحسبة، وصيانة البشرية من الانحدار إلى الهاوية، وحفاظًا لها من عوامل الخراب والدمار، والسمو بها إلى منزلة الصالحين الأخيار، قضت الشريعة الإسلامية بوجوب الحسبة على كل مسلم، قادر، مكلف، يعلم أحكام الدين فيما يدعو إليه وينصح الناس به[(١)].

قال عمرو عن هشيم: وأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من قوم يُعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب»[(٢)].

هذا، وقد اتفقت كلمة المجتهدين من السلف والخلف على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسبة لله وابتغاء مرضاته ورجاءً في ثوابه، وذلك استنادًا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية. حيث وردت كثيرٌ من الآيات والأحاديث التي تأمر المسلمين بالحسبة[(٣)].

الشروط الواجب توافرها في المحتسب:

لأهمية الحسبة، ولما كانت أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وإصلاحًا بين الناس أوجب الفقهاء عددًا من الشروط الواجب توافرها في المحتسب وهي:

١ - الإسلام.

٢ - الحرية.

---

(١) الشهاوي: الحسبة في الإسلام، ص١٧؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٧١٥.

(٢) أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، سنن أبي داود، تعليق عزت عبيد الدعاس وآخرون، ط١، دار الحديث، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م، ٤/ ٥١٠.

(٣) الشهاوي: الحسبة في الإسلام، ص١٨.

٣ - البلوغ.

٤ - العقل.

٥ - أن يكون خبيرًا عدلًا.

٦ - أن يكون ذا رأي وصرامة في الدين.

٧ - أن يكون عالمًا بأحكام الشريعة، والمنكرات الظاهرة، ليعلم ما يأمر به وينهى عنه[(١)].

٨ - أن يعمل بما يعلم، ولا يكون قوله مخالفًا لفعله.

٩ - أن يقصد بقوله وفعله وجه الله تعالى.

١٠- أن يكون مواظبًا على سنن رسول الله ﷺ، وجميع سنن الشرع، ومستحباته، مع قيامه بالفرائض والواجبات.

١١ - أن يكون من صفاته لين القول، وطلاقة الوجه، وسماحة الخلق، عند أمره للناس ونهيه لهم، وذلك تمشيًا مع قول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[(٢)].

١٢ - أن يكون عفيفًا عن أموال الناس، متورعًا عن قبول الهدايا من أرباب الوظائف؛ لكون ذلك رشوة، ويُعد هذا الشرط من الشروط اللوازم للمحتسب؛ لأن الحسبة نظام أساسي لتنظيم المجتمع وصلاحه[(٣)].

١٣ - الصبر على الأذى[(٤)]، استناداً لقول المولى ﷻ: ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ

(١) أبو يعلي: الأحكام السلطانية، ص٢٥٨؛ ابن الأخوة: معالم القربة في أحكام الحسبة، ص٥١-٥٢.
(٢) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.
(٣) ابن الأخوة: معالم القربة، ص٥٦-٦٠؛ الشيزري: عبدالرحمن نصر، نهاية الرتبة في طلب الحسبة، تحقيق السيد الباز العريني، ط٢، دار الثقافة - بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٦-١٠.
(٤) الشهاوي: الحسبة في الإسلام، ص٦٦.

وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾[1].

مراسم تعيين المحتسب:

لأهمية الحسبة ومكانتها، كان لا يتولاها إلا الشخصيات المشهود لهم بالكفاءة، والأمانة والذكاء، والأشداء على الحق، وقد يُختار لشغل هذا المنصب بعض القضاة المشهود لهم بالعلم والرأي السديد؛ لاتصال الحسبة بالقضاء، وإن استقلت عنها[2].

والمحتسب يُعين من قبل السلطان أو نائبه، للنظر في أحوال الرعية والكشف عن أمورهم ومصالحهم[3]، وُيقرأ قرار تعيينه في المسجد الحرام أمام قضاة مكة وأعيانها، ويلبس خلعته بعد قراءة قرار التعيين[4].

وقد ذكر القلقشندي في كتابه صبح الأعشى مرسومًا يقضي بتعيين المحتسب قائلًا: «الحمد لله مجدد النعم في دولتنا الشريفة لمن ضفت عليه ملابسها، ومضاعف المنن في أيامنا الزاهرة لمن سمت به نفائسها..» إلى أن قال: «... وأمرت له مراسمنا بوظيفة تؤكد عوارفنا الحسان، وأثَّلت له نعمنا منصبًا أُعد له من كمال الأهلية أكمل ما يُعدُّه لذلك الإنسان... فلذلك رسم... - لا زال بره شاملًا، وبدره في أفق الإحسان كاملًا - أن يُفوض إليه نظر الحسبة ويستمر في ذلك على حكم التوقيع الشريف الذي بيده... فليباشر ذلك معطيًا هذه الوظيفة من حُسن النظر حقها، محققًا بجميل تصرفه تقدم أولويته وسبقها،

---

(١) سورة لقمان: الآية ١٧.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٥١-٤٥٢؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٨٢٦.

(٣) ابن الأخوة: معالم القربة، ص٥١، ومصالحهم (بياعاتهم ومأكولاتهم وملبوسهم، ومساكنهم وطرقاتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر).

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٩٢.

وليكن لأمر الأقوات ملاحظًا، وعلى منع ذوي القدر من الاحتكار المضيق على الضعفاء محافظًا، وعلى الغش في الأقوات مؤدبًا.....» وذكر غيرها من الأمور التي يجب أن يأمر بها المحتسب وينهَى عنها إلى أن قال: «...... ومسدد أحواله التي نظهر بها مزية يومه على أمسه، والخط الشريف أعلاه الله تعالى أعلاه حجة بمقتضاه»[١].

وانتقلت وظيفة المحتسب من الدولة الأيوبية إلى دولة المماليك، حيث أصبحت الوظيفة الدينية الخامسة بين الوظائف الدينية المهمة، رفيعة الشأن، بل كان لصاحبها مجلس بالحضرة السلطانية بدار العدل الشريف[٢].

عُدَّتِ الحسبة واسطة بين أحكام القضاء وأحكام المظالم[٣].

أهم مهمات المحتسب وواجباته:

١ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإصلاح بين الناس[٤]. وذلك استنادًا لقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾[٥].

٢- تنفيذ أوامر السلطان المملوكي في مصر التي تصل إلى مكة في شكل مراسيم، وخصوصاً تلك الأوامر التي تدعو إلى الاستيلاء على أموال التجار الذين يظهر غشهم ومصادرتها[٦].

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ١٢/ ٥٩، ٦١.
(٢) المصدر السابق، ٤/ ١٩٣؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٣/ ١٠٣٦.
(٣) أبو يعلي: الأحكام السلطانية، ص٢٨٥.
(٤) ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن عبدالحليم، الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية، مؤسسة مكة – مكة، د. ت، ص١١؛ ابن الأخوة: معالم القربة، ص٥١.
(٥) سورة النساء: الآية ١١٤.
(٦) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٨٢٨.

٣ - إلزام المسلمين بارتياد صلاة الجماعة في مواقيتها، ويُعاقب من لم يصلِّ إما بالضرب والحبس وإما القتل، كما يلزمهم بإقامة الجمع[١].

٤ - التشدد مع المؤذنين، واختبارهم في أوقات الأذان.

٥ - محاربة البدع والاتجاهات الشاذة والدخيلة على المجتمع الإسلامي.

٦ - منع المتطفلين على العلم من التدريس كي لا يضللوا الناس[٢].

٧ - الإشراف على الكتاتيب، واختيار معلميها، والتأكد من سلامتها، ومنع المدرسين من ضرب التلاميذ وإيذائهم[٣].

٨ - الإشراف التام على الأسواق ومراقبتها ليلًا ونهارًا، ومراقبة المكاييل والموازين وذلك لمنع الغش، والتلاعب في الأسعار والأوزان، ومن ثم الضرب بشدة على يد كل من تسوِّل له نفسه الغش والتلاعب في الصناعات والبياعات ونحو ذلك[٤].

٩ - إلزامه بنظافة الشوارع وخصوصاً القريبة من المسجد الحرام[٥].

١٠ - الاحتساب على من يظهر على سطح الكعبة، وعلى سطح سائر المساجد؛ لأن الظهور عليها مكروه، ولا يتخذ في المسجد بئر لماء، إلا ما كان قديمًا فإنه يُترك كبئر زمزم[٦].

---

(١) ابن تيمية: الحسبة في الإسلام، ص١٢؛ لقبال: الحسبة المذهبية، ص٢٧.

(٢) لقبال: الحسبة المذهبية، ص٢٧.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص٥٤٠؛ لقبال: الحسبة المذهبية، ص٢٧؛ حلاق: الإدارة المحلية، ص٢٢؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٧١٦.

(٤) ابن تيمية: الحسبة في الإسلام، ص١٣؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ١٣٠، ٣/ ٨٢٦؛ لقبال: الحسبة المذهبية، ص٢٧؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٣/ ١٠٢٧، ١٠٣٣؛ حلاق: الإدارة المحلية، ٣/ ٨٢٧.

(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٨٢٧.

(٦) السنامي: عمر بن محمد عوض، نصاب الاحتساب، تحقيق موئل عز الدين، ط١، دار العلوم، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م، ص٦٤.

وإضافة إلى تولي المحتسب لوظيفة الحسبة، نجد أن بعض المحتسبين قد يجمع إضافة إلى وظيفته بوصفه محتسباً عددًا من الوظائف منها:

١ - الخطابة[١].

٢ - القضاء[٢].

٣ - نظر الأوقاف[٣].

٤ - نظر المسجد الحرام[٤].

٥ - الصيرفة[٥].

٦ - كاتب السنابيق[٦].

ولكثرة مهمات المحتسب وأعماله، كان لا بد من وجود أعوان ومراقبين ونواب يرشحهم بنفسه ويعينهم الإمام أو الوزير أو الخليفة، وربما للقضاء إصدار أوامر تعيينهم[٧].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٠٦.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٣٤٥، ٣٥٨.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ١٢/ ٦١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٤٥.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٤٥، ٩/ ٢١٤.

(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ١٣٠، والصيرفي: هو الذي يتولى قبض الأموال وصرفها، وهو مأخوذ من الصرف: وهو صرف الذهب والفضة والميزان، وكان يقال له فيما تقدم الجهبذ. القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٦.

(٦) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ١٣٠، والسنابيق: جمع سنبوق أو سنبوك، وهو السفينة الصغيرة، والسنبوك: زورق سفر يُعمل في سواحل البحر، وهو لغة جميع أهل سواحل بحر اليمن. شير: الألفاظ الفارسية المعربة، ص٩٥. وربما كان المقصود بكاتب السنابيق، أي المسؤول عن السفن التي في البحر وتحمل التجارة، ولعل هذه الوظيفة تضاف إلى المحتسب بوصفها وظيفة عامة.

(٧) الشيزري: نهاية الرتبة في طلب الحسبة، ص١٢؛ الظاهر: نظام الحسبة، ص١٠١.

وعادة يقوم هؤلاء النواب أو الأعوان بمساعدته في أداء مهامه على أكمل وجـه، كما يقومـون بالطواف على الأسـواق والمنشـآت وتفقد الطـرق، ومعاقبة المخالفين وردعهم[١].

دور المحتسب في ردع المخالفين:

للمحتسـب دورٌ أساسـي وبارز فـي ردع المخالفيـن ومعاقبتهـم والأخذ بشدة على يد كل من تسـول له نفسـه الخروج عن القوانين والقواعد الإسلامية، فيقوم بمعاقبة تجار البنـاء، وذلك مثلما حدث في عـام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م، عندما ضـرب المعلم محمـد البنا المصري الشـهير بكويز العسـل[٢] الأمير الباشـا جان بردي على مقعدته ورجليه ضربًا مبرحًا بسبب شكوى أبي الخير بن الحجة[٣] في غيبته أن كيلته التي يبيع فيها النورة[٤] ناقصة[٥].

كمـا كان الأيتـام يتمتعـون برعايـة المسـؤولين عـن الحرمين الشـريفين وعطفهـم، وذلك عندمـا ضرب الأميرُ سـودون الفقيـه[٦] مؤدب الأيتام بمدرسـة السلطان قايتباي محمد بن موسـى الظاهري[٧] ضربًا خفيفًا تحت رجليه، وسبب ذلك أن بعض الأيتام قد شـكا إلى المحتسـب أن المؤدب ضربهـم ضربًا مؤلمًا،

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٨٢٦.

(٢) لم أعثر له على ترجمة في المصادر المتداولة.

(٣) لم أعثر له على ترجمة في المصادر المتداولة.

(٤) النورة: مـادة من مواد البنـاء، وهي من الحجـر الذي يُحرق ويسَّـوى منه الكلـس. ابن منظور: اللسان، ٦/ ٤٥٧٣.

(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٨٢٧.

(٦) هو سـودون الظاهري برقوق الفقيه، كان كبير الجراكسة تلمذ للشـيخ لاجين الجركسي، وكان أعجوبـة في دعوى العلـم والمعرفة، مات عام ٨٢٦هـ/ ١٤٢٣م. السـخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٢٨٢-٢٨٣.

(٧) محمد بن موسـى بن عبدالله بن إسـماعيل الظاهري الشـافعي، نزيـل مكة مع أبيه نشـأ فحفظ القرآن والعمدة والمنهاج وغيرها، ولا يُعرف متى توفي. المصدر السابق، ١٠/ ٥٦.

فلمـا فرغ المحتسـب مـن ضربه، صـاح الظاهري: يـا مسـلمين اشـهدوا أنني ما ضُربت في حرام أو غيره، فتخوف المحتسب وقال: تشتكي عليَّ فأمر به، فضُرب على مقاعده، وحُبس، فخلع باب الحبس، وتوجه إلى كاتب السـر وشـكا إليـه، فأعطـى كل واحد من الأيتام أربعـة محلَّق[١]، وقام المحتسـب بمنع المؤدب من مباشرة عمله في المكتب، إلا أنه قد أُعيد مرة أخرى لمباشرة عمله، وسبب ذلك أن الواقف قد اشترط أن يكون من المدرسين[٢].

ورغم مـا تبينه هـذه الحادثـة من مـدى رعاية المسـؤولين عـن الحرمين الشـريفين وعطفهـم علـى الأيتـام، والاهتمام بهـم، إلا أنـه يؤخذ علـى الواقف اشـتراطه أن يكـون الظاهـري من المدرسـين، بـل وإرجاعـه لمباشـرة عمله مرة أخرى، رغم ما يتصف به من سيرة سيئة[٣].

ومما سـبق يتضح لنا وجوب التشـدد علـى كل من يخرج عـن القوانين، وعدم الرأفة أوالشـفقة خصوصاً فيما يتعلق بأمور الشـريعة الإسـلامية، مستندين في ذلك إلى قول الرسـول ﷺ: «أما بعد: فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سـرق فيهم الشـريف تركوه وإذا سـرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٤].

ومن أهم عيوب هذه الوظيفة، أن يتولاها من ليس أهلًا لها، فكان يتولاها

---

(١) كل شـيء اسـتدار كحلقة الحديد والفضة والذهب. ابن منظور: اللسـان، ٢/ ٩٦٧ والمقصود بالمحلَّق هنا عملة نقدية كانت تُستخدم في ذلك الوقت.

(٢) العز بن فهد: بلوغ القـرى، ٢/ ٢٢١-٢٢٢، ٣/ ٧٧٠؛ الجابري: خالد محسـن، الحياة العلمية فـي الحجـاز خـلال العصـر المملوكـي، رسـالة ماجسـتير غيـر منشـورة - جامعـة أم القرى، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٣١٩-٣٢٠.

(٣) الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٦٠٧-٦٠٨.

(٤) مسلم: صحيح مسلم، ٣/ ١٣١٥.

غير المؤهلين أو بعض المرتشين، وهذا يؤدي إلى تدهور المرافق والخدمات، وازدياد معاناة الناس.

ولمكانة وظيفة المحتسب ومكانة متوليها وتعدد مهماته، وتنوع صلاحياته، نجد أنه قد يتولاها من يقوم بدفع رشوة لولي الأمر، نظير شغله هذا المنصب، رغم أنه يكون غير مؤهل وغير صالح لهذا المنصب[١].

هذا ولم تشِر المصادر التاريخية إلى ما يتقاضاه المحتسب، ولم أعثر على ما يدل على أن المحتسب كغيره من الموظفين كان يحصل على نصيب من الهدايا والصدقات التي تصل إلى مكة من أمراء البلاد الإسلامية الأخرى وحكامها.

ومما لا شك فيه أن الحسبة نهج إسلامي قديم، يجعل حياة المسلمين حياة نظيفة فاضلة، فالمحتسب مراقب حازم، ومرشد حاذق في الشؤون الاقتصادية والاجتماعية، ومفتش عام فيما يخص الحياة الثقافية والمذهبية، كما يُعدُّ واعظًا ومرشدًا ومناضلًا من أجل سيادة الحق وزهق الباطل[٢].

ومما يجب التنويه إليه أن الاختلاف الذي يبدو في نظام الحسبة في البلاد الإسلامية المختلفة، إنما هو اختلاف في الأساليب وطرائق الدعوة، وليس اختلافًا في موضوعها الأصلي، وجوهرها الثمين، ألا وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس، بغض النظر عن طبقاتهم وجنسياتهم

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٨٢٨، انظر الفصل الخامس، المبحث الثالث، مكانة الوظيفة الدينية في المجتمع المكي، ص٣٩٤- ٣٩٥

(٢) لقبال: الحسبة المذهبية، ص٧٨.

وألوانهم[١]؛ لكون الحسبة هي الوظيفة الأساسية والأكثر أهمية؛ لأنها أساس تنظيم المجتمع، ونشر العدل والإنصاف بين جميع أفراده[٢].

والجدير بالذكر أن كل بشر على وجه الأرض لا بد له من أمر ونهي ولا بد أن يأمر وينهى حتى لو أنه وحده في هذه الحياة، فالأولى أن يأمر نفسه بالمعروف وينهاها عن المنكر؛ لأن النفس مهما كانت فهي أمارة بالسوء[٣]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾[٤].

---

(١) الشهاوي: الحسبة في الإسلام، ص١٠٦.
(٢) حلاق: الإدارة المحلية الإسلامية، ص١٣.
(٣) ابن تيمية: الحسبة في الإسلام، ص١٠٢.
(٤) سورة يوسف: الآية ٥٣.

الفصل الثاني

الوظائف الإدارية

المبحث الأول: شيخ الحرم أو ناظره

المبحث الثاني: ناظر العمارة

المبحث الثالث: المطوف

المبحث الأول

شيخ الحرم أو ناظره

في اللغة:

اسم هذه الوظيفة مأخوذ، إما من النظر الذي هو رأي العين؛ لأنه يدير نظره في أمور ما ينظر فيه، وإما من النظر الذي بمعنى الفكر: لأنه يفكر فيما فيه المصلحة لذلك[1].

في الاصطلاح:

هو من ينظر في إدارة الأمر[2]، أو من ينظر في الأموال وينفذ تصرفاتها ويُرفع إليه حسابها؛ لينظر فيه ويتأمله ويتفكر فيه، فيمضي ما يمضي ويرد ما يرد[3].

ويُطلق أيضًا على صاحب هذه الوظيفة «شيخ الحرم» والشيخ: من ألقاب العلماء والصلحاء، وأصله في اللغة: الطاعن في السن، كما يُطلق لقب الشيخ على الأستاذ والعالم وكبير القوم، وعلى من كان كبيرًا في أعين القوم علمًا أو

---

(١) ابن منظور: اللسان، ٦/ ٤٤٦٦؛ الفيومي: المصباح المنير، ص٢٣٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٥.

(٢) المنجد الأبجدي، ص١٠٤.

(٣) ابن منظور: اللسان، ٦/ ٤٤٦٦؛ الزبيدي: تاج العروس، ٣/ ٥٧٣-٥٧٤؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٥؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٣/ ١١٧٧.

فضلًا أو مقامًا، وهو اسـم وظيفة تتعلق بالإشراف على خدمة المؤسسات الدينية مثل الجامع والحرم والرواق[١].

وهي وظيفة إدارية محضة مهمتها الرئيسـة الإشراف على ما يحدث داخل الحـرم المكي مـن بناء أو تعميـر أو ترميم أو إصـلاح، إضافة إلى الإشـراف على أعمال جميع العاملين والموظفين بالمسجد الحرام، وكان في أولها لا يتولاها إلا أحد كبار علماء مكة[٢]، ثم تدهورت الأوضاع وأصبح لا يشترط فيمن يتولاها أن يكون ذا كفاءة علمية كغيرها من الوظائف الدينية المهمة في المسجد الحرام.

تاريخها:

إن الاهتمـام بالنظـر في شـؤون المسـجد الحـرام والكعبة المشـرفة أمر مألوف وسـنة قديمة قبل الإسـلام، فقد اهتمت قريش بأمر بناء الكعبة المشـرفة. فهي أول من سقَّف الكعبة المشـرفة، وهي أول من رفع بابها ليدخلوا من شاؤوا، ويمنعوا من شاؤوا، ولما قامت الدولة الإسلامية أصبح من واجب الخلفاء النظر في أحوال المسـجد الحرام والاهتمام بشـؤونه وذلك عندما يأتـون لأداء فريضة الحج، كما كانوا يأمرون بإجراء الإصلاحات في المسجد الحرام[٣].

وقـد يكتب أحد أعيـان الدولـة إلى أولـي الأمر مـن أجل إجراء مـا يلزم إجـراؤه من إصلاحـات وترميمـات في المسـجد الحـرام، مثلما حـدث في عام ٢٨١هـ/ ٨٩٤م، حيـن كتـب صاحـب البريـد[٤] في مكـة المكرمـة إلـى الوزير

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ٦/ ١٧؛ المنجد الأبجدي، ص٦١٢؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٢/ ٦٣٠.
(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، مج٢/ ٩٣٠.
(٣) الفاسي: العقد الثمين،١/ ٢١٧-٢٢٠.
(٤) رجلٌ من أهلها من جيران المسـجد الحـرام له علم ومعرفة وحسـبة وفطنة بمصالح المسـجد الحـرام والبلد. الأزرقـي: أخبار مكـة، ٢/ ١١٠؛ الفاسـي: العقـد الثميـن، ٦/ ٥٨. ولم تذكر المصادر التاريخية من حاله سوى ذلك.

عبيدالله بن سليمان بن وهب[(١)] بما يحتاج إليه المسجد الحرام من إصلاحات وترميمات وكان ذلك في زمن خلافة المعتضد العباسي[(٢)(٣)].

أما أمر الكعبة المشرفة والنظر في شؤونها وما تحتاج إليه من إصلاحات، فمن اختصاص حجبة البيت الحرام، وذلك مثلما فعلوا في السنة نفسها عندما رفعوا إلى بغداد في أمر إصلاح ما يلزم إصلاحه في الكعبة المشرفة[(٤)].

ولكن بعد ذلك اضطرت الدولة الإسلامية إلى تعيين موظف مختص للنظر في أمور المسجد الحرام، والاهتمام بشتى شؤونه والإشراف على موظفيه كافة، وأصبح تعيين هذا الموظف أمرًا معروفًا في تاريخ الدولة الإسلامية في المدة التي سبقت قيام دولة المماليك، ولكن كان يُطلق عليه «شيخ الحرم»، ومن أهم مهماته النظر في مصالح المسجد الحرام والمشاعر المقدسة[(٥)].

ولعل أول مرة أُطلق فيها لفظ «ناظر» كان في عصر الفاطميين، ولم تُشر المصادر التاريخية إلى ما يدل على أن هذا اللفظ ذُكر قبل العصر الفاطمي[(٦)].

وإن كانت عُرفت هذه الوظيفة في العهد الفاطمي أو الأيوبي، إلا أنها

---

(١) عبيدالله بن سليمان بن وهب الحارثي أبو القاسم، وزير، من أكابر الكتّاب، استوزره المعتمد العباسي وعمه بعده المعتضد، واستمرت وزارته عشر سنين إلى وفاته، توفي ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م. الزركلي: الأعلام، ٤/ ١٩٤.

(٢) هو أبو العباس أحمد ابن الأمير الموفق طلحة بن جعفر المتوكل، بويع بالخلافة ولقب المعتضد بالله وذلك عام ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م، فأزال الظلم وأقام العدل وأصلح الحال وجالس العلماء، توفي عام ٢٨٩هـ/ ٩٠١م ببغداد. ابن دقماق: الجوهر الثمين، ص١٣٠.

(٣) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ١١٠-١١١؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٤٨-٣٤٩؛ باز: عبدالكريم علي، ناظر الحرم في العصر المملوكي، مجلة جامعة أم القرى، السنة الثالثة، العدد الخامس، ١٤١١هـ، ص١٤٥.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٣٤٨-٣٤٩.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٣١٥؛ باز: ناظر الحرم، ص١٤٥.

(٦) الباشا: الفنون الإسلامية، ٣/ ١١٧٨؛ باز: ناظر الحرم، ص١٤٤.

كانت ضمـن نطاق ضيق، ولـم تنتشـر وتتعـدد إلا في العصـر المملوكي، فأصبح لفظ ناظـر يضاف إلى اسـم الوظيفة، فُعرف على سـبيل المثـال لا الحصر «ناظر الجيش، ناظـر الخاص، ناظر الحـرم، ناظر الأوقاف» وغيرها مـن الوظائف التي تحتاج إلى من يتولى شؤونها المالية[١].

ويُعدُّ منصور بن منعة[٢] (ت٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م) أول ناظر للمسجد الحرام في العصر المملوكي، وقد ولي الوظيفة منذ عام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م، إلى أن توفي، ويبدو أنه قد شغل المنصب ما يقارب أربعين سنة[٣].

هذا، وقد أشـارت بعض المراجع التاريخية إلى أن نظر المسـجد الحرام في العصر المملوكي قد تأخر للقرن الثامن الهجري، وظهر نظر المسـجد الحرام بوصفه وظيفة مسـتقلة عندما اسـتحدثها السـلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م[٤].

ويبدو أن أول ناظر للمسـجد الحرام في العصر المملوكي هو منصور بن منعة -كما سـبقت الإشـارة إليـه - وكمـا ذكر الفاسـي في كتابـه العقـد الثمين، وبذلك نرجّـح القول الأول ؛ لكون الفاسـي وكتابه العقد الثمين فـي تاريخ البلد الأميـن مصدرًا تاريخيًـا لمكة المكرمة لا يسـتهان به، وأضف إلى ذلك أنه سـبق

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٥؛ الباشـا: الفنون الإسلامية، ٣/ ١١٨٠؛ باز: ناظر الحرم، ص١٤٤-١٤٥.

(٢) منصور بن أبي الفضـل محمد بن أبي علي الطائي، المعروف بابن منعة، شـيخ الحرمين، توفي عام ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م، ودُفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ١٢٨-١٢٩.

(٣) المصدر السابق، ٦/ ١٢٨-١٢٩.

(٤) السـليمان: العلاقات الحجازية، ص١٢٧-١٢٨؛ الفعر: محمد فهد، تطور الكتابات والنقوش في الحجـاز فـي العصريـن المملوكـي والعثماني مـن القـرن ٨-١٢هـ، رسـالة دكتـوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ-١٤٠٧هـ، ص١٧١.

تلـك المراجـع القائلة بأن هـذه الوظيفة استُحدثت عام ٧٤١هـ علـى يد الناصر محمد بن قلاوون[١].

مراسم تعيين ناظر الحرم وعزله:

كان تعييـن ناظـر الحرم يتـم عن طريـق الخليفة العباسـي ببغـداد، ولكن عندمـا أُعيدت الخلافة العباسـية بمصـر، عيّن الخليفـة العباسـي الأول بمصر[٢] اثنين في المنصب، وكان ذلـك عـام ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، وفـوّض إليهما كثيرًا من الأمور التي تخص الخلافة العباسية ومنها:

١ - النظر في مصالح الحرم المكي.

٢ - النظر في الأوقاف بمكة المكرمة.

٣ - النظر في الأربطة بمكة المكرمة.

٤ - إظهار شعار الخلافة بمكة وغيرها.

٥ - النظر في المدارس.

٦ - إقامة الخطبة للخليفة.

٧ - ضرب السكة باسمه.

٨ - الإشراف على السبل.

٩ - قيادة المحمل والحجيج.

---

(١) ٦/ ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) الخليفـة العباسـي: هـو المسـتنصر باللـه أبو القاسـم أحمد بـن الظاهـر محمد بـن الناصـر العباسـي، بويـع بالخلافـة بعد خلـو الوقت مـن خليفة عباسـي ثلاث سـنين ونصـف في عام ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م، لقب بلقب أخيه المسـتنصر، قتل عام ٦٦٠ هـ/ ١٢٦١ م. ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٨٤.

١٠ - مكاتبة زعماء الحجاز واليمن وسائر البلاد من أجل مبايعة الخليفة وطاعته وعونه(١).

ثم أصبح بعد ذلك يصدر قرار تعيين شيخ الحرم أو ناظره من قبل السلطان، وربما ذلك يعود لسيطرة السلاطين على الخليفة والحد من نفوذه، وكان يرسل مرسومًا سلطانيًا بهذه الوظيفة، يُقرأ بالمسجد الحرام على رؤوس الأشهاد(٢).

وعادة تختار حكومة المماليك لشغل هذا المنصب أحد كبار مكة الذين اشتهروا بالعلم والمعرفة والديانة وخصوصاً قاضي مكة الشافعي(٣).

ولعل السبب في اختيار أحد كبار علماء مكة لشغل هذا المنصب هو أن هؤلاء العلماء يقضون جُلّ وقتهم في المسجد الحرام، وبهذا يكونون أكثر الناس معرفة بمصالحه وشؤونه.

إلا أنه ابتداء من عام ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م، أصبح السلطان يُعين في هذه الوظيفة أشخاصًا لا يملكون كفاءة علمية تؤهلهم لشغل المنصب، أضف إلى ذلك أنهم لم يكونوا من أهل مكة، بل يقوم السلطان باختيارهم وإرسالهم من مصر وغالبًا ما يكونون من الأمراء المماليك(٤).

ونتيجة لعدم تحري السلطان الدقة فيمن يتولى المنصب، نجد أَنه قد

---

(١) ابن فهد، إتحاف الورى، ٣/ ٨٤-٨٦.
(٢) المصدر السابق، ٣/ ٣٤٥، ٥٦٧، ٤/ ٢٢٢؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص٧٥.
(٣) المقريزي: السلوك، ج٤، مج٢/ ٩٣٠.
(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٧٣-٧٤، ٩٣، ١٨٤، ٢٦٠، ٢٩٧، ٣٠٤، ٣٣١، ٣٣٢؛ الفعر: تطور الكتابات والنقوش، ص١٧١.

يعين شـخصًا غير كفء لمجرد أنه نديمه أو جليسه، ويصفه المقريزي في كتابه السلوك بقوله: «مضحك السلطان ونديمه وجليسه...»[(١)].

وعادة عندما يرغب السلطان في زيادة إكرام متولي المنصب فإنه يقوم بتوليته على «مشيخة الحرمين»[(٢)].

ويقرأ قرار التعيين في المسجد الحرام[(٣)]. بحضور أعيان مكة -كما سبقت الإشارة إليه - وتصل عادة مع القرار خُلعة المنصب، والتي تكون هدية من السلطان إلى صاحب المنصب، يلبسها بعد قراءة تعيينه[(٤)]، أما إذا كان متولي المنصب قادمًا من مصر ومعه قرار التعيين، فإنه يلبس الخلعة في القاهرة[(٥)].

ومن حق شريف مكة منع الناظر الذي يعينه السلطان من ممارسة عمله في حال عدم رضا أهل مكة عن تعيينه، ويحق له تعيين ناظر مكانه، ولكن ذلك يكون بشكل مؤقت إلى أن يرسل للسلطان مبينًا له سبب تصرفه ذلك، كما يطلب منه عزل الناظر المعين من قبله وتعيين ناظر آخر يرضى به أهل مكة[(٦)].

كما يحق للشريف تعيين ناظر للمسجد الحرام في حال حدوث نزاع بين المشتركين في المنصب، إذا شغل المنصب أكثر من واحد، ولكن ذلك يكون مؤقتًا أيضا إلى أن يرسل للسلطان ويخبره بسبب النزاع طالبًا منه إيجاد حل مناسب لإنهاء المشكلة أو النزاع[(٧)].

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، مج٢/ ٩٦١.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٩٠، ٤/ ١٣١، ١٩٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٢٠٨؛ النهروالي: الأعلام، ص٢١٦.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٠٩، ٦٣٩، ٤/ ٢٩٧؛ المقريزي: السلوك، ج٤، مج٢/ ٩٣٠.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٢٧، ٤٤٨، ٥٠٩؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص٧٥.

(٥) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠.

(٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٧٣-٧٤.

(٧) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١؛ الضوء اللامع، ٩/ ٢١٤.

وقد يصدر قرار سلطاني بتعيين اثنين في الوظيفة في وقت واحد، ثم يترك أهل مكة؛ ليقوموا باختيار أحدهما[١]، وأحيانًا يفِّوض السلطان أمير الحاج المصري؛ ليتولى عزل الناظر وتعيين ناظر بدلًا عنه[٢]؛ ففي عام ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م، عزل أمير الحاج المصري طُولُو الناصري[٣] القاضي عز الدين النويري[٤] من قضاء مكة، وخطابتها، والحسبة، ونظر المسجد الحرام، وذكر بأن السلطان بمصر فوَّض إليه أمر عزله وتولية من يصلح عوضًا عنه[٥].

أما إذا مات الناظر فإن السلطان عادة يعين ابنه مكانه، وإذا كانت له وظائف أخرى بجانب نظر الحرم فإن الابن يخلفه فيها[٦]، وكذلك الحال أيضًا عندما يعين السلطان قريب الناظر – المتوفى – كأخيه مثلا[٧].

وأحيانًا يعين السلطان لهذه الوظيفة شخصًا من غير أقارب الناظر المتوفى، وفي هذه الحالة فإنه يخلفه في نظر الحرم وفي الوظائف الأخرى أيضًا، إذا كان الناظر المتوفى ممن له وظائف أخرى غير نظر الحرم[٨].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٤١-٤٤٢.
(٢) المصدر السابق، ٣/ ٤٣٧.
(٣) هو طولو بن عبدالله بن علي باشا الظاهري برقوق، نائب غزة ثم إسكندرية ثم أمير مئة ومقدم ألف بمصر، قتل في واقعة كانت بين حكيم نائب حلب وبين شيخ المحمودي – المؤيد – في عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، ١/ ٣٧٤.
(٤) هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبدالعزيز القرشي العقيلي كمال الدين النويري المكي الشافعي، ولد عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م بطيبة ونشأ بها، ناب لأبيه في الخطابة، ناب في الحكم سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م بعد وفاة والده، ولاه السلطان قضاء مكة وخطابتها عزل في موسم ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م ثم أعيد سنة ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م، توفي عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م. ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ٧/ ٢٨٨.
(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٣٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٨/ ٩٤.
(٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٠٦.
(٧) المصدر السابق،٣/ ٥٥٢.
(٨) المصدر السابق، ٣/ ٣٤٥، ٤/ ٧٣.

أما عـزل الناظر فإنه عـادة لا يتم إلا بقرار سـلطاني، وعندمـا يصدر قرار عزله، فإنه يصدر قـرار آخر بتعيين ناظر آخـر يحل محله(١)، وعـادة عندما يصدر قرار العزل فإنه يشمل جميع الوظائف التي كان يتولاها الناظر، وفي الوقت نفسه يخلفه الناظر الجديد في جميع وظائفه(٢).

وأحيانًا يشـمل بعـض هـذه الوظائـف(٣). وأحيانًا يفـوِّض السـلطان أمير الحـاج المصـري بعـزل الناظر - كما سـبقت الإشـارة إليـه - فيعزله مـن جميع وظائفـه، ويعيـن ناظـرًا آخر ليحـل محلـه، وليتولـى وظيفتـه إضافة إلـى وظائفه الأخرى، ويكون الناظر المعين من اختيار أمير الحاج المصري(٤).

ولأهمية الوظيفة ومكانة متوليها، وكثرة المتنافسين عليها، نجد أن الناظر لا يسـتمر مدة طويلة في شـغل المنصب، إذ إنه معرض دائمًا للعزل والوشـاية به والكيد له عند السلطان من قبل من يرغب في تولي هذا المنصب المهم(٥).

وعادة عندما يصدر قرار السـلطان بتعيين أحد أمرائـه في مصر لتولي نظر المسجد الحرام، فإن هذا الأمير يكون مكلفًا بعمل عمارة معينة في الحرم المكي من قبل السـلطان؛ لذلك نجد الناظر المعين في مصـر والقادم إلى مكة يأخذ معه مجموعـة من المعماريين، كمـا يحمل معـه أدوات العمارة وما تسـتلزمه، إضافة إلى مؤنـة العامليـن، ويقوم بشـحن كل ما سـبق ذكره عـن طريق البحـر الأحمر بسفن، والسبب في ذلك هو فقر مكة وجهد أهلها في تأمين قوتهم وهذا يستدعي إحضار مؤنة العاملين من مصر إلى مكة(٦).

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ٨/ ٩٤.
(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٢٣، ٤٣٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٨/ ٩٤.
(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٣٧، ٦٣٨-٦٣٩.
(٤) المصدر السابق، ٣/ ٤٣٧.
(٥) المصدر السابق، ٣/ ٥٧٢، ٦٣٨.
(٦) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠.

أهم مهمات الناظر المعمارية والإدارية:

لأهمية هذه الوظيفة نجد غالبًا متوليها ذا اختصاصات متعددة وكثيرة، ولكنها تتفاوت بحسب شخصية متوليها، فإن كان ذا شخصية قوية، متزنة، وراضٍ عنه السلطان، تزيد اختصاصاته ومهماته، وإن كان ذا شخصية ضعيفة، مهتزة، ذا نفوذ ضعيف، ففي هذه الحالة تضعف وتقل اختصاصاته، ولكن ما نلحظه أن أعمال هذه الوظيفة تدور ضمن اختصاصات ومهمات إدارية ومعمارية إنشائية داخل الحرم المكي والمشاعر المقدسة، ومن أهم مهمات الناظر المعمارية:

١ - الإشراف على جميع ما يتم داخل المسجد الحرام من إصلاحات[١].

٢ - القيام بجميع أعمال العمارة داخل المسجد الحرام[٢].

٣ - إصلاح الطرق بين مكة ومشاعر الحج[٣].

٤ - إصلاح العيون التي يستخدمها أهل مكة للشرب[٤].

٥ - الإنفاق على السبل وعمارتها[٥].

٦ - إصلاح البرك بعرفات[٦].

٧ - القيام بترميم المساجد التي بمشاعر الحج[٧].

٨ - القيام بترميم الأربطة[٨].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٩٨؛ النهروالي: الأعلام، ص٢٠٧.
(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص١٥٣؛ النهروالي: الأعلام، ص٢١٦ - ٢١٧.
(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ١٦٥.
(٤) المصدر السابق، ٤/ ٢٧٤؛ النهروالي: الأعلام، ص٢١٨.
(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٢٢١، ٢٩٨؛ النهراولي: الأعلام، ص٢١٧.
(٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٢٨٦ - ٢٨٧؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص٢٦٦.
(٧) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٢٨٧؛ النهروالي: الأعلام، ص٢١٨.
(٨) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٣٠٦ - ٣٠٧؛ النهروالي: الأعلام، ص٢١٩.

٩ - الإشراف على المطاهر[١].

١٠ - القيام بكل ما تحتاج إليه المدارس من ترميم[٢].

هـذه بعـض الاختصاصـات المعماريـة التـي كان يتولاهـا الناظـر، ومن الأهمية بمكان القول بأن الناظر كان مسـؤولًا مسؤولية مباشرة عن كل ما يحدث داخل المسـجد الحرام من عمـارة وترميمات، إضافة إلى مسـؤوليته عمَّا يحدث من عمـارة وغيرها في مشـاعر الحـج، كما لا بد له من الإشـراف علـى كل تلك الأعمال ومتابعتها حتى الانتهاء منها.

والجديـر بالذكـر أن ناظـر الحـرم كان يتولـى - إضافـة إلـى المهمـات المعماريـة -، مهمـاتٍ إداريـة يُكلـف بالقيـام بهـا والإشـراف عليهـا، ومن هذه المهمات الإدارية ما يلي:

١ - الإشراف على أعمال الموظفين بالمسـجد الحرام وإعطاؤهم التعليمات اللازمة لذلك[٣].

٢ - إعلان أوامر السلطان وذلك بكتابتها على رخامة في المسجد الحرام[٤].

٣ - حل المشـكلات والنزاعات التـي تحدث داخل المسـجد الحرام، وذلك ضمن مجلس قضائي يحضره الناظر ويحضر معه القضاة[٥].

٤ - القيام بمحاسبة الموظفين بالمسجد الحرام على أخطائهم[٦].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٣٠٤.
(٢) المصدر السابق، ٤/ ٣١٨.
(٣) المصدر السابق، ٤/ ١٩٧.
(٤) المصدر السابق، ٤/ ٣٠٤.
(٥) المصدر السابق، ٤/ ١٧٢.
(٦) المصدر السابق، ٤/ ٤٦٦.

٥ - المشـاركة في حمايـة البلد الحـرام من الغـزو؛ ومن ذلك خـروج الأمير تنم ناظر المسـجد الحرام مع المدافعين عن مكـة المكرمة عام ٨٤٧هـ-١٤٤٣م[١].

٦ - القيام بعزل الفراشـين في المسـجد الحـرام، وذلك مثلما حـدث في عام ٨٧٦هــ-١٤٧١م، عندمـا عـزل الناظر برهان بـن ظهيرة الشـيخ عمر بن بيسق[٢] عن مشيخة الفراشين، وأُقيم عوضه أحمد بن عبدالسلام الفيومي النجار[٣].

٧ - منع التعدي بالبناء داخل حدود المسجد الحرام[٤].

٨ - الإشراف على مستودعات شـمع المسجد الحرام وزيته، حيث لا يُصرف شيْء منها إلا بإذنه، وتكون مفاتيح المستودعات عنده[٥].

٩ - حضور قراءة المراسـيم التي تصدر من قبل السلطان من أجل تعيين أصحاب الوظائف الدينية في مكة، والتي تُقرأ عادة في الحرم المكي[٦].

١٠ - منع أي سـلطان من غير سـلاطين الدولة المملوكية من القيـام بأي عمل داخل المسجد الحرام[٧].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٢١٠-٢١١؛ باز: ناظر الحرم، ص١٦٨.
(٢) عمر بن بيسـق: هو عمر بـن محمد بن أحمد بـن عبدالعزيز الدمشـقي الأصل المكـي المولد، شيخ الفراشين بها، يعرف بابن بيسـق، ولد عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م، وخلف والده في المشيخة. السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ١١٥.
(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٤٠.
(٤) المصدر السابق، ٤/ ٥٢٧-٥٢٨.
(٥) المصدر السابق، ٤/ ٥٣٨.
(٦) المصدر السابق، ٤/ ١٧١، ٣٧١، باز: ناظر الحرم، ص١٦٩.
(٧) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٣٠٢.

١١ - حضور المناسبات والاحتفالات الدينية التي كانت تقام في مكة المكرمة(١).

١٢ - الاهتمام بالأموات الذين ليس لهم من يقوم بهم وتغسيلهم وتكفينهم، ودفع أجرة من يقوم بذلك(٢).

١٣ - اختيار المعلمين فيما تأمر به الدولة من دروس بالمسجد الحرام(٣).

١٤ - تحصيل الأموال العائدة للحرم المكي حتى وإن كانت خارج البلاد، مثلما حدث في عام ٨٩٢هـ-١٤٨٦م، عندما أرسل ناظر الحرم برهان الدين ابن ظهيرة(٤) وكيل السيد بركات - وهو النور علي بن محمد بن أحمد بن محمد بن عثمان الصنبداوي المكي- الملقب بابن عاشور، وذلك لتحصيل الأموال العائدة للحرمين من العراق(٥).

١٥ - تحديد أماكن جلوس بعض أصحاب الوظائف الدينية في المسجد الحرام(٦).

١٦ - الاشتراك في غسل الكعبة المشرفة مع غيره من أعيان مكة وعلمائها ووجهائها(٧).

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ١٠/ ٥٢.

(٢) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٧؛ السالمي: الحياة الدينية في مكة المكرمة، ص٢٠٩.

(٣) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٢٣٢؛ السالمي: الحياة الدينية في مكة المكرمة، ص٢٠٩.

(٤) هو إبراهيم بن علي بن محمد بن محمد بن حسين بن علي بن أحمد بن ظهيرة القرشي المخزومي المكي، برهان الدين أبو إسحاق الشافعي، قاضي مكة المشرفة، ولد عام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م، وأخذ العلم عن عمه القاضي أبي السعادات، ولي قضاء مكة نحو ٣٠ سنة، مات عام ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م. السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر، نظم العقيان في أعيان الأعيان، مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٩هـ/ ٢٠٠٠م، ص١٧ - ٢٠.

(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ١/ ٤٥٢؛ باز: ناظر الحرم، ص١٦٩.

(٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ١٧٤؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص١٦.

(٧) النهروالي: الأعلام، ص٢٢٦.

١٧ - تفويضه من قبل السلطان لمحاسبة الناظر الذي قبله[١].

وإضافة إلى تولي ناظر المسجد الحرام لوظيفة النظر، نجد أن بعض النظار يتولون إضافة إلى وظيفتهم الأساسية وهي نظر الحرم، وظائف أخرى ومنها:

١ - قضاء مكة[٢]، والعادة أن يتولى قاضي مكة الشافعي نظر المسجد الحرام[٣].

٢ - الخطابة[٤].

٣ - سدانة الكعبة المشرفة[٥].

٤ - نظر الأيتام[٦].

٥ - نظر الصدقات[٧].

٦ - الحسبة[٨].

٧ - نظر الأوقاف[٩].

٨ - نظر الأربطة[١٠].

٩ - نظر المطاهر[١١].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٢٩٧؛ النهروالي: الأعلام، ص٢١٩.
(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٤٥-٤٠٦؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ١٣.
(٣) المقريزي: السلوك، ج٤، مج٢/ ٩٣٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ١٣.
(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٤٥، ٤٠٦.
(٥) المصدر السابق، ٣/ ٦٣٨-٦٣٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ١٣.
(٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٣٩.
(٧) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠.
(٨) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٢٦٠-٢٦١، ٢٩٧؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠، ٣٩١؛ الضوء اللامع، ٧/ ٤٥.
(٩) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٠٦، ٤/ ٢٩٧؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠.
(١٠) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٠٦، ٤/ ٢٩٧؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠.
(١١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٠٩، ٤/ ٣٠٤.

١٠ - قضاء جدة[١].

١١ - التدريس[٢].

١٢ - شاد العمائر[٣].

١٣ - الإفتاء[٤].

والجدير بالذكر أن ناظر المسجد الحرام كان يتخذ له نائبًا ينوب عنه في وظائفه أو في بعضها[٥]؛ وذلك لكثرة أعماله وتعدد المهمات الملقاة على عاتقه، ويكون لذلك النائب وكيل ومدير يقوم بشؤونه[٦].

ومن أهم الأمور التي ينوب فيها النائب، الإشراف على جميع أمور المسجد الحرام من كنس ونظافة واستقبال الزوار، وخدمة البيت العتيق[٧]، كما ينوب عن الناظر في مراقبة موظفي المسجد الحرام من مؤذنين وأئمة وفراشين وكناسين ووقادين وبوابين وزمازمة، ومشديه[٨]، وأغوات الحرم الشريف[٩]، وغيرهم من الموظفين داخل الحرم المكي.

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٣٨.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٢٤٠.

(٣) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠، ٣٩١؛ دحلان: أحمد زيني، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، ط١، المطبعة الخيرية - القاهرة، ١٣٠٥هـ-ص٤٢.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب، ٥/ ٤٢٥-٤٢٦؛ الشوكاني: البدر الطالع، ص١١٤-١١٥.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٤٥.

(٦) باشا: مرآة الحرمين، ١/ ٢٦٠؛ البتنوني: الرحلة الحجازية، ص١٠١.

(٧) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٣، ٥/ ٦٤.

(٨) مشديه: الشاد أو المشد من الوظائف الإدارية وعرفت هذه الوظيفة في الدواوين كما عرفت في الأوقاف في العصر المملوكي، وكان يشترط فيمن يتولاها أن يكون ثقة أمينًا من أهل الخير والدين، له همة ونهضة، ذا عفة وعزم ويقظة. القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ١٨٦.

(٩) باسلامة: حسين عبدالله، تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك، ط٣، تهامة للنشر، جدة، ١٤٠٠هـ، ص٣٠٤، انظر تعريف الأغوات، ص٣٠٧.

وعادة يكون النائب من أهالي مكة المكرمـة، ومن اللازم عليه مراجعة رئيسـه -وهـو الناظـر- فـي حالـة مواجهتـه مسـألة كبيـرة، لمشـاورته وتلقي أوامره[١].

إدارة المسجد الحرام:

كانت إدارة المسـجد الحرام منذ العصور الأولى للإسـلام يقوم بها أمراء مكة المكرمـة وولاتها في عهـد الخلفاء الراشـدين، ومن أتى بعدهـم من خلفاء بني أمية والعباسـيين والفاطميين والأيوبيين وسـلاطين المماليـك، وكانت مهمة هـؤلاء الأمراء والولاة مراقبة المسـجد الحرام والإشـراف عليـه، وبذلك يُعدون هم المسـؤولين عن كل قصور أو نقص في خدمة المسـجد الحرام، أمام الملوك والخلفاء والسلاطين[٢].

وقد أطلـق العثمانيون على المشـرف علـى إدارة الحـرم وشـؤونه لقب «شيخ الحرم» أو «مدير الحرم»، ومهمته النظر في شؤون المسجد الحرام[٣].

ويبدو أن هنا بعض اللبس أو الاختلاط حول تسـمية الناظر على شـؤون الحـرم بشـيخ الحرم؛ لأن لفظة «شـيخ الحـرم» كانـت تُطلق على متولي شـؤون الحـرم قبل العصر المملوكـي، ومنذ عـام ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م، وبتولـي منصور بن منعة – كما سـبقت الإشـارة إليـه – أصبـح يُطلق على شـيخ الحرم لقـب «ناظر الحرم» ومن الطبيعي أن يستمر هذا اللقب لما بعد الدولة المملوكية.

إذن ومما لا شـك فيه، أن وظيفـة «نظر الحرم» كانـت موجودة قبل عصر المماليـك، ولكن كانت تُعرف بـ «مشـيخة الحـرم»، ومتوليها يطلق عليه «شـيخ

(١) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٣، ٥/ ٦٤، وقد استقرت هذه الوظيفة في بيت «نائب الحرم».
(٢) باسلامه: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٣٠٤.
(٣) الكردي: التاريخ القويم، م٣، ٥/ ٦٤.

الحـرم»، ولكن مع تولـي منصور بن منعة لنظر المسـجد الحـرام وكان أول ناظر للمسـجد الحرام في العصـر المملوكي، أصبح يُطلق على «شـيخ الحرم»، «ناظر الحرم»[(١)].

وقد اسـتقرت وظيفة نظر المسـجد في أسـرة الظهيريين مدة طويلة، ومن ثَمَّ أُسندت إلى النويريين، ولكن ما لبثت أن عادت مرة أخرى إلى بني ظهيرة[(٢)].

راتب ناظر المسجد الحرام:

خصصت وثيقة الأشـرف شـعبان مبلغًا من المال وقدره ألفان وخمسمئة درهم من النقـرة للصرف على مشـايخ المذاهـب الدينية (الشـافعي –المالكي– الحنفـي) بحيـث يكون للشـافعي ألـف درهـم، وللمالكـي خمسـمئة درهم، في حين خصـص للحنفي ألف درهم أيضًـا، ولكن لـم تخصص الوثيقة راتبًا للشـيخ الحنبلـي، وقد أشـارت الوثيقة أنـه في حال اشـتغال أحـد المشـايخ أو في حال تعذرهم للقيام بمهمات المنصب يقرر الناظر على الوقف بدلًا منه[(٣)].

ولـم تشـر المصـادر التاريخيـة –التي اطلعنـا عليهـا– إلى وصـول هدايا وهبات وصدقات من البلدان الإسـلامية الأخرى لناظر الحرم المكي، ولكن مما لا شـك فيه أن وظيفة إدارية مهمة كوظيفة نظر المسـجد الحـرام، لا بد أنه كانت تُرسـل لصاحبها الصدقات والهبـات، بل لا بد أن يكون له نصيـب مما يصل إلى مكة المكرمة وموظفي الحرم المكي من صدقات وهبات.

---

(١) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع انظر ص ١٦٠–١٦٣، تاريخ نظر المسجد الحرام.
(٢) الفاسـي: العقد الثمين، ٢/ ٧٧، ٣٥٨، ٣/ ٣٢؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٧١٢.
(٣) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠١–١٠٢.

المبحث الثاني
ناظر العمارة

في اللغة:

نظر إلى الشيء نظرًا ونظر إليه، أبصره وتأمله بعينه، وفيه تدّبرَ وفكّرَ، يقال: نظر في الأمر، والناظر الفاعل من نظر والجمع نواظر[١].

في الاصطلاح:

الناظر هو المرسل إلى جهة ليستبرئ أمرها، وهو المتولي إدارة أمرها[٢]. وهو الذي يتولى ترتيب العمائر وتقديرها، ويحكم على أرباب صناعاتها، ويُطلق عليه مهندس العمائر[٣].

وهي وظيفة مؤقتة، تتضمن إرسال السلطان لأحد أمرائه للقيام بعمارة معينة في الحرم المكي، وتنتهي مهمات الوظيفة بانتهاء المرسَل من قبل السلطان من أداء واجبه، والمهمة المطلوبة منه، وعادة لا يقوم السلطان بإرسال أحد أمرائه إلا عندما تستدعي الحاجة في المسجد الحرام، كعمل بعض الترميمات والإصلاحات اللازم عملها، وخير مثال على ذلك ما حدث في عام

---

(١) ابن منظور: اللسان، ٦/ ٤٤٦٦؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٥؛ أنيس: إبراهيم وآخرون، المعجم الوسيط، دار الفكر، د. ت، ٢/ ٩٣١ -٩٣٢.

(٢) أنيس: المعجم الوسيط، ٢/ ٩٣٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٧.

٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، عندما أرسل السلطان[١] أميرًا من أمرائه يُدعى بيسق وهو حينئذ أمير آخور[٢]، وأرسل معه المال لإصلاح ما تهدم في المسجد الحرام[٣].

وفي عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، أرسل السلطان أحد أمرائه إلى مكة المكرمة لإعادة بناء ما احترق في المسجد الحرام[٤].

والمُعّين في هذا المنصب من قبل السلطان يكون برتبة أمير[٥].

ويفهم من سياق الكلام أن السلطان كان عندما يحدث تهدم في المسجد الحرام أو عندما تستدعي الحاجة عمل ترميم أو إصلاح ما، فإنه يرسل من عنده أميرًا من الأمراء؛ ليقوم بإصلاح ما يجب إصلاحه أو لعمارة ما تلزم عمارته، ويبعث مع أمرائه الأموال الوفيرة؛ ليستطيعوا القيام بأعمالهم على أكمل وجه.

وأحيانًا يقوم السلطان بإرسال أحد أمرائه لإحداث عمارة ما خارج حدود

---

(١) السلطان في هذه السنة هو السلطان الناصر فرج بن برقوق، وقد كلف أميرَ المحمل الشريف ويسمى الأمير بيسق بن عبدالله الظاهري بإصلاح ما أتلفه الحريق في المسجد الحرام عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، ثم إصلح رباط رامشت وترميمه في عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠٢م، كما أجرى عدة إصلاحات وترميمات في أسطوانات المسجد الحرام وأساطينه وأروقته. الفاسي: شفاء الغرام، ٢/ ٥٩٢؛ الطبري: الأرج المسكي، ص١٦٦.

(٢) أمير آخور: هو الذي يتحدث على إِصطبل السلطان أو الأمير، ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرهما مما هو داخل في حكم الإِصطبلات، وهو مركب من لفظين: أحدهما عربي وهو أمير والثاني فارسي وهو آخور ومعناه المعلف، والمعنى أمير المعلف: لأنه المتولي لأمر الدواب. القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦١.

(٣) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر، ٢/ ٤١؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤١٠-٤١١.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٦٥؛ النهروالي: الأعلام، ص١٩٢؛ الباشا: حسن، موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية، ط١، مكتبة الدار العربية للكتاب، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ١/ ٣٥.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤١٠-٤١١.

المسجد الحرام، كعمارة بعض العيون والسقايات أو بناء مطهرة ما[١]، وخير ما نستشهد به في هذا المقام ما حدث في عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م، عندما قصد الأمير جوبان[٢] عمل خير بمكة، فدلّه بعض الناس على عين كانت تجري في القديم، ثم تعطلت فندب لذلك بعض ثقاته وأعطاه خمسين ألف دينار، وجهزه في موسم ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م، فلما قضى حجه تأخر بمكة واشتهر أمره بها، فأعلم بعين في عرفة فنادى بمكة: من أراد العمل، في العين فله ثلاثة دراهم في كل يوم، فهرع إليه العمال، وخرج بهم إلى العمل، فلم يشق على أحد منهم ولا استحثه، وإنما كانوا يعملون باختيارهم ومن تلقاء أنفسهم، فأتاه جمع كبير من العرب، وعمل حتى النساء، إلى أن جرى الماء بمكة بين الصفا والمروة، في ثامن عشر جمادى الأولى من سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م، فكانت مدة العمل أربعة أشهر، وكثر النفع بهذه العين، وصرفه أهل مكة إلى مزارع الخضروات[٣].

وهكذا يتضح لنا مما سبق أن السلطان عندما يرسل ناظر العمارة، فهو قد يرسله للعمارة خارج حدود الحرم المكي، ولا يُشترط أن تكون العمارة داخل المسجد الحرام.

مراسم تعيين ناظر العمارة:

قد يُعين شريف مكة ناظر العمارة في أحد الوظائف التي تُجمع له مع وظيفته كنظر المسجد الحرام، ولكن تعيينه يكون بشكل مؤقت - كما سبقت الإشارة إليه في ناظر الحرم - ومثال ذلك ما حدث في عام ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م،

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٥٤١، ٥٥٦، ٥٦٠؛ النهروالي: الأعلام، ص٢١٧.

(٢) الأمير جوبان: هو جوبان بن تدوان نائب السلطنة بالعراقين، كان رجلاً شجاعًا صحيح الإسلام، بذل ذهبًا كثيرًا حتى أوصل الماء إلى بطن مكة، قتل في عام ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٢٩١-٢٩٢.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ١٨١-١٨٢؛ الهمزاني: أثر السلاطين والأمراء، ص٤٧٠.

عندما عُين الأمير سودون المحمدي لنظر المسجد الحرام بدل داود الكيلاني[١]، وذلك لأن كثيراً من أهل مكة من الفقراء وأهل الحرم لم يرضوا بولاية داود، فعين شريف مكة بدلًا منه سودون المحمدي شاد العمائر[٢] بالمسجد الحرام، ومُنع داود من مزاولة عمله والقيام بمهمات ناظر الحرم[٣].

هذا، وقد يجعل الشريف ناظر العمارة نائبًا عنه في تصريف شؤون مكة وأمورها في حال غيابه عنها، وقد يستغل ناظر العمارة كونه نائبًا للشريف، فيقوم بكثيرٍ من الإصلاحات والترميمات، بل وغيرها من التنظيمات التي تستدعي الحاجة لها في مكة، وعادة تكون مدة تكليفه بوصفه نائباً قصيرة[٤].

أهم مهمات ناظر العمارة وواجباته:

لم تقتصر مهمة ناظر العمارة على القيام بإصلاح أو ترميم ما يحدث من تهدم في المسجد الحرام أو خارجه، بل كان يحمل على عاتقه كثيراً من المهمات والواجبات ومنها:

١ - مسؤوليته التامة عن القيام بجميع ما يحتاج إليه المسجد الحرام من عمارة أو ترميم أو إصلاحات تستدعي ذلك، فلو أرسل السلطان أحد أمرائه لعمارة المسجد الحرام، واستدعى الأمر عمل بعض الترميمات

---

(١) هو داود بن علي بن بهاء الدين شرف الدين الكيلاني التاجر الخواجا والد سليمان وعلي ومحمد، عُين في ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م ناظرًا للمسجد الحرام عوضًا عن أبي السعادات، فأنكر أهل مكة ذلك ولم يمكنه السيد بركات من التحدث وأقام عوضه سودون شاد العمائر، توفي عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م، وهو من أبناء السبعين. السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٢١٤.

(٢) شد العمائر: موضوعها أن يكون صاحبها متكلمًا في العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه أو تجديده من القصور والمنازل والأسوار، وهي إمرة عشرة. القلقشندي: صبح الأعشى، ٤/ ٢٢٩.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٧٣-٧٤.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٩٧.

للكعبة المشرفة، فعليه القيام بذلك[١]. ومن ذلك ما حدث في عام ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م، عندما أخبر شيخ الكعبة الشيخ جمال الدين محمد الشيبي أنه سمع -وهو يصلي الظهر بالكعبة- صوت خشبة في البيت تصرُّ ثلاث مرات. فعندما استبرأ الأمر، وجد أن الأسطوانة الخشبية التي أمام باب البيت قد انتقلت من موضعها قدر ذراع وشيءٍ من جهة الباب، فأعلم بذلك مشد العمارة الأمير مقبلا القديدي[٢]، والخواجا شيخ على الكيلاني[٣] الناظر في العمارة فاجتمع القضاة الأربعة وناظر الحرم وفُتح البيت الشريف، وحضر نائب البلد، وجمال الدين يوسف المهندس وجاء بالصناع، فرُدَّت الأسطوانة وشدت إلى مكانها برفق كبير في غير صوت ولا كثير ضرب، وأتقن أمرها[٤].

ومعنى هذا أن ناظر العمارة المرسل من قبل السلطان يكون مسؤولًا عن كل ما يحتاج إليه الحرم من عمارة في مدة وجوده في مكة المكرمة.

٢ - متابعة أعمال المهندسين والبنائين والعمال والإشراف عليهم، وصرف مرتباتهم[٥].

٣ - إحضار جميع ما تحتاج إليه العمارة من أدوات بناء ومؤنة وغيرها، إضافة

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ١٦٦، ٣٤٧؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٩٧-٥٩٨؛ الدر الكمين، ١/ ٦٤٥.

(٢) لم أعثر له على ترجمة في المصادر المتداولة.

(٣) هو علي بن محمد بن عبدالكريم بن حسن الخواجا العلاء الكيلاني ثم المكي، ويعرف بالشيخ علي، ولد بكيلان وسافر منها وهو ابن أربع عشرة سنة، انقطع بمكة ثم خرج منها في أواخر ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م حتى مات عام ٨٤٨هـ/ ١٤٤٤م وعمّر مئة وثلاث سنين، ودفن بالقطيع في اليمن. السخاوي: الضوء اللامع، ٥/ ٣١٣.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٩٧-٥٩٨.

(٥) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠؛ النهروالي: الأعلام، ص٢٠٧.

إلى إحضار قـوت العمال، وعـادة يُحضر الناظر المؤنـة والعمال معه من مصر[١].

٤ - رعاية العمائر السـلطانية والإشـراف عليها مما يختاره السلطان من إنشاء أو تجديد لبعض القصور والمنازل والأسـواق والمدارس والمساجد[٢]. ففي عـام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، قام الأميـر خير بـك المعمار[٣] بعمـارة بئر زمزم في الحرم المكي، إضافة إلى بعض الإصلاحات[٤].

هـذا، وقـد اتسـعت صلاحيات ناظـر العمـارة ونفوذه اتسـاعًا كبيـرًا في عهد السـلطان جقمق[٥]، وازداد نفوذ الشراكسة بشـكل خاص، فنجد أنه في عام ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م، قام السلطان جقمق بإرسال الأمير سودون المحمدي إلى مكة المكرمة، ليكون مشـدًا للعمارة بها، وليكون أميرًا على خمسـين فارسًا من الترك المقيمين في مكة المكرمة[٦].

ومن واجب ناظر العمارة أن يكون لطيفًا مـع البنائين، ذا رأفة ورفق بهم،

(١) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣١٧، ٣٢٠-٣٢١.

(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٠.

(٣) خير بك الأشـرفي، اسـتقر في نظـر الحرميـن ونيابة القـدس بعد دقمـاق. السـخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٢٠٨.

(٤) المصـدر السـابق، ٢/ ٨٠؛ انظـر أيضًـا إبراهيـم: عبداللطيـف، وثائـق الوقـف علـى الأماكن المقدسـة، دراسـات في تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الثاني؛ جامعة الملك سعود - الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ص٢٥٤.

(٥) هو السلطان الملك الظاهر سـيف الدين أبو سعيد جقمق العلائي الظاهري الجركسي، تسلطن بعد خلع الملك العزيز يوسـف عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م، توفي عام ٨٥٦هـ/ ١٤٥٢م وتسـلطن ولـده الملك المنصور عثمـان. ابن تغري بـردي: جمال الدين أبو المحاسـن يوسـف، النجوم الزاهـرة في ملـوك مصـر والقاهرة، علـق عليه محمد حسـين شـمس الديـن، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ١٥/ ٣٢، ٢٩٦.

(٦) دحلان: خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام، ص٤٢؛ السباعي: تاريخ مكة، ص٣٠٢.

فـلا يكلف أحدًا فوق طاقته، ويسـمح لهم بالطعام والشـراب، ومن أهم ما يجب عليه إطـلاق سـراحهم وقت الصلـوات، وتمكينهـم مـن أداء واجباتهـم الدينية، وحثهـم علـى أداء عملهم علـى أكمل وجـه من غيـر إيذائهـم أو إلحـاق الضرر بهم، أيًـا كان نـوع الضرر. ومـا يفعله بعضهـم من تكليـف العمال فـوق طاقتهم أو إجاعتهـم، أو إعطائهم أقل مما يسـتحقونه مـن أجرهـم، أو مماطلتهم وإنكار حقوقهـم، فهو مـن أقبح الحرمات وأشـنع أنـواع الظلـم، فلا يحق لـه فعل ذلك لمجرد كونه مسؤولًا عنهم، وخير ما نستشهد به قول الرسول ﷺ: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»[١]، كما يجب عليه أن يحرص على مصالح الوقف بأن يقوم بإصلاح مباني الوقف وتجديدها[٢].

ويُعـد ناظـر العمارة مـن أهم معاوني شـاد العمائـر، حيث لـه الأمر على المهندسـين والبنائين، والحجارين، ويؤدي دورًا أساسـيًا وبارزًا في معاونة شـاد العمائر في إنشاء الأماكن المهمة[٣].

وغالبًا ما يكلف السلطان الناظر المرسل إلى مكة لعمل إصلاح أو عمارة ما بوظائف أخرى إضافة إلى وظيفته الرئيسـة وهي نظر العمارة، ومن ضمن هذه الوظائف ما يلي:

١ - نظر المسجد الحرام[٤].

---

(١) ابن ماجـه: أبو عبداللـه محمد بن يزيد القزويني، سـنن ابـن ماجـة، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ٢/ ٦٣١.

(٢) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص١٢٩؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٢/ ٦١٧.

(٣) الباشا: الفنون الإسلامية، ٢/ ٦١٧.

(٤) الخزرجي: علي بن الحسن، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق محمد بسيوني عسـل، دار الثقافـة، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م، ١/ ١٢٨؛ ابـن فهـد: إتحـاف الـورى، ٤/ ٩٣؛ الدرر الكمين، ٢/ ٧٦٢؛ السـخاوي: التبر المسـبوك، ص٣٢٠؛ السـنجاري: منائـح الكرم، ٣/ ٥١؛ انظر أيضًا السباعي: تاريخ مكة، ص٣٠٢.

٢ - الحسبة[١].

٣ - نظر الأربطة[٢].

٤ - إمارة الحج[٣].

٥ - نظر المياضئ[٤].

٦ - نظر الصدقات[٥].

٧ - نظر الأوقاف[٦].

وقد يجمع ناظر العمارة مع وظيفته وظائف أخرى في الوقت نفسه، وذلك مثلما حدث في عام ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م، عندما أُلبس بردبك التاجي[٧] الخاصكي خلعة بنظر الحرم والحسبة والربط والأوقاف والصدقات، إضافة إلى كونه شاد العمارة[٨].

ولأهمية المسجد الحرام ومكانته الخاصة في العالم العربي والإسلامي، فقد أولى حكام المماليك وسلاطينهم الحرم المكي رعاية فائقة واهتمامًا بالغًا، ويمكن أن نستشف مدى هذا الاهتمام مما فعلوه في المسجد الحرام

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٢٦٠ -٢٦١؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠.

(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٣، مج٢/ ٩٢٩ -٩٣٠، ج٣، مج٣/ ١٠٦٤؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٢٣؛ العصامي: عبد الملك بن حسين، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة، ١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م، ٤/ ٣٣.

(٤) الطاسان: الوظائف الدينية والإدارية، ص ٣٠٦.

(٥) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠.

(٦) المصدر السابق، ص٣٢٠؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٠.

(٧) هو بردبك التاجي الأشرفي، برسباي الأبرص، ولي بمكة أيام الظاهر جقمق نظر الحرم وشاد العمارة ثم انفصل. مات عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م. السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٦.

(٨) السخاوي: التبر المسبوك، ص٣٢٠.

من إصلاحات وترميمات كثيرة، ويعد قايتباي من أكثر سلاطين دولة المماليك اهتماماً وعناية بشؤون الحرمين، فنرى أنه قد أُحدث في عهده كثيراً من البناء، والإصلاح والترميمات في المسجد الحرام، إضافة إلى ما قد أُجري في عهده من إصلاحات خارج حدود المسجد الحرام(١).

ولا يُشترط عادة فيمن يلي هذا المنصب أن يكون ذا مؤهلات معينة أو أن يبلغ درجة محددة من العلم، فالسلطان يُعين في هذه الوظيفة من يراه مناسبًا، أو من يرضى به ويريده، بل قد تصل الأمور إلى أن يُعين في هذا المنصب من كان ذا صلة وثيقة به، كأن يكون مثلًا نديمه أو مضحكه، بل قد يجمع له إضافة إلى وظيفته بوصفة ناظراً للعمارة بمكة، وظائف أخرى(٢).

ولكن هناك بعض المصادر التاريخية التي وضعت شروطًا معينة لمن يلي نظر العمارة، فيُختار من العارفين بأمور الهندسة والبناء، وأن يكون ذا عفة، وحسن سياسة، ومن أهم ما يجب أن يتصف به ناظر العمارة الأمانة(٣)؛ وذلك لأن عمله يقوم على البناء والإصلاح والترميم وكل ذلك يحتاج لأن يكون أمينًا في عمله، ذا عفة، لا يقبل الرشوة، وبذل الأموال من قبل ضعاف النفوس، كي لا يحدث أي ضرر أو تهدم للعمائر أو ما يصنعه من إصلاحات وترميمات، وكل ذلك يحتاج إلى دقة وإخلاص في العمل.

ومن المشاهد أن متولي هذه الوظيفة كان يُعين من قبل السلطان برتبة

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٩٢-٤٩٣، ٦٠١؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٨/ ٧؛ مورتيل: ريتشارد، الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي، ط١، جامعة الملك سعود - الرياض، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص ١٥٥-١٥٦.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، مج٢/ ٩٦١.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٧؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٢/ ٦١٧.

أمير -كما سبقت الإشارة إليه- ولكن بعد ذلك أصبحت من الوظائف التي تقتضي من يُعين ويُنصب فيها بغير إمرة[١] أي لا يشترط أن يكون أميرًا.

ولعل السبب في ذلك يعود لكونها وظيفة إدارية خالصة، مهمة صاحبها الإشراف على البنائين والصُّناع والعمال والمهندسين في كل ما يكلفون به من إعمار أو إصلاحات أو ترميمات معينة في المسجد الحرام، أو خارج حدوده، أضف إلى ذلك أن هؤلاء العمال والمهندسين عادة ما يكونون من ذوي الخبرة والدراية في أمور المعمار، لذلك نرى أن ناظر العمارة عادة ما يشاورهم ويتبادل الرأي معهم.

راتب ناظر العمارة:

حددت وثيقة الأشرف شعبان ضمن أوجه الصرف بها، مبلغ ألف درهم نقرة، يُصرف كل سنة للقائمين على عمارة المسجد الحرام وإصلاحه وترميمه، على أن يقسم بينهم بالسوية، ولم توضح الوثيقة عددهم، ولا ما يأخذه كل شخص منهم[٢].

وقد يكون هذا المبلغ إضافة إلى ما قد يصل إليهم من جهات أخرى من صدقات وهبات يكون لهم فيها نصيب كغيرهم من موظفي المسجد الحرام بمكة المكرمة.

---

(١) ابن شاهين: غرس الدين خليل الظاهري، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، صححه بولس راويس، المطبعة الجمهورية - باريس، ١٨٩٤م، ص١١٥؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٢/ ٦١٦.

(٢) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٢.

المبحث الثالث

المطوف

في اللغة:

الطوفان، مصدر طاف، يطوف، وطاف بالبيت فهو طواف[(١)]، ويقال: طاف حول الشيء يطوف طوفًا وطوفانًا، وطاف بالبيت، أي دار حوله[(٢)]، والمطاف: موضع الطواف حول الكعبة، والطواف بالبيت الدوران حوله، والجمع أطواف[(٣)].

في الاصطلاح:

هو من يقوم بأداء مناسك الحج عمن لا يستطيع القيام بذلك، وإرشادهم إلى أفعاله، أو تلقين بعض الناس لأفعال الحج والعمرة وواجباتهما، وقد يكون ذلك ممن يجهل أفعال الحج والعمرة وواجباتهما، أو ممن لا يجيد اللغة العربية[(٤)].

تاريخها:

تشير كثير من النصوص التاريخية إلى أن مهنة الطوافة استحدثت في

---

(١) ابن عباد: المحيط في اللغة، ٩/ ٢٢٤.

(٢) ابن منظور: اللسان، ٤/ ٢٧٢٢؛ الزبيدي: تاج العروس، ٦/ ١٨٤؛ المنجد الأبجدي، ص٦٥٤.

(٣) ابن منظور: اللسان، ٤/ ٢٧٢٢؛ الفيروز أبادي: مجد الدين، القاموس المحيط، ط٢، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م، ٣/ ١٧٥.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٦٤٥ –٦٤٦؛ الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة، ٣/ ١٧٢٠.

عهد المماليك، ولم تُذكر هـذه الوظيفة في التاريخ إلا من عهد الشراكسـة – من أول القرن الثامن الهجري – وربما يعود السـبب في ذلك إلى جهل بعض الأمراء والحكام باللغة العربيـة، بل قد يعود ذلك إلى ميل الشراكسـة إلى الأبهة والبذل، فكانـوا يفضلون الاعتمـاد على مـن يخدمهم ويبين لهم شـعائر الحـج والعمرة، ويتلـو أمامهـم الأدعيـة والأذكار الشـرعية، نتيجـة جهلهـم باللغة العربيـة، ولأن أكثرهـم يعود لأصـول غير عربية، ومـن أجل هـذا كله حرص شـريف مكة على انتـداب شـخصيات مرموقة، دينية، مشـهود لها بالـورع والتقوى والزهـد، عارفة بأمور دينها ودنياها، بل قد تكون هذه الشـخصية متبحرة في أمور دينها، من أجل أن تقوم بتطويف بعض الأمراء والملوك. وكانت هذه الشخصيات المرموقة تلقى قبولًا كبيرًا وانسـجامًا لا مثيل لـه مع مظاهـر التفاخر والأبهة والعظمـة المحيطة بهؤلاء الملوك[١]. ولعل أبلغ ما يوضح ذلك ما حدث في عام ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م، عندما أراد السـلطان قايتباي الحج، ولم يحج أحد غيره من سـلاطين الجراكسـة فتقـدم القاضي برهـان الدين بـن ظهيـرة لتطويفه وتسـعيته، وصار يلقنـه الأذكار والأدعية إلى أن وصل إلى الحرم المكي فدخل من باب السلام[٢]، إلى أن وصل إلى الطواف فقبَّل الحجر الأسـود، ثم أتمَّ طوافه وصلى خلف مقام إبراهيم عليه السلام، ثم سعى والقاضي يلقنه الدعاء والأذكار[٣].

---

(١) السـباعي: تاريخ مكـة، ص٣٣٧؛ الكـردي: التاريـخ القويـم لمكـة، م٣، ٦/ ١٥٢؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٤٤٣-٤٤٤.

(٢) باب السـلام: في الشـق الشـرقي، ويقال له باب بنى شـيبة وهو بـاب بني عبد شـمس بـن عبد منـاف، وسـماه الأزرقـي (باب السـيل)، ويُسـمى اليوم بـاب السـلام. الأزرقي: أخبـار مكة، ٢/ ٨٧.

(٣) ابن فهـد: إتحـاف الـورى، ٤/ ٦٤٥ – ٦٤٦؛ النهروالي: الأعـلام، ص٩٨؛ العصامي: سـمط النجـوم العوالي، ٤/ ٤٥-٤٨؛ دحـلان: خلاصة الكلام فـي بيان أمراء البلـد الحرام، ص٤٥؛ السـباعي: تاريخ مكة، ص٣٣٧؛ عنقاوي: فـؤاد عبدالحميد، مكة، الحـج والطوافة، ط١، دار خضر- بيروت، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م، ص٢٧٨-٢٧٩.

وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية بأن السلطان قايتباي سعى راكبًا[١]، في حين أشارت المصادر الأخرى بأن القاضي برهان الدين طوّف وسعّى السلطان قايتباي مشيًا[٢].

ولم يُذكر أنه كان بالمسجد الحرام مطوفون يطوّفون حجاج بيت الله الحرام ويختصون بهذا العمل حتى لعلية القوم كالأمراء والسلاطين. فقد حج عدد من السلاطين والأمراء ولم يكن معهم أحد من العلماء والفقهاء لتطويفهم، بل ذُكر أن بعضهم كان يطوف كواحد من المسلمين ليس بينه وبينهم حجاب، مثلما حدث في عام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٨م، عندما حج الظاهر بيبرس[٣]، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون الذي حج ثلاث مرات، مرة في عام ٧١٢هـ/ ١٣١٢م، والثانية في عام ٧١٩هـ/ ١٣١٩م، والثالثة في عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م[٤].

وبذلك يمكن أن يُعَدَّ ما قام به القاضي برهان الدين بن ظهيرة ابتداء مهنة الطوافة، حيث ورد بعد هذا التاريخ -أي ٨٨٤هـ/ ١٤٧٩م- ما يدل على أن هناك كثيراً من الأشخاص الذين طوّفوا بعض الأمراء، ففي عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م، طوَّف الفخري أبو بكر بن إسماعيل بن أبي مزيد ناظر الخاص علاء الدين علي[٥] عندما قدم إلى مكة المكرمة معتمرًا[٦].

---

(١) النهروالي: الأعلام، ص٩٨.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٦٤٦.

(٣) المقريزي: السلوك، ج١، مج٢/ ٥٨١.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية، ٤/ ٦٧، ٩٣، ١٥٨؛ الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٤١؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ١٩٨-١٩٩.

(٥) علاء الدين علي بن الإمام، عينته الدولة لحل المنازعات بين رجال الدولة في جدة وللمتابعة في تجهيز الجند لحرب البرتغاليين في سواحل الهند الغربية. ابن إياس: بدائع الزهور، ٤/ ١١٦.

(٦) العز بن فهد: بلوغ القرى، ١/ ٣٠٩؛ انظر أيضًا السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص١٩٨.

وفي عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م، طوّف علي بن راشد وسعّى[١] أمير الحاج طومان باي[٢].

وفي عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م، طوَّف القاضي صلاح الدين بن ظهيرة[٣] الشريف بركات عندما قدم إلى مكة المكرمة[٤].

ولكن رغم ذلك لا نستطيع أن ننفي وجود مهنة الطوافة قبل عهد الجراكسة، فالذي يتبادر إلى الذهن أنها كانت موجودة قبل عهد الجراكسة بكثير، ولعل ذلك منذ القرن الأول للهجرة، ولكن لم يُعرف أو يُطلق اسم «التطويف» أو «المطوف» على من يقوم بذلك، فمنذ انتشار الإسلام وفرض الحج على المسلمين أتى الناس أفواجًا من جميع أصقاع البلاد تلبية لنداء الله تعالى حيث قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٥].

ولأنهم لا يعرفون مكة المكرمة، فكان من الضروري أن يحتاجوا لمن يرشدهم ويدلهم إلى كيفية الطواف وأماكن المشاعر المقدسة كعرفة ومنى ومزدلفة، فالغريب مهما كان عالمًا فهو في أمسّ الحاجة إلى من يرشده في أرض

---

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ١/ ٥٠٣.

(٢) هو طومان باي آخر ملوك الجراكسة، تولى الملك بعد مقتل قانصوه الغوري في مرج دابق مع العثمانيين، وسلموه للسلطان سليم في موقعة الريدانية فهزم وهرب إلى البادية فقبض عليه بعض شيوخ العرب وسلموه للسلطان سليم حيث قتله في عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م. النهروالي: الأعلام، ص٢٥٨؛ الطبري: الأرج المسكي، ص٢٥٧-٢٦١.

(٣) هو صلاح الدين محمد بن أبي السعود بن إبراهيم الشيخ الإمام قاضي قضاة مكة المشرفة ابن ظهيرة المكي الشافعي، بقي بمكة إلى أن توفي بها أواخر عام ٩٢٦هـ/ ١٥١٩م. ابن العماد: شذرات الذهب، ٨/ ١٤٨.

(٤) العز بن فهد: غاية المرام، ٣/ ٣٢١؛ السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص١٩٩.

(٥) سورة الحج: الآية، ٢٧.

غيـر أرضه وبلد غير بلده، ولما كان الوقوع في الخطأ في مناسـك الحج والعمرة وفي الأركان والواجبات يسـتوجب وقوع الجزاء وإخراج الفدية، حرص الغريب القادم لأداء فريضة الحج علـى القيام بواجباته وأفعاله علـى أكمل وجه، ولا يتم ذلك إلا بوجود مرشـد وموجه يبيّن له ما يُطلب منه شـرعًا على الوجه الصحيح، وهذا المرشـد والموجـه من أُطلق عليـه فيما بعـد «المطوف»(١) والـذي تنحصر مهمته في اسـتقبال الوافدين وإرشادهم في طوافهم وسـعيهم وإعانتهم على أداء أمور دينهم ومناسك حجهم على الوجه الأكمل(٢).

وأصبـح يتقاضى أجرًا علـى ذلك بعدما كان يرشـد الناس لأداء مناسـك الحج تطوعًا وتعاونًـا، امتثالًا لقـول الله تعالـى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰ﴾(٣) ولا يقصد من وراء ذلك إلا الأجر والمثوبة من الله سبحانه وتعالى.

والجدير بالذكر أن بعض المرشـدين كان يستغل الأجر المدفوع له مقابل تطويفـه لكبراء الشخصيات.

فقد كان الشيخ علي بن أحمد النويري(٤) يُطوِّف حجاج التكاررة ويحصل منهم ومن ملك التكاررة علـى مبالغ طائلة، وربما يكون هـذا المال مقابل صلاة الإمام بهـؤلاء الحجـاج في المسـجد الحـرام، وإجابته عن أسـئلتهم في الشـرع وتثقيفهم وإرشادهم لمناسك الحج.

---

(١) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٣، ٦/ ١٥٢ -١٥٣

(٢) عنقاوي: مكة، الحج والطوافة، ص٢٨٨.

(٣) سورة المائدة: الآية ٢.

(٤) علي بن أحمد بن عبدالعزيز العقيلي النويري المكي المالكي، إمام المالكية بالحرم الشـريف، ولد عـام ٧٢٤هـ/ ١٣٢٣م، نـال مـن التـكاررة والمغاربة بسـبب الإمامـة دنيا كثيـرة ومعظم ذلك من التـكاررة، توفي عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م بمكة ودفن بالمعلاة. الفاسـي: العقد الثمين، ٥/ ٢٣٦.

وقد كان هذا المـال المُعطى من قبل الحجاج سـببًا في تدخل حاكم مكة الشـريف حسـن بن عجلان في تعيين إمـام المالكية رغبـة وطمعًا فـي الحصول على جزء منه، وذلك عندما عين حسـن بن عجلان[١] الشـيخ محمد بن محمد بن حسين بن ظهيرة[٢]، بعد وفاة الشـيخ علي بن أحمد النويري، ولكنه لم يستمر في المنصب، وربما أدى ذلك إلى صراعات حول منصب الإمامة المالكية بالمسجد الحرام، بـل قد يؤدي إلى تمسـك البيـت الواحد -كبيـت النويـري- بالمنصب، ويكـون الدافـع الرئيـس لذلك هـو ما يصـل للإمام مـن هبـات وعطايا مـن قبل الحجاج الذين على المذهب نفسـه، بل هذا ما قد يجعل بعض البيوتات تتوارث المنصب كابرًا عن كابر ويشتركون في توليته[٣].

ويبدو أن مهنة التطويف كانت محددة وضيقة النطاق في عهد الجراكسة، ولـم يتسـع نطاقها إلا فـي مطلع العهد العثماني؛ بسـبب حاجة الرؤسـاء والأمراء الأتراك لمن يطوفهم ويبيّن لهم مشاعر الحج[٤].

وربما يكون السبب في اتسـاع نطاقها في العهد العثماني هو خروجها من مهنة لتطويف كبار الشخصيات إلى تطويف العامة من حجاج بيت الله الحرام.

وقـد كان لا يقـوم بعمليـة الطوافـة أو مهنـة التطويـف إلا القضـاة، فأول

---

(١) هو حسـن بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي الحسـني المكي، يلقب بدر الديـن، أمير مكة، ولد عام ٧٧٥هـ/ ١٣٧٣م، ومما حمد عليه أمره لبوابي المسـجد الحرام بملازمـة أبوابه وتنظيف الطرقات من الأوسـاخ، كان سـبب إقامته بمكة توليه لأمر عمارة المسـجد الحـرام، توفي عام ٨٢٩هـ/ ١٤٢٥م. المصدر السابق، ٣/ ٣٤٧، ٣٩٣.

(٢) الشـيخ محمد بن محمد بن حسـين بن علي بن أحمد بـن عطية بن ظهيـرة المخزومي المكي، قاضي مكة، كمال الدين أبو البركات بن أبي السـعود، ولد عام ٧٦٥هـ/ ١٣٦٣م، وتوفي عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م بمكة. المصدر السابق، ٢/ ٣٥٨-٣٦٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ٧٨.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٠٢؛ السالمي: الحياة الدينية بمكة، ص١٤٣-١٤٥.

(٤) السباعي: تاريخ مكة، ص٤٦٥.

مطـوف فـي العهـد المملوكـي كان قاضيًـا وهـو برهـان الدين بـن ظهيـرة الذي طوّف السـلطان قايتباي - كما سـبقت الإشـارة إليه - ولكن ما لبثت أن انطلقت مهنة الطوافة واتسـعت، فخرجـت من نطاق القضـاة إلى بعض الأعيـان في مكة المكرمة، ولكن ذلك لم يتم إلا في العصر العثماني، فنرى أنها فُصلت وأصبحت وظيفة مستقلة بحد ذاتها[١].

وفي مطلع الحكـم العثمانـي ٩٢٣هــ/ ١٥١٧م، أخذت مهنـة التطويف تظهر بشكل منتظم حيث جاء في كتاب نيل المنى لمؤلفه جار الله بن فهد ما يبيّن أن المتخصصين بتطويف الشـخصيات المهمة والقيادية في الدولة العثمانية وهم القضاة والمدرسـون والفقهاء ممن اشـتهروا بالتفقه في الدين والـورع والتقوى، ومثال ذلك ما حدث في عام ٩٢٤هــ/ ١٥١٨م، عندما أتى أمير الحاج المصري بركات بـن موسـى المحتسـب بالقاهـرة طوّفـه فضيل بـن القاضـي زيـن الديـن عبدالباسط بن ظهيرة[٢].

وهكذا يتضح لنا أن القضـاة هم في الغالب الذين يطوّفون القادة والأمراء أو يقوم بذلك أحد أبنائهم، ولكن ذلك ما لبث أن تغير -كما سـبقت الإشارة إليه - وأصبح المتفقهون من أعيان مكة ووجهائها يُطَوِّفُون الأمراء[٣].

إذن فالطوافـة كانت شـرفًا عظيمًا، حظي بـه القضاة ثم العلمـاء ثم أعيان

(١) السباعي، تاريخ مكة، ص٤٦٥؛ عنقاوي: مكة، الحج والطوافة، ص٢٧٩.

(٢) ابن فهد: نيل المنى، ص٣٨.

(٣) حدث ذلك في عام ١٠٣٩هـ/ ١٦٢٩م، عندما طـوّف محمد المياس أمير الترك قانصو باشـا واستطاع أن يحتال له في القبض على أمير مكة بعد أن أغرى أمير مكة بالوصول إلى منازل أمير الترك خارج البلاد حتى تيسر القبض عليه، ومحمد المياس لم يرد اسمه بين قضاة مكة، ولكن من وجهائها، وكانت له علاقة قوية مع الأمراء. السـباعي: تاريخ مكة، ص٤٦٥؛ عنقاوي: مكة الحج والطوافة، ص٢٧٩-٢٨٠.

مكة ووجهاؤها من سكان البلد الحرام، والذين كانت بيوتهم مفتوحة طوال العام لمن رغب في الإقامة بجوار المسجد الحرام، كما فُتحت أبواب بيوتهم لطالبي العلم والراغبين في التفقه في الدين والعلوم الشرعية، واللغة العربية، حيث كان هؤلاء العلماء يحثون الناس على العلم والتعلم[١].

ومما لا يمكننا تجاهله القول بأنه لم يكن هناك تعيين رسمي للمطوفين، بل كان الأمر يخضع ابتداءً للعلماء والفقهاء، وفي العصر المملوكي كان السلطان يختار من القضاة من يُطَوِّفُ الأمراء والسلاطين، ولكن ما لبث أن تغير الوضع في العصر العثماني وأصبح المطوفون من أعيان مكة ووجهائها - كما سبقت الإشارة إليه - وهذا يدل دلالة واضحة على أن المطوف لم يكن كغيره من موظفي المسجد الحرام يصدر قرار تعيينه من قبل السلطان ويُقرأ في المسجد الحرام أمام أعيان مكة وعلمائها؛ ولعل ذلك يعود إلى أن مهنة الطوافة لم تُستحدث إلا في العصر المملوكي.

هذا، وقد عرضت كثيرٌ من المصادر التاريخية لموضوع الطوافة كالدرر الفرائد للجزيري[٢]، وخلاصة الكلام لدحلان[٣]، وتاريخ مكة للسباعي[٤]، وكتاب مكة الحج والطوافة للعنقاوي[٥]، ولكنها عرضت له بكلمات وألفاظ مليئة بالإيجاز، ليس فيها إسهاب أو إطناب، أو ما يُشبع نهم القارئ الفكري، ونحن هنا لا ننكر أهميتها وفائدتها العظمى، فقد تناولت هذه المصادر التاريخية بعض حيثيات الموضوع، ولكنها تجاهلت بعضه الآخر، فكتب بعض المؤلفين

---

(١) عنقاوي: مكة، الحج والطوافة، ص٢٨٠.
(٢) الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة، ٣/ ١٧٢٠.
(٣) دحلان: خلاصة الكلام، ص٤٥.
(٤) السباعي: تاريخ مكة، ص٣٣٧.
(٥) عنقاوي: مكة، الحج والطوافة، ص٢٧٨-٢٧٩.

عن أصل الطوافة ونشأتها كالسباعي في تاريخ مكة[١]، والكردي في التاريخ القويم[٢]، وغيرهم، ولكنها إشارات خفيفة ومعلومات بسيطة.

ولعل السبب الأول والأخير يعود إلى مهنة الطوافة نفسها، فنجد أنه في القرون السابقة لم تُعرف الطوافة بمعناها القريب أو البعيد؛ لأن معظم الوفود القادمة إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج من جميع البلدان، كانت تأتي على هيئة جماعات، ويكون على كل جماعة أمير رسمي، أو شخص مُكّلف من قبل الدولة، وبذلك يكون هو المسؤول عن هذه الجماعات إلى أن تؤدي فريضتها[٣]، وقد عُرف هذا التنظيم منذ القدم، وبالتحديد منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم، وكان أول أمير للحج عرفه الإسلام هو سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك عندما عيّنه الرسول ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة أميرًا على الحج، وكانت هذه الوفود تأتي برًا، ويأتي معها مرافق أو مرشد، وكان فيهم العلماء والفقهاء الذين كان لهم أثرٌ بارز في وعظ الحجاج وإرشادهم، ويراعى في ذلك أن يكون المرشد عالمًا بأصول الدين ملمًا بشعائر الحج، بلغة يفهمها قومه، وهكذا إلى أن أتى عصر المماليك[٤].

أو ربما يكون السبب في تجاهل المؤرخين الحديث عن مهنة الطوافة أن الوفود القادمة إلى مكة المكرمة كانت تجد من يرشدها ويدلها لأداء الفرائض على أكمل وجه من أهل مكة الذين يعاونون الحجاج ابتغاء وجه الله سبحانه وتعالى، ومن باب مساعدة المسلم لأخيه المسلم من غير أن يتقاضوا أجرًا

---

(١) السباعي: تاريخ مكة، ص٣٣٧.
(٢) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٣، ٦/ ١٥٢-١٥٣.
(٣) عنقاوي: مكة، الحج والطوافة، ص٢٧٨؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٤٤٣.
(٤) عنقاوي: مكة، الحج والطوافة، ص٢٧٨.

على ذلك، فيكونون لهذه الوفود الأدلاء أو المرشـدين، كما كان لأهل مكة ميزة ومركز، يشـعرانهم بما عليهم من واجبات نحو الكعبة والحجاج، فقد كانوا يرون لأنفسـهم حق الحرمـة والميزة علـى العـرب بسـبب اختصاصهم بكرامـة البيت الحرام، ويَعُدُّون أنفسـهم أهله وأولياءه، كما كانوا يدركون مركز بلدهم وكرامتها وقدسـيتها، حيث جعلها الله مثابة للنـاس وأمنًا، لذلك كانـوا يتعاونون في القيام بواجبهم نحـو هذه الوفود القادمـة؛ لتلبي داعي اللـه ونداءه، فكانوا يسـتقبلونهم بـكل ترحيـب وإكـرام، كمـا كان على أهـل مكـة أن يضعـوا للضيـوف القوانين والأنظمة لتنظيم الحيـاة، وتوفير الأمن وحفظ الحقوق وحمايـة من يفد إليها من الأذى، بل كانوا اليد التـي مُدت لهؤلاء الحجاج وسـاعدتهم على أداء فريضتهم على أكمل وجه[١].

وخير ما نستشهد به في هذا المقام ما ذكره محمد عمر رفيع في كلام هذا نصه: «وقد سـمعت قولًا، وإن لـم أجده فيما وصل إلى يدي مـن كتاب، وهو أن أحد المنتسـبين بتطويف الحجاج شـهـد حاجًـا يعتزم ذلك، فتعـرض له وعرض عليه أن يطوف به حول الكعبة، فقال له: «لا حاجة لي إليك فإنني أعرف ما أقول وما أفعـل» ثم أخذ الحاج يلفـظ بنية الصـلاة ركعتين تحيـة للمسـجد، فاعترضه وقال له: «يا حاج ما مذهبك؟» فأجابه: مالكي، فقال: ألم تقرأ ما قاله ابن عرفة[٢] في كتابه الفلاني؟ إن تحية كل مسجد ركعتان إلا المسجد الحرام فتحيته الطواف

(١) الهمزاني: أثر السلاطين والأمراء، ص٤٣٩.

(٢) هو محمـد بن عرفة الورغمي التونسي، يكنى أبا عبدالله، ولد عام ٧١٦هـ/ ١٣١٦م، جمع بين العلم والعمل والـورع والتقوى، توفي عـام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م. ابن العماد: شـذرات الذهـب، ٧/ ٣٨؛ السّـراج: محمد بن محمد الأندلسـي: الحلل السندسـية في الأخبار التونسية، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط١، دار الغرب الإسلامي- بيروت، ١٩٨٥م، ١/ ٥٦١-٥٦٢.

أولًا؟ فأجابه: «إنني أنا ابن عرفة، وقد درست الفقه عشرين سنة، ولكن غاب عن ذهني ذلك الآن، فتفضل وطوِّفني كما تريد»(١).

رواتب المطوفين:

لم تشِر المصادر التاريخية إلى أن المطوف أو المرشد كان يتقاضى أجرًا لقاء عمله مرشداً، ولكن هذا ربما كان في القرون الأولى للهجرة، وقبل أن تنتظم مهنة الطوافة وتصبح مستقلة ومنفصلة عن غيرها، حيث كان يرشد الشخص غيره وربما طوفه ابتغاء لثواب الله وجزائه، ولكن بعد أن استقلت كان لا بد أن يحصل المطوف على مبلغ من المال من أجل أن يقتات به هو وأهله.

كما أنه من غير المعقول أن المطوف لم يكن يحصل على نصيب من الهدايا والهبات التي تصل إلى مكة المكرمة وتُوزع على موظفي المسجد الحرام.

أضف إلى ذلك أنه عند حديثنا عن تاريخ الطوافة ذكرنا بأن برهان الدين بن ظهيرة طوّف وسعّى السلطان قايتباي، ولا يُعقل أنه لم يحصل نظير عمله ذلك على أجر أو مبلغ من المال بوصفه هدية من السلطان(٢).

---

(١) رفيع: محمد عمر، مكة في القرن الرابع عشر الهجري، ط١، دار مكة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٩٠.
(٢) انظر ص١٨٩.

الفصل الثالث

الوظائف التعليمية

المبحث الأول: المدرس.

المبحث الثاني: المؤدب.

المبحث الثالث: المقرئ.

المبحث الأول

المدرس

في اللغة:

اسم فاعل من درَّس، ودرس الكتاب معناه قرأه، وهو مأخوذ من درس الكتاب يدرسه درسًا ودراسة[1].

في الاصطلاح:

هو الذي يتصدى لتدريس العلوم الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو وغير ذلك من العلوم، وهو مرادف للقب أستاذ المادة، ويُعَدُّ لقب المدرس من الألقاب الشائعة في عصر المماليك[2]، والكلمة فارسية الأصل معناها: الرئيس والمعلم ورب الصنعة، وقد انتقلت هذه الكلمة إلى العربية وجمعها أستاذون وأساتذة[3].

وقد وردت كلمة «أستاذ» بمعناها المعروف اليوم في بعض المصادر المملوكية فقد ذكر الصيرفي: «توفي الأستاذ الإمام الشيخ علاء الدين محمد بن

---

(١) ابن منظور: اللسان، ٢/ ١٣٦٠؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٣/ ١٠٤٦.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٤؛ الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٩٩؛ النباهين: نظام التربية الإسلامية، ص٣٠٦؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص٣٣.

(٣) خورشيد: إبراهيم زكي وآخرون، دائرة المعارف الإسلامية، دار الشعب، د. ت، م٣، ص٢٣٢؛ النباهين: نظام التربية الإسلامية، ص٣٠٦.

محمد النجاري الحنفي[١] سنة ٨٤١هـ، وكان من أهل الصلاح والدين والزهد والورع.. مع ما هو مشتهر به كالعلم في العلوم الشرعية والعقلية من تفسير وفقه وعربية ومعانٍ وبيان وغير ذلك»[٢].

أضف إلى ذلك ما ذكره السخاوي: «شيخي الأستاذ ابن حجر[٣] حافظ العصر»[٤].

وهكذا يتضح لنا مما سبق من أمثلة، أن لفظ «الأستاذ» عرف في عصر دولة المماليك بمعناه اليوم.

وقد تصدى لتدريس الطلاب عدد كبير من المدرسين، فهناك فئة تدرِّس في المدارس المستقلة، وفئة أخرى تدرِّس في المسجد الحرام[٥]، وما يهمنا هنا هو إلقاء نظرة شاملة على هؤلاء المدرسين الذين تصدوا لتدريس الطلاب

(١) هو علاء الدين محمد بن محمد النجاري الحنفي، كان من أهل الصلاح والدين والزهد والورع الزائد والتعفف عن التردد إلى أحد من الأكابر، مع ما هو مشتهر به كالعلم في العلوم الشرعية والعقلية من تفسير وفقه وعربية، سكن بلاد الهند وعظم عند مليكها، تصدر لإظهار العلم وإفادته وارتفع قدره بين الأنام، توجه إلى دمشق فسكنها حتى توفي بها عام ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م. الصيرفي: علي بن داود، نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٣م، ٣/ ٤٢٨.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٤٢٨.

(٣) هو أحمد بن عبدالله بن محمد بن محمد، شيخ الإسلام، حامل لواء سنة سيد الأنام، العسقلاني المصري ثم القاهري الشافعي عرف بـ «ابن حجر»، ناب في القضاء بعد التوقيع، وأكثر الحج والمجاورة وصنف وأجيز بالإفتاء والتدريس، ولي مشيخة البيبرسية ونظرها والإفتاء بدار العدل والخطابة بجامع الأزهر، توفي عام ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م. السخاوي: محمد بن عبدالرحمن، الذيل على رفع الإِصر، تحقيق جودت هلال وآخرين، الدار المصرية للتأليف والترجمة، د. ت، ص٧٥.

(٤) المصدر السابق، ص٧٥.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٥٢، ٣/ ١٦٤؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ٢/ ٢٤٥؛ العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية بمكة، ص٨٥، ٨٩.

في الحرم المكي، أضف إلى ذلك أن المسجد الحرام كان يغص بعدد كبير من العلماء الأكفاء الذين أثروا تأثيراً بارزاً ومهماً في تدريس الطلاب وتعليمهم أمور دينهم ودنياهم[(١)].

ولعل أبلغ كلام يمكن أن يقال، ما قاله ابن جبير في كلام هذا نصه: «والحرم مُحدق بحلقات المدرسين وأهل العلم»[(٢)].

والجدير بالذكر أن هناك فئة من المدرسين قد تصدوا للتدريس في مدرسة مستقلة، ثم نقلوا التدريس منها إلى المسجد[(٣)].

الشروط الواجب توافرها في المدرس:

لأهمية المدرس، وما يقع على عاتقه من مهمات جسام، كان لا بد من توافر شروط أساسية في المدرس الذي يقوم بتعليم الطلاب جميع ما يفيدهم في أمور دينهم ودنياهم، سواء الذي يقوم بالتدريس في المدارس العامة أو المسجد الحرام، لذلك قد اشترطت وثيقة أيتمش بن عبدالله الظاهري[(٤)]، أن يكون المدرس أميناً في نقله العلم إلى تلاميذه منتقيًا المصادر الصحيحة

(١) عبد الجبار: عمر، دروس من ماضي التعليم وحاضره بالمسجد الحرام، ط١، دار ممفيس – مصر، ١٣٧٩هـ، ص١٦.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٦٨؛ انظر أيضًا حلاق: مكة المكرمة، ص٣٧.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٠٨؛ السخاوي: محمد بن عبدالرحمن، التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م، ١/ ٢٣٥.

(٤) هو أيتمش بن عبدالله الناصري الطباخي، أصله من مماليك بلبان الطباخي، ثم أخذه الناصر محمد بن قلاوون، وترقى أيد غمش إلى أن صار أمير أخور، ثم نيابة حلب، ثم نيابة دمشق، وبها توفي فجأة في سنة ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م، ويقال: إنه مات مسمومًا، وذلك أنه لبس خلعة السلطان يوم الاثنين ثالث الشهر – جمادى الآخرة – وركب بها في الموكب فأصبح ميتًا فيقال: إنها كانت مسمومة. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ١/ ٤٢٦-٤٢٧؛ ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ١/ ١٦٧.

لموضـوع تدريسـه، وأن يكـون ذا صفـات دينيـة وخلـق رفيـع وورع وتقـوى؛ لأن ذلك سـوف يؤثر فـي أبنائه الطلاب، فعـادة ما يتأثـر الطالب بأسـتاذه، كما يجـب أن يكون ذا علم ومعرفة بالمذاهب الإسـلامية المتعـارف عليها في ذلك الوقت؛ لأنه سوف يواجه عدداً من الطلاب الذين يرجعون لمذاهب أخرى غير مذهبه[1].

كما اشترطت بعض المصادر التاريخية أن لا يُسـمح للمدرس بالتدريس إلا بعـد أن يصبح مجازًا ويحصل علـى إجازة علمية بالتدريـس والإفتاء من كبار المشايخ والعلماء[2].

في حين يرى السـبكي أنه يجب أن تتوافر لدى المدرس شـروطٌ أساسية تتعلـق بتدريـس المـادة، قائـلًا: «حـق عليـه أن يحسـن إلقـاء الـدرس، وتفهيمه للحاضرين، ثم إن كانوا مبتدئين فلا يلقي عليهم ما لا يناسـبهم من المشـكلات، بل يدربهـم ويأخذهم بالأهون فالأهون، إلـى أن ينتهوا إلى درجـة التحقيق، وإن كانوا منتهين فـلا يلقي عليهـم الواضحات، بـل يدخل بهم في مشـكلات الفقه، ويخوض بهم في عُبابه الزاخر...»[3].

مراسم تعيين المدرس في المسجد الحرام:

صُنف المدرسـون في المسـجد الحرام إلى فئات ثلاث، كل فئة حسـب تعيينها:

١ - فئـة تلقي الدروس في المسـجد الحـرام احتسـابًا وتطوعًـا، ولا تريد من

---

(١) حجة السـيف أيتمش بـن عبدالله الظاهـري الأتابكـي، راس نوبـة الأمراء الملكـي، ٢رجب، ٧٩٠هـ، رقم (١١٤٣ق) مكرر. أوقاف.
(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٤٧؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص٣٣.
(٣) السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص١٠٥-١٠٦.

وراء ذلك سوى الأجر والمثوبة من الله تعالى[١]. وتُعَدُّ هذه الفئة من المدرسين غير الرسميين في الحرم المكي، وعادة لا تُمنع من إلقاء دروسها في الحرم إلا بعد عقد مجلس يحضره شريف مكة وقضاة المذاهب، وناظر الحرم، وغيرهم من أعيان مكة لمناقشة سبب المنع، ويكتب بذلك تقرير ومن ثَمَّ يُرسل إلى السلطان في مصر[٢].

٢ - فئة تُعيّن من قبل أحد كبار رجال الدولة، وتُكلّف بتدريس درس في فقه مذهب من المذاهب الأربعة أو لتدريس درس في الحديث[٣].

٣ - فئة تُعيّن من قبل السلطان وعادة تتولى تدريس درسٍ في الفقه، كدرس السلطان الأشرف شعبان في فقه المذاهب الأربعة أو تدريس درسًا في الحديث[٤].

وما نراه أن الفئة الأولى تتمتع بالحرية كاملة في اختيار موضوع الدرس، وذلك لكونها فئة متطوعة لم تُعّين من قبل السلطان، بل تكلفت القيام بالتدريس احتسابًا وتطوعًا، ولا تريد من وراء ذلك جزاءً ولا شكورًا. بعكس الفئتين الثانية والثالثة والتي تُعَدُّ مقيدة بشرط الواقف الذي قام بقرار التعيين كالسلطان أو أحد رجال الدولة، ونرى أن هاتين الفئتين لا تتمتعان بالحرية المطلقة التي تتمتع بها الفئة الأولى، بل يجب عليها الالتزام بما يشترطه الواقف[٥].

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٦٤؛ الخربوطلي: علي حسني، الحضارة العربية الإسلامية، مكتبة الخانجي - القاهرة، د. ت، ص٢٣٠؛ الطاسان: محمد صالح، التعليم في مكة في العهد المملوكي، مجلة جامعة الملك عبدالعزيز، مركز النشر العلمي - جامعة الملك عبدالعزيز، جدة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، م٨، ج٣، ص٢٥.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ١٧٢-١٧٣؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص١٧-١٨.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٦٢؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٩٦، ٣٦٨.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٣٠١، ٥/ ١٠.

(٥) الطاسان: التعليم في مكة، ص٢٥.

الدروس الموقوفة في المسجد الحرام:

لقد زخر المسجد الحرام بعدد كبير من حلقات العلم، كما غصَّ بعدد كبير من الدروس الموقوفة من قبل الأمراء والملوك والسلاطين، ومن أهمها:

١ - درس الحديث لوزير بغداد محمود بن علي بن شروين (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م)[١]. وقد بدأ في سنة ٧٤٧هـ/ ١٣٤٦م، كما له درس آخر في تلقين القرآن الكريم[٢].

٢ - درس الأمير يلبغا الخاصكي الأتابكي[٣] في الفقه الحنفي، وقد بدأ في عام ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م[٤].

٣ - درس الأمير أيتمش في الفقه الحنفي[٥].

٤ - درس ناصر الدين محمد بن أحمد بن سلام[٦].

---

(١) هو محمود بن علي بن شروين البغدادي نجم الدين كان، وزير بغداد ثم قدم الديار المصرية في سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، فأكرمه السلطان وقرره أمير طبلخاناه ووصى السلطان أن يرتب وزيرًا بعده فولى الوزارة في أول دولة المنصور، واستمر إلى أن وَلِيَ الصالح إسماعيل ثم عُزل في دولة الكامل شعبان، فلما ولي المظفر حاجي أعيد إلى أن خرج في أوائل شهر رجب سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، هو وطغيتمر النجمي الدوادار وغيرهما إلى غزة ثم قتلوا بها في السنة نفسها، وكان جواداً كثير الصدقات. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ٤/ ٣٣١ -٣٣٢.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ٥٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٣٤.

(٣) هو يلبغا بن عبدالله الحسني الناصري الخاصكي الأتابكي أستاذ الملك الظاهر برقوق. وصاحب الكبش، الأمير سيف الدين مدير مملكة الديار المصرية، وأصله من مماليك الملك الناصر حسن، وهو الذي قتل أستاذه السلطان حسن، قتلته مماليكه في ليلة الأحد عاشر شهر ربيع الآخر سنة ٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م. ابن تغري بردي: الدليل الشافي، ٢/ ٧٩٣؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٦/ ٢١٢ -٢١٣.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٩٢؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٩٦.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٥٠.

(٦) هو محمد بن أحمد بن سلام ناصر الدين بن شهاب، ولي دمياط أواخر سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م، =

٥ - درس خاير بك[١].

٦ - درس الحديث لإسماعيل بن زكريا[٢].

٧ - درس بشير الجمدار[٣].

٨ - درس محمد بن جمعة الهمذاني (ت٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م)[٤] في الفقه الحنفي[٥].

٩ - درس السلطان شاه شجاع[٦] - صاحب بلاد فارس - في الحديث، وقد بدأ في سنة ٧٧١هـ/ ١٣٦٩م.

وقد جعل للمدرس ما يقارب مئتي مثقال سنويًا[٧].

= وعزل عنها عام ٨٤٣هـ/ ١٤٣٩م بسبب حادثة بين أهل دمياط وبعض النصارى. السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ٣١٠، ١١/ ١٣٢.

(١) هو خير بك الأشرفي برسباي، صار من بعد أستاذه في أيام ولده خاصكيًا ثم قربه الظاهر جقمق لديانته إلى أن جعله دوا دارًا صغيرًا ثم جعله الأشرف أمير عشرة ثم الأشرف قايتباي، مات في منتصف ربيع الأول سنة ٨٨٧هـ/ ١٤٨٢م. محاسنه كثيرة، وقد انتفع الناس به كثيرًا، ومن آثاره الدروس بالحرمين والقرب بهما. السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٢٠٧ -٢٠٨، انظر أيضًا ٤/ ٢٧٣، ٥/ ١٢٤، ١١/ ٦٠.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ١٣٠.

(٣) المصدر السابق، ١/ ٣٠١.

(٤) هو محمد بن جمعة بن عبدالله الهمذاني، نزيل مكة، الخواجا شمس الدين، صاحب الأوقاف بمكة، مات فجأة في ثاني شهر ربيع الأول سنة ٨٦٨هـ/ ١٤٦٣م، وتعطلت بعده أوقافه لخرابها. ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ١٢٣؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٢١٤.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٢١٤، ٩/ ٢٢٣.

(٦) هو شاه شجاع بن محمد بن المظفر اليزدي، سلطان بلاد فارس، ملك شيراز وغيرها من عراق العجم، مات في عام ٧٨٧هـ/ ١٣٨٥م، بعد أن ملك بلاد فارس، وله من المآثر بمكة، وله أوقاف عليه بمكة، وللسلطان - شاه شجاع خزانة كتب موقوفة بالحرم النبوي. الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٣-٤؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ٢/ ١٨٧-١٨٨.

(٧) الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ١٣٠؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣١١.

١٠ – درس بدر الدين الخروبي[١]، وهو أحد تجار الكارم[٢].

وقـد حرص أصحـاب هـذه الدروس على اسـتقطاب أشـهر علمـاء مكة وجذبهـم إلى موضوع الدرس الـذي يرغبون الصرف عليـه، ووقف الأوقاف من أجله، وعادة مـا يكونون من قضاة مكـة[٣]، وهذا قد يؤدي إلى حـدوث نزاع بين العلمـاء وقضاة مكة، ولعل أبلغ مثـال على ذلك ما حدث مـن منازعة أحد قضاة مكة لأحـد العلمـاء الذين يلقـون أحد الـدروس، حجته فـي ذلك أن يقـوم أحد قضاة مكـة بتدريس هذا الدرس[٤]. وإذا تعذر ذلك فيقـوم بتلك المهمة أحد أئمة المقامات[٥] أو غيرهم من كبار العلماء.

وكانت الأموال تُغدق على هؤلاء المدرسـين، فنرى أن أحدهم قد أُعطي مئتي مثقال ذهبًا سنويًا من قبل السلطان شاه شجاع؛ لأنه تولى تدريس درسه[٦].

هذا، وقد تنوعت حلقات العلم في المسـجد الحرام، فضم المسـجد في جميـع جوانبـه وزواياه كثيراً مـن العلوم والـدروس النافعـة، فعلى سـبيل المثال لا الحصر، دروس العلـوم الدينية المتمثلة فـي قراءة القرآن الكريـم[٧]، ودروس الحديث الشـريف والتفسـير والفقه[٨]، إضافة إلى أن بعض الـدروس المحدودة

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ٢٣٧.

(٢) تجار الكارم: هم جماعة تجار الصادر والوارد بمصر وغيرها من البلاد الإسـلامية الأخرى في العصور الوسطى، وهم أرباب المال والأعمال المصرفية الأخرى في الشرق في تلك العصور وأصلهم ما زال غامضًا. المقريزي: السلوك، ٢/ ٨٣٧ حاشية ٢.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٣٠١، ٣٧٢، ٢/ ٥٦، ٢٩٢، ٣/ ١٦٨.

(٤) المصدر السابق، ٢/ ٥٦.

(٥) المصدر السابق، ٢/ ٣٥٠، ٦/ ١٣٤.

(٦) المصدر السابق، ٦/ ١٣٠.

(٧) المصدر السابق، ١/ ٢٨٦، ٥/ ١٩٨.

(٨) المصدر السابق، ١/ ٣٦٧، ابن العماد: شذرات الذهب، ٧/ ٣٢٩.

النطـاق فـي النحـو والبيـان والمعانـي، والتـي غالبًـا مـا تكـون من قبـل مدرس متطوع[١].

أقسـام الـدروس فـي المسـجد الحـرام:

تنقسم الدروس في المسجد الحرام قسمين أساسين هما:

أولًا: الـدروس العـامـة:

وهي الـدروس التـي تُلقَى علـى الطلبة وعامـة النـاس، ولا يتقاضى فيها المعلم أجرًا معينًا، كما أنه لا يأخـذ نظير هذه الدروس صدقة أو زكاة من الطلبة؛ لأن تعليمه لهـم تطوعًا، ولا يريـد من ورائه أجـرًا أو عطـاء، وعـادة تُعرف هـذه الدروس بـ «حلقات العلم المتنوعـة»[٢].

ثانيًا: الـدروس المـخـصـصـة:

وهي الـدروس التي يقررها السـلاطين والأمـراء والتجـار ويتقاضى فيها المـدرس أجـرًا معلومًا مـن قبـل مقررها، بل قـد يصل الأمـر إلـى أن يدفع أحد السـلاطين للمـدرس الـذي يتولـى تدريس درسـه مبلغًـا كبيـرًا[٣] - كما سـبقت الإشـارة إليه - وتُعـد هذه الدروس مؤقتة تسـتمر ما اسـتمر اهتمام منشـئيها بها، بخلاف الـدروس العامة والتي تسـتمر عادة باسـتمرار المدرسـين، ورغبتهم في تدريس الطلاب وإفادتهم، وتنتهي بانتهاء حياتهم[٤].

---

(١) السـخاوي: الضـوء اللامـع، ١/ ٦٩-٧٠، ٤/ ٦٠، ٦/ ١٢٤؛ الطاسـان: التعليـم فـي مكـة، ص٢٧-٢٨.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٦٤؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٣١.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ١٢٩-١٣١؛ معتوق: صالح يوسف، علم الحديث في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٠٧هـ، ص٣٨٩.

(٤) الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٣١.

وتدرس هذه الدروس في المسجد الحرام، حيث يتخذ هؤلاء المدرسون مكانًا معينًا لإلقاء دروسهم، وعادة تكون الدراسة في صحن المسجد الحرام أو أحد أروقته[١]، كالدرس الذي تولى تدريسه حسين بن أحمد المكي الحنفي[٢]، حيث ولى التدريس بالمسجد الحرام مقابل مدرسة عثمان الزنجيلي[٣] بالجانب الغربي من المسجد الحرام[٤]، أو في أحد المقامات الأربعة[٥]، كدرس الخواجا الهمذاني بمقام الحنفية والذي تولى تدريسه محمد بن محمد السراج الحسني الرميثي[٦]، أو بجانب أحد أبواب المسجد الحرام[٧]، مثل محمد بن

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ١٨٨؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٧١.

(٢) هو حسين بن أحمد محمد بن ناصر المكي المولد والدار الشيخ بدر الدين الحنفي، ولد عام ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م بمكة، يعمل مواعيد في المسجد الحرام بناحية الصفا، ويدرس بالمسجد الحرام مقابل مدرسة الزنجيلي، توفي عام ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م ودفن بالرجع. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٤١٥.

(٣) تقع هذه المدرسة في الجانب الغربي من المسجد الحرام مما يلي باب العمرة، عرفت هذه المدرسة خلال القرنين ٨ و٩هـ بدار السلسلة ولا نعرف سببًا لهذه التسمية، وأصبحت المدرسة بأيدي بعض الأشراف من أولاد أمراء مكة، وعرفت هذه المدرسة باسم مؤسسها وواقفها الأمير فخر الدين عثمان بن علي الزنجيلي والي عدن من قبل السلطان صلاح الدين الأيوبي، وقد أوقفها سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م. المصدر السابق، ٥/ ١٧٣-١٧٤؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص١٧.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ١٨٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ١٣٧.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ٢٢٣.

(٦) هو محمد بن محمد بن السيد السراج الحسني الرميثي لقوله إنه من ذرية صاحب مكة رميثة بن أبي نمي، ولد عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م ببخارى، ونشأ بها فحفظ القرآن، سافر لمكة وجاور بها، وولي إمامة مقام الحنفية بها في سنة ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م وتدريس درس الخواجا الهمداني بمقام الحنفية، توفي عام ٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م بمكة ودفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٩/ ٢٢٣.

(٧) المصدر السابق، ١/ ٣٦٧، ٢/ ١١٦؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٧١؛ الطاسان: التعليم في مكة، ص٢.

عبدالرحمن بـن أبي الخيـر الحسـني الفاسـي[١] حيـث كان يـدرس بزيـادة بـاب إبراهيم[٢].

ويتخذ بعض العلماء أماكن ثابتة لإلقاء دروسـهم فيها، وذلك ليتمكن من معرفتها طلبة العلم الدارسـين على أيديهم، أو غيرهـم ممن يرغب في الاستفادة، وتكون هذه الأماكن عادة عند باب العمرة[٣]، أو باب أجياد[٤]، أو باب إبراهيم[٥].

وقد اتصفت الدراسـة فـي المقامات الأربعة بشـيء من النظـام، فنرى أن الأمير بيسـق عَمَرَ مقام الحنفية في عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، فجعله بأربعة أسـاطين من حجر منحوت وعليها سـقف مدهون، وعمل الأمير أرغون[٦] درسًـا للحنفية بالمقام نفسـه، ودرسًـا آخـر بالمـدارس الأخـرى، وفي عـام ٧٢٠هــ/ ١٣٢٠م

---

(١) هو محمد بن عبدالرحمن بن أبي الخير الحسني الفاسـي المكي المالكي، تفقه بالشيخ موسى المراكشـي وأبيه وخلفه في تصديره بالمسـجد الحرام فأجاد وأفاد، وكان من الفضلاء الأخيار ذا حظ من العبادة والخيـر والثناء، توفي عام ٨٢٣هـ/ ١٤٢٠م بمكة ودفن بالمعلاة. الفاسـي: العقد الثمين، ٢/ ٣٤٥؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٨/ ٤٠.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ١١٦.

(٣) باب العمرة: سـمي بهذا الاسـم؛ لأن المعتمرين يخرجون منه إلى التنعيـم، ويدخلون منه إلى المسجد الحرام في اغلب الأوقات، وقد ذكره الأزرقي في أخبار مكة بباب بني سهم. ٢/ ٩٢؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٢١٨.

(٤) باب أجياد: يقع في الجانب الجنوبي من المسجد الحرام. المصدر السابق، ص٢١٨.

(٥) باب إبراهيم: يقع في الجانب الغربي، وينسـب إلى خياط يُدعى إبراهيـم كان دكانه بجوار هذا الباب وليس نسبة إلى إبراهيم الخليل كما نسب بعضهم كابن جبير وغيره. خسرو: ناصر، سفر نامة، نقلها إلى العربية يحيى الخشـاب، دار الكتاب الجديد، د. ت، ص١٢٨؛ ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص٨٣، ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٢١٨.

(٦) هو أرغون بـن عبداللـه الناصـري، الأمير سـيف الديـن، المعـروف بالنائـب؛ لأنـه كان نائب السـلطة بمصر عـن ابن مـولاه الناصـر محمد بن قـلاوون، تـردد للحج مـرات منهـا، في عام ٧١٦هــ/ ١٣١٦م وفي عـام ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، وفي سـنة ٧٢٦هــ/ ١٣٢٥م، توفى في شـهر ربيع الأول سنة ٧٣١هـ/ ١٣٣٠م، بحلب. الفاسـي: العقد الثمين، ٣/ ٢٨٢-٢٨٣؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ١/ ٣٥١-٣٥٢.

جعل مرتبًا ثابتًا ومعلومًا لمن يُلْقِي هذه الدروس. أما المقامات الأخرى فقد عُمِّرَت في عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م، وزودت بالمحاريب ووسائل الإنارة، ولكن برغم ذلك نرى أن المقام الحنفي أوسع هذه المقامات، في حين اتصف المقام الشافعي بمظاهر الأبهة والفخامة[١].

أوقات الدراسة في المسجد الحرام:

عادة تبدأ الدراسة بعد صلاة الفجر، وتستمر حتى نهاية النهار - أي بعد طلوع الشمس تقريبًا وحتى الزوال - ويختار المدرس المكان والوقت المناسبين له لإلقاء دروسه على الطلاب[٢].

ويحدد المدرسون مواعيد الدرس حسب جداولهم الدراسية، حيث إِن بعضهم يكون مرتبطًا بإلقاء الدروس في بعض المدارس، أو في أحد الحرمين الشريفين، ويُعقد الدرس في المسجد الحرام من قبل الشيخ أو المدرس. وتضم حلقة العلم جميع طبقات الطلاب من غير تمييز أو تفرقة. ويلقي المدرس درسه من كتبه أو كتب غيره من العلماء المشهورين بعلمهم الواسع، وغزارة معرفتهم في مختلف العلوم.

وغالبًا ما يدرس المدرس طلبته في جميع أيام الأسبوع ما عدا يومي الثلاثاء والجمعة، والتي تُعَدُّ أيام إجازة للطلاب والمدرسين[٣]. إضافة إلى الأيام

---

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٢٢٤-٢٢٥.
(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٧٢؛ القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٥.
(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ١١٨؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٢٧.

التي جرت العادة فيها ببطالة[١] الدراسة كأيام الأعياد مثلاً، وهذا ما وضحته لنا بعض الوثائق والمصادر التاريخية[٢].

الميعاد أو المواعيد في المسجد الحرام:

ورد ذكر هذه التسمية في بعض التراجم، والمقصود بها الأوقات التي يحددها المدرسون لطلابهم من أجل إلقاء دروس الوعظ والمحاضرات عليهم سواء كانت هذه الدروس يومية أو أسبوعية، ويتقاضى بعض المدرسين نظير ميعاده راتبًا معينًا[٣]، في حين يقوم بعضهم الآخر بإلقائها تطوعًا، وحبًا للنصح وفعل الخير[٤].

وقد ذكرت لنا بعض المصادر التاريخية أسماء بعض الأشخاص الذين كان لهم ميعاد في المسجد الحرام، فعلى سبيل المثال لا الحصر، هناك كتاب العقد الثمين لمؤلفه تقي الدين الفاسي[٥].

ولم تسر الدراسة في المسجد الحرام ضمن منهج محدد ومعلوم، حيث لا جداول معينة أو أوقات مخصصة للدرس، بل كان التدريس في حلقات العلم مفتوحاً اعتمد فيه كل شيخ أو مدرس على طريقته، أو منهجه الخاص به،

---

(١) بطل الأجير من العمل فهو بطال بين البطالة بالفتح، حكى بعض شارحي المعلقات البطالة بالكسر وقال: هو أفصح، وربما قيل: بطالة بالضم حملًا على نقيضها وهي العمالة. الفيومي: المصباح المنير، ص٢٠. وبذلك يفهم مما سبق أن المقصود بأيام البطالة، أيام العطل والإجازات.

(٢) حجة وقف السيف أيتمش، رقم (١١٤٣ق) مكرر أوقاف مصر؛ الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ١١٨؛ انظر أيضًا الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٢٧.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٢٧، ٤١٥.

(٤) المصدر السابق، ٤/ ١٨٩؛ الطاسان: التعليم في مكة، ص٢٦.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٣٦٦، ٣/ ١٤٦، ٤/ ١٨٨.

والذي يراه ملائمًا لتلاميذه، وما على الطالب سوى اختيار المدرس الملائم له، وعادة يلقي كل مدرس من المدرسين على طلبته العلوم التي تبحر وبرع فيها[١].

كيفية التدريس في المسجد الحرام:

يجلس الشيخ أو المدرس على منصة، حيث يكون ظهره إلى حائط أو سارية من سواري المسجد، ويتحلق الطلاب أمامه، فيجلس المستمعون بترتيب معين، لكل طبقة مكان معين تجلس فيه، فنرى عن يمين الشيخ ويساره المعيدين والممتازين، في حين يجلس طلاب كل درس في جهة معينة من الحلقة، وبذلك يكون نظر الشيخ موجهاً إليهم جميعًا.

وغالبًا يُترك فراغ في الحلقة؛ ليجلس فيه من يحب الاستماع أو ممن يحضر الدرس بغير انتظام، وما نشاهده هو حرص كل فرد من الأفراد الحاضرين على درس الشيخ من أن يكون قريبًا منه، ولكن بحدود حيث لا يتعدى المكان المخصص له[٢].

ويفتتح الشيخ درسه بالبسملة ومن ثَمَّ الصلاة والسلام على محمد ﷺ، ثم يقرؤون ما تيسرت لهم قراءته من ربعة شريفة يُطاف بأجزائها عليهم، ثم يقرأ أحد الطلبة ما تيسرت له قراءته من كتاب الله الكريم، ثم يتبعون ذلك بالدعاء للسلطان ولجميع المسلمين، وبعد ذلك يبدأ المدرس درسه، كل حسب مذهبه ومنهجه[٣].

---

(١) عبدالله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص٤١؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٢٧.

(٢) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص١٤٧-١٥١؛ شلبي: أحمد، موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، التربية الإسلامية، نظمها، فلسفتها، تاريخها، ط٦، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٧٨م، ٥/ ٣٧٣-٣٧٤.

(٣) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٥.

وقد ذكرت لنا وثيقة السيف أيتمش بن عبدالله الظاهري، كيفية تدريس المدرس لطلابه في كلام هذا نصه «ويبتدئون بقراءة سورة تبارك الذي بيده الملك، ويدعو أحدهم لمولانا السلطان الملك الظاهر وللواقف المذكور ولذريتهما ولجميع المسلمين، ويلقي المدرس المذكور ما تيسر إلقاؤه من فقه مذهبه على عادة أمثاله، ويحل ما أشكل عليهم»[١].

ومن المدرسين من يلقي درسه عن طريق «الإملاء» أي يلقي المدرس ويكتب الطلاب خلفه، وكلما انتهى من فقرة أو حديث شرحها، ووضح ما غمض على الطلاب، وعادة يدوّن الطلاب هذه الشروح وتلك التوضيحات على هامش الأوراق، وإذا اكتمل ما كتبه الطلاب قُرئ على الشيخ ليصححه.

أما في حال إلقاء الدرس من كتاب معيّن، وتسمى هذه الطريقة بـ «القراءة»، فالمُتبع هو أن يحصل الطالب على نسخة من هذا الكتاب، وأن يقرأه قبل أن يلقيه المدرس سواء قرأه وحده، أو مع أحد زملائه، ثم يأتي دور المدرس فيعطي فكرة عن موضوع الدرس، ثم يقرأ الدرس والتلاميذ ينظرون في نسخهم، ويكتب كل طالب منهم ما يشرحه المدرس ويوضحه من معلومات غامضة، أو جمل صعبة، أو ألفاظ شاذة على هامش الأوراق[٢]. وأحيانًا يقوم بمهمة القراءة أحد الطلاب الموجودين في الحلقة فيقرأ على الشيخ مع متابعة زملائه له، وعادة يقوم بهذه المهمة أفصح الطلاب وأعلمهم باللغة، وتسمى هذه الطريقة عند المحدثين بـ «العرض»[٣].

---

(١) حجة وقف أيتمش بن عبدالله الظاهري، رقم الوثيقة (١١٤٣ق) مكرر أوقاف.

(٢) شلبي: موسوعة النظم والحضارة، ٥/ ٣٧٤-٣٧٥؛ انظر أيضًا السنيدي: عبدالعزيز راشد، الحياة العلمية في مكة في القرنين الثاني والثالث الهجريين، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص١٦٠-١٦٣.

(٣) الخطيب: محمد عجاج، أصول الحديث - علومه ومصطلحه، ط١٠، دار المعارف، ١٤٠٨هـ/ ١٩٩٨م، ص٣٣٤.

وتُعد طريقة القراءة من أنجح طرق التعليم؛ لكونها تعتمد على القراءة من كتاب معين سواء كان هذا الكتاب من مؤلفات الشيخ أو لعالم آخر، وهذا ما يضمن سلامة النص ودقته، والبعد قدر الإمكان عما قد يقع من أخطاء في أثناء تدريس المدرس لطلابه، أو نسيانه لبعض المعلومات، وقد يكون لهذه الطريقة أثرٌ إيجابيٌ على الطالب، فيشعر باطمئنان في أثناء تدريس الشيخ أو المدرس له، ويبعد عنه الخوف من سوء حفظ بعض العلماء وما ينتج عنه من عدم الدقة في سرد النص ووقوعه في الخطأ.

ويحق لكل طالب من الطلاب السؤال عما غمض عليه أو صعب فهمه، وهذا ما دعا إليه الرسول ﷺ حيث حثنا على السؤال، بل عدَّه شفاءً لجهل الجاهل، كما عُدَّ العلم خزانة مفتاحها السؤال[١]، أضف إلى ذلك حثه عليه الصلاة والسلام على فهم أمور الدين، وأمره لأصحابه بأن يسألوا عما يجهلونه من أمور دينهم ودنياهم[٢]، وحث علي بن أبي طالب الطلاب بأن لا يهابوا السؤال، ويستحيوا منه فقال: «قرنت الهيبة بالخيبة والحياء بالحرمان»[٣].

وهكذا يتضح لنا مدى أهمية السؤال، وعدم الهيبة والخوف أو الحياء من سؤال الطالب لمعلمه أو غيره، فكلما كثر سؤال المرء في أمور دينه ودنياه، وجدّ وبحث في جواهر ذاك البحر الواسع وهذا المعين الذي لا يرتوي منه شاربه، نضج عقله وزادت خبرته واتسعت معارفه ومعلوماته ومداركه، وبذلك يزداد علمًا، ويرتقي في سلم المعرفة، وحينئذ يصبح المرء ككتاب علمي يضم بين أسطره

---

(١) شلبي: موسوعة النظم والحضارة الإسلامية، ٥/ ٣٧٦.
(٢) الخطيب: أصول الحديث، ص٦٤.
(٣) ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله، عيون الأخبار، ط١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م، ٢/ ١٢٣؛ شلبي: موسوعة النظم والحضارة، ٥/ ٣٧٦.

وحواشـيه كل ما هو نافع ومفيد من جميع الأمور وفي مختلف المعارف، حتى ولو استدعى ذلك الأمر التنقل من مكان إلى آخر وهو ما عرف بالرحلة في طلب العلم.

كمـا يجب علـى المعلم ألاَّ يبخـل على أحد مـن تلاميذه، بـل عليه تقبل جميع أسئلتهم واستفسـاراتهم بصدر رحب ووجه بشوش، وبذلك يكون المعلم لطالبه أسوةً حسنة، ونهرَ علمٍ لا ينضب ومصباحاً ينير له دربه.

وأحيانًـا يؤدي المدرس دور السـائل؛ ليختبـر مقدرة تلاميـذه على الفهم والاستيعاب، فيلقي عليهم بعض الأسـئلة؛ ليجيبوا عما يستطيعون الإجابة عليه، ويتولى هو الإجابة عما تعسَّـر عليهـم، وهو بذلك يسـتخدم طريقـة ناجعة لزيادة الفهم، وفتح باب النقاش فيما بينه وبين تلاميذه[١].

أضـف إلى ذلـك إجهاد بعـض علمـاء الحرمين الشـريفين لأنفسـهم في الاطلاع والقراءة والتـزود بكل ما هو مفيد من كتب ومعلومات ومعارف تؤهلهم للرد على أي سـؤال يمكن أن يوجه إليهم من قبل التلاميـذ، وذلك يتم عادة قبل إلقاء الدرس على الطلاب[٢].

ومما لا يمكننـا تجاهله هو القـول بأنه لا بد مـن أن يتبع الطالب أسـلوبًا معينًـا في إلقاء السـؤال علـى معلمه متبعًـا في ذلك أهم أسـاليب الليـن والرفق، ومتشـحًا بكثير مـن الأدب، وهـذا ما حـث عليـه ديننا الحنيـف، وما دعـت إليه الأخـلاق الحميدة، وهـذا ما حمل بعض العلمـاء على تعويد طـلاب العلم على الآداب والأخلاق الحميدة والسـلوك القويم، والنهج الصحيح عند طرح السؤال على المعلم أو الشيخ[٣].

---

(١) شلبي: موسوعة النظم والحضارة، ٥/ ٣٧٧.
(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة، ١/ ٢٣٣؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٢٨.
(٣) ابن سـعد: محمد بن سـعد بن منيع البصـري، الطبقات الكبـرى، دار صادر – بيـروت، د. ت، ٥/ ٤٦٩.

معاونو المدرس في المسجد الحرام:

للمهمات الجسام والكثيرة الملقاة على عاتق المدرس، نجد أن صاحب الدرس كان يعين عددًا من الأشخاص لمساعدة المدرس؛ ليؤدي واجبه على أكمل وجه، ومنهم:

١ - شيخ الدرس:

وهو من ينظر في شؤون الدرس[١]، ومن أهم واجباته:

أ - تعيين المدرس والمعيد، وتحديد عدد الطلاب الراغبين في الدرس، ومن ثم قبولهم.

ب - تنمية الوقف، وتحصيل ريعه والإشراف عليه.

ج - إعطاء كل من المدرس والمعيد والطلاب مخصصاتهم من رواتب للمدرسين ومنح للطلاب.

د - تحديد المكان الذي سيقام فيه الدرس.

٢ - المعيد:

وهو الذي يقوم بإعادة ما أُلقي على الطلبة من قبل المدرس أو الشيخ ليفهموه ويحسنوه[٢]، ويأتي في المرتبة الثانية بعد المدرس، ويشترط فيه أن يكون فاضلًا، صالحًا، وأن يتحلى بالصبر على أخلاق الطلاب من باب الحرص على فائدتهم وانتفاعهم[٣].

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ٥/ ٩٣؛ الطاسان: التعليم في مكة، ص٢٦-٢٧.

(٢) السبكي: معيد النعم، ص١٠٨؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٤؛ دهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص١٤٢.

(٣) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٤؛ الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٥٠؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص٣٣.

وكان المعيد يجلس عن يمين المدرس أو يساره، ونجباء الطلبة أمام وجه المدرس[١]، وعادة نجد أن مُتولّي هذه الوظيفة يكون ذا منزلة علمية جيدة. ومكانة اجتماعية مرموقة كالقضاة وأئمة المقامات، وأحيانًا يكون المعيد في درس ما في المسجد الحرام مدرسًا في درس آخر، وبذلك يجمع بين الإعادة والتدريس[٢].

هذا، وقد أوردت كثيرٌ من المصادر التاريخية عددًا لا يستهان به من المعيدين؛ لأن الإعادة وظيفة قديمة منذ عهد النبي ﷺ، حيث كان عبدالله بن رواحة رضي الله عنه يجمع الناس بعد قيام الرسول ﷺ؛ ليفقههم ويذكرهم بما قال النبي ﷺ، ومن ثم يشرحه لهم[٣].

بينما ذكرت بعض المصادر التاريخية أنه تأخر ظهورها إلى القرن الخامس الهجري، والذي دعا إلى مثل هذا الاعتقاد أن وظيفة المعيد ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بالمدارس، وهذه المدارس بدأ ظهورها في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري، وهذا ما أثبتته الدراسات التاريخية، إلا أن ظهورها في مكة بدأ متأخرًا حوالي الربع الأخير من القرن السادس الهجري، إذ كانت حلقات العلم التي تُعقد في المسجد الحرام تؤدي دورها[٤].

٣ - نائب المدرس:

وهو الذي يحل محل المدرس في حال غيابه لعذر ما كالسفر أو المرض،

---

(١) ابن جماعة: تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، ص١٥٠.
(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٥٠؛ الطاسان: التعليم في مكة، ص٢٧.
(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٥٠؛ ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٦٤؛ العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية بمكة، ص٩٩-١٠٦.
(٤) شلبي: موسوعة النظم والحضارة، ٥/ ٢٥٥؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص٣.

وقد يتنازل المدرس لنائبه عن الوظيفة، ويستمر النائب عادة حتى بعد وفاة موكله إلى أن يصدر قرار سلطاني إما ببقائه أو عزله(١).

وغالبًا ينوب الولد عن والده(٢)، وللمعيد أيضًا كل الحق في إنابة من يحل محله، وله أيضًا التنازل لنائبه عن وظيفة الإعادة(٣).

٤ - قارئ:

وهو الذي يساعد المدرس في القراءة من كتاب، ومن ثم يتولى المدرس الشرح من بعده(٤).

٥ - المستملي:

وهو من يتولى مهمة إسماع الدرس للطلاب، إضافة إلى تنظيم الحاضرين واستنصاتهم، كما يراجع الدرس بعد إملاء الشيخ، وذلك للتأكد من صحة ما كُتب من قبل الطلاب(٥)، وعادة يجلس المستملي في مكان بارز، والغاية من ذلك هو التأكد من دقة إيصال المعلومات إلى الحاضرين أولًا، والإشراف عليهم ثانيًا(٦).

وعادة لا يكتفي المدرس والمعيد بالعمل في درس واحد، بل نجد أن بعضهم قد يتولى تدريس عدد من الدروس في المسجد الحرام، إضافة إلى

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٣٧٢.
(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٩٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٤٥.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ٢/ ٢٠٧.
(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٧/ ٤٨٨؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص٣٣.
(٥) البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، ١٣٥٧هـ، ص١٢٨، السنيدي: الحياة العلمية في مكة في القرنين الثاني والثالث الهجريين، ص١٧٢.
(٦) متز: آدم، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ت، ١/ ٣٣٧.

الدروس الأخرى في عدد من المدارس بمكة المكرمة، مع توليهم لعدد من الوظائف الدينية والإدارية بمكة، فنجد أن بعض المدرسين قد جمع إضافة إلى وظيفة التدريس عددًا من الوظائف ومنها:

١ - الإمامة في المسجد الحرام[١].

٢ - الإعادة[٢].

٣ - الخطابة[٣].

٤ - القضاء[٤].

٥ - الإفتاء[٥].

٦ - نظر الحرمين الشريفين[٦].

٧ - فقيه[٧].

والجدير بالذكر هو وجود مدرس لكل مذهب من المذاهب الأربعة (الشافعية - الحنفية - المالكية - والحنابلة)، وهذا ما نصت عليه وثيقة الأشرف شعبان؛ حيث رتبت مع كل مدرس من مدرسي المذاهب عشرة من الطلاب، عدا مدرس الحنابلة، فقد رتبت معه خمسة من الطلبة[٨].

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ١٤٣؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ٢/ ٤٧٧-٤٧٨.
(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٥٠؛ ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٦٤.
(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٨٩-٩٠، ٥/ ١٠٩.
(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣٦٨، ٤٨٥.
(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ١١٢، ١٤٣؛ ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ١٥٩؛ معجم الشيوخ، ص٢٠٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ٢٤١.
(٦) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٢٩٨.
(٧) ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ٣/ ٢٠٣-٢٠٤.
(٨) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٥.

ويفهم من سياق الكلام أن الطلبة كانوا لا يزيدون عن عشرة ولا يقلون عن خمسة، كطلبة المذهب الحنبلي، والذي يُعَدُّ طلبته أقل من طلبة مدرسي المذاهب الأخرى.

ويدل ذلك دلالة واضحة على قلة انتشار المذهب الحنبلي، وقلة متبعيه، كما يدل على مدى انتشار المذاهب الثلاثة الأخرى، وأهميتها، وهذا ما يبدو واضحًا وجليًا فيما يتقاضاه مدرسو المذاهب الثلاثة وما يتقاضاه مدرس المذهب الحنبلي، وهذا ما سنوضحه عند حديثنا عن رواتب المدرسين.

كما وجد ما يسمى بـ «مدرس الحديث» وتكمن مهمته في شرح كل غامض ومبهم للطلبة، كما يبيّن لهم أسماء الرجال وأحكام الحديث وفقهه وصحة متنه، وعادة يجلس في أحد أروقة الحرم أو في مكان بارز، ويجلس معه عشرة من الطلبة المشتغلين بالحديث[١].

ومن أهم الشروط الواجب توافرها في مدرسِ الحديث، الصدق والعدالة، وأن يكون من أهل الدين والعلم والصيانة، كما اشتُرِطَ فيه أن يكون ذا خبرة ورواية[٢] ودراية[٣] بحديث محمد ﷺ، حافظًا لما تيسر له حفظه من متون الأحاديث وأسانيدها، عارفًا ببعض علومها[٤].

أما طلبة العلم، فلهم كل الحق في التنازل عما يصرف لهم لمن أرادوا،

(١) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٥.

(٢) الرواية: علم يشتمل على نقل أقوال النبي ﷺ وأفعاله وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها. السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف، ط٢، دار الكتب الحديثة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٩٦م، ١/ ٤٠.

(٣) الدراية: علم يعرف منه حقيقة الرواية وشروطها وأنواعها وأحكامها وحال الرواة وشروطهم وأصناف المرويات وما يتعلق بها. المصدر السابق، ١/ ٤٠.

(٤) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٤.

وغالبًا يكـون التنازل للابـن[١]. أضف إلى ذلـك أن بعض الطلبة كانوا يسـاعدون مدرسـهم في عمله، وذلك مـن أجل أن يتدربـوا على التدريس[٢]، فـي حين يقوم بعضهـم الآخـر بالتدريـس في حضـرة شـيخه؛ ليتمكن الشـيخ من معرفـة طريقة تدريس تلميذه، ومن ثم بوجههُ للطريقة المثلى بعد انتهائه من الدرس[٣].

الإجازات العلمية

عادة لا يسـتطيع المدرس أداءَ مهمتـه إلا بعد حصوله علـى إجازة علمية من قبل شيخه أو مدرسـه، وتكون هذه الإجازة رخصة وإذناً له بالتدريس، ولكن قبل أن نخوض في التحدث عن الإجازات العلمية وشروطها وأهميتها وأركانها، لا بد من إلقاء الضوء على معنى كلمة إجازة.

فـي اللغـة:

الإجازة مصدر أجاز، وأجاز له سوَّغَ له، واستجاز طلب الإجازة، أي الإذن[٤].

والإجـازة فـي كلام العـرب مأخوذة من جـواز الماء المسـتعمل لسـقاية الأرض والماشـية، فيقـال: اسـتجزت فلانًـا فأجازنـي، إذا سـقاك مـاءً لأرضك وماشـيتك، وكذلك الحـال لطالب العلـم، فطالب العلم يسـأل العالـم أن يجيزه علمه فيجيزه إياه[٥].

فـي الاصطلاح:

إذن الشـيخ لتلميـذه بروايـة مسـموعاته أو مؤلفاتـه، ولو لـم يسـمعها منه

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ١١/ ٧.
(٢) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٥.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ١٠/ ١٦٢- ١٦٣.
(٤) الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ٢/ ١٧٦.
(٥) السيوطي: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ٢/ ٤٢.

أو يقرأهـا عليـه[١] وأركانها أربعـة: المجيز، والمجاز لـه، ومادة الإجـازة، ولفظ الإجازة[٢].

شـروط صحـة الإجـازة:

اشترط لصحـة الإجازة أن يكون المجيز عالمًا بما يجيزه، معروفًا بالعلم، ثقة في دينـه وروايته، كما اشـترط أن يكون المسـتجيز - أي الطالـب - من أهل العلم وذلك حتى لا يوضع العلم في غير أهله[٣].

تاريخـهـا والـهـدف منـهـا:

إن السـبب الرئيس لظهور الإجازات هو تأسـيس المدارس وكثرة طلاب العلم فيها؛ لذا كان لا بد من تسـجيل ما سـمعه كل طالب مـن الكتب؛ ليكون له الحق بعد ذلك في رواية الكتاب وإقرائه[٤].

وقد عُرفت الإجازة بوصفها شهادة علمية في تاريخ التربية الإسلامية منذ أوائل القرن الرابع الهجري، وأول من بدأ بمنح هـذه الإجازات علماء الحديث، فكانت تُمنح لرواية الحديث ثم اتسـع نطاقها وأصبحت شـاملة لمختلف العلوم كالفقه والقراءات والنحو والأدب وغير ذلك من العلوم.

وعادة تُكتب الإجازة على الورقة الأولى والأخيـرة من الكتاب الذي أتمّ

---

(١) البغـدادي: الكفايـة فـي علـم الروايـة، ص٣١٢، الصبـاغ: محمـد لطفـي، الحديـث النبوي، مصطلحه - بلاغته - كتبـه، ط٣، المكتب الإسلامي، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م، ص٢١٣.

(٢) السيوطي: تدريب الراوي، ٢/ ٤٢؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٦٦٩.

(٣) النباهين: نظام التربية الإسلامية، ص٣٧٧-٣٧٨؛ المالكي: الطبريون.. مؤرخو مكة، ٢/ ١٣.

(٤) المنجد: صلاح الدين، إجازات السـماع في المخطوطات القديمـة، مجلة معهد المخطوطات العربية، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م، م١، ج١، ص٢٣٣.

الطالب دراسته، فيقول الشيخ فيها مثلًا: «أتم فلان قراءة هذا الكتاب.. وأجزت له تدريسه..»، وأحيانًا تكتب الإجازة على ورقة منفصلة.

ولم تكن هذه المهمة سهلة على الطالب بأي شكل من الأشكال؛ لأنه في حال عجزه عن أدائها يعود إلى مكانه في حلقة أستاذه.

والكتاب نفسه يحدد اتجاه ثقافة الطالب سواء كان فقهًا أو أدبًا أو تاريخًا، كما يحدد درجة هذه الثقافة فتتفاوت الكتب من حيث العمق والتفاصيل(١).

وتهدف الإجازة أولًا وأخيرًا إلى ضبط الرواية، وضمان نشر الحقائق العلمية بدقة من غير تشويه أو تزييف، وكانت المادة العلمية هي الغرض الأساس من الإجازة، إلا أنها في العصر المملوكي أخذت تتخذ منحى آخر، وأصبح الغرض منها الترخيص لأداء المهنة العلمية أو الوظيفة كالتدريس والفتيا والقضاء وغيرها(٢).

أقسامها:

تنقسم الإجازة قسمين رئيسين وهما الرئيسة والفرعية، وتنقسم الرئيسة والفرعية إلى عدة أقسام وفيما يلي شرحها:

أولًا: أقسام الإجازة الرئيسة:

١ - الإجازة الشفهية:

وعادة تكون إيجابًا لطلب المستجيز، وهو الذي يحدد المادة التي يريد الإجازة لها، وما على الشيخ في هذه الحالة إلا النطق بالإجازة، وذلك بعد اقتناعه بذلك، وتَعُدُّ العلماء هذا النوع من أوثق طرق

---

(١) شلبي: موسوعة النظم والحضارة، ٥/ ٢٦٣؛ النباهين: نظام التربية الإسلامية، ص٣٧٧.

(٢) النباهين: نظام التربية الإسلامية، ص٣٧٨.

الإجـازة؛ وذلك لأنهـا تسـتلزم لقاءً مباشـرًا بيـن الشـيخ وتلميذه والسـماع مباشـرة منه[١].

٢ - الإجـازة التحـريرية:

لقد كانـت طريقة الإجازة فـي بادئ الأمـر توقيعاً مختصراً يكتبه الشـيخ، إثباتًا منه بأن الطالب المجاز له قد أخذ عنه المادة موضوع الإجازة، وغالبًا يكون توقيع الشـيخ مثبتًا على الكتب المراد إجازتها، وفي صفحـة العنوان منها، وكثيرًا ما نجد من إجازات الشـيوخ لتلاميذهم فـي المخطوطات القديمـة[٢]. وقد تكثر الإجازات حتـى تزدحم صفحة العنوان[٣]، بل أحيانًـا تكتب في هوامش الكتاب، ولكن مـا لبث أن تغيـرت هذه الطريقـة في العصـور المتأخرة، وظهر ما يسـمى بالإجـازات المطولـة المنفصلـة عن الكتـب، وهنا أصبـح المجال متاحًـا للتفنن فـي اختيار المـواد التي تكتـب عليها، فنـرى أن هناك مـن يختار أفضـل الأوراق وأغلاها، كما حرص العلماء على تحسـين خط الإجازة، ومنهم من استخدم ماء الذهب فـي كتابتها، ولعل أبلغ مثـال يمكن أن نورده للإجـازات العلمية هو نص لإحدى الإجازات العلمية التي مُنحت لمؤرخ مكة الشـيخ تقي الدين الفاسي من قبل الشيخ محمد بن أحمد التونسـي المعروف بالوانوغي[٤]، أحد علماء المدينة

---

(١) الصبـاغ: الحديـث النبـوي، ص٢١٥-٢١٦؛ الزهرانـي: التاريخ السياسـي والحضاري لمكة، ص٦٧٢.

(٢) المنجد: إجازات السماع في المخطوطات القديمة، ص٢٣٢.

(٣) انظر ص (٤٧٥) نموذج من إجازات السماع فيه خطوط المزي وابن غنائم والبرزالي.

(٤) هـو محمد بن أحمد بن عثمان التونسـي المالكي نزيـل الحرمين ويعـرف بالوانوغي، ولد عـام ٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م بتونس ونشـأ بها، درس وأفتـى وحدث وأذن فـي الرواية لجماعة، أخذ عنه الفاسـي، أقـام بمكة مجـاورًا ثم بالمدينـة دهرًا مقبـلًا في كليهما على الاشـتغال والتدريس والتصنيف والإفتـاء والإفادة، توفي عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م. السـخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٣.

المنورة.. «كان ممن اجتمعت به وذاكرته وباحثته.. السيد الفقيه الفاضل، الأعدل، الأكمل، الجامع للصفات الكاملة الحسنى، الأصيل، القاضي تقي الدين محمد ابن الشيخ الحسيب، الأصيل شهاب الدين أحمد بن علي الفاسي، نفع الله بفوائده وعلومه الجليلة، وقد ورد علينا بالمدينة المشرفة، وحضر معنا درس الفقه والأصول، وأبدى فيه من فوائده ومباحثه الجليلة ما يليق بعلمه وفضله على طريقة أهل الفنون والمباحثة، فرأيته بذلك كله أهلًا للتدريس والفتوى، والحكم، وإفادة الطالبين مع ما جبل عليه من حسن الفهم، وحسن الإيراد، وسعة التأني في البحث والمراجعة فيه، فأوجب ذلك كله الإذن له في التدريس والفتوى، وإفادة الطلبة وحثه على الاشتغال بذلك كله، والملازمة له؛ لينتفع به الناس عمومًا وأهل بلده خصوصًا، فإني لم أر في فقهاء المالكية بالحجاز كله من يقاربه في جميع ما ذكر - نفع الله به - ولا في اتصافه في العلم، ولا في الفهم عن الأئمة - زاده الله وإيانا فقهًا وعلمًا - فليتجرد - أعزه الله تعالى - لذلك، ويأخذ فيه بالحزم والعزم لمسيس الحاجة في ذلك، وافتقار الناس إليه زمانًا ومكانًا، والله سبحانه يسدده، ويوفقه للخير، والفهم، والجد في العلم بمنِّه وكرمه، وقد أجزت له مع ذلك أن يروي عني جميع ما يصح لي روايته من مروي ومصنف بشرطه»[١].

الأقسام الفرعية للإجازة:

١ - إجازة معين في معين:

أن يكون المجاز له معينًا والمادة المجاز بها معينة، كأن يقول الشيخ لتلميذه: «أجزت لك أن تروي عني صحيح البخاري»[٢] وهي أعلى أنواع الإجازات لتوافر أركان الإجازة فيها.

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٠-٣١.
(٢) السيوطي: تدريب الراوي، ٢/ ٢٩؛ شلبي: موسوعة النظم والحضارة، ٥/ ٢٦٧.

٢ - إجازة معين في غير معين:

ومثال ذلك قول الشيخ لتلميذه: «أجزت لك أو لفلان مسموعاتي أو مروياتي» وغير ذلك من الألفاظ المبهمة والعبارات الغامضة[١]، وينقص هذا النوع من الإجازات ركن من أركان الإجازة وهو مادة الإجازة.

٣ - الإجازة العامة:

ومثالها أن يقول الشيخ: «أجزت للمسلمين أو للموجودين أو لأهل عصري» وهذا النوع من الإجازة ينقصه ركنان من أركان الإجازة وهي المجاز له والمادة المجازة، وقد اختلف فيها. فمنهم من قال بجوازها، في حين قال بعضهم الآخر بعدم جوازها[٢].

هذا، وقد أخذوا في العصر المملوكي بصفة خاصة في التفنن في أساليب كتابتها وتزويق عباراتها والإسهاب فيها، وإضفاء الألقاب المتكلفة على المجاز له[٣] - كما سبقت الإشارة إليه في إجازة الوانوغي للفاسي -.

والجدير بالذكر أن هذه الإجازاتِ كان لها أهمية كبيرة، وذلك لأن المشايخ لا يمنحون الإجازات العلمية إلا لمن وثقوا في علمه، أضف إلى ذلك ارتباط بعض العلوم بقضية الحلال والحرام، كما أن بعض الإجازات تعطي صاحبها حق الإفتاء[٤].

وقد تقام أحيانًا احتفالات خاصة بالتصريح بالإجازة، حيث يجتمع أهل

---

(١) الصالح: صبحي إبراهيم، علوم الحديث ومصطلحه، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م، ص٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص٩٦؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٦٧١.

(٣) النباهين: نظام التربية الإسلامية، ص٣٧٨.

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٨٥.

العلـم والفضـل، ويؤدي طالـب الإجازة مـا يطلب منه تسـميعه في صورة تشـبه المناقشـة العلنية للرسـائل الجامعية اليوم. وخير ما نستشـهد به في هذا المقام ما يعتقد أنه كان يُطبق في مكة ما فعله الزين السنتاوي[١] لتلميذه محمد بن محمد بن الكمال[٢] حيـن ختم عليه كتاب «المنهاج»، فقد عمل له إجلاسًـا حافلاً بالأزهر، حضره الأكابر، واستدعى له من بالمدرسة البيبرسـية[٣]، غالب المدرسين، وكان يومًا حافلًا، وأذن له البكري[٤] يومئذ في التدريس والإفتاء[٥].

وهكذا نرى أن طلاب العلم في الحـرم المكي وغيره كان يحصلون على إجازات علمية من قبل أسـاتذتهم، بـل يحرصون على نيلهـا والاهتمام بجمعها، حتى أننا نجد بعضهـم يحصل على أكثر من إجازة؛ لكونـه يتلقى العلم على عدة شـيوخ، وكلما كثر عدد الشـيوخ زادت مكانة الطالب العلمية بين أقرانه، وارتقى في سلم العلم والمعرفة[٦].

---

(١) لم أعثر له على ترجمة في المصادر المتداولة.

(٢) هو محمد بن محمد بن يوسف بن عبدالكريم الكمال بن الجمال، حفظ القرآن والمنهاج وجمع الجوامع، وعرض على جماعة وتدرب بالزين السنتاوي فقيهه في الاشتغال بحيث عمل له حين خَتْمِه عليه للمنهاج إجلاسًـا حافلًا بالأزهـر حضره الأكابر وأذن له البكـري يومئذ في التدريس والإفتاء بصرة فيها فيما قيل عشرة آلاف درهم. السخاوي: الضوء اللامع، ١/ ٣١.

(٣) تقع بالقاهرة من جملة خط بين القصرين كان موضعها من القصـر الكبير يعرف بقاعة الخيم، بناها الملك الظاهـر بيبرس وفرغ من عمارتها عـام ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، وجلس أهل الـدروس كل طائفة في إيوان (فقهـاء المذاهب الأربعة وأهل الحديث بالإيوان الشـرقي، والقراء بالقراءات السـبع في الإيوان الغربي). ابن العراقي: ولي الدين أبو زرعة أحمد، الذيل على العبر في خبر من غبر، تحقيق صالح مهدي عباس، ط١، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ق١/ ٢٠.

(٤) لم أعثر له على ترجمة في المصادر المتداولة.

(٥) السـخاوي: الضوء اللامع، ١٠/ ٣١؛ النباهين: نظام التربية الإسـلامية، ص٣٨١. وأظن أن ما يحصل في مصر كان يحصل في مكة.

(٦) الشـامخ: التعليم في مكـة والمدينة آخـر العهد العثمانـي، ص١٨-١٩؛ الطاسـان: التعليم في مكة، ص٤٩-٥٠.

الفرق بين نظام التدريس في المسجد الحرام والمدارس:

بعد هذا العرض الشامل للتدريس في المسجد الحرام، نرى أن التدريس في الحرم أفضل بكثير من التدريس في المدارس، بل أجزل نفعًا وأعظم أجرًا ومثوبة من الله سبحانه وتعالى، في حين لا تؤدي المدرسة الخدمة العلمية القيمة التي يؤديها المسجد الحرام، حيث إن صاحب المدرسة يبذل الكثير من المال على مدرسته لكنه يشترط ويحدد ويقيد المناهج، ونتيجة لذلك ينحصر منهجها على تدريس الفقه على المذاهب الأربعة، ومنهم من يجعله قاصرًا على فقه مذهب واحد وهذا يجعل المدرس مقيدًا بتدريس علم واحد، وتقييد الطالب أيضًا بدراسة علم واحد وهذا يد مدرس واحد يختاره صاحب المدرسة، ونستثني من ذلك ما قرره السلطان قايتباي في مدرسته من دروس متنوعة في قراءة القرآن والحديث، أضف إلى ذلك المدرسة الغياثية[١]، والمدرسة الكلبرجية[٢]، اللتين كان اهتمامهما شاملًا لجميع المذاهب السنية الأربعة.

بينما يختلف الوضع كثيرًا في المسجد الحرام؛ حيث نرى حرية التدريس دون قيد أو شرط فنرى أن مختلف العلوم تُدّرس في المسجد الحرام من علوم دينية ولغوية، وما على الطالب هنا سوى اختيار المدرس الذي يلائمه، كما له حرية الانتقال من مدرس إلى آخر، أضف إلى ذلك أن التدريس في المدرسة مقيدٌ بوقت محدد، ويجب على الطالب الحضور في ذلك الوقت، في حين يعطي التدريس في المسجد الحرام حرية كبيرة للمدرس والطالب في اختيار

---

(١) نسبة إلى مؤسسها الملك المنصور غياث الدين أبي المظفر أعظم شاه سلطان بنجاله من بلاد الهند. السخاوي: الضوء اللامع، ٢/ ٣١٣؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص١٩.

(٢) نسبة إلى ولاية كلبرجة من ولايات الهند حيث تكفل سلطانها أحمد شاه ابن حسن شاه شهاب الدين أبو المغازي بإرسال الأموال اللازمة لتعميرها. السخاوي: الضوء اللامع، ١/ ٢١٠؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص١٩.

الوقت المناسب لهما، وباستطاعتهما تغييره حسب الظروف، وهكذا نرى أن المسجد الحرام وحلقاته العلمية مفتوحة أمام كل طالب علم وناشد معرفة يريد الاستفادة، في حين يحدد واقف المدرسة أو بانيها عددًا معينًا من الطلبة حيث لا يزيد هذا العدد(١).

وما لا يمكن تجاهله هو القول بأن التدريس في المدارس لا بد له من تكليف من قبل الواقف، إضافة إلى كون المدرس في المدارس يتقاضى أجرًا على عمله، في حين نرى أن التدريس في المسجد الحرام عمل اختياري لمن يريد الثواب والأجر من الله سبحانه وتعالى؛ لذا أن بعض المدرسين في الحرم المكي، لا يتقاضون أجرًا نظير عملهم، بل يقومون بذلك تطوعًا واحتسابًا للجزاء والمثوبة من الله تعالى(٢).

ولكن هذا لا ينفي أن هناك مدرسين في المسجد الحرام يقومون بمهمة التدريس بتكليف من بعض السلاطين والأمراء ويتقاضون نظير ذلك أجرًا معلومًا.

والجدير بالذكر هو أن فائدة الدروس الملقاة في المسجد الحرام لم تقتصر على المكيين، بل استفاد منها علماء وطلبة من جميع أصقاع البلاد، فكانت ترد إلى علماء الحرم وشيوخه أسئلة واستفسارات من أرجاء شتى من البلاد، ويتولون الرد عليها وإفادة أصحابها وإشباع نهمهم العلمي(٣).

رواتب المدرسين:

يتقاضى كل مدرس من مدرسي المذاهب الثلاثة «الشافعي، والحنفي،

---

(١) شلبي: موسوعة النظم والحضارة، ٥/ ٣٠٤- ٣٠٥.

(٢) الطاسان: التعليم في مكة، ص٤٥-٤٦؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٢٦.

(٣) لمزيد من التفصيل، انظر الفصل الخامس، المبحث الأول، المسجد الحرام وأثره في نشر العلم، ص٣٢٦.

والمالكي» مبلغ ألف ومئتي درهم سنويًا بواقع مئة درهم نقرة شهريًا، عدا مدرس المذهب الحنبلي فإنه يتقاضى ٧٢٠ درهمًا سنويًا أي ما يعادل ستين درهمًا شهريًا. في حين يأخذ الطلاب العشرة مبلغ ألف وثمانمئة درهم سنويًا، فتكون منحة الطالب سنويًا مئة وثمانين درهمًا بواقع خمسة عشر درهمًا شهريًا. بمعدل نصف درهم يوميًا. هذا بالنسبة لطلاب المذاهب الثلاثة، أما طلبة المذهب الحنبلي والبالغ عددهم خمسة طلاب - كما ورد في مدة السلطان الأشرف شعبان - فكانوا يتقاضون مئة وعشرين درهمًا فقط، بواقع عشرة دراهم شهريًا[١].

وقد حددت وثيقة أيتمش للمدرس ستمئة درهم نقرة في كل سنة، ولطلبته السبعة الدارسين للمذهب الحنفي مبلغ ثمانمئة وأربعين درهمًا سنويًا تقسم بينهم بالسوية، كما حددت الوثيقة مبلغ ثلاثين درهمًا نقرة سنويًا لمن يعينه الناظر لضبط الغياب (وهو من الطلبة أو من القراء)[٢].

إضافة إلى هذا كله نجد أن الطلاب كانوا يتقاضون مساعدات مالية قيمة تأتي لهم من البلاد الإسلامية، وذلك من باب التشجيع، والحث على العلم والتفرغ للدراسة[٣]، كما أن بعض الواقفين يقوم بتخصيص مبلغ من المال لطلبة درسه، يوزع بينهم بالسوية، وذلك لتشجيع الطلبة وجذبهم إلى الدرس، وبذلك تحصل الفائدة المرجوة من الدرس، ويعم النفع على طلبة العلم[٤].

---

(١) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٥-٩٦.
(٢) حجة وقف أيتمش بن عبدالله الظاهري، رقم (١١٤٣ق) أوقاف.
(٣) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٧٢.
(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٢١.

المبحث الثاني

المؤدِّب

فـي اللغـة:

الأدب فـي اللغة حسـن الأخلاق وفعــل المـكارم، والأدب: مـا يتأدب بـه الأديب من الناس، سـمي به؛ لأنـه يؤدب الناس إلـى المحامـد وينهاهـم عن المقابح، والأدب أدب النفس والدرس[1]. فيقال: تأدب أي تعلم الأدب، ويقال: تأدب بأدب القرآن[2].

فـي الاصطلاح:

المـؤدب: هو من يدرس الأطفـال في الكتاتيـب، ويقال: معلـم الكُتَّاب، ومعلم الأولاد، ويُطلق عليه أحيانًا اسم فقيه[3].

كما يطلـق المـؤدِّب علـى مـن يـؤدب ويُعَلِّـمُ أطفـال الخلفـاء والأمراء والوزراء، وأكابر العلماء والأعيان في منازلهم[4].

---

(١) ابن منظور: اللسان، ١/ ٢٠٦؛ الزبيدي: تاج العروس، ٢/ ١٢.

(٢) أنيس: المعجم الوسيط، ١/ ٩.

(٣) السـبكي: معيـد النعـم، ص١٣٠؛ ابـن خلـدون: المقدمـة، ص٥٣٨-٥٣٩؛ الباشـا: الفنـون الإسلامية، ٣/ ١١٠٨-١١٠٩.

(٤) البيهقي: إبراهيم بن محمد، المحاسـن والمساوئ، تحقيق محمد سـويد، ط١، دار إحياء العلوم – بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ٢/ ٢١٢، ٢١٦؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣١٦.

ويتعلـم الأطفال عادة فـي مراحل تعليمهـم الأولى في مـكان يُطلق عليه اسم الكُتَّاب ويجمع على الكتاتيب[١].

نشأة الكتاتيب:

عرفت كتاتيب تعليم الأطفال قبل بزوغ فجر الإسلام، وهذا ما وضحه البلاذري فـي كتابه فتوح البلدان حيث قـال: «كان الكتّاب بالعربية في الأوس والخـزرج قليـلًا، وكان بعـض اليهـود قـد علـم كتـاب العربيـة، وكان تعلمه الصبيـان بالمدينة في الزمن الأول فجاء الإسـلام وفـي الأوس والخزرج عدة يكتبون»[٢].

واسـتمر الوضـع كما هو في الإسـلام، غيـر أنه لم يكن منتشـرًا بالشـكل الذي انتشر به فيما بعد في أرجاء الدولة الإسلامية، ولعل أبلغ ما يوضح ذلك هو عندما بعث الرسول ﷺ مصعب بن عمير[٣]، إلى الأنصار ليقرئهم القرآن بالمدينة قبل قدوم الرسـول ﷺ إليها، فأسـلم على يده خلـق كثير[٤]، وهذا مـا يوضح أن الكتَّاب كان موجودًا في مكة المكرمة ولكن بشـكل محـدود النطاق، أضف إلى

---

(١) يقال: كتب الرجـل وأكتبه إكتابًـا أي علّمه الكتاب، ورجـل مكتب: له أجـزاء تكتب من عنده، والمُكتب: المعلم، وقال اللحياني: هو المُكتِّب الذي يُعلـِّم الكتابة، والمكتب موضع الكُتَّاب، والكُتَّاب: موضع تعليم الكتّاب والجمع الكتاتيب والمكاتـب، المُبَرِّد: المكتب موضع التعليم والمكتب المعلم، والكتّاب الصبيان. ابن منظور: اللسان، ١/ ٦٩٩.

(٢) البـلاذري: أبو الحسـن أحمد بن يحيى، فتـوح البلـدان، راجعه رضـوان محمد رضـوان، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٤٥٩.

(٣) هـو مصعـب بـن عمير بـن هاشـم بن عبـد مناف بـن عبد الدار بـن قصي بـن كلاب القرشـي العبدري، يكنـى بأبي عبدالله، بعثـه النبي بعد عودته من الحبشـة إلى المدينة ليقرئ من أسـلم من أهلها القرآن ويفقههم في الديـن، وكان يُدعى القارئ والمقرئ، شـهـد بـدرًا، وكـان معـه اللـواء حتى استشهد يـوم أحـد. الفاسـي: العقـد الثمين، ٦/ ٨٣.

(٤) المصدر السابق، ٦/ ٨٣.

ذلك حادثة أسرى بدر وما اشترطه الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ عليهم من تعليم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة فداءً لهم[١].

ومع انتشار الإسلام واتساع نطاق دائرته، انتشرت الكتاتيب في أصقاع البلاد الإسلامية، وأصبحت الكتاتيب من أهم مراكز تعليم الأطفال خصوصاً بعد أن بدت الحاجة إليها ملحة وماسّة في ظل حث الإسلام وتشجيعه للعلم والعلماء، وتعلم القرآن الكريم والسنة النبوية والعلوم الدينية المختلفة، وكان من يتولى تعليم الصغار في هذه الكتاتيب يُسمى معلمًا أو مؤدبًا، وعلى الرغم من الاختلاف بين المشرق والمغرب في تعليم الأطفال في الكتاتيب، إلا أن التعليم بشكل عام يبدو على وتيرة واحدة حتى مع اختلاف الطريقة[٢].

هذا، وقد انتشرت الكتاتيب واتسع نطاقها بشكل كبير في البلاد الإسلامية عامة وفي مكة المكرمة خاصة، كما انتشرت في المسجد الحرام[٣]، على الرغم من كراهية ذلك، لما قد يحدثه الأطفال في المسجد من نجاسة أو نحوها[٤]. ومن أجل ذلك نرى أن معظم معلمي الحرمْين الشريفيْن يتخذون من أطراف زوايا المسجد مكانًا لمكاتب تعليم الصغار خوفًا من عبثهم ولعبهم داخل المسجد، خصوصاً وأنهم صغار ولا يدركون حرمة المسجد[٥].

وكانت الغاية الأساسية من إنشاء هذه المؤسسات التعليمية – الكتاتيب – هي تحفيظ الصغار القرآن الكريم، إضافة إلى عرض السور القصار منه، ومعرفة

---

(١) ابن حنبل: أبو عبدالله أحمد بن محمد، مسند الإمام بن حنبل، ط١، المكتب الإسلامي، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ١/ ٣٠٧؛ الخضري: إتمام الوفاء، ص١٣٠.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص٥٣٧–٥٤٠؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٠٨.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٧٧، ٦/ ١٤١، ٢٥٧، ٢٧٠؛ ابن فهد: الدر الكمين، ٢/ ١٠٣٨؛ معجم الشيوخ، ص٢٢٤.

(٤) ابن الإخوة: معالم القربة، ص٢٦٠؛ الشيزري: نهاية الرتبة، ص١٠٣.

(٥) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٣، ٥/ ٥٢١.

الخط[١]، كما يقوم المعلم أو المؤدب بتعليم الأطفال بعض متون الأحاديث وعقائد السنن، والاستخراج والضبط، وفهم المسائل، كما يعلمهم أصول الحساب، وما يستحسن من المراسلات والأشعار[٢].

الشروط الواجب توافرها في المؤدب:

لأهمية وظيفة المؤدب ودوره البارز في تنشئة جيل بأكمله، كان لا بد من أن تتوافر فيه صفات معينة وشروط دقيقة من أهمها ما يلي:

١- أن يكون صحيح العقيدة؛ لأن العقيدة هي اللبنة الأولى والأساس، فإن صلحت صلح ما بعدها؛ لذلك وجب على الآباء فحص عقيدة معلم أبنائهم، فلقد نشأ صبيان كثيرون عقيدتهم فاسدة؛ لأن فقيههم أو مؤدبهم كان كذلك[٣].

٢ - أن يكون من أهل الفقه والأمانة، حافظًا لكتاب الله الكريم[٤].

٣ - أن يكون ممن اشتهروا بغزارة العلم وسعته، وخبرته الطويلة في مجال التعليم[٥].

٤ - أن يكون ذا خلق فاضل وخصال حميدة، متصفًا بالورع والزهد والعفاف والجد؛ لأن التأديب لا يقتصر على التعليم فقط، بل كان جنبًا إلى جنب

---

(١) أشار ابن خلدون أن تعليم الخط في مكاتب الصبيان كان قاصرًا عن الإجادة، لأن تلك وظيفة مفردة في غيره. ابن خلدون: المقدمة، ص٥٣٩.

(٢) ابن مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد، تهذيب الأخلاق في التربية، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٥١-٥٥؛ ابن الإخوة: معالم القربة، ص٢٦٠؛ ابن خلدون: المقدمة، ص٥٣٨-٥٣٩؛ الشيزري: نهاية الرتبة، ص١٠٣.

(٣) السبكي: معيد النعم، ص١٣٠.

(٤) ابن الإخوة: معالم القربة، ص٢٦٠؛ القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٧.

(٥) ابن الإخوة: معالم القربة، ص٢٦٠؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٦٠٧.

مع التربية. كما أنه لا بد أن يكون المؤدب أسـوة حسنة لنشء لا يزال في مراحله الأولى[١].

٥ - الأولى أن يكون متزوجًا، وبناءً على ذلك لا يُسمح لعازب أن يفتح مكتبًا للتعليـم، إلا أن يكون شـيخًا كبيـرًا، كما لا يؤذن لـه بالتعليـم إلا بتزكيته وثبوت أهليته[٢].

٦ - مراعاة الفروق الفرديـة بين الأطفـال، إذ عليه تعليمهم مـا يطيقون تعلمه من القـرآن الكريم أو الخط العربي على عـادة أهل مكة، وذلك يكون في كل يوم من أيام الأسـبوع عدا أيام البطالة أو الإجـازة والتي جرت العادة ببطلان الدراسـة فيها، وهذا ما اشـترطته إحدى وثائق الوقـف المملوكية على المعلم أو المؤدب[٣].

٧ - أن يتصف بحسن الخط وجودته[٤].

ومـن أهم العلوم التـي يحمل المؤدب علـى عاتقه تعليمهـا للأطفال بعد القـراءة والكتابة، القرآن الكريـم، والعلوم الدينية المختلفـة، ومن حقهم عليه ألا يعلمهم شـيئًا قبـل القرآن، ثـم يأتي بعده حديـث النبي ﷺ، ولا يتكلـم معهم في العقائـد، بل يتركهـم إلـى أن يتأهلوا حـق التأهل ثم يأخذهـم بعقيدة أهل السـنة والجماعة، كما يعلّم الصبي المميز كتابة القرآن في اللوح، كما يُعَلِّمهم الحساب، وغيره من العلوم التي تنفعهم في دنياهم وآخرتهم[٥].

---

(١) ابن الاخوة: معالم القربة، ص٢٦٠؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٦٠٧.

(٢) ابن الإخوة: معالم القربة، ص٢٦٠؛ النباهين: نظام التربية الإسلامية، ص٢٤٧-٢٤٨.

(٣) وهي وثيقة الأشرف شـعبان، انظر القحطاني: أوقاف السلطان الأشـرف شعبان، ص٩٧؛ انظر أيضًا الفعر: تطور الكتابات والنقوش في الحجاز، ص٥٢٣.

(٤) ابن الإخـوة: معالم القربـة، ص٢٦٠؛ النباهين: نظام التربية الإسـلامية، ص٢٤٧-٢٤٨؛ انظر أيضًا الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٢١.

(٥) السـبكي: معيد النعم، ص١٣٠؛ العبيكان: الحياة العلميـة والاجتماعية في مكة، ص٦٣-٦٥؛ السنيدي: الحياة العلمية في مكة في القرنين ٢-٣هـ، ص١٣١.

أنواع الكتاتيب في عهد المماليك:

لقد بلغ انتشار الكتاتيب في الحرمين الشريفين زمن المماليك أوج اتساعه وعظمته، وقد عُرف منها نوعان هما:

أولًا: المكاتب الخاصة:

وعادة يقيمها من وجدوا في أنفسهم القدرة على اتخاذ التعليم حرفة يتقوتون منها، ويلتحق بها الصبيان نظير مبلغ يُدفع لأصحابها أو للمؤدب، وتقوم هذه المكاتب بجهد فردي، ويُطلق عليها «المكاتب الخاصة» ونرى أن هذا النوع من المكاتب لا يتقيد بعدد معين من الطلاب(١).

ثانيًا: مكاتب الأيتام:

يُنشئها المحسنون من السلاطين والأمراء والأغنياء وأعيان الدولة، وعادة يحمل منشئ هذه المكاتب على عاتقه نفقات ومصروفات تعليم الأطفال كافة من الأيتام والفقراء منذ دخولهم المكتب وإلى أن يتخرجوا منه بحفظ القرآن الكريم، رغبة منه في كسب الأجر والمثوبة من الله تعالى، وتمتاز مكاتب الأيتام عن المكاتب الخاصة بأنها أكثر دقة في اختيار أفضل المؤدبين العاملين فيها، وتنفيذ الانضباط والنظام، رغم أن كليهما كانا يؤديان هدفًا واحدًا(٢).

وقد زخرت المصادر التاريخية بعدد لا يستهان به من المؤدبين، الذين جنَّدوا أنفسهم للتعليم وحملوا على عاتقهم تربية جيل بأكمله، وتأديب الأطفال

---

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٢١٩-٢٢٠؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣١٠.

(٢) ابن حجر الهيتمي: شهاب الدين أبو العباس أحمد، تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال، تحقيق محمد سهيل الديس، ط١، دار ابن كثير - دمشق، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٦٨-٦٩، ٩٢-٩٥؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣١٧.

وغرس حب العلم في أنفسـهم، وتعليمهم كتاب الله وسـنة رسـوله، وغيرها من العلوم الدينية النافعة[١].

ولمزيـد مـن التوضيح، نسـوق بعـض الأمثلـة للمكاتـب الموجـودة في المسـجد الحـرام، فمن المكاتـب الخاصـة نذكر على سـبيل المثـال لا الحصر، مكتب الشيخ محمد بن عمر بن علي السحولي[٢] المتوفى في (٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) وكان من البارزين في علم الفقه، كما كان جيد الشعر وحسن الخط، وعمل على تعليم الأطفال في المكتب القرآن الكريم، والكتابة، ومن أهم من تتلمذ على يده إبراهيم العراقي، وقرأ عليه القرآن الكريم[٣].

ومكتـب محمد بـن أحمد بـن علـي ناصـر الديـن القدسـي[٤] نزيـل مكة والمتوفى عام (٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م) ويعرف بالسـخاوي، وكان يعلم الأطفال في المسجد الحرام، أضف إلى ذلك إلمامه بعلم القراءات، فهو الذي أدب النور ابن الشيخة، وجوَّد عليه القرآن، وأقرأه في العربية[٥].

ومن مكاتـب الأيتام، هناك مكتب السـلطان الأشـرف شـعبان الذي كان ملحقًا بدرسه في المسجد الحرام[٦].

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ١٣٠، ٦،٣٧٧/ ١٤١، ٢٥٧، ٢٧٠؛ ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٤١، ١٧٦، ٤٨٠، ٢/ ١٠٣٨، ١٢٦١؛ ابن فهد: نيل المنى، ١/ ٢٢٩، ٢٣٨، ٢٤٠.

(٢) محمد بن عمر بن علي السـحولي، ولد عام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م بمكة، نظم الشـعر الجيد وأذّن بالمسجد الحرام المكي على زمزم دهرًا، مات عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م ودفن بالمعلاة. المصدر السابق، ٨/ ٢٥١.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣١٩؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٧/ ٧٢.

(٤) محمد بن أحمد بن علـي ناصر الدين المقدسـي نزيل مكة ويعرف بالسـخاوي، أدب الأطفال بمكة مدة، مات عام ٨٤٠هـ/ ١٤٣٦م بمكة. السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٢٣.

(٥) المصدر السابق، ٧/ ٢٣.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٢٥٩.

هـذا، وقـد اكتسـبـت بعـض الكتاتيـب الصفــة الرسـمـيـة لتعليـم الأطفـال وتأديـبهم، كمكتب يوسف بن علـي بن سليمان القروي[١] (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م)[٢]، الذي كان يقع في الجانب الشـمالي من المسجد الحرام، وكان يعلم ويؤدب الأطفال به[٣].

كمـا أَدَّبَ زوج ابنتـه عبدالمؤمن بـن عبدالدايم بـن علـي السـمنودي[٤] (ت٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م) الأطفال في المكتب نفسه[٥].

وقد وجد عـدد كبير مـن المعلمين الذين اتخـذوا لهم أماكـن خاصة في المسـجد الحـرام، ولكنها لم تكتسـب الصفـة الرسـمية بوصفها مكاتـب لتعليم الأطفـال، حيـث كان يجلـس المعلم فـي مكان معيـن، ويحضـر الأطفـال إليه؛ ليعلمهـم القـرآن والخـط، ومـن هـؤلاء أحمد بـن أبي الخيـر محمد بن حسـين القسطلاني[٦] (ت٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م) الذي تولى تأديب الأطفال بالمسجد الحرام تحت مئذنة بـاب علي[٧]، ومحمد بن عبدالله الشـمس الصعيـدي نزيل الحرمين

(١) يوسف بن علي بن سليمان القروي، نزيل مكة، المؤدب بالمسجد الحرام، كان قارئ الحديث بدرس وزير بغداد في الحرم الشريف، وأدب الأطفال، توفي بمكة بعد أن جاور بها سنين كثيرة متأهلًا وذلك عام ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م. المصدر السابق، ٦/ ٢٥٣.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٧/ ٤٨٨.

(٣) المصدر السابق، ٥/ ٣٦٤.

(٤) عبدالمؤمن بن عبدالدائم بن علي السمنودي ويعرف بمؤمن، ممن جاور بمكة سنين على طريقة حسنة يؤدب الأطفـال، مات بمكة عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م. السخاوي: الضوء اللامع، ٥/ ٨٩.

(٥) المصدر السابق، ٥/ ٨٩.

(٦) أحمد بن أبي الخير محمد بن حسين بن القطب القسـطلاني المكي، جَوَّدَ الكتابة وصار يكتب الوثائق ويسـجل على الحكام، مع تأديبه الأبناء بالمسـجد الحرام تحت منارة باب علي، توفي عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م. المصدر السابق، ٢/ ١٠٩.

(٧) المصدر السابق، ٢/ ١٠٩.

(ت٨٩١هـ/ ١٤٨٦م)[١] مـؤدب الأطفال بمكة ببـاب الحزورة، كمـا كان يقرئ الأبناء طبقة بعد أخرى[٢].

وهناك بعض المؤدبين بالمسجد الحرام ولكن لم تعين لهم أماكن خاصة في الحرم المكي لتعليـم الأطفال ومنهم الحسـن بـن عبدالأحد بن عبدالرحمن الحرانـي (ت٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م)[٣]. وأحمد بـن علي بـن محمـد الشـوايطي (ت٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م)[٤].

والجدير بالذكر أن عـدد الأطفال في الكتاتيب الرسـمية أكثر من عددهم فيما سواها[٥].

هـذا، وقـد اختـص كثيـر مـن المؤدبيـن بتعليـم وتأديـب أبنـاء العلمـاء والأعيان[٦]، وبلا شك فإنهم يتقاضون أجرًا جيدًا من قبل هؤلاء العلماء والأعيان نظير عملهم هذا.

---

(١) محمد بن عبدالله الشـمس الصعيـدي الشـافعي نزيل الحرمين ومـؤدب الأطفـال بمكة بباب الحزورة وأحـد مؤذنيها نيابـة ويعرف بالمدنـي، ممن أقرأ الأبنـاء طبقة بعد أخـرى، توفي عام ٨٩١هـ/ ١٤٨٦م. السخاوي: الضوء اللامع، ٨/ ١١٨.

(٢) المصدر السابق، ٨/ ١١٨.

(٣) الحسـن بن عبدالأحد بـن عبدالرحمـن الحرانـي الرسـعني الحنبلـي المـؤدب، ولـد عـام ٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م، وجـاور بمكة سـنين وأدب الأطفال بالمسـجد الحرام، وكان خيـرًا متعبدًا ساكنًا، توفي عام ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م. المصدر السابق، ٣/ ١٠٢.

(٤) أحمد بـن علي بن عمر بـن أحمد الحميـري الشـوايطي اليمني ثـم المكي الشـافعي، ولد عام ٧٨١هـ/ ١٣٧٩م، انتقل إلى مكة عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، أقرأ الأطفال بمكة وعكف بالمسجد الحرام وباشـر مشـيخة الباسـطية، مات عام ٨٦٣هـ/ ١٤٥٨م. السـخاوي: التحفـه اللطيفة، ١/ ٢٠٣-٢٠٤؛ الضوء اللامع، ٢/ ٢٨..

(٥) العز بـن فهد: بلـوغ القـرى، ٢/ ٢٢٠؛ انظـر أيضًـا الزهراني: التاريـخ السياسـي والحضاري لمكـة، ص٦٠٠-٦٠١.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ٢٥٤؛ ابن فهد: معجم الشيوخ، ص٢٢٣-٢٢٤؛ السخاوي: الضوء اللامع، ١٠/ ٣٤٠.

نظام تعليم الأطفال:

لقد اهتم الواقفون بنظام تعليم الأطفال الأيتام اهتمامًا كبيرًا وعناية بالغة، ومن الوثائق التي عنيت بالأطفال الأيتام ونظام تعليمهم حجة وقف شاهين بن عبدالله الحسني[١]، المؤرخة في ٢٧محرم سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، ومن أوجه الصرف بهذه الوثيقة الصرف على عشرة أطفال من الأيتام وتعليمهم وتأديبهم وكسوتهم، وقد نصت الوثيقة على «الصرف على عشرة أيتام يتعلمون القرآن العظيم والخط العربي على عادة أمثالهم في ذلك في غرة كل شهر من شهور الأهلة، من الدراهم النقرة الجيدة أو ما يقوم مقامها من النقود بقيمة الفضة البيضاء معاملة الديار المصرية لكل نفر منهم عشرة دراهم فضة بيضاء»[٢].

كما حددت الوثيقة وقت جلوس المؤدب والأيتام من الصباح إلى العصر على أن يختموا يومهم الدراسي بقراءة المعوذتين وفاتحة الكتاب وأول سورة البقرة وآية الكرسي[٣].

وقد اشترطت حجة وقف الأشرف شعبان استبدال من بلغ من الأيتام سن الحلم بغيره، إلا إذا كان قد بقي عليه اليسير من القرآن فيبقى بالمكتب إلى أن يتم حفظ كتاب الله، فإذا أتمه استُبدل بغيره[٤].

كما نصت الحجة على تهيئة ما يحتاج إليه الأيتام في أثناء دراستهم في

---

(١) هو شاهين بن عبدالله الحسني الطواشي، حج بالناس وولي نظر البيبرسية، توفي عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م. السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٢٩٤.

(٢) حجة وقف شاهين بن عبدالله الحسني الطواشي، المؤرخة في ٢٧محرم سنة ٨٠٨هـ، رقم الوثيقة (٦٢) رقم المحفظة (١٠) دار الوثائق القومية.

(٣) حجة وقف شاهين بن عبدالله الحسني الطواشي، رقم (٦٢) دار الوثائق القومية.

(٤) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٧؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣١٩؛ السنيدي: الحياة العلمية في مكة في القرنين ٢-٣هـ، ص١٣٥.

المكتب من ألـواح وأقلام ومحابـر ومواد، إضافة إلى الكسـاء والفـرش والنفقة السنوية[١].

وهكذا نلاحظ أن مدة الدراسة في الكتاتيب كانت مرهونة بمدى استعداد الصبي وقابليته للتعليم وميوله، كما أُخذ بعين الاعتبار بلوغ الصبي سن المراهقة وحد البلـوغ مع مراعاة التدرج فـي التعليم والرفق والتلطف فـي تعليم الأطفال، من باب مراعاة قدراتهم الخاصة واستعدادهم لما يتقبلونه من المعارف والعلوم.

أمـا معاقبـة الأطفال فيجـب أن يتأنـى فيها المعلـم أو المـؤدب ولا ينزل عليهم العقاب مباشـرة، بل يسـتخدم التدرج، فالذنـب الأول يُعفى منـه، ويعاتبه على الثاني عتابًا غير مباشر كأن يقول له: إن فعل كذا وكذا قبيح، والثالث يُعاتب عليـه عتابًا مباشـرًا، فإن عاد إلى ذلـك ضُرب ضربًا خفيفًا لا شـدة فيـه ولا أذية، كما ينبغي عليـه مكافأته على الجميـل، وأن يأذن له في بعـض الأوقات باللعب؛ ليستريح من تعب الأدب والتعليم[٢].

ومـع ظهور الإجازة وشـيوعها فـي العالم الإسـلامي وانتشـارها في مكة المكرمة، حـرص كثيرٌ من الآبـاء على الاسـتجازة لأبنائهم الصغار، وقد اسـتفاد الأطفـال بنين وبنات مـن الإجـازات بأنواعها اسـتفادة عظيمة عنـد الكبر، حيث يهرع إليهم طلاب الحديث لمجرد وصفهـم بأنهم آخر من حدث عن فلان مثلًا، وبذلك يعلو سند الطالب[٣].

ورغم مـا يتحملـه المؤدب مـن مسـؤولية تعليـم الأطفـال وتأديبهم،

---

(١) القحطاني: أوقاف السـلطان الأشـرف شـعبان، ص٩٧؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣١٩.

(٢) ابن مسكويه: تهذيب الأخلاق، ص٥٢-٥٣؛ شلبي: موسوعة النظم والحضارة، ٥/ ٢٧٢.

(٣) ابن فهد: الدر الكمين، ٣/ ١٥٨٤، ١٥٩٣؛ معتوق: علم الحديث في مكة المكرمة، ص١٠٧.

نجـد أن بعـض المؤدبين قد جمـع إضافة إلـى وظيفة مـؤدب وظائف أخرى ومنها:

١ - الفراشة[١].

٢ - الإقراء[٢].

٣ - الأذان[٣].

مراقبة المؤدبين من قبل المحتسب:

كانـت تُفرض علـى المؤدبيـن رقابة صارمـة من قبـل المحتسـبين عامة، وآباء الأطفال بشـكل خاص، وهذا ما يظهر جليًا في حادثة ضرب الأمير سودون الفقيه - صاحب الحسبة - لمحمد بن موسى الظاهري مؤدب الأيتام في مدرسة السلطان قايتباي بسبب ضربه للأيتام ضربـًا مؤلمًا[٤].

وتدل هـذه الحادثة دلالـة واضحة على مـدى العطف والمتابعـة من قبل المسؤولين للأيتام، كما تدل على مراقبة الأجهزة الحاكمة للمؤدبين، ومعاقبة من تسِّول له نفسه إيذاء الأطفال الأيتام أو ضربهم بشدة.

أهمية الكتاتيب ودورها في نشر العلم:

لقد ظهـرت الكتاتيب في مكة المكرمة وأدت دورًا أساسـيا في نشـر نور العلـم والمعرفـة، خصوصاً وأنهـا اتخذت من المسـجد مقـرًا لها، فكانـت جنبًا إلى جنـب مع المسـجد الحرام، فنـرى أن بعض معلمـي الأطفال أَدَّوْا رسـالتهم

---

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٢٢٠.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٧/ ٤٨٨.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ٨/ ١١٨.

(٤) العز بن فهد: بلوغ القـرى، ٢/ ٢٢١-٢٢٢؛ انظر أيضًـا الجابري: الحيـاة العلمية في الحجاز، ص٣١٩-٣٢٠؛ ولمزيد من التفصيل انظر الفصل الأول، المبحث السابع، ص ١٥٠.

في المسـجد الحرام، حيث إِن معظم هـذه الكتاتيب كانت تحت مآذن المسـجد الحرام أو أحد أبوابه[١].

والجدير بالذكـر أن معظـم المجاوريـن فـي مكـة المكرمـة أدوا دورًا أساسـيا وبارزًا في دفع الحركة العلمية فـي الحجاز، فهم الذيـن أرادوا البقاء في مكة المكرمـة، وكان بقاؤهم إما لدوافع دينيـة أو علمية أو سياسـية أو اقتصادية، فقـد أَدَّبَ معظـم مجـاوري مكـة المكرمـة الأطفـال وأقرؤوهـم فـي الحرميـن الشـريفين، أضف إلى ذلك دورهم في تنشيط الحركة العلمية في الحجاز، بسبب اصطحابهم لجلّ كتبهم إلى الحرمين الشـريفين[٢]، وبذلك أفادوا بعلمهم وكتبهم كثيراً من طلبة الحرمين عامة ومكة المكرمة خاصة، كما أنهم اسـتفادوا أيضًا من العلوم والمعارف والدروس التي كانت تُلقى في المسجد الحرام، وبذلك حققوا تجارة رابحة وهي الإفادة والاسـتفادة من مختلف العلوم والمعارف في المسجد الحرام.

رواتب المؤدبين:

خصصت حجة وقف الأشرف شعبان للمؤدب سـبعمئة وعشرين درهمًا سـنويًا بواقـع سـتين درهمًـا شـهريًا[٣]، كمـا أن الطلبـة كانـوا يتقاضـون منحًا أو رواتب تُعطى لهم مقابل نفقاتهم وكسـوتهم ولوازمهم، فقد رتبت حجة الأشرف شـعبان مع كل مؤدب عشـرة أطفال من أيتـام المسـلمين الذين لم يبلغوا الحلم، وخصصت لكل يتيم منهم مبلغ ثلاثمئة وستين درهمًا، بواقع ثلاثين درهمًا شهريًا لكل يتيم، وهو أعلى من مرتب قارئ القرآن الذي كان يتقاضى خمسـة وعشرين

---

(١) الفاسـي: العقد الثميـن، ١/ ٤١٣، ٤٣٥، ٣/ ١٣٦؛ انظر أيضًا عبدالله: تاريـخ التعليم في مكة المكرمة، ص٥٥؛ الطاسان: التعليم في مكة في العهد المملوكي، ص٨.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ٨/ ١٤؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٢٠٧.

(٣) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٧.

درهمًا في الشهر، وضعف ما كان يتقاضاه طلبة الحديث والمذاهب، ولعل سبب ذلك أنهم من الأيتام الذين لا مورد لهم إلا هذه المنح التي تساعدهم على قضاء لوازمهم ونفقاتهم.

وهذا يدل دلالة واضحة وجلية على تشجيع السلطان الأشرف شعبان للعلم ولطلبته، كما تُعَدُّ هذه المنح من باب حض الطلبة على التعلم، وحضور الدرس[١].

والجدير بالذكر أن بعض المؤدبين قد أثرى من جراء هذه المهنة، وتكسَّب بها[٢].

ومما لا يمكن تجاهله القول بأن المؤدب اختص بتعليم الأطفال، في حين اختص المدرس بحلقات كبرى لتدريس طلبة العلم سواء الفقه أو الأصول أو غيرها من العلوم، في حين يختص الشيخ بمجموعة أقل، وهكذا نجد أن الشخص يرتقي من مؤدب إلى مدرس إلى شيخ.

---

(١) القحطاني، أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٣-٩٧.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ١/ ٢٦٢-٢٦٣، ٢/ ٥٦، ١٠/ ١٢٠، ١٦٩.

المبحث الثالث

المقرئ

في اللغة:

أقرأ غيره يقرئه إقراءً، ومنه قيل: فلان المقرئ، وقرأتُ الكتاب قراءة وقرآنًا، ومنه سمي القرآن، وأقرأه القرآن فهو مقرئ[1].

في الاصطلاح:

هو الذي يقرئ القرآن العظيم، وقد غلب اختصاصه في العرف على مشايخ القراءة من القراء السبعة المجيدين المتصدين لتعليم علم القراءات[2].

نشأته وتاريخه:

يُعَدُّ القرآن الكريم من أشهر العلوم وأقدمها التي كانت تُدرَّسُ في المسجد الحرام، وقد بدأ تعليم القرآن الكريم في المسجد الحرام منذ بعثة سيدنا محمد ﷺ حيث كان عليه الصلاة والسلام أول معلم للقرآن في المسجد الحرام، فقد علمه لأصحابه، كما أقرأه لمشركي مكة؛ لكي يؤمنوا برسالته

---

(١) ابن منظور: اللسان، ١/ ١٢٩؛ الزبيدي: تاج العروس، ١/ ٣٦٤.

(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٤٦٤؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٣/ ١١٣٤؛ الزهراني: عبدالرحمن علي، كتابات إسلامية من مكة المكرمة، ط١، مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م، ص٤٢٣.

ويعتنقوا الدين الحق، وبذلك يكون القرآن الكريم أول علم دُرِّس في المسجد الحرام، وعلى نهج سيدنا محمد ﷺ سار الخلفاء وعلماء المسلمين من بعده، وظلوا يعلمون القرآن وتفسيره في المسجد الحرام خلال العصور الإسلامية، فقد كان المسجد الحرام في العصر المملوكي يغصّ بالمقرئين الذين حملوا على عاتقهم تعليم القرآن الكريم لطلبة العلم، ورغم كثرة المقرئين في الحرم المكي إلا أنه برز منهم من عُدَّ أكثرهم علمًا بقراءة القرآن، كما برز عدد لا يستهان به من العلماء الذين أُطلق عليهم لقب «شيخ القراء»(١) أو «مقرئ الحرم»(٢).

ومن الذين أُطلق عليهم لقب شيخ القراء المقرئ «إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم بن سعيد الإربلي القاهري» ويُعرف ببرهان الدين المسروري(٣)، والشيخ «عبدالرحمن بن أحمد بن محمد الدمشقي الشهير بابن عياش»(٤) حيث كان على درجة كبيرة من العلم، وصار شيخ الإقراء بمكة، كما كان يعلّم القرآن ليلًا ونهارًا، وأُطلق عليه لقب مقرئ الحرم(٥).

---

(١) ابن فهد: نيل المنى، ١/ ٣٨.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٨، ٣٠١، ٤/ ٢٧١؛ ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٢٥، ١٠١، ٢٨٦، ٤٨٠، ٢/ ٧٩٨.

(٣) هو إبراهيم بن مسعود بن إبراهيم بن سعيد الإربلي القاهري، الشيخ برهان الدين المعروف بالمسروري، المقرئ، نزيل مكة، وشيخ القراء بها، ويُعرف أيضًا بابن الجلبي، ولد في ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، بالقاهرة، تصّدر للإقراء بالحرم النبوي الشريف، وانتفع الناس به بعد إقامة طويلة بمكة، توفي عام ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م، بالمدينة ودُفن بالبقيع. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٦٥؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٢٩.

(٤) هو زين الدين أبو محمد عبدالرحمن بن الشيخ شهاب الدين بن عياش المقرئ، ولد سنة ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م، بدمشق، وتعلم القراءات على أبيه، وقد كان والده عالمًا بالقراءات، قدم إلى مكة واستوطنها وصار من أكابر المقرئين بها، توفي بعد عام ٨٥٣هـ/ بعد ١٤٤٩م. ابن العماد: شذرات الذهب، ٧/ ٢٧٧.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ٤/ ٥٩-٦٠.

الشروط الواجب توافرها في المقرئ:

لأهمية المقرئ، ودوره البارز في تعليم الطلبة القرآن الكريم، بل وأهمية هذا العلم الذي يُعدّ من أشهر العلوم تدريسًا في المسجد الحرام، كان لا بد من أن تتوافر شروطٌ معينة فيمن يتولى هذه المهمة، ومن أهمها:

١ - أن يكون محيطًا بعلم القرآن والتجويد.

٢ - أن يكون عالمًا بالقراءات عارفًا بقواعدها.

٣ - أن يكون لديه علم بتفسير القرآن ومعانيه وإعرابه(١).

كيفية القراءة:

اهتم الأشرف شعبان بقراء القرآن الكريم، وقراء كتب الحديث النبوي في المسجد الحرام(٢)، وقد وضحت وثيقة الأشرف شعبان كيفية قراءة كل منهما كما يلي:

قراء القرآن الكريم:

وهم ستة من قراء القرآن الكريم يكونون من الحافظين لكتاب الله الكريم، يجتمعون كل يوم بعد صلاة الفجر خلف مقام سيدنا إبراهيم عليه السلام ويقرؤون حزبًا واحدًا من ستين حزبًا من القرآن، على أن تكون قراءة حسنة مرتلة، ثم يصلون على النبي ﷺ عشر مرات، ويهدون ثواب قراءتهم إلى السلطان ووالديه وذريته ومن سلف منهم وإلى جميع المؤمنين، ثم يجتمعون بعد صلاة العصر ويقرؤون حزبًا من كتاب الله ويهدون ثواب القراءة كما فعلوا بعد صلاة الصبح، وهكذا يختمون القرآن مرة كل شهر(٣).

---

(١) ابن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٢١٥؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٦٧٥.

(٢) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٣.

(٣) المرجع السابق، ص٩٣.

قارئ الحديث:

أما طريقة قراءة قارئ الحديث، فهو يحضر عادة إلى المسجد الحرام بعد صلاة الجمعة ويقرأ ما تيسر له قراءتهُ من تفسير القرآن ومن صحيح البخاري أو صحيح مسلم، أو مما اختصر منهما أو من بقية الكتب الصحيحة، ومن كتب مناقب الأبرار الصالحين، وكتب الرقائق المعتمدة، ثم يقرأ بعد ذلك سورة الإخلاص والمعوذتين وفاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، ومن ثَـمَّ يدعو للسلطان الأشرف شعبان ولوالديه وذريته ومن سلف منهم بالرحمة والمغفرة ولجميع المسلمين[1].

هذا، وقد اهتم الواقفون بقراء كتاب الله الكريم، ويظهر ذلك جليًا من خلال إحدى الوثائق التي توضح لنا كيفية قراءة قراء كتاب الله، فقد اشترط الواقف عقب الصلوات الخمس على اثنين منهم قراءة حزبين من تجزئة ستين حزبًا من القرآن الكريم قراءة حسنة مرتلة بعدها يدعو أحدهما، ويهدي ثواب هذه القراءة للسلطان الملك الظاهر، وللواقف، ولذريته وللمسلمين، ويختتم هذا العمل الطيب بالصلاة على النبي ﷺ[2]، وعددهم عشرة من القراء الحافظين لكتاب الله الكريم، يرتبهم الناظر على الوقف بالحرم المكي خلف المقام الشريف[3].

في حين وضحت وثيقة السلطان الأشرف قانصوه الغوري كيفية قراءة القراء في كلام هذا نصه:

«... تعيين من يتولى وظيفة قراءة مصحف شريف على أن يقرأ تجاه

(١) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٣ – ص٩٤.
(٢) حجة وقف أيتمش بن عبدالله، رقم الوثيقة (١١٤٣ق مكرر) أوقاف مصر.
(٣) المصدر السابق.

البيت الشريف في الحرم الشريف في كل يوم ما تيسر له قراءته من القرآن العظيم في أي وقت تيسر من الليل والنهار، ويختم قراءته بسورة الإخلاص والمعوذتين، وفاتحة الكتاب العزيز، وفواتيح سورة البقرة وخواتيمها، ويذكر الله تعالى ويصلي على النبي ﷺ ويدعو بذلك ويهدي ثواب قراءته وأذكاره وصلواته لسيد المرسلين، وإمام المتقين، ورسول رب العالمين محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين، ثم إلى الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين، ثم إلى الآل والصحابة، والتابعين، والعلماء، والصالحين، ثم لمولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك الأشرف أبي النصر قانصوه الغوري.. وأولاده وذريته والمسلمين..»[١].

أما وقت تعليم القرآن الكريم، فقد كان يبدأ عادة في أول اليوم، من بعد صلاة الفجر إلى وقت الضحى، ثم ينصرف الطلبة، ومن المشايخ من كان يدرِّس الطلبة في آخر النهار - أي من بعد صلاة العصر إلى المغرب - ومنهم من درّس الطلبة أول النهار وآخره كالشيخ أحمد بن علي بن عمر الحميري اليمني[٢]، وكان الشيخ العفيف الدلاصي[٣] يدرّس الطلبة في أول النهار، وذُكر أنه كان يطوف كل يوم في الضحى بعد انتهاء قراءة طلبته عليه[٤].

---

(١) حجة وقف السلطان الأشرف قانصوه الغوري، المؤرخة في ٢٦محرم سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، رقم الوثيقة (٨٨٢ق) وزارة الأوقاف.

(٢) ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٤٨٠؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٢/ ٢٨-٢٩.

(٣) عبدالله بن عبدالحق بن عبدالله المخزومي المصري، أبو محمد، عفيف الدين الدلاصي، مقرئ مكة، ولد عام ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م، كان يطوف كل يوم أسبوعًا في الضحى بعد فراغ الطلبة، كان من ذوي الكرامات العديدات والمناقب الحميدات توفي عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م بمكة ودفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٣٧٦.

(٤) اليافعي: أبو محمد عبدالله بن أسعد، مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، ط٢، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ٤/ ٢٦٥؛ الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٣٧٧؛ انظر أيضًا السالمي: الحياة الدينية في مكة المكرمة، ص٢٢٨.

مشيخة القراء والقراءات بالمسجد الحرام:

لقد تولى مشيخة القراء والقراءات بالمسجد الحرام عدد كبير من المشايخ، والذين كان لهم أثرٌ بارز في إقراء الناس لكتاب الله الكريم وتعليمهم، ومن الذين تولوا هذه المشيخة عمر بن محمد بن محمد الحموي النجار (ت٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)[١]، وأحمد بن يوسف بن حسين الحصنكيفي ويُعرف بابن المحتسب (ت٨٥٥هـ/ ١٤٥١م)[٢]، وقد اختُص علماء هذه المشيخة بالتدريس والإقراء في المسجد الحرام، بل قد تولاها أكثرهم معرفة بالقراءات، هذا، وقد اشتهرت مشيخة أخرى لقراء آخرين أُطلق عليها «مشيخة المقرئين في المحافل»[٣]، واختص مقرئوها بالقراءة في المحافل سواء داخل المسجد الحرام أوخارجه، ومن أهم ما تميز به هؤلاء المقرئون عذوبة الصوت، ومن أهم من تولى مشيختها أحمد بن يوسف الحصنكيفي - السابق الذكر- وابن أخيه محمد بن أبي عبدالله محمد بن يوسف بن حسين الحصنكيفي، حيث باشر التأذين بالمسجد الحرام ومشيخة القراء به وبالمحافل (ت٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م)[٤]،

---

(١) عمر بن محمد بن محمد بن عبدالله العيني الحموي النجار، نزيل مكة، ولد بحماة عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، أقرأ الناس بالمسجد الحرام وربما أم بمقام الحنابلة نيابة، وتكسب من النجارة ومن نقش القبور، توفي عام ٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م. السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ١٢٤.

(٢) أحمد بن يوسف بن حسين بن يوسف الحسني الحصنكيفي المكي المقرئ بالحرم الشهير بابن المحتسب، ولد عام ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م بمكة ونشأ بها، ناب في الحسبة بمكة عن القاضي النويري، كان يؤذن بالمسجد الحرام، وصف بشيخ المقرئين بالمسجد الحرام، مات عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م بمكة. ابن فهد: معجم الشيوخ، ص٩٩.

(٣) يقصد بها الموالد والأعراس التي ينشد فيها المداحون المدائح، يقال: حفل القوم في المجلس حفلًا من باب ضرب: اجتمعوا، واحتفلوا كذلك، واسم الموضع محفل والجمع محافل. الفيومي: المصباح المنير، ص٥٥.

(٤) محمد بن أبي عبدالله محمد بن يوسف الحصنكيفي الأصل المكي، ولد عام ٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م باشر التأذين بالمسجد الحرام ومشيخة القراء به وبالمحافل، ثم رغب عن وظيفة الأذان واستمر على المشيخة حتى مات عام ٨٩٣هـ/ ١٤٨٧م. السخاوي: الضوء اللامع، ١٠/ ٢٩.

ولـم يرد ما يؤيد أن قراء هذه المشـيخة كانوا يدرسـون الطلبة بالمسـجد الحرام، بل كان دافعهم من ذلك هو الكسـب المادي والمبالغ التـي يحصلون عليها نظير قراءتهم وإنشادهم.

هذا، وقد أثر المجاورون تأثيراً بارزًا في تدريس القرآن الكريم بالمسـجد الحرام خلال مدة مجاورتهم بمكة المكرمة[١].

وقد اشـتهر بعض المقرئين بعلـم التجويد، فدرس علـى أيديهم عدد من طلبة العلم واستفادوا منهم[٢].

والجديـر بالذكر أن كثيرًا من المقرئين العلمـاء بالقراءات يعطون طلابهم الذين قرؤوا علـى أيديهم وبرعوا في العلوم وأتقنوها إجـازات تدل على نبوغهم في علمهم، بل تؤهلهم وتجيزهـم لتدريس هذا العلم[٣].

ومما لا يمكن تجاهله هو اختصاص بعض المشايخ بتعليم القرآن الكريم للعرب دون سـواهـم، وليس ذلك من باب التعصب للعرب إنمـا لصعوبة تعليم غير العـرب، وذلك لعدم تمكنهم من إخراج الحروف مـن مخارجها الأصلية[٤]. وخير ما نستشهد به في هذا المقام أن شـيخًا من أهل الهند قدم إلى مكة واجتمع بالعفيـف الدلاصي، مقـرئ الحرم، ليقـرأ عليه، فاعتـذر له بأنه لا يقـرئ العجم؛ لكونهم لا يخرجون الحروف من مخارجها[٥].

وكان بعـض طلبة العلم يقـرأ القرآن على أكثر من شـيخ، وهـذا ما يمكِّن الطالب من القراءة والتجويد ويعطيه معرفة واسعة بالقراءات[٦].

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ٢٩٥.
(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ٢/ ١٠٨.
(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ٢٣٦، ٣١٢؛ ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ١٦٠، ٤٧٩.
(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٩٣؛ السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص٢٢٦.
(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٩٣.
(٦) السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ١٤٣.

وقد اختص بعض مشايخ القراءات بمكان معين ومحدد في المسجد الحرام، وكان يأخذ موافقة أمراء مكة وقضاتها حتى يضمن عدم منافسة أحد على الجلوس بالمكان الذي خصصه له[١].

ورغم اختصاص المقرئين بالإقراء في المسجد الحرام، إلا أننا نجد أن بعضهم قد جمع إلى وظيفة المقرئ وظائف أخرى من أهمها:

١ - الإمامة في المسجد الحرام.

٢ - التدريس بالمسجد الحرام[٢].

٣ - الإقراء.

٤ - فقيه[٣].

تأثير القراء على الحياة العلمية والثقافية:

منذ انتقال سيدنا محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقراء كتاب الله الكريم يعلمون تلاوته في الحرمين الشريفين لطلاب العلم وغيرهم، وقد حظي هذا العلم بالاهتمام والعناية من قبل علماء الحجاز ومجاوريه، فقد كان للقراء والوعاظ[٤] بالحرمين الشريفين أثر مهمٌ وبارز في الحياة العلمية والثقافية، وهذا ما وضحه ابن جبير في رحلته، حيث ذكر أن

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٠٣؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ٤/ ٨٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ١٩، ١٠/ ١٢٠.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٧١-٢٧٢، ٤/ ٢٧١.

(٣) المصدر السابق، ٢/ ٣٠١، ٤/ ٢٧١، ٧/ ٤٨٨.

(٤) الواعظ: هو من يرشد الناس ويوجههم بالقول إلى الخير وعمل الصالحات، ويزاول الوعاظ مهماتهم عادة في المساجد والمدارس والمجالس العامة والخاصة، وتُعَدُّ وظيفة الواعظ من الوظائف الدينية وعليه ما على الخطيب غير أن الخطيب يلتزم بتوقيت محدد للوعظ وهو في خطبة العيدين والجمعة، في حين يعظ الواعظ في أي وقت شاء أو كلما دعت الحاجة إلى ذلك. السبكي: معيد النعم، ص١١٣؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٣/ ١٣٠٢.

القـراء والوعــاظ كان لهـم دور عظيـم فـي التأثير على سـامعيهم ســواء في الحرم المكـي أو المدني، فكانت الأسـئلة تنهـال عليهم للاستفسـار والتفقه، وخصوصـاً في موسـم الحـج، وكانـوا يشـبعون نهـم السـائل ويجيبـون عليه إجابات سـريعة وبليغة[١].

وقد غصـت المصادر التاريخيـة بتراجـم الكثيرين من القـراء والوعاظ في المسجد الحرام[٢]، ومما ساعد على نشاط هذا العلم بشكل كبير هو أن المجاورين كانوا يتلون القرآن الكريم في أثناء جلوسهم في المسجد الحرام، أو يستمعون إلى أحد المقرئين بعد تأديته لفريضة الصلاة، أضف إلـى ذلك براعة المقرئين وحلاوة تلاوتهم وهذا جعل بعض الناس وطلبة العلم يأخذون هذا العلم بعد استماعهم له من المقرئين، خصوصاً وأنه كان منتشـرًا في أطراف المسـجد الحرام، ومما ساعد أيضًا على نشـاط هذا العلم تدريسه في المسـجد الحرام، وحرص طلبة العلم على تعلمـه والأخذ به، ومن الأهمية بمكان القول أنه مما سـاعد على نشـاط هذا العلم أن أكثر المقرئين لم يكونـوا يتقاضون أجرًا نظير إقرائهم، كمـا أن طبيعة هذا العلم وإلقائه في الحرمين جعله متاحًا للجميع للإفادة والاستفادة.

هذا، وقد احتلت الشـاطبية[٣] والقراءات السـبع، والقراءات العشر[٤]،

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٥٩-١٦٠؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٣١.

(٢) الفاسـي: العقد الثميـن، ٢/ ٢٧١، ٦/ ٣١٢؛ ابن فهد: الدر الكميـن، ١/ ٢٥، ١٠١، ٢/ ٧٩٨، ١١٩٥؛ معجم الشيوخ، ص١٢٦.

(٣) الشـاطبية: اسـمها «حرز الأماني ووجه التهاني» قصيدة فـي القراءات السـبع، نظمهـا الإمام الشـاطبي أبو محمـد القاسـم بن فيره بـن خلـف، ولـد عـام (٥٣٨هـ/ ١١٤٣م)، وتوفي عام ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م. ابن الجزري: شمس الدين أبو الخير محمد، غاية النهاية في طبقات القراء، ط١، دار الكتـب العلمية - بيـروت، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م، ٢/ ٢٠-٢٣؛ انظر أيضًـا الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٣٢.

(٤) القراءات السـبع تنسـب إلى نافع بن عبدالرحمن بن أبي نعيم، وعبدالله بـن كثير بن المطلب، وأبـي عمرو بـن العـلاء، وعبدالله بـن عامـر، وعاصم بـن بهدلة بـن أبي النجـود وحمزة بـن =

مكانًا مهماً وكبيرًا عند دارسي هذا العلم ومدرسيه، وقد ساعد على نشاط هذا العلم قدوم أشهر علماء علم القراءات إلى مكة المكرمة، وهو محمد بن محمد الجزري (ت٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)[١]، فقد حضر الطلبة دروسه في المسجد الحرام، وأقبلوا عليه بشكل كبير، وذلك للاستفادة منه ومن علمه النافع[٢].

رواتب المقرئين:

حددت وثيقة الأشرف شعبان لقراء القرآن الكريم الستة مبلغ ألف وثمانمئة درهم نقرة سنويًا بواقع خمسة وعشرين درهم شهريًا، في حين خصصت لقارئ الحديث النبوي بالمسجد الحرام مبلغ ثلاثمئة وستين درهمًا، بواقع ثلاثين درهمًا في الشهر، وبذلك يكون راتب قارئ الحديث أعلى من راتب قارئ القرآن، خصوصاً إذا عرفنا أنه كان يجلس كل يوم جمعة بعد صلاة العصر، في حين يجلس قراء القرآن الكريم مرتين كل يوم بعد صلاة الصبح وبعد صلاة العصر[٣].

كما قررت حجة وقف شاهين بن عبدالله الحسني لرجل عالم بالقراءات

= حبيب بن عمار بن إسماعيل، وأبي الحسن الكسائي والعشرة يكملهم أبو محمد يعقوب بن إسحاق، وأبو جعفر بن يزيد بن القعقاع، وأبو محمد خلف بن هشام. زاده: طاش كبري، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ٢/ ٢٤، ٤٠.

(١) محمد بن محمد بن محمد بن علي الدمشقي الشافعي المقرئ ويعرف بابن الجزري، ولد عام ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م جاور بمكة وحدث فيها، له تصانيف مفيدة كالنشر في القراءات العشر والتمهيد في التجويد وغيرها، حضر الطلبة دروسه في المسجد الحرام وأقبلوا عليه بشكل كبير وذلك للاستفادة بعلمه، توفي عام ٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م. السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ٢٥٥.

(٢) ابن الجزري: غاية النهاية، ٢/ ٢٥٠-٢٥١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ٢٥٥.

(٣) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٣-٩٤.

السبع حافظٍ لكتاب الله يدرس ويلقن كل يوم من أيام الأسبوع فنون علمه مبلغ مائتي درهم نقرة فضة سنويًا[١].

وقررت حجة وقف السلطان برسباي، لقارئ الحرم المكي مبلغ أربعة وعشرين دينارًا أشرفيًا سنويًا[٢].

أضف إلى ذلك ما يصل إلى موظفي الحرم المكي من صدقات وهبات من جميع أصقاع البلاد الإسلامية. فلا بد أن المقرئين كان لهم نصيبٌ مما يصل إلى الموظفين من أمراء البلاد الإسلامية وحكامها، وذلك لأهمية وظيفة المقرئ وتعليمه لطلاب العلم كتاب الله الكريم وسنة نبيه محمد ﷺ.

ومن الأهمية بمكان، ومما لا يمكن تجاهله القول إن أكثر قراء القرآن الكريم كانوا لا يأخذون أجرًا مقابل تعليمهم؛ وذلك لأنهم عَدُّوا إقراءهم القرآن تطوعًا واحتسابًا للأجر والمثوبة من عند الله تعالى، ومنهم الشيخ عفيف الدين الدلاصي، مقرئ مكة، حيث إنه أقرأ القرآن أكثر من ستين سنة بغير أجر[٣].

كما عمل بعضهم الآخر في صنعة أخرى؛ ليقتات منها وجعل تعليمه للقرآن خالصًا لوجه الله تعالى كالشيخ عمر بن محمد بن عبدالله العيني الحموي النجار (ت٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م)، حيث عمل بصنعة النجارة ونقش شواهد القبور[٤].

---

(١) حجة وقف شاهين بن عبدالله الحسني، رقم (٦٢)، دار الوثائق القومية.

(٢) حجة وقف السلطان الأشرف برسباي، مؤرخة في ١٦ جمادى الآخرة سنة ٨٢٧هـ رقم الوثيقة (٨٨٠ق) أوقاف.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٣٦٧.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ١٢٤؛ انظر أيضًا السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص٢٢٩.

الفصل الرابع

الوظائف الخدمية

المبحث الأول: السقاية.

المبحث الثاني: الوقاد.

المبحث الثالث: الفراش.

المبحث الرابع: البواب.

المبحث الخامس: خدام الحرم وأغواته.

المبحث الأول

السقاية

في اللغة:

مأخوذة من الفعل سقى. وسقاه وأسقاه جعل له ماء أو سقيا، والسقي الحظ من الشرب، والسقاية الموضع الذي يُتخذ فيه الشراب في المواسم وغيرها[١].

في الاصطلاح:

هي حياض من أدم كانت على عهد قصي تُوضع بفناء الكعبة، ويُسقى منها الماء العذب حيث تحمله الإبل من الآبار، ويسقاه الحجاج، وكان يُحلّى بشيء من التمر والزبيب فيشرب منه الناس إذا وردوا مكة[٢].

تاريخها في الجاهلية والإسلام:

السقاية وظيفة قديمة، وهي من الوظائف التي وزعها قصي بين أولاده فكانت من ضمن الوظائف التي تولاها ابنه عبد مناف، حيث كان يسقي الناس

---

(١) ابن عباد: المحيط في اللغة، ٥/ ٤٧١-٤٧٢؛ ابن منظور: اللسان، ٣/ ٢٠٤٢-٢٠٤٣.

(٢) الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٤٩٣؛ ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ٨٧؛ انظر أيضًا العاملي: يوسف رغدا، معالم مكة والمدينة بين الماضي والحاضر، ط١، دار المرتضى - بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ص١٠٢.

من بئر كرآدم[١]. وبئر خم[٢]، على الإبل في المزاد والقرب ثم يسكب ذلك الماء في حياض من أدم بفناء الكعبة فيرده الحجاج، ثم تولاها من بعده ابنه هاشم، وظل يسقي حتى توفي، فقام بأمر السقاية بعده عبد المطلب بن هاشم الذي أعاد حفر بئر زمزم[٣]، فكان منها مشرب الحجاج، وبعد وفاة عبد المطلب بن هاشم تولى أمر السقاية ابنه أبو طالب، فاستدان من العباس عشرة آلاف درهم إلى الموسم الآخر فصرفها، وجاء الموسم ولم يكن معه شيء فطلب من أخيه العباس أربعة عشر ألفاً إلى الموسم المقبل، فاشترط عليه العباس إذا جاء الموسم ولم يقضه يترك له السقاية، فقبل وجاء الموسم ولم يقضه فترك له السقاية وهكذا أصبحت السقاية بيد العباس[٤].

وعندما فتح الرسول ﷺ مكة في السنة ٨هـ/ ٦٢٩م، قبض السقاية، من

---

(١) كرآدم: على يمين الذاهب إلى منى وليست على جادة الطريق، وممن عمرها الأمير شيخون الناصري في سنة ٧٥٨هـ-١٣٥٦م. الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٤٣.

(٢) بئر خم: بئر قريبة من المثيب حفرها مرة بن كعب بن لؤي، وكان الناس يأتون ظمأً في الجاهلية والإسلام في الدهر الأول يتنزهون به.
وخم اليوم شعبتان جنوب المسجد الحرام على قرابة خمسة أكيال إحداهما تدعى خمًا والأخرى خميمًا، تصبان من جبل سدير فتجتمعان فيكونان رأس بطحاء قريش التي تذهب إلى عرفة: وفيه مسك لماء المطر، يخرج إليه أهل مكة إذا أمطرت متنزهين، وعند اجتماع الشعبتين توجد بئر كان فيها الماء إلى عهد قريب ربما هي بئر خم المنسوبة إلى قدماء قريش. البلادي: عاتق بن غيث، معجم معالم الحجاز، ط١، دار مكة، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ٣/ ١٥٦-١٥٩.

(٣) بئر زمزم: نبع من الماء، نبع في عصر إبراهيم وابنه إسماعيل، وماء زمزم قلوي تكثر فيه الصودا والكلور والجير وحامض الكبريتيك وحامض الأزوينك، وهذا يجعله أشبه بالمياه المعدنية. الأزرقي: تاريخ مكة، ١/ ٦.

(٤) الأزرقي: أخبار مكة، ١/ ١٠٩-١١٥؛ ابن كثير: البداية والنهاية، ٢/ ٢٠٧، ٢٤٧؛ الزمزمي: خليفة بن أبي الفرج، نشر الآس في فضائل زمزم وسقاية العباس، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية - الجمهورية السورية، رقم ٥٩١٠، ميكروفيلم ٥٤٩٣، ورقة ٣٨ب.

العباس بن عبد المطلب والحجابة من عثمان بن طلحة، فقام العباس فبسط يده وقال: يا رسول الله بأبي أنت وأمي اجمع لنا الحجابة والسقاية. فقال رسول الله ﷺ: «أعطيكم ما تزرؤون فيه ولا تزرؤون منه»، فقام بين عضادتي باب الكعبة فقال: «ألا إن كل مأثرة كانت في الجاهلية من دم أو مال تذكر وتدعى تحت قدميّ إلا ما كان من سقاية الحاج وسدانة البيت»[(١)] فقبضها العباس فكانت في يده وفي أبنائه وعقبه من الخلفاء العباسيين من بعده[(٢)].

واستمرت هذه الوظيفة مع الخلفاء العباسيين إلى أن سقطت بغداد وانتقلت الخلافة العباسية إلى مصر[(٣)] فحالت أعمال الملك بين بني العباس وأمر السقاية، فعهدوا بها إلى أشخاص يقومون بالعمل نيابة عنهم وهم (آل الزبير)[(٤)] المتولون التوقيت في الحرم المكي، ثم طلب الزبيريون من الخلفاء العباسيين ترك السقاية لهم، فتركوها لهم بموجب منشور إلا أنه لكثرة الحجاج قد أشرك آل الزبير معهم آخرين في العمل عرفوا باسم «الزمازمة» نسبة لبئر زمزم ويُطلق عليهم أيضًا «السقائين»، ومهمتهم استخراج الماء من بئر زمزم وسكبه في أحواض قرب البئر للغسيل وليشرب منها الناس ويتوضأ منها المصلون[(٥)].

---

(١) أبو داود: سنن أبي داود، ٤/ ٧١٢.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ١/ ١١٠-١١٥، العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٠؛ عبيد: فيصل محمد، زمزم والزمازمة، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤١٥هـ، ص٦١؛ الصاوي: أمينة، الكعبة المعظمة، مكتبة الخانجي - القاهرة، د. ت، ص٢٣٧-٢٤٠.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ١/ ٨٦.

(٤) آل الزبير يعرفون اليوم بـ«بيت الريس»، ولقب الريس نسبة إلى رئاسة الوقت. الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ٩٩؛ الكردي: التاريخ القويم لمكة، م١، ٢/ ٥٣٠. ولمزيد من التفصيل انظر الفصل الخامس، المبحث الثاني: ظهور بيوت تسمت بأسماء الوظائف، ص ٣٧٣.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ١٥٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ١٠/ ٥١؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٤؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٦/ ٢٥٥، ٧/ ٩٨؛ عبيد: زمزم والزمازمة، ص٦٣؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص٣٥.

وأول ما ذُكر في المصادر التاريخية عن هذه الوظيفة في العصر المملوكي يعود إلى عام ٧٣٠هـ/ ١٢٣٢م، حيث ذُكر أنه في هذا العام قدم إلى مكة المكرمة علي بن محمد البيضاوي[(١)]، والذي عُرف فيما بعد بالزمزمي، وعمل عند الشيخ سالم بن ياقوت المؤذن في بئر زمزم، حيث أُعجب بمهارته فنزل له عن السقاية وزوَّجه ابنته، فأنجب منها الأبناء الذكور الذين تولوا أمر بئر زمزم وسقاية العباس من بعده[(٢)].

وكان للزمازمة رئيس يُطلق عليه «شيخ الزمازمة» تنحصر مهمته في الإشراف على أعمالهم وتوزيع العمل فيما بينهم[(٣)]، وعادة يتولى مشيخة الزمازمة شخص سبق له العمل في هذه الوظيفة مدة طويلة، فعرف مهماتها. وتكاد تنحصر هذه الوظيفة في الأسر التي عمل معظم أبنائها بهذه الوظيفة كأسرة «الزمزمي» لذلك نرى أنهم يتوارثون العمل بها ويتوارثون مشيختها جيلًا بعد جيل[(٤)].

سقاية العباس، أصلها وصفتها:

كان أصل السقاية حياضاً من أدم توضع على عهد قصي بفناء الكعبة المشرفة، فيرد الحاج حتى يتفرقوا، فكان يستعذب ذلك الماء[(٥)].

---

(١) هو علي بن محمد بن داود البيضاوي المعروف بالزمزمي، نزيل مكة، خدم عند الشيخ سالم بن ياقوت المؤذن في بئر زمزم فلما بلغ له خبره نزل له عنها وزوجه بابنته فوُلد له منها الأبناء الذكور، وصار لهم أمر البئر وكان معه أيضًا سقاية العباس، توفي عام ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م، بمكة ودُفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٢٩٥-٢٩٦.

(٢) المصدر السابق، ٥/ ٢٩٥-٢٩٦؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٤.

(٣) ابن الضياء القرشي: أحوال مكة، ١/ ٧٠-٧٤؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٨٢-٥٨٣؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨١.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٨٢-٥٨٣؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨١.

(٥) الطبري: القرى لقاصد أم القرى، ص٤٩٣؛ ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ٨٧.

أما صفتها فقد ذكرها الفاسي في كتابه شفاء الغرام بكلام هذا نصه: «بيت مربع في أعلاه قبة كبيرة ساترة لجميعه، والقبة من آجر معقود بالنورة، وفي أسفل جدرانها خلا الجنوبي شبابيك حديد تشرف على المسجد الحرام في كل جهة شباكان من حديد، وفي جانبها الشمالي من خارجها حوض من رخام، وباب السقاية بينهما، وفي هذا البيت بركة كبيرة تُملأ من بئر زمزم يسكب الماء من البئر في خشبة طويلة على صفة الميزاب متصلة بالجدر الشرقي من حجرة زمزم، ويجرى الماء منها إلى الجدار المشار إليه، ثم إلى قناة تحت الأرض حتى يخرج إلى البركة من فوّارة في وسطها»[١].

وآخر وقت عُمّرت فيه السقاية كان في عام ٨٠٧هـ/ ١٤٠٤م، والسبب في عمارتها هو سقوط القبة الموجودة عليها[٢] وكانت من عمل الجواد[٣].

وفي ليلة الخامس عشر من شهر شعبان يتجمع السقاة حول بئر زمزم من أجل استخراج الماء منه بكثرة، ثم نثره على رؤوس الناس المزدحمين حوله، وذلك اعتقاد من عامة أهالي مكة أن ماء بئر زمزم يزيد في هذه الليلة سبعة أذرع عما سواها من الليالي[٤]، مع العلم أن هذه من الأمور الخرافية التي انتشرت بين الناس في ذلك العصر.

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤١٦؛ انظر أيضًا ابن الضياء القرشي: أحوال مكة، ١/ ٢٠٩؛ باشا: مرآة الحرمين، ١/ ٢٥٩.

(٢) ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ٢٠٩؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٤٣؛ الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة، ٢/ ١٥١٠-١٥١١.

(٣) هو محمد بن علي أبو منصور الأصبهاني الوزير جمال الدين أبو جعفر المعروف بالجواد، لجوده، له من المآثر الحسنة بمكة، وزير الموصل، وكانت الموصل في أيامه ملجأ لكل ملهوف، توفى عام ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م. الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٠٨؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٥٢٧.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص١١٨-١١٩؛ الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤١٢.

ويوجد على بئر زمزم بناء فيه قبة، جُعل داخل سقاية سعتها وعمقها نحو شبرين وارتفاعها عن الأرض خمسة أشبار، وتُسمى هذه القبة «قبة زمزم» وعادة تُملأ ماءً للوضوء، كما يوجد حولها مصطبة دائرة يرتفع إليها الناس ويتوضؤون عليها(١).

وكان بيت زمزم لا يُغلق بل يبقى مفتوحًا، والسبب في ذلك أنه لا باب له، ولكن لما صار الأمر إلى الشيخ عبدالسلام بن أبي بكر الزمزمي، طلب من خليفة ذلك الزمن العباسي(٢) جعل باب لبيت زمزم، لأن زمزم في أوقات الصلاة تكثر فيها الناس والازدحام فيشوشون على الإمام والمصلين، إضافة إلى دخول بعض الحيوانات كالكلاب، وغيرها ليلًا، والقصد وضع باب يمنع كل ذلك، فأجاب الخليفة، وجعل عليه بابًا، وذلك في عام ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م(٣).

ولما آل أمر زمزم أو سقاية العباس إلى ذرية الشيخ عبدالعزيز بن عبدالسلام، طلبوا من خليفة زمنهم وهو المتوكل العباسي(٤) أن يجعلوا على باب زمزم ضبة(٥) تُغلق في أوقات الصلاة وفي الليل، على أن يكون المفتاح عند

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٦٦؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٣٢.

(٢) هو أحمد بن سليمان بن أحمد بن أبي بكر العباسي أبو القاسم، أمير المؤمنين الحاكم بن المستكفي، استقر في الخلافة عام ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م، إلى أن مات في الطاعون عام ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م، وكان يلقب أولًا المستنصر. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ١/ ١٤٦-١٤٧.

(٣) الزمزمي: نشر الآس في فضائل زمزم وسقاية العباس، ورقة ٤٠ب.

(٤) هو داود بن محمد بن أبي بكر بن سليمان أحمد بن حسن أمير المؤمنين المعتضد بالله أبو الفتح المتوكل على الله أبو عبدالله بن المعتضد بالله العباسي المصري، بويع له بالخلافة بعد القبض على أخيه المستعين بالله العباسي عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م، واستمر إلى أن توفي عام ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م، فكانت مدة خلافته ٢٩ سنة وأيامًا. السخاوي: التبر المسبوك، ص ٢٥-٢٦.

(٥) ضبة: حديدة عريضة يُضبب بها الباب والخشب، والجمع ضباب. ابن منظور: اللسان، ٤/ ٢٥٤٤.

الأكبر منهم ثم من ذريتهم، فأجابهم لذلك، وأصدر مرسومًا شريفًا يقتضى ذلك الأمر في عام ٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م[١].

قبة الشراب:

قبة الشراب أو القبة الشرابية، وسبب تسميتها بذلك لأنها كانت سقاية الحاج، كما يُطلق عليها القبة العباسية نسبة إلى العباس ﵁، وعادة يُبرّد فيها ماء زمزم ويخرج في آخر النهار؛ ليسقى الحاج في قلال تُسمى الدوارق كل دورق منها ذو مقبض واحد[٢]، وتترك بها ليبرد فيها الماء فيشربه الناس، وقبة الشراب تلي قبة زمزم، وبابها جهة الشمال[٣].

ويوجد في هذه القبة خزانة تحتوى على تابوت مبسوط متسع وفيه مصحف عثمان بن عفان ﵁ كُتب بخط زيد بن ثابت[٤].

أما المكان الذي فيه زمزم، فإنه بيت مربع، وفي جدرانه تسعة أحواض للماء تُملأ من زمزم، فيتوضأ منها الناس سوى حوض واحد منها لكونه معطلا[٥]، وبجانب هذا البيت خلوة فيها بركة تُملأ من ماء زمزم ليشرب منها الداخل إلى الخلوة، وكان بابها إلى جهة الصفا، ثم سُدّ وجُعل في موضع الخلوة

(١) الزمزمي: نشر الآس في فضائل زمزم وسقاية العباس، ورقة ٤٠ب، ٤١ أ.
(٢) انظر الرسم رقم (٩) صورة الدوارق التي يوضع فيها ماء زمزم.
(٣) المقدسي: أبو عبدالله محمد، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٢، مطبعة ليدن، ١٩٠٩م، ص٧٢؛ ابن جبير: الرحلة، ص٦٦؛ التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٣٢٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٥٩.
(٤) ابن جبير: الرحلة، ص٦٦؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٥٩، ويخرج هذا المصحف في حالة القحط، يُعَدُّ ذلك من البدع، ولمزيد من التفصيل انظر الفصل الخامس، المبحث الرابع: جهود العلماء في التأثير في المجتمع المكي ومحاربة البدع، ص٤٣٠.
(٥) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٠٠؛ العقد الثمين، ١/ ٢٥٧.

بركة مَقْبُوَّة[١]، وفي جدارها الذي يلي الصفا بزابيز نحاس يتوضأ منها الناس على أحجار نُصبت عند البزابيز[٢].

مراسم التعيين:

لأهمية هذه الوظيفة ومكانتها كان يصدر قرار تعيين متوليها من قبل الخليفة العباسي في مصر[٣]، وعادة يتولى هذه الوظيفة أحد أبناء أسرة الزمزمي[٤]، وقد حدث بين أفراد هذه الأسرة تنافس وصراع حول المنصب، وهذا حدا ببعضهم للسعي في المشاركة عن طريق الخليفة العباسي المقيم في القاهرة[٥]؛ وذلك لكونه وريث عمل جده العباس بن عبد المطلب، وقد اتصف عدد من أبناء هذه الأسرة بالعلم الوافر والتقوى والزهد؛ وذلك بحكم عملهم بالحرم المكي الذي يُعَدُّ أكبر جامعة إسلامية نهل منها كثيرٌ من الأشخاص، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ إسماعيل بن علي بن محمد البيضاوي الزمزمي[٦]، وكان من محدثي الحرم وتوفي عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م[٧]، وأخاه

---

(١) مَقْبُوَّة: أي مرفوعة ولا يقال: مقبوبة من القبة، ولكن يقال مقببة. ابن منظور: اللسان، ٥/ ١٩٦.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٠٣؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٤٣.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٥٧؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨١.

(٤) تنسب هذه الأسرة إلى الشيخ علي بن محمد بن داود البيضاوي، المعروف بالزمزمي، وأصل هذه الأسرة ينسب إلى بيضاء وهي بلدة من بلاد فارس وينسب إليها جماعة كثيرة. السمعاني: أبو سعد عبدالكريم بن محمد، الأنساب، تحقيق عبدالرحمن اليماني، ط٢، بيروت – لبنان، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ٢/ ٣٦٨؛ الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٢٩٥.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٥٧.

(٦) إسماعيل بن علي بن محمد بن داود البيضاوي ثم المكي الزمزمي الشافعي المؤذن، ولد عام ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م بمكة، كان ملازمًا لخدمة قبة العباس، وله سماع من قدماء المكيين، كان أبوه على سقاية العباس، فاستمر هو وإِخوته بها، توفي عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م بمكة ودفن بالحجون. السخاوي: الضوء اللامع، ٢/ ٣٠٢.

(٧) ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٦٢٧.

الشيخ إبراهيم بن علي بن محمد البيضاوي الزمزمي[١]، وعادة يتبع القائم بأمر السقاية عددٌ من السقائين الذين تتضمن مهنتهم سقيا الناس في المسجد الحرام وفي أثناء الطواف، وقد زخرت المصادر التاريخية بتراجم كثيرٍ من السقائين في المسجد الحرام، من أهمها الدر الكمين لمؤلفه عمر بن فهد[٢]، وكتاب الضوء اللامع لمؤلفه السخاوي[٣]، إضافة إلى بلوغ القرى لصاحبه العز بن فهد[٤].

وإضافةً إلى تولي الزمازمة لعمل السقاية في المسجد الحرام، إلا أننا نرى أن بعضهم كان يجمع إضافة إلى وظيفة السقاية بعض الوظائف الأخرى كوظيفة الأذان[٥].

ففي عام ٨٩٤هـ/ ١٤٨٨م، مُنع رئيس المؤذنين أبو عبدالله وولده من مباشرة الأذان، وأُمر الزمازمة بالأذان[٦].

ولأهمية السقاية وأهمية متوليها ومكانته في المجتمع المكي، كان كثيرًا ما يحدث نزاع على وظيفة مشيخة السقاية، ويكون النزاع والتنافس عادة بين أفراد الأسرة الواحدة، ولذلك أصبحت من التنظيمات المتبعة أن تكون تولية الوظيفة مناصفة، وذلك لسد باب الخصومات وفض النزاع[٧].

---

(١) هو إبراهيم بن علي بن محمد بن داود بن شمس المكي الشافعي، ويُعرف بالزمزمي نسبة إلى بئر زمزم، ولد عام ٧٧٧هـ/ ١٣٧٥م، سمع على عدد من العلماء، وبرع في عدد من العلوم من أهمها علم الميقات والفرائض والحساب والجبر والمقابلة وألف فيها الكتب، كان على درجة كبيرة من العلم، درّس وحدّث في المسجد الحرام، توفي عام ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م. ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٦٠٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ١/ ٨٦.

(٢) ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٤٠٥، ٦٠٢، ٢/ ٨٧٦، ٩٣٦، ١٢٢٥، ١٣٢١.

(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ٥/ ٧١، ٨/ ١٢١، ١٠/ ٥١، ١١/ ٦١.

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٤.

(٥) ابن العماد: شذرات الذهب، ٦/ ٢٥٥-٢٥٦.

(٦) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٢.

(٧) المصدر السابق، ٢/ ٨١-٨٢.

أضف إلـى ذلك النـزاع الذي يحصـل بين الأسـر المتولية هـذه الوظيفة، فلكثرة الأسـر التي تعمل في هذه الوظيفة كان يحصل نـزاع وخصومات وتنافس بين هذه الأسر من أجل تولي المشـيخة، وعادة تُحل هذه النزاعات بالوصول إلى حل يرضي المتنازعين، وهو أن تتقاسم الأسرتان مناصفة وظيفة المشيخة(١).

رواتب السـقائين:

رتبت وثيقة الأشرف شـعبان اثنين من السقائين يسقيان الماء في المسجد الحرام وعملـت على توزيع العمـل فيما بينهمـا، فأحدهما يعمل فـي النهار، في حين يعمل الآخر في الليل.

وحددت مـكان عملهمـا فيما بيـن المقـام الشـريف، والكعبة المشـرفة، ويقومـان بسـقيا الطائفين بالكعبـة وغيرهم، وقـررت لهما عن ثمن المـاء وأجرة الماعـون وأجرتهما مبلـغ ألف وخمسـمئة درهـم سـنويًا، أي ما يعادل سـبعمئة وخمسين درهمًا لكل سقاء منهما(٢).

كما رتبـت الوثيقة لمن يسـقي الماء طـوال النهـار بمكة المكرمـة، مبلغًا وقدره سـتمئة درهـم سـنويًا، بواقع خمسـين درهمًا شـهريًا، ويكون هـذا المبلغ مقابل ثمن الماء العذب والماعون وأجرة تسبيله على الناس كافةً(٣).

كمـا عينـت الوثيقة سـقاء لبئـر زمزم يسـقي منهـا المـاء لجميـع الناس، وحددت له مبلغ ثلاثمئة وستين درهمًا سنويًا، أي ما يعادل ثلاثين درهمًا شهريًا، كما حددت ما يُصرف له على مصالح البئر كثمن دلاء وسلب وبَكَر وغيرها مبلغ

---

(١) ابـن فهـد: إتحـاف الـورى، ٤/ ٥٨٢-٥٨٣، لمزيد مـن التفصيل حول هـذا الموضـوع، انظر الفصل الخامس، المبحث الثالث: مكانة الوظيفة الدينية في المجتمع المكي، ٤٠٠-٤٠٢.

(٢) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٤.

مئتي درهم سنويًا، وبذلك يصبح مجموع ما خُصص لبئر زمزم وسقائها خمسمئة وستين درهمًا سنويًا، وهكذا يصبح أجر سقاء الحرم أكبر من أجر سقاء بئر زمزم[١].

ولكثرة أعداد المترددين على المسجد الحرام، خُصِّصَ سُقاة عند بئر زمزم، وسقاة للحرم بين المقام والكعبة، وسقاة للطائفين حول الكعبة المشرفة[٢] - كما سبقت الإشارة إليه -.

كما حددت حجة وقف السلطان الغوري صرف عشرة دنانير أو ما يقوم مقامها من النقود في ثمن تسبيل عشرة دوارق وما يقيها من حر الشمس، ولمن يتولى ملأها من ماء زمزم أو غيرها من الآبار المباركة، والسيول، والعيون، ويسبل ذلك طوال السنة بعد تبريده في باب السلام على الخاص والعام في الحرم المكي الشريف[٣].

إضافة إلى هذا كله كانت تصل كثيرٌ من الصدقات والهدايا من جميع أنحاء البلاد الإسلامية إلى مكة المكرمة، وكان يحظى السقاؤون بنصيب من هذه الهدايا والصدقات مثلهم في ذلك مثل غيرهم من الموظفين في المسجد الحرام، ففي عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م، وصلت إلى مكة المكرمة صدقة العثمانيين، وأخذ منها الشريف والقضاة وأرباب الوظائف في الحرم المكي الشريف[٤].

وكانت هذه المنح من أموال الصدقة التي تُعطى للسقائين مقابل عملهم المهم في المسجد الحرام، أضف إلى ذلك أنه كان يُقرر لهم مبلغ من المال

---

(١) القحطاني، أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٤.
(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٤؛ القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٣.
(٣) حجة وقف السلطان الغوري، رقم (٨٨٢ق) أوقاف.
(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٢.

مقابل المواعين والأدوات المستخدمة في استخراج الماء من بئر زمزم وحمله ونقله[1].

ومما لا يمكن تجاهله أن متولي أمر السقاية كان لا يمنع الحجاج من دخول بئر زمزم وسقاية العباس مهما كثر عددهم، بل يترك لهم الحرية التامة في إخراج الماء من البئر والشرب من حوض السقاية[2]، وهذا ما يدل دلالة واضحة على أن السقاء لم يكن يأخذ أموالًا من الحجاج مقابل دخولهم بئر زمزم، بل كان هذا الأمر احتسابًا وطلبًا للأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى.

---

(١) العزيز بن فهد، بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٤.

(٢) العبدري: أبو عبدالله محمد بن محمد، الرحلة المغربية، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٨م، ص١٧٦؛ انظر أيضًا السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص٢٠٣.

المبحث الثاني

الوقاد

في اللغة:

يقال: وقدت النار وقدًا، وأوقدتها إيقادًا، والوقود بالفتح الحطب، والوَقَد محّركة النار واتقادها، كالوقد والوقود، والموقد موضع الوقود[1].

في الاصطلاح:

هو الذي يضع الزيت في القناديل التي بالمسجد الحرام ثم يشعلها؛ لتضيء جوانبه ليلا[2]. ومهمته وضع الزيت في القناديل الموجودة بالحرم المكي، وإيقاد المسارج والمشاعل في الطرق المؤدية إليه، كما أنه مسؤول عن صيانة المصابيح وتنظيفها، ومن ثم تموينها بالزيت وإشعالها وإطفاؤها[3].

وهكذا نستطيع أن نقول إنّ الوقاد هو متعهد الأتاريك، يُوَفِّر الزيت والشموع، كما يُعَدُّ مسؤولًا عن المصابيح والإضاءة وإعداد المصابيح في رمضان وموسم الحج، فيُعِدُّ قبل المساء الشموع والقناديل ويعبئها بالزيت اللازم حتى تكون جاهزة للإضاءة ليلًا.

---

(١) ابن منظور: اللسان، ٦/ ٤٨٨٨؛ الفيومي: المصباح المنير، ص٢٥٦؛ الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ١/ ٣٥٩.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٧/ ٤٢٥؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٤؛ الطبري: الأرج المسكي، ص١٨٨.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٦٤٨؛ القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٥؛ الدهاس: المدارس في مكة المكرمة، ص٣٥.

الشروط الواجب توافرها في الوقاد:

لأهمية وظيفة الوقاد، وأثره البارز في تهيئة القناديل والشموع للإضاءة، كان لزاما أن تنطبق عليه بعض الشروط، فلا بد أن يكون عارفًا بمقدار الزيت الذي تحتاج إليه القناديل إلى وقت طلوع القمر في الليالي التي يتأخر فيها طلوعه من أول الليل، أضف إلى ذلك أنه لا بد لمن يشغل هذه الوظيفة أن يكون ذا خبرة ودراية بعمله، ولا بد أن تكون الخبرة لمدة طويلة حيث نجد أن بعض الوقادين قضى في مهنته مدة طويلة قد تصل إلى نصف قرن وامتُدح بحسن أدائه ودقة عمله[١]، كما يجب أن يكون ثقة أمينًا قويًا قادرًا على العمل[٢].

وتمر عملية تسليم الشمع والزيت من مستودعات المسجد الحرام للوقاد بعدد من الموظفين، مهمتهم ضبط المقدار المصروف، ومحاسبة الوقاد، إذ كان لزامًا عليه إعادة ما تبقَّى من الشمع والزيت إلى المستودعات[٣].

وكان للوقادين شيخ مسؤول عنهم يُعرف بـ «شيخ الوقادين» مهمته الإشراف عليهم وتنظيمهم، ومن أهم من شغل هذا المنصب محمد الشهير بالشطوب بن يوسف بن غليظة (ت٨٩٠هـ/ ١٤٨٥م)[٤].

والجدير بالذكر أن هذه المشيخة لم تكن مخصصة ببيت واحد منذ قديم الزمان كغيرها من الوظائف، بل كانت المشيخة في عدد من البيوت، ولم يكن هناك بيت محدد اختص بهذه المشيخة[٥].

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٧/ ٤٢٥؛ الطاسان: الوظائف الدينية والإدارية، ص٣٠٩.
(٢) أمين: محمد محمد، الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر، ط١، دار النهضة العربية – القاهرة، ١٩٨٠م، ص١٩٤.
(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ١٣٤.
(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٤.
(٥) الطبري: الأرج المسكي، ص١٨٨.

تاريخها:

ينسب إلى عقبة بن الأزرق بن عمرو الغساني[١] حيث إنه أول من وضع المصابيح لأهل الطواف في المسجد الحرام، وكانت داره لاصقة بالمسجد الحرام من ناحية وجه الكعبة، والمسجد يومئذ ضيق ليس بين جدر المسجد والمقام إلا شيء يسير، فكان يضع عقبة على حرف داره وجدر داره وجدر المسجد مصباحًا كبيرًا يستصبح به، وبذلك يضيء وجه الكعبة والمقام وأعلى المسجد، ولم يزل يضع ذلك المصباح حتى جاء خالد بن عبدالله القسري[٢]، فوضع مصباح زمزم مقابل الركن الأسود في خلافة عبدالملك بن مروان ومنع وضع ذلك المصباح فرُفع، ولم يزل مصباح خالد القسري على عمود طويل مقابل الركن الأسود حتى قدم محمد بن سليمان[٣] على مكة في خلافة المأمون فوضع عمودًا طويلاً بحذاء الركن الغربي مقابلًا للعمود المقابل للركن الأسود الذي وضعه خالد القسري للاستصباح حول الكعبة، وكان ذلك في عام ٢١٦هـ/ ٨٣١م.

ولما ولي محمد بن داود[٤] جعل عمودين طويلين، أحدهما بحذاء الركن اليماني والآخر بحذاء الركن الشامي، فلما ولي هارون الواثق بالله أمر بعمد من

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ١/ ٢٨٦؛ الجزيري: الدرر الفرائد المنظمة، ٢/ ١٥١١، وعقبة بن الأزرق هو: عقبة بن الأزرق بن عمرو بن الحارث بن أبي شمر الغساني المكي. الأزرقي: أخبار مكة، ١/ ١٢، وفيما يبدو أن عقبة هذا هو جد أبي الوليد الأزرقي مؤلف أخبار مكة.

(٢) هو خالد بن عبدالله بن يزيد بن كرز بن عامر البجلي، يكني أبا القاسم وأبا الهيثم ويعرف بالقسري، أمير مكة والعراق، وهو أول من فرّق بين الرجال والنساء في الطواف، توفي عام ١٢٦هـ/ ٧٤٣م، وله ستون سنة. الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ١٣.

(٣) هو محمد بن سليمان بن عبدالله بن سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس العباسي، أمير مكة، توفي عام ١٧٣هـ-٧٨٩م. الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ١٧٧؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٢٨٨.

(٤) محمد بن داود بن عيسى بن موسى بن محمد الهاشمي العباسي، أمير مكة والمدينة، كان واليًا على مكة سنة ٢٢١هـ/ ٨٣٦م وحج بالناس فيها، ويقال: إن أول من خطب على المنبر – منبر =

شَبَهٍ (نحاس أصفر) طوال عشرة فجُعلت حول الطواف؛ ليستصبح عليها أهل الطواف، كما أمر بثماني ثريات كبار يستصبح فيها وتُعّلق في المسجد الحرام، في كل وجه اثنان[١].

وأول من استصبح بين الصفا والمروة، خالد بن عبدالله القسري في خلافة سليمان بن عبدالملك في الحج، في أول رجب[٢].

وأول من استصبح في المسجد الحرام في القناديل في الصحن محمد ابن أحمد المنصوري[٣]، حيث جعل عمدًا من خشب في وسط المسجد وجعل بينهما حبالًا، وجعل فيها قناديل يستصبح فيها.

واستمر ذلك إلى أن عُزل محمد بن أحمد، فعلقها من بعده عيسى بن محمد[٤] في إمارته. وأول من أجرى للمسجد الحرام زيتًا وقناديلَ، كما أجرى الزيت لقناديل المسجد من بيت المال[٥] هو معاوية بن أبي سفيان.

= مكة والمدينة – وجمع له ذلك في الولاية في خلافة بني هاشم: جعفر بن سليمان بن علي، ومن بعده داود بن عيسى، ثم ابنه محمد بن داود. الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ١٧٢.

(١) الأزرقي: تاريخ مكة، ١/ ٣٠١-٣٠٢؛ الفاسي: شفاء الغرام، ٢/ ١٨٥؛ ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ١٧١-١٧٢؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٢٨٨؛ باسلامه: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٢٤٧-٢٤٨.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ١/ ٣٠٢؛ ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ١٧٣.

(٣) هو محمد بن أحمد بن عيسى بن المنصور أبو جعفر عبدالله بن علي بن عبدالله بن عباس العباسي أمير مكة، حج بالناس سنين سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م، و٢٥٦هـ/ ٨٦٩م، وسنة ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م، ويعرف بكعب البقر، وولي الموسم سنة ٢٥١هـ/ ٨٦٥م، وذُكر أن المعتز العباسي أنفذه إلى مكة هو وعيسى المخزومي. الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٣٦٤-٣٦٥.

(٤) هو عيسى بن محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن عبدالحميد بن عبدالله بن أبي عمرو حفص بن المغيرة المخزومي، أمير مكة، وليها للمعتمد العباسي، كان واليًا على مكة في سنة ٢٥٣هـ/ ٨٦٧م، وفي ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م. المصدر السابق، ٥/ ٤٣٦.

(٥) الأزرقي: تاريخ مكة، ١/ ٣٠١؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٧٠؛ ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ١٧١؛ الأسدي: إخبار الكرام، ص١٦٥.

ويبلغ عدد قناديل المسجد الحرام ثلاثة وتسعين قنديلًا، منها أحد عشر قنديلًا في الجانب الشمالي، في حين يوجد في الجانب الشرقي سبعة قناديل، وفي الجانب الغربي سبعة أيضًا، أما الجانب الجنوبي فعدد قناديله ثمانية، وحول دائرة المطاف ثلاثون قنديلًا، وفي مقام إبراهيم أربعة قناديل، وفي كل مقام من المقامات الأربعة حول المطاف خمسة قناديل، وقنديل على باب شيبة[١]، من خارجه، وثلاثة قناديل بزيادة دار الندوة[٢]، في كل جانب منها قنديل، وقنديل واحد بداخل زيادة باب إبراهيم، ويزداد عدد القناديل في شهر رمضان، فيُزاد في كل سنة ثلاثون قنديلًا حول المطاف، وكذلك في المقامات الأربعة، كما يزداد عدد القناديل في مقام إبراهيم في بعض ليالي العشر الأخيرة من رمضان عند ختم المصلين، وذلك ليتمكن الناس من قراءة القرآن، ويزاد عدد القناديل في المسجد الحرام في أيام الموسم، وتكون الزيادة مثل التي كانت في رمضان، إضافة إلى زيادة عدة قناديل توضع في جوانب المسجد الحرام الأربعة حيث تُعلّق بسلاسل بالرواق الأوسط من كل جانب[٣].

ويقع الاحتفال في الحرم بقدوم شهر رمضان، ومن أهم مراسم الاحتفال بهذا الشهر الكريم، إيقاد الشمع وتكثيره حتى يتلألأ الحرم نورًا، ويسطع ضياءً، وأكثر ما يكون الاحتفال وتزداد الإضاءة في ليالي العشر الأخيرة من رمضان، وخصوصاً ليلة السابع والعشرين منه حيث توقد المشاعل والثريات، كما توقد المآذن من جهات المسجد الحرام الأربعة، ويوقد سطح المسجد الحرام، ومثلما

---

(١) يقع بالجانب الشرقي من المسجد الحرام، ويعرف بباب بني شيبة. الطبري: محمد بن علي، إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن، تحقيق ناصر البركاتي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة مانشستر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص١٠٢.

(٢) يقع بالجانب الشمالي من الحرم، طاق واحد ويُعرف بزيادة دار الندوة. المصدر السابق، ص١٠٤.

(٣) البلوي: تاج المفرق، ١/ ٣٠٦؛ الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٨٠-٣٨١؛ العقد الثمين، ١/ ٢٥٤.

يُفعل في شهر رمضان، يُفعل أيضًا في ليلة عيد الفطر، وليلة هلال شهر رجب، وليلة هلال شهر ربيع الأول، وهذا يؤدي إلى ازدحام شديد في المسجد الحرام من أجل سماع الخطب والمواعظ التي تُلقى عادة في مثل هذه الليالي إضافة إلى الاستمتاع بمنظر القناديل والشموع المضاءة والتي تكون مثل بدر ساطع متوهج في ليلة ظلماء، وكل ذلك يؤدي إلى التشويش على المصلين، كما يؤدي إلى أشنع الأفعال وأقبحها وهو الاختلاط بين الرجال والنساء، فمنع ذلك من قبل الأمير تغري برمش، وكان ذلك في عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م(١).

والجدير بالذكر أن المشاعل كانت توقد في الحرم ويوضع الشمع بين أيدي الأئمة الأربعة في محاريبهم، إلا أن المالكي كان أقلهم شمعًا وأضعفهم حالًا، وذلك لأن مذهبه غريب في هذه البلاد، وأن الجمهور على مذهب الشافعي وعليه علماء البلاد وفقهاؤها(٢).

وكانت هذه القناديل تُعلّق على أساطين(٣). ففي عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م، جعلت الأساطين التي حول المطاف وجُعل بعضها بالحجارة المنحوتة الدقيقة، في حين جُعل الباقي آجرًا مجصصاً، وجُعل بين كل من الأساطين خشبة ممددة راكبة عليها وعلى المقابلة لها؛ لأجل القناديل التي تُعلّق للاستضاءة حول الكعبة

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٢، ١٣٣؛ التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٤٦١-٤٦٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٨٤-١٨٥؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٢٧-٥٢٨، ولمزيد من التفصيل انظر بدعة الوقيد. الفصل الخامس، المبحث الرابع: جهود العلماء في التأثير على المجتمع المكي، ص٤٣١-٤٣٢.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٨٠.

(٣) الأساطين: مفردها أسطوانة، والأسطوانة العمود والسارية، والأسطوانة في الهندسة جسم صلب وطرفين متساويين على هيئة دائرتين متماثلتين تحصران سطحًا ملفوفًا بحيث يمكن متابعته بخط يتحرك موازيًا لنفسه وينتهي طرفاه في محيطي هاتين الدائرتين. الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٢٤.

عوضاً عن الأخشاب التي كانت على صفة الأساطين في هذا المكان[١]. وفي عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، اجتهد الأمير فارس الدين في إصلاح المسجد الحرام وجدد الأعمدة المتخذة حول المطاف[٢] إلا أنه في عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م، هبت ريح عاصفة ومطر شديد أدى إلى اقتلاع الأعمدة التي جددها الأمير فارس، فأدى إلى استبدالها عام ٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م، بأعمدة من نحاس حول المطاف توضع عليها أخشاب؛ لتعلق المصابيح عليها، حتى بلغ عدد تلك الأعمدة ثلاثين عمودًا، ثم غُيِّرت الأخشاب التي بين الأساطين بأعمدة من حديد، بحيث يكون بين كل عمودين سبعة قناديل[٣].

هذا، وقد استحب العلماء إنارة بيوت الله حيث يُقرأ فيها القرآن الكريم، ويكون ذلك بتعليق القناديل وبعض الشموع[٤].

بيت الوقادين:

كان بالمسجد الحرام مكان للوقادين لحفظ آلات الوقادة، ويقع هذا البيت خلف سقاية العباس، ويُطلق عليه «بيت الوقادين» توضع فيه آلات الوقادة كالعيدان التي ينزل بها القناديل ويسرج بها كالقصب المجوف الذي تُطفأ به المصابيح، كما يوجد به الزيت الذي يُحتاج إليه لوقيد الشهر، إضافة إلى القناديل والزجاج والحراريق التي توقد عادة على المقامات في أول محرم وليلة العشر منه، وليلة النصف من شعبان وليلة أوائل الشهر[٥].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٢٠٧.

(٢) المصدر السابق، ٢/ ٢٣٧.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٢٤٣؛ العوفي: محمد بن سالم، تطور عمارة وتوسعة المسجد الحرام حتى عهد خادم الحرمين الشريفين، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الإدارة العامة للثقافة والنشر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص٧٧.

(٤) ابن الضياء القرشي: أحوال مكة المشرفة، ١/ ٢٣٤.

(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٤؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٣٤؛ القطبي: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، ص١٤٤؛ الطبري: الأرج المسكي؛ ص١٧٧، ١٧٩.

وقد بُني لهذه الآلات محل آخر عند باب المسجد الذي تحت منارة علي، وجُعل ذلك المكان لبعض أنقاض المسجد كالحديد والخشب وآلات العمارة[١].

كما يوجد بالمسجد قبة تلي بئر زمزم، والغرض منها حفظ مصالح المسجد الحرام كالمصاحف والربعات الموقوفة وحفظ الفوانيس والشمع والشمعدانات النحاس[٢]، والمسارج النحاس والكراسي الخشب التي ترفع عليها الرباع[٣]، وما أشبه ذلك من الأشياء الموقوفة لمصالح المسجد الحرام[٤].

وكانت هذه الشموع توقد عادة في المقامات الأربعة في وقت العشاء إلى انتهاء صلاة الأئمة، ثم تُنقل إلى غرفة الأغوات الملاصقة لبيت زمزم من جهة الجنوب، ثم تضاء من الفجر إلى الإسفار[٥]، على ذلك المنوال، وكان القائمون بأمرها ومباشرتها أغوات الحرم المكي الشريف[٦].

والجدير بالذكر أن الوقاد إضافة إلى توليه وظيفة الوقادة، وتوليه أمانة الزيت والشمع، نجد أن بعضهم قد جمع إضافة إلى وظيفة الوقاد، وظيفة أخرى وهي:

---

(١) الأسدي: إخبار الكرام، ص١٩٠.

(٢) انظر الصورتين رقم (١٠) و(١١) صور لشمعدانات النحاس.

(٣) انظر الصور رقم (١٢) و(١٣) و(١٤) صورة للكرسي الذي ترفع عليه الرباع وصورة صندوق ربعة.

(٤) ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٣٤؛ وتُعرف هذه القبة بقبة الفراشين، لمزيد من التفصيل انظر المبحث الثالث، ص٢٨٦.

(٥) أسفر الصبح إسفارًا، أي أضاء. الفيومي: المصباح المنير، ص١٠٦، والمقصود أن الشموع كانت تضاء من الفجر إلى ظهور النور.

(٦) وقد تُركت هذه العادة في عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، واكتفي عنها بالمصابيح الكهربائية ولم يبقَ من تلك الشموع شيء في المقامات الأربعة أو المطاف إلا شمعتان وكانت تضاء على باب الكعبة في أول الليل وفي الفجر. باسلامة: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٢٥٢.

١ - الفراشـة[١]: ولـم تشـر المصادر التاريخية التي بين أيدينا بـأن الوقاد تولى وظيفة أخرى غير الفراشة.

رواتب الوقادين:

حددت وثيقة عائشـة بنت برجك بنـت عبدالله الأقبغـاوي وزوجها تاني بك بن عبدالله الأليـاسـي، في حجة وقفهمـا على تخصيص ثمانمئـة درهم أو ما يقوم مقامها من نقود تُصرف جامكية. الوقادين[٢] في حرمي مكة والمدينة حسب ما يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده.

كما قرر الواقف محمد بن نور الديـن الجزولي في حجته المؤرخة في ٣ من شـهر شـوال سـنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م، أوجه صرفه في «.... مصالح الحرمين الشـريفين شـرفها الله تعالى، وعظمها، يصرف الناظر ريع ذلك علـى ما يراه في ثمن زيت، وشمع، وحصر، وقناديل...»[٣].

كما خصصت وثيقة الأشـرف شـبعان مبلغ خمسـمئة درهم سـنويًا، ولـم تشترط عليه أي شـروط سـوى إيقاد المسـارج في الحرم والمشـاعل في الطرق المؤدية إليه[٤].

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٤٨؛ ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٤٧١، ٢/ ٩٩٠.

(٢) حجة وقف عائشة الأَقبغاوي، رقم (١٢٣) دار الوثائق القومية – مصر.

(٣) حجة وقـف محمد نور الدين علي الجزولي، المؤرخة في ٣ شـوال سـنة ٧٦٦هـ، رقم الحجة (٤٥)، رقم المحفظة (٧) دار الوثائق القومية – مصر.

(٤) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٥.

المبحث الثالث

الفراش

في اللغة:

مصدر فرش يَفْرِش ويُفرش، وهو بسط الفراش[1]. والفَرَّاش في الأصل هو القائم بخدمة الفرش وما يتعلق به، ثم عُمّم فصار من مهمته الخدمة بالقصر، وتنظيفه داخلًا وخارجًا، وقد ظلت الوظيفة معروفة بالدلالة نفسها تقريبًا في العهدين الأيوبي والمملوكي، وقد امتدّ عمل الفّراش إلى المساجد وغيرها فصار يُطلق لفظ الفّراش على كل من يقوم بالنظافة والصيانة ورعاية الأثاث في جميع الأمكنة[2].

في الاصطلاح:

تُعَدُّ من الوظائف المهمة في المسجد الحرام؛ لأنها تقوم على نظافة المسجد الحرام بتنظيفه وكنسه من الأوساخ[3].

أهم مهمات الفراشين وواجباتهم:

للمسجد الحرام عدد من الفراشين يقومون بالخدمة داخله، ومن أهم واجباتهم:

---

(١) ابن عباد: المحيط في اللغة، ٧/ ٣٢٣؛ ابن منظور: اللسان، ٥/ ٣٣٨٢.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ص٤٢٢؛ القلقشندي: صبح الأعشى، ٣/ ٥٢٢؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٢/ ٨٠٣، ٨٠٥.

(٣) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٢.

١ - تنظيف المسجد الحرام وكنسه من الأوساخ، والقيام بالخدمة العامة داخله[١].

٢ - تنظيف أروقته وأسطحه وكنس أبوابه وما حولها من الأوساخ، والمقصود بكنس أبواب الحرم، أي مداخل الحرم أمام أبوابه[٢].

٣ - المحافظة على مستودعات الشمع والزيت المستخدم لإضاءة الحرم وإعادة المتبقي من المستعمل منه كل ليلة بعد صلاة الفجر إلى تلك المستودعات[٣].

والجدير بالذكر أنه عند تسليم الفراش لما تبقى من كمية الزيت، والشمع، يضبط الكمية موظف مخصص لذلك[٤].

٤ - وقد يُعمّر القناديل نهارًا ويسرجها وقت المغرب، ويطفئُها في الصباح والمساء، ويخرج الزيت من الحاصل ويدخله فيه[٥].

٥ - فتح أبواب المسجد[٦] سحرًا[٧].

٦ - المحافظة على الجرار المستخدمة لحفظ ماء زمزم والاهتمام بها وصيانتها والعناية بنظافتها[٨].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢١٢ -٢١٥.
(٢) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٣.
(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ٢/ ٤٢٨؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٨٨ -٥٨٩؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٣، ٣/ ٧٩٣؛ الطبري: الأرج المسكي، ص١٧٧.
(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ١٣٤.
(٥) السخاوي: التحفة اللطيفة، ١/ ٤٧.
(٦) المصدر السابق، ١/ ٤٧.
(٧) السحر: بفتحتين، قبيل الصبح والجمع أسحار. الفيومي: المصباح المنير، ص١٠٢.
(٨) الفاسي: العقد الثمين، ٨/ ١٦؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٣.

٧ - المشاركة في غسل الكعبة المشرفة في يوم الاحتفال بغسلها[١].

مشيخة الفراشين:

يرأس الفراشين بالمسجد الحرام رئيس يُسمى - شيخ الفراشين -[٢] وتُسمى وظيفته «مشيخة الفراشين»[٣]، ومن أهم واجباته مراقبة الفراشين للتأكد من أداء أعمالهم على الوجه الأكمل، كما عليه تنظيم العمل بينهم وتوزيعه عليهم، وحل مشكلاتهم[٤].

وقد كان منصب مشيخة الفراشين منذ القدم مخصوصًا ببيت بيسق[٥]، لكنه ما لبث أن خرج عنهم لعدم وجود كفاءة منهم، وقد خرج عنهم بطريق التنازل الشرعي من قبل آخرهم وهو محمد البيسقي إلى شخص يقال له الشيخ علي القرشي من ذرية الأديب المشهور الفاضل المفيد صلاح الدين القرشي[٦].

وقد عرفت هذه الوظيفة نظام التوريث، وذلك عندما رغب أحمد بن عبدالله الدوري[٧]، عن الفراشة قبل موته بقليل لابن أخته[٨].

مراسم التعيين والعزل:

أما قرار تعيين شيخ الفراشين فلا يصدر بقرار سلطاني كما هو الحال في

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٣؛ ٣/ ٧٩٣؛ النهروالي: الإعلام، ص٢٢٦.
(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ٣٢١.
(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٩٢؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٣.
(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٣؛ الطاسان: الوظائف الدينية والإدارية، ص٣٠٧.
(٥) وهي أسرة دمشقية الأصل. السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ١١٥.
(٦) الطبري: الأرج المسكي، ص١٨٧-١٨٨.
(٧) هو أحمد بن عبدالله الدوري المكي، الفراش بالحرم الشريف، باشر الفراشة بالحرم سنين طويلة وأمانة الزيت والشمع سنين قليلة، ولم يُحمد فيما أؤتمن فيه، توفي عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٤٨٩.
(٨) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٣٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ١/ ٣٧٤.

بقية الوظائف. إنما يصدر بقرار من ناظر المسجد الحرام، وكذلك الحال عند عزله أيضًا، وذلك مثل ما حدث في عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧١م، عندما عزل الناظر برهان بن ظهيرة الشيخ عمر بيسق عن مشيخة الفراشين، وأُقيم عوضًا عنه أحمد بن عبدالسلام الفيومي النجار[١].

وعادة لا يتولَّى منصب مشيخة الفراشين إلا شخص قد زاول المهنة مدة طويلة، وذلك ليكون ذا خبرة ودراية بعمله ومعرفة بواجباته[٢].

ونجد أحيانًا أن بعض الأسر المكية يعمل بعض أفرادها في وظيفة الفراشة في الحرم المكي، فلا غرابة أن نجد الأب وابنه يعملان معًا في هذه الوظيفة[٣].

أما في حال عجز الفراش عن القيام بواجبات الوظيفة فإنه يتنازل عن وظيفته لأحد أقاربه، وعادة لا يحتاج هذا التنازل إلى تدخل رسمي أو إداري من قبل مسؤولي الدولة[٤].

أما إذا كان الأب وابنه يعملان معًا في وظيفة الفراشة في المسجد الحرام وكان الأب متوليًا لمشيخة الفراشين، فغالبًا يتولى الابن وظيفة المشيخة بعد وفاة والده[٥].

قبة الفراشين:

كان في المسجد الحرام قبة تُعرف بـ «قبة الفراشين» تلي بئر زمزم، مُعدّة

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٤٠؛ السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص٢١٠.

(٢) الطاسان: الوظائف الدينية والإدارية، ص٣٠٧.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٣٧-٣٣٩.

(٤) المصدر السابق، ٣/ ٧٦، ٦/ ٢٣١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ٣٢١.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٢٣؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ١١٥.

لمصالح المسجد الحرام كالشمع وفرش المنبر والشمعدانات، وفيها الرزمات والمصاحف والربعات الموقوفة على المسجد الحرام[١]. ولا يُعلم ابتداء عمارة هذه القبة إلا أنها كانت موجودة في القرن الرابع الهجري[٢]، وجددها الناصر العباسي[٣].

وإضافة إلى تولي الفراش لوظيفة الفراشة في المسجد الحرام، أحيانًا نجد الفراش يجمع مع وظيفة الفراشة وظيفة أو وظائف أخرى بالمسجد الحرام، ومن هذه الوظائف التي تولاها بعض فراشي المسجد الحرام إضافة إلى وظيفة الفراشة:

١ - الأذان[٤].

٢ - تأديب الأطفال[٥].

٣ - البوابة[٦].

---

(١) البلوي: تاج المفرق، ١/ ٣٠٦؛ النهروالي: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، ص١٤٤؛ الأسدي: إخبار الكرام، ص١٨٩؛ الطبري: الأرج المسكي، ص١٧٧.

(٢) الطبري: الأرج المسكي، ص١٧٧. وقد أزيلت قبة الفراشين هي وقبة سقاية العباس في عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م، في إمارة الشريف عون على إثر دخول سيل إلى المسجد الحرام فأتلف ما كان فيها من الكتب وغيرها، ويتضح من أقوال المؤرخين أنهما كانتا إلى شرقي بئر زمزم. النهروالي: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، ص١٤٤، انظر الصورة رقم (١٥) صورة لقبة الفراشين وقبة سقاية العباس.

(٣) هو الناصر لدين الله: أحمد بن المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد، أبو العباس، خليفة عباسي، بويع بالخلافة بعد موت أبيه في عام ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، واستمرت خلافته ٤٦ سنة وأحد عشر شهرًا إلا يومين. الزركلي: الأعلام، ١/ ١١٠.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٤٣؛ ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٢٨٦، ٢/ ٧٥٦؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٦/ ٢٥٥.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٨٦؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٢٢٠.

(٦) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٣٧٦، ٦/ ٢٣١؛ انظر أيضًا معتوق: علم الحديث في مكة المكرمة، ص١٠٧.

٤ - التكبير بأحد المقامات الأربعة[١].

٥ - أمر زمزم وسقاية العباس[٢].

٦ - مشيخة الحرم[٣].

٧ - الوقادة وأمانة الزيت والشمع[٤].

وأحيانًا يُجمع للفراش عدد من الوظائف في الوقت نفسه، فقد جُمعت لفراش بالمسجد الحرام، وظيفة فراش ومؤذن في الوقت نفسه[٥].

هذا، وقد زخرت كثيرٌ من المصادر التاريخية بعدد كبير من تراجم الشخصيات التي تولت وظيفة الفراشة في المسجد الحرام، لعل من أهمها كتاب العقد الثمين لمؤلفه تقي الدين الفاسي[٦]، وكتاب إتحاف الورى[٧] والدر الكمين لمؤلفه عمر بن فهد[٨]، كما احتوى كتاب الضوء اللامع لمؤلفه السخاوي[٩] على عدد كبير من تراجم الفراشين في المسجد الحرام إضافة إلى كتاب نيل المنى لمؤلفه جار الله بن فهد[١٠].

وقد وجدت في المسجد الحرام وظيفة أقرب ما تكون إلى وظيفة الفراش وهي وظيفة «القيّم»، ولكن قبل أن نسترسل في الحديث عنها، لا بد وأن نعرف ما معنى لفظ القيّم.

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ١/ ٢١١.
(٢) ابن العماد: شذرات الذهب، ٦/ ٢٥٥.
(٣) ابن فهد: الدر الكمين، ٢/ ١٢٥٢.
(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٤٨؛ ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٢٠، ٤٧١.
(٥) ابن فهد: الدر الكمين، ٢/ ٧٥٦؛ الطاسان: الوظائف الدينية والإدارية، ص٣٠٧.
(٦) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣١٤، ٣٥٨، ٣/ ٤٨، ٢٤٦، ٥/ ٢٩٦، ٤٢٥، ٦/ ٢٦٩.
(٧) إتحاف الورى، ٣/ ١٠٠، ٤/ ٢٠٤، ٥٤٠.
(٨) ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ١٤٢، ٢٨٦، ٣٩٩، ٢/ ٩٣٣، ٩٩٠، ١٠٤٠، ١٢٥٢.
(٩) السخاوي: الضوء اللامع، ١/ ٣٥٨، ٣٧٤، ٢/ ١٥٩، ٥/ ١٦٥.
(١٠) ابن فهد: نيل المنى، ١/ ٦٨، ١٦٥، ٢٠٦، ٢٣٠، ٢/ ٦١٥، ٧٤٦، ٧٩٤.

في اللغة:

القيّم: السيد وسائس الأمر، وقيّم القوم الذي يقومهم ويسوس أمرهم، وقالوا: قيّم المسجد، وقيّم الحمام[١].

في الاصطلاح:

ذُكرت لفظة القيم اسماً لوظيفة في بعض الآثار العربية بدلالات مختلفة، وإن كانت متقاربة من حيث المعنى العام، وقد جرت العادة أن يُستخدم القيّم أو الفراش في المؤسسات العامة كالمسجد والمدرسة والحمام والضريح[٢]. بحيث يكون مسؤولًا عن الخدمة فيه ونظافته والمحافظة عليه، وقد ورد لفظ القيّم بصيغة المفرد والجمع في الآثار العربية بدلالة المشرف على الأوقاف والأحباس[٣].

هذا، ولم تشر المصادر التاريخية إلى لفظة القيّم، إلا أننا نجد في كتاب العقد الثمين لمؤلفه تقي الدين الفاسي ما يدل على ذلك، حيث ذكر فيه لفظة قيّم المسجد الحرام[٤].

أهم أعماله وواجباته:

اختص القيّم بعدد من المهمات والواجبات التي يقوم بها سواء داخل المسجد الحرام أو خارجه، ومن أهم هذه الأعمال التي يقوم بها القيّم أو القومة، غسل الحمامات وكنسها وتنظيفها بالماء الطاهر، وتدليك البلاط بالأشياء الخشنة؛

---

(١) ابن منظور: اللسان، ٥/ ٣٧٨٤- ٣٧٨٥.
(٢) الضريح: شق في وسط القبر، والجمع ضرائح. الفيومي: المصباح المنير، ص١٣٦.
(٣) الباشا: الفنون الإسلامية،٢/ ٨٩٨- ٩٠٠.
(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١١٤.

لئلا يتعلق به السـدر[(١)] والصابون فتنزلق أرجل الناس عليها، ويغسلون الخزانة من الأوسـاخ المجتمعة فـي مجاريها، وفي حالة صعـود القيّم إلى الخزانـة لفتح الماء إلى الأحواض فعليه أولًا غسـل رجليـه بالماء، ومن ثم الصعود، كما عليه إشـعال البخور في الأنابيب في كل يوم مرتين، وفي حالة برود الحمامات ينبغي أن يبخّرها القيّم بالخزامى[(٢)]؛ لأن دخانها يُحمّي هواءها ويجعل رائحتها طيبة[(٣)].

وعادة يشـرف علـى جميع هـذه الأعمـال المحتسـب، كما يشـرف على الجوامـع ويأمر قومتها بكنسـها وتنظيفها من الأوسـاخ، ومسـح حيطانها ونفض الغبـار مـن علـى حصرها، كمـا يأمـر المحتسـب قيّـم الجوامـع بغسـل قناديلها وإشـعالها كل ليلة وإغـلاق أبواب المسـجد بعـد كـل صلاة، وصيانـة المسـجد والحفاظ عليه من عبث الصبيان والمجانين وممن يأكل الطعام أو ينام فيه[(٤)].

وهكذا يفُهم من سـياق الـكلام أن القيّم يُعَـدُّ مثل الفراش حيـث عليه ما علـى الفراش مـن مهمـات وأعمال وواجبـات من تنظيـف وكنـس وغيرها، كما يتضح لنا وبشكل جلي أن أعمال القيّم لم تكن مقتصرة على المسجد فحسب بل امتدت فشملت المدارس والحمامات وغيرها.

رواتب الفراشين:

كان هناك عدد كبير من الفراشـين في المسـجد الحـرام[(٥)]، ويدل ذلك دلالة واضحـة وجلية علـى مدى الاهتمـام بالمسـجد الحـرام ونظافته من قبل السـلاطين

(١) السـدرة: شـجرة النبق والجمع سـدر، وكان يُسـتخدم ورقه في الغسـل. ابن منظور: اللسـان، ٣/ ١٩٧١؛ الفيومي: المصباح المنير، ص١٠٣.

(٢) الخزامى: من نبـات البادية، قال الفارابي: وهـو خِيرِيُّ البر، وقال الأزهـري: بقلة طيبة الرائحة لها نور كنور البنفسج. الفيومي: المصباح المنير، ص٦٤.

(٣) الشيزري: نهاية الرتبة، ص٨٧- ٨٨، ١١٠.

(٤) المصدر السابق، ص٨٧ -٨٨، ١١٠.

(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٣.

والأمراء، ولذلك لم يفت السلطان الأشرف شعبان الاهتمام والعناية بنظافة المسجد الحرام وصيانته باستمرار ونظافة ما حوله، ونتيجة لهذا الاهتمام فقد عيّن الأشرف شعبان ثمانية من الفراشين وحدّد لهم مبلغ ألفين وسبعمئة درهم نقرة توزع بينهم بالسوية، أي أن راتب الفراش الواحد يقدّر بثلاثمئة درهم سنويًا، أي ما يعادل خمسة وعشرين درهمًا شهريًا، وهذا ما يبدو جليًا في وثيقة الأشرف شعبان(١).

ولو أمعنا النظر في الوثائق الأخرى غير وثيقة الأشرف شعبان لوجدنا وثيقة عائشة بنت برجك بنت عبدالله الأقبغاوي وزوجها تاني بك بن عبدالله الألياسي، فقد حددت في حجة وقفهما على تخصيص مبلغ ثمانمئة درهم أو ما يقوم مقامها من نقود تصرف جامكية الفراشين(٢) في حرمي مكة والمدينة وذلك حسب ما يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده(٣).

ويتلقى الفراشون كغيرهم من موظفي المسجد الحرام إنعامات وهبات وصدقات سنوية تصل إلى مكة المكرمة من بعض الدول الإسلامية، ويكون لهم فيها نصيبٌ، إضافة إلى رواتبهم، وخير ما يمثل ذلك ما حدث في عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م، حيث دعا الخطيب محب الدين النويري للسيد جازان(٤) على ظلة زمزم، فأمر جازان بخمسة دنانير للفراشين وخدام الدرج(٥).

---

(١) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٣.

(٢) إضافة إلى المؤذنين والوقادين.

(٣) حجة وقف عائشة، رقم (١٢٣) دار الوثائق القومية – مصر.

(٤) هو أحمد الجازاني بن محمد بن بركات الأول تولّى بعد وفاة هزاع، حيث عقد مجلس له في المسجد الحرام بحضور قاضي مكة أبي السعود بن ظهيرة وأصحاب الحل والعقد واتفقوا على توليته، ونادوا به ثم كتبوا إلى ملك الشراكسة في مصر بذلك، وكان ذلك عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م، واستمر على إمرة مكة نحو ثمانية أشهر كانت مثالًا للخلاف والفتن وتألب الأقارب عليه، حتى انتهى ذلك بأن دسّ أخوه حميضة عليه جماعة من الأتراك قتلوه في المطاف يوم الجمعة ١٩ رجب عام ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م. السباعي: تاريخ مكة، ص٣١٠-٣١٣.

(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٣.

وفي عام ٩١٣هـ/ ١٥٠٧م، قدم ناظر الخواص إلى مكة وفرّق صدقته، فنال الفراشون كل واحد أشرفيّاً[١].

وفي عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، يُذكر أن ناظر الخاص قدم إلى مكة المكرمة، وزعت صدقته على موظفي الحرم فنال كل فراش أشرفيّاً[٢].

والجدير بالذكر أنه كما وجد فراشون للمسجد الحرام ينظفونه ويهتمون به وجد في المسجد الحرام ما يُعرف بـ «صائد الهوام والحشرات»، وعادة يتولّى هؤلاء تنظيف المسجد الحرام من الكريش[٣] والعقارب وسائر الهوام التي يتأذى منها الحجاج وغيرهم من زوار بيت الله الحرام، ويدل هذا على أن الهوام والحشرات كانت تصل أحيانًا إلى الحرم المكي وتؤذي الزائرين، ولهذا خصص السلطان الأشرف شعبان ثلاثة أنفار يتولون القيام بنظافة المسجد الحرام من هذه الحشرات ومراقبتها والقضاء عليها، ولكنه لم ينص على توزيع العمل بينهم أو تناوبهم فيه، إلا أنه حدد مبلغًا من المال لهم، وهو ما يقدرّ بثلاثمئة درهم نظير عملهم هذا[٤].

كما عينت الوثيقة نفسها شخصين يتوليان كنس الصفا والمروة وتنظيف ما بينهما من العظام والأوساخ لكي تكون الصفا والمروة والمسعى نظيفة بصفة مستمرة ودائمة للساعين بينهما، وخصص لهما ما يقدّر بألف درهم سنويًا تقسم بينهما بالسوية، بواقع خمسمئة درهم لكل واحد منهما، ويُعَدُّ هذا الراتب كبيرًا قياسًا براتب فراشي المسجد الحرام الذي قُدر بثلاثمئة درهم سنويًا.

---

(١) العز بن فهد، بلوغ القرى، ٢/ ٨٣.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ٧٩٣.

(٣) كرش لكل مجتر بمنزلة المعدة للإنسان. ابن منظور: اللسان، ٥/ ٣٩٢، والمقصود هنا قطع اللحم أو أمعاء الدواب وما شابه ذلك.

(٤) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٥.

ويُعَـدُّ تخصيـص كناسـين لتنظيف ما بيـن الصفـا والمروة من الأوسـاخ والعظام بادرة حسـنة من قبل السـلطان، حيث إن بعض عامة النـاس كانوا يلقون الأوسـاخ والعظام في هـذه الأماكن المقدسـة دون أدنى مراعاة لحرمة المسـجد الحرام وقداسـته[1]، حيث كانت الصفا والمروة خارج المسـجد الحرام وينتشـر الباعة المتجولون على جنباتها.

(١) القحطاني، أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٥.

المبحث الرابع

البواب

في اللغة:

البواب حافظ الباب وهو الحاجب[1]، ويقال: رجل بواب أي: لازم للباب، وحرفته البوابة[2]. وقد عُرف البوابون بمعنى حُراس الباب في جميع العصور الإسلامية[3].

في الاصطلاح:

البوابون هم الذين يلازمون الأبواب ليلًا ونهارًا ولا يغيبون عنها إلا للضرورة القصوى[4].

ولكل باب من أبواب المسجد الحرام بوابٌ يلازمه ويحرسه[5]. ولما كان عدد أبواب المسجد الحرام في العهد المملوكي تسعة عشر بابًا[6] كان لزامًا أن يكون لكل باب من أبوابه بوابٌ يحرسه.

---

(١) الفيومي: المصباح المنير، ص٢٦.

(٢) ابن منظور: اللسان، ١/ ٣٨٣؛ الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ١/ ٣٩.

(٣) الباشا: الفنون الإسلامية، ١/ ٣٢٠.

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٣، ٣/ ٧٩٣.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٤٥؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٥/ ٧٧، ١١/ ١٠٠.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص٨٢؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٥٩؛ الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٨١؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٣٥؛ القطبي: إعلام العلماء الأعلام ببناء المسجد الحرام، ص١٣٦.

وهكذا يكون للمسجد الحرام تسعة عشر بوابًا تتعدد مهماتهم وواجباتهم، وقبل أن نتطرق في الحديث عن أهم مهمات بوابي المسجد الحرام وواجباتهم، لا بد أن نبين عدد أبواب المسجد الحرام وأسماءها.

أبواب المسجد الحرام:

أما أبواب المسجد الحرام فعددها تسعة عشر بابًا، تفتح على ٣٩ طاقة[(١)]، منها أربعة بالجانب الشرقي، وهي:

١ - باب السلام ويعرف بباب شيبة وهو ثلاث طاقات، ولم يجدد في هذا الباب شيء لكونه محكم البناء.

٢ - باب الجنائز وهو طاقتان، وسمي بذلك لأن الجنائز تخرج منه غالبًا، كما يعرف بباب النبي ﷺ.

٣ - باب العباس بن عبد المطلب؛ لأنه يقابل داره بالمسعى، وهو ثلاث طاقات.

٤ - باب علي، وعرفه الأزرقي بباب بني هاشم[(٢)]، وهو ثلاث طاقات.

وفي الجانب الجنوبي سبعة أبواب وهي:

١ - باب بازان، لأن عين بازان[(٣)]، المعروفة بمكة قريبة منه، وعرفه الأزرقي

(١) طاقة: الطاق جمع طاقات وطيقان، ما عطف من الأبنية أي جعل كالقوس من قنطرة ونافذة وما أشبه ذلك. المنجد الأبجدي، ص٦٥٤.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ٨٨؛ الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٨١-٣٨٢؛ الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ص١٠٢-١٠٣.

(٣) وتعرف الآن بعين زبيدة زوجة الخليفة العباسي هارون الرشيد وابنة عمه جعفر، وقد عمر هذه العين عدد من الخلفاء والملوك، ومنهم المستنصر العباسي أكثر من مرة. الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٥٥٤.

بباب ابن عايذ[١]، وهو طاقتان.

٢ - باب البغلة، كما عرفه الأزرقي بباب بني سفيان[٢]، وهو طاقتان.

٣ - باب الصفا؛ لأنه يليه، ويعرف بباب بني مخزوم، وهو خمس طاقات.

٤ - باب أجياد الصغير، وهو طاقتان.

٥ - باب المجاهدية؛ لأن عنده مدرسة الملك المؤيد المجاهد صاحب اليمن[٣]، ويقال له باب الرحمة، وهو طاقتان.

٦ - باب مدرسة الشريف عجلان[٤]؛ لاتصاله بها، ويقال له باب بني تيم، وهو طاقتان.

٧ - باب أم هانئ بنت أبي طالب[٥]، وهو طاقتان.

في حين يبلغ عدد الأبواب بالجانب الغربي ثلاثة أبواب، وهي:

١ - باب الحزورة، وهو طاقتان.

٢ - باب إبراهيم، وليس المقصود هنا إبراهيم الخليل عليه السلام، إنما نُسب هذا

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ٨٩؛ الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٨٢.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ٨٩.

(٣) أنشئت عام ٧٣٩هـ/ ١٣٣٨م، أمر بعمارتها صاحب اليمن الملك علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول الملقب بالملك المجاهد، وذكر الخزرجي أنها أنشئت في عام ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م. وتقع هذه المدرسة بالجهة الجنوبية من المسجد الحرام. الخزرجي: العقود اللؤلؤية، ٢/ ٦٤؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص٧.

(٤) تنسب هذه المدرسة إلى عجلان بن رميثة بن أبي نمي الحسني المكي، أمير مكة، أنشأ هذه المدرسة عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م، وكانت بالجانب اليماني من المسجد الحرام، وقد وردت بعض الإشارات في ترجمته أنه كان شافعي المذهب وفيه محبة لأهل السنة ونصرة لأهلها. الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ١٨٩؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص٢٨.

(٥) هي بنت عمة رسول الله ﷺ واسمها فاختة بنة أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، أسلمت يوم فتح مكة، روت عن الرسول ﷺ ٤٦ حديثًا، وتوفيت عام ٤٠ هـ/ ٦٦٠ م. الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٦.

الباب لخياط كان بالقرب منه يُدعى إبراهيم[١] - كما سبقت الإشارة إليه - وهو طاق واحد كبير.

٣ - باب العمرة؛ وذلك لأن المعتمرين من التنعيم يدخلون ويخرجون منه غالبًا، وسماه الأزرقي باب بني سهم، وهو طاق واحد[٢].

وفي الجانب الشمالي من المسجد الحرام خمسة أبواب وهي:

١ - باب السدة، وهو طاق واحد، وعرف أيضًا بباب عمرو بن العاص.

٢ - باب العجلة وباب الباسطية؛ لاتصاله بالمدرسة الباسطية[٣]، وهو طاق واحد.

وبين باب السدة وباب الباسطية باب لطيف له طاق واحد عرف بباب الزمامية فتح أيام بناء المدرسة الزمامية[٤].

٣ - زيادة دار الندوة في ركنها الغربي، وهو طاق واحد.

٤ - باب الزيادة وهو ثلاث طاقات.

---

(١) خسرو: سفر نامة، ص١٢٨؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٢١٨.

(٢) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ٩٣؛ الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٨٣؛ الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ص١٠٣.

(٣) تقع هذه المدرسة في الناحية الشمالية من المسجد الحرام، وتُسمى بالمدرسة الباسطية نسبة إلى الزين عبدالباسط بن خليل بن إبراهيم الدمشقي القاهري، ناظر الجيوش أيام الظاهر ططر، ولد عام ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، واهتم ببناء المدارس في مكة والمدينة والقدس والقاهرة وغزة وعرفت جميعها باسم المدارس الباسطية. السخاوي: الضوء اللامع، ٤/ ٢٤-٢٦؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص١٥-١٦.

(٤) المدرسة الزمامية نسبة إلى منشئها خشقدم بن عبدالله الظاهري، الإمام الطواشي وقد أنشئت عام ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م، وتقع في الناحية الشمالية من المسجد الحرام عند دار العجلة. الدهاس: المدارس في مكة، ص٢٤.

٥ - باب المدرسة عند المنارة التي عند باب بني شيبة، وهو طاق واحد[(١)].

مهمات بوابي المسجد الحرام وواجباتهم:

لتعدد أبواب المسجد الحرام حيث بلغ عددها تسعة عشر بابًا، كان لزامًا أن يكون لكل باب من هذه الأبواب بوابٌ يحرسه ويلازمه، إضافة إلى ما يقوم به من مهمات وواجبات ومن أهم المهمات التي وردت في الأمر السلطاني:

١- ملازمة الباب ليلًا ونهارًا والنوم عنده، وعدم التغيب عنه إلا للضرورة القصوى، وهذا ما أمر به الأمير بيسق الظاهري بوابي المسجد الحرام، بل عُدَّ مما حُمد عليه أمره لبوابي المسجد الحرام بملازمة الأبواب وتنظيف الطرقات من الأوساخ والقمائم[(٢)].

٢- تعهد الباب بالتنظيف والكنس والرش.

٣- منع الحيوانات كالكلاب والقطط من دخول الحرم المكي.

٤- منع الجواري الحاملات الماء والحمّال من دخول المسجد الحرام واستطراقه والمرور فيه لغير حاجة[(٣)].

٥- ملاحظة بعض الأمور للداخلين والخارجين[(٤)].

مراسم التعيين والعزل:

كان تعيين البواب وعزله لا يتم إلا عن طريق مرسوم سلطاني[(٥)]، وكان

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٨٤؛ الطبري: إتحاف فضلاء الزمن، ص١٠٣- ١٠٤، انظر الصورة رقم (١٦) صورة لأبواب المسجد الحرام.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٣٥٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٢٨؛ العز بن فهد: غاية المرام، ٢/ ٢٦٤.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٤٥- ٦٤٦؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٣.

(٤) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٤٢٤.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٤٥.

ممـن يتولى هـذه الوظيفــة بعض أعيـان مكـة وعلمائها، بـل من كبـار أصحاب الوظائـف الدينيـة كالقضـاة والفقهـاء[١]؛ ولعل سـبب إضافـة عمل البوابـة لهذه الفئـة من الناس هو وجودهم بشـكل كبير في المسـجد الحرام، وما نـراه أن هذه الفئة من القضاة والفقهاء لـم تقم بأمر البوابة على أكمل وجـه وهذا جعل أبواب المسجد الحرام مشـرعة طوال الوقت، وأضف إلى ذلك أن هؤلاء البوابين كانوا ينيبـون عنهم من يقوم بأمـر البوابة، حيـث لم يـرد أن قضاة مكـة وفقهاءها قاموا بأمر البوابة ولم يُخصص لأبواب المسـجد الحرام بوابـون مختصون إلا في عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م، ولكـن كان هـذا الأمـر تدريجيًـا، فقد صـدر في بـادئ الأمر مرسوم سـلطاني من قبل الأشـرف برسباي يقضي بسـد أبواب المسـجد الحرام بعد انقضاء الموسم سوى أربعة أبواب، وهي: باب السلام، وباب العمرة، وباب إبراهيم، وباب الصفا لا غير، وأن تُسـد الأبواب الشـارعة من البيوت إلى سطـح المسـجد ففُعل كل ذلـك، ولم يرد ما يشـير إلى إغـلاق أبواب المسـجد الحرام قبل ذلـك، فتضرر لذلك الفقـراءُ والمتعبدون فـي الحرم المكـي وصَعُب عليهم ذلك. فروجع السلطان الأشـرف برسـباي فأمـر بفتح باب الزيـادة وباب الجنائز ونُظم وضع البوابين في المسـجد الحرام[٢]. ثم جاء في الموسم من السنة نفسها مرسوم صُحبة الركب المصري يقضي بفتح الأبواب كلها وعزل البوابين القدامى مـن القضاة والفقهاء وتعيين بوابيـن من العوام الجهلة الذيـن ليس لهم حرفة ولا صناعة، متفرغين لعمل البوابة بالمسـجد الحرام وحراسـة أبوابه، فحضر الأمراء والفقهاء وقرئ المرسوم وقُرِّر لكل باب من أبواب المسجد الحرام بوابٌ مختصٌ يقوم بحراسـته والنوم عنـده، وعُزل مـن كان بوابًا قبل ذلك من القضـاة والفقهاء، وكان هذا المرسـوم من قبل السـلطان الأشـرف برسـباي – كما سـبقت الإشـارة

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٤٥.
(٢) المصدر السابق، ٣/ ٦٤٥.

إليه - حيث أُلزم كل بواب بملازمة بابه وعدم التغيب عنه وتعهده بالكنس والرش والتنظيف، كما أُلزم بمنع دخول الجواري والحمّال، كما يحرس الباب من دخول بعض الحيوانات كالكلاب والقطط إلى داخل المسجد الحرام[١].

ولم يكن هذا الأمر من قبل السلطان الأشرف برسباي هو الأول في العصر المملوكي، فقد أمر الأمير بيسق الظاهري في عام ٨٠٤هـ/ ١٤٠١م، بوابي المسجد الحرام بملازمة أبوابه[٢]، وجاء هذا الأمر بعد مشاهدته عدم قيام البوابين بواجبهم على أكمل وجه وإهمالهم لأبواب المسجد الحرام، وذلك عندما كان مشرفًا على عمارة المسجد الحرام بعد الحريق الذي أصابه في عام ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م، حيث بقي في مكة مدة طويلة[٣].

ويدل ذلك دلالة واضحة وجلية على أن السلطة في مصر كانت تأتيها أخبار دقيقة عما يحدث في مكة المكرمة والمسجد الحرام، كما يدل على أن بوابي المسجد الحرام من القضاة والفقهاء كانوا مشغولين بوظائفهم الأساسية وعلومهم الأخرى عن أمر البوابة فأدى ذلك إلى عزلهم في عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م.

هذا، وقد تتابع اهتمام الأمراء بأمر المسجد الحرام وحراسة أبوابه والاهتمام بشؤونه كلها، ولعل أهم ما يستشهد به في هذا المقام ما حدث في عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م، عندما طلب الأمير مصلح الدين الرومي القضاة الأربعة وبوابي المسجد الحرام وتكلم معهم على فتح الأبواب في الليل، وما ينتج عن

---

(١) المقريزي: السلوك، ج٤، مج٢/ ٧٥٤؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٤٥؛ ابن إياس: بدائع الزهور، ٢/ ١١٧؛ الغازي: إفادة الأنام، ٣/ ١١٠-١١١، ١٢٨؛ الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٤٢٥-٤٢٦؛ السباعي: تاريخ مكة، ص٣٠١.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٣٥٦؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٢٨.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٢٣؛ السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص١٩٥-١٩٦.

ذلك من دخول الحيوانات كالكلاب والقطط وغيرها إلى المسجد وأمرهم بقفلها في الليل فأجابوا وامتثلوا لأمره[١].

ونرى أن الواجب يقتضي بأن يكون بوابو المسجد الحرام من العوام الجهلة الذين لا مهنة لهم ولا حرفة وأن لا يكونوا من القضاة والفقهاء؛ وذلك لأن المسجد الحرام بحاجة إلى من يحرس أبوابه ويهتم بشؤونه من مراقبة الداخلين والخارجين، والاهتمام بنظافة الأبواب وكنسها ورشها، وكل ذلك بلا شك يستدعي أن يكون ذلك الموظف أو القائم بأمر البوابة متفرغًا لأمر البوابة وحراسة المسجد الحرام من الحيوانات والمارين بغير حاجة - كما سبقت الإشارة إليه - من جهة، ومن جهة أخرى لا بد، أن يكون هؤلاء القضاة والفقهاء منشغلين بأمورهم ووظائفهم؛ لكون القاضي والفقيه من أصحاب الوظائف الدينية المهمة في المسجد الحرام لما يُلقى على عاتقهم من أمور شتى تتعلق بالمسائل الدينية والدنيوية، إضافة إلى انشغالهم بعلومهم الأخرى ووظائفهم الكثيرة، حيث إن بعض هؤلاء القضاة والفقهاء قد جمع إضافة إلى وظيفته وظائف أخرى[٢]، فكان لزامًا عليه أن يعطي هذه الوظيفة الدينية حقها ولا ينشغل عنها بسواها.

والجدير بالذكر أن بعض المؤرخين[٣] ذكر أن السبب لجعل البوابين من العوام الجهلة، أن الواجب يقتضي بأن يكونوا كذلك؛ لأن هذه الوظيفة ممتهنة؛ وذلك لأن الناس يضعون عند البواب نعالهم وحاجاتهم الأخرى، وهذا ما يلزمني بوصفي باحثة أن أوضح هذا الأمر وإن كنت لا أصل إلى خبرتهم العلمية، كما أنني لا أنكر في هذا المقام مدى إفادتي من كتابات الكردي،

(١) ابن فهد: نيل المنى، ١/ ٣٨-٣٩.
(٢) انظر الفصل الأول: الوظائف الدينية، المبحث الرابع: القاضي، ص ٩٨، والمبحث الخامس: الفقيه، ص١٢٣.
(٣) انظر الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٤٢٦.

وخصوصاً كتابه التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم، ومدى تأثري به وإعجابي بأسلوبه، إلا أنني أجد في نفسي ميلًا إلى أن أوضح أن هذه الوظيفة لم تكن في يوم من الأيام ممتهنة ولن تكون كذلك، فوظيفة البوابة وإن كانت من الوظائف الخدمية، وإن كان بعض الناس يضع عند البوابين نعالهم وحوائجهم، إلا أنهم يكفيهم فخرًا وشرفًا أنهم يعملون ليلًا ونهارًا في خدمة المسجد الحرام وحراسة أبوابه في ذلك الجو الروحاني الهادئ وداخل هذا البيت العتيق، فكانوا جنوداً مجندة، وهبت نفسها لخدمة المسجد الحرام خصوصاً إذا علمنا أن بعضهم كان يحرس أبواب المسجد الحرام ولا يبغي من وراء ذلك أجرًا أو مثوبة من أحد سوى جزاء الله سبحانه وتعالى، مضحيًا براحته في سكون الليل وهجوع الناس من أجل حراسة أبواب المسجد الحرام والاهتمام به.

ومَنْ منا لا يرجو أن يكون خادمًا لهذا البيت العتيق، الطاهر، حارسًا لأبوابه نهارًا عند حركة الناس وليلاً عند سكونهم.

وما هذه إلا كلمة حق قيلت أو أقل ما يمكن أن يقال في حق هؤلاء البوابين وعملهم العظيم.

هذا، وقد ذكرت بعض المصادر التاريخية عددًا من البوابين في المسجد الحرام، بل إن بعضهم قد اختص ببوابة باب محدد، ومن أهم البوابين وأشهرهم الذين عملوا في وظيفة البوابة في المسجد الحرام:

١ - إبراهيم بن حسين بن عمر الشيرازي[1]، المكي الخياط، وهو أحد الفقهاء

---

(١) هو إبراهيم بن حسين بن عمر بن أبي بكر بن محمد بن موسى الشيرازي الأصل، المكي، الخياط، تلقى العلم على يد عدد من العلماء وأجاز له عدد منهم، جلس للحديث في عام ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م، بالحرم الشريف، كان يعمل بالخياطة على باب بني شيبة، ولا يُعلم متى مات. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٣٣-١٣٤.

الذين تولوا البوابة بالمسجد الحرام، فكان بوابًا لباب بني شيبة[١].

٢ - جمال الدين الفيومي[٢]، كان بوابًا لباب الزمامية، توفي عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م[٣].

٣ - أبو بكر العجمي[٤]، كان بوابًا لباب أجياد الصغير، توفي عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م[٥].

٤ - بشير العظمة، كان بوابًا وفراشًا بالمسجد الحرام، توفي عام ٩١٤هـ/ ١٥٠٨م[٦].

هذا، وقد حاولت العثور على غير هؤلاء البوابين، باحثة في عدد من المصادر التاريخية، وكتب التراجم كالعقد الثمين، والضوء اللامع، ونيل المنى، وإتحاف الورى، والدر الكمين، إلا أنني لم أستطع العثور على أسماء أشخاص تولوا البوابة في المسجد الحرام غير ما ذُكر آنفًا.

وإن كنت أود وأرجو أن أدعم الكتاب بأكبر عدد من تراجم الشخصيات التي تولت وظيفة البوابة في المسجد الحرام، ولكن هذا ما استطعت العثور عليه، ولله الكمال أولًا وأخيرًا.

ولما يتعين على البواب من ملازمة الباب ليلًا ونهارًا والنوم عنده وعدم

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٣٣-١٣٤.

(٢) هو جمال الدين الفيومي قدم إلى مكة لأداء فريضة الحج فجاور بها، وكان مصاحبًا للفقراء بمكة، وعُين بوابًا للزمامية أول ما أنشئت، واستمر متوليًا إلى أن مات في عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م بمكة. ابن فهد: الدر الكمين، ٢/ ١٣٤١.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٤٨.

(٤) أبو بكر العجمي، بواب باب أجياد الصغير، مات بمكة في رجب عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م. ابن فهد: الدر الكمين، ٢/ ١٣٠٣؛ السخاوي: الضوء اللامع، ١١/ ١٠٠.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ١٣٤.

(٦) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٣٧٦.

التغيب عنه إلا للضرورة القصوى، ونتيجة لانشغاله بحراسة أبواب المسجد الحرام. نجد أن من يشغل هذه الوظيفة يتعذر عليه أن يجمع معها وظيفة أخرى.

فأغلب البوابين في المسجد الحرام لم تكن لهم وظائف أخرى كغيرهم من موظفي الحرم المكي، والذين شاهدنا أنهم كانوا يجمعون إضافة إلى وظيفتهم الرئيسة وظائف أخرى، بل قد شدد السلطان على البواب بأن لا يتولى وظيفة أخرى غير البوابة[١]، وذلك لما تتطلبه هذه الوظيفة من التفرغ التام لحراسة أبواب المسجد الحرام ومراقبة الداخل والخارج وحماية المسجد الحرام من دخول بعض الحيوانات، ولكن هذا لا ينفي وجود بعض الأشخاص من بوابي المسجد الحرام الذين اشتغلوا بوظيفة أخرى غير البوابة، وهي وظيفة الفراشة، فكان بعضهم بوابًا وفراشًا بالمسجد الحرام، وهذا ما أشارت إليه بعض المصادر التاريخية كبلوغ القرى للعز بن فهد، حيث ذُكر أن بشير العظمة، الذي كان بوابًا في المسجد الحرام، اشتغل أيضًا في الفراشة[٢].

وهكذا نستنتج أن بعض بوابي المسجد الحرام جمع إضافة إلى وظيفته الرئيسة وظيفة أخرى، وهي الفراشة، وربما كان ذلك من بعض بوابي المسجد الحرام القلة، وهذا ما جعل بعض المصادر التاريخية تذكر ذلك، في حين أحجم عنها بعضها الآخر.

رواتب البوابين:

حددت وثيقة الأشرف شعبان مبلغ ألفي درهم للبوابين في المسجد الحرام، تُقّسم بينهم بالسوية، إضافة إلى ما قُرر لهم من المعلوم من وقف

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٤٥.
(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٢٢٠.

السلطان الأشرف شعبان ولم توضح الوثيقة عددهم أو ما يحصل عليه كل بواب منهم[1].

كما تضمن مرسوم الأشرف برسباي الصادر في عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م، أن يُقرر لكل بواب من بوابي المسجد الحرام عشرة أشرفية معلومًا كل عام يُحمل له من الأوقاف المخصصة للحرمين[2].

والجدير بالذكر هو أن البوابين كانوا كغيرهم من موظفي المسجد الحرام تصل إليهم إضافة إلى رواتبهم بعض الهبات والصدقات التي كانت تصل إلى مكة المكرمة من قبل حكام بعض البلدان الإسلامية وأمرائهم وسلاطينهم، ويكون لهم فيها نصيبٌ وشأنهم في ذلك شأن جميع موظفي المسجد الحرام، وخير ما يستشهد به في هذا المقام ما حدث في عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، عندما حج السلطان الغوري وفرّق صدقة كبيرة بمكة، نال منها البوابون ثمانين دينارًا[3].

(١) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٥.
(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٦٤٦؛ انظر أيضا السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص١٩٧.
(٣) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٣، ٣/ ٧٩٣.

المبحث الخامس

خدام الحرم وأغواته

في اللغة:

واحد الخدم، والجمع خُدَّام، ويخدمه خدمة، فهو خادم، ويقال: اختدمت فلانًا واستخدمته أي: سألته أن يخدمني[1].

في الاصطلاح:

هي وظيفة مشتقة من الخدمة، حيث يقوم صاحبها بالخدمة الفعلية في الحرمين الشريفين[2].

هذا، ويطلق على خدام الحرم لفظ آخر وهو «الأغا» أو «الأغوات». وقبل أن نتطرق إلى الحديث عن الأغوات وتاريخهم وأصلهم وأعمالهم، لا بد أن نشير إلى معنى كلمة أغا أو أغوات.

في اللغة:

كلمة تركية تعني الأخ الكبير وتطلق على صغار الضباط، وأحيانًا على كبارهم، وتأتي بمعنى السيد والآمر، ورئيس الخدم[3].

---

(١) ابن عباد: المحيط في اللغة، ٤/ ٣٠٨؛ ابن منظور: اللسان، ٢/ ١١١٥؛ الفيروز آبادي: القاموس المحيط، ٤/ ١٠٤.

(٢) الباشا: الفنون الإسلامية، ١/ ٤٤٠.

(٣) دهمان: معجم الألفاظ التاريخية، ص١٨.

في الاصطلاح:

هم فئة من الناس يخدمون الحرمين الشريفين في مكة المكرمة والمدينة المنورة ويكونون عادة من الخصيان[١].

ويطلق على الخصي طواشي، ويطلق عليه في الحجاز «أغا»، فيقال أغوات الحرم أي طواشية المسجد الحرام، وتعني كلمة «أغا» عند الأعاجم الرجل العظيم، صاحب السلطة والنفوذ، وربما لهذا السبب أطلق الأعاجم لفظ «الأغا» على طواشية المسجد الحرام لما يتمتع به هؤلاء الأغوات من السلطة والنفوذ، ومن ثم أخذها عنهم أهل الحجاز فأطلقوها عليهم[٢].

والأغوات طبقة من الخدم أُعتِقُوا وعاشوا لخدمة الكعبة وتنظيف البيت الحرام وحفظ مفاتيح الغرف التي تحوي أدوات التنظيف والأدوات الصحية، ولهم رتب وظيفية، كما لهم مرتبات شهرية[٣].

وأصل أكثرهم من منطقة «ولّو» التي تقع شمال غرب أثيوبيا، وقليل منهم في دارفور[٤] غرب السودان[٥].

---

(١) الأنصاري: عبدالرحمن عبدالكريم، تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب، تحقيق محمد العروسي، ط١، المكتبة العتيقة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م، ص٥٣؛ العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة، ص٢٦١. وأول من استخدم الخصيان في الإسلام يزيد بن معاوية، وقد كان لرسول الله ﷺ خادم خصي وهو مأبور الخصي الذي أهداه المقوقس. ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي الجزري، أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، د. ت، ٤/ ٢٢٩.

(٢) الأنصاري: تحفة المحبين، ص٥٣؛ الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٢٦، ٤٢.

(٣) الصاوي: الكعبة المعظمة، ص٢٤٢-٢٤٣.

(٤) دارفور: أي بلاد الفور، بلاد التكرور من أفريقيا الوسطى، وهي واحة كبيرة في الجهة الجنوبية الشرقية من الصحراء الكبيرة، أهاليها عرب وزنوج ولغتهم العربية وديانتهم الإسلام، كان حاكمها مستقلًا مستبدًا في بلاطه، وكانت له احتفالات خصوصية غريبة فكان لا يتكلم مع أحد دون ترجمان، وإذا بصق يلزم حاشيته أن يجمعوا بصاقه بأيديهم، وإذا كبا فرسه به لزم كل فرد من حاشيته يفعل مثله، وحرسه كان مؤلفًا من فرقة من النساء العجائز، وقد ضمت إلى مصر وأعظم مدنها قبة، وتجارتها في البضائع السودانية مع مصر، رائجة كغيرها. الخانجي: محمد أمين، منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان، ط١، ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م، ١/ ١٨٥-١٨٦.

(٥) الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٣٥٨.

وخير من يوضح ذلـك الرحالة ابن بطوطة بكلام هـذا نصه: «وخدام هذا المسجد الشريف وسدنته فتيان من الأحابيش وسواهم، وهم على هيئات حسان، وصور نظاف، وملابس ظراف»[١].

كما وصفهم ابن جبير بالسدنة الحارسـين للمسجد، وأنهم فتيان أحابيش وصقالبـة، وأنهم تميـزوا عـن غيرهم بحسـن المظهـر ونظافة الملابـس وظرف الهيئة[٢].

تاريخهم:

يبدو أن اسـتخدام الخدم والأغـوات للعناية بالمسـجد والاهتمام بأموره أمـر قديـم، إذ نجـد أن معاوية بـن أبي سـفيان هـو أول من رتـب العبيـد لخدمة الحرمين الشـريفين، ولعلهم كانـوا عبيدًا أرقاء لا خصيانًا[٣]، ومـن ثم تبعه الولاة في ذلك، واسـتمر إخـدام الكعبة المشـرفة بالعبيد منـذ ذلك الوقت إلـى العصر الحاضر[٤]، وأول من اتخذ الخصيان يزيد بن معاوية[٥].

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٣٩.

(٢) ابن جبير: الرحلـة، ص١٥٠؛ الأنصاري: تحفـة المحبين، ص٥٥؛ نـواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص٢٠٧.

(٣) الخصاء: هو الشـق على الأنثيين وانتزاعهما، وقد أفتى العلماء بتحريـم الخصاء صغيرًا كان أو كبيـرًا؛ لما في ذلك من تعذيب النفس والتشـويه وإبطـال معنى الرجولة، وتغييـر خلق الله كفر بالنعمـة؛ لأن خلق الشـخص رجـلًا من النعـم العظيمة فإن هـو أزال ذلـك فقد تشـبه بالمرأة. الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٢٧.

(٤) الأزرقـي: أخبـار مكـة، ١/ ٢٥٤؛ ابن الضيـاء القرشـي: أحوال مكـة المشـرفة، ١/ ١٦٦؛ ابن ظهيـرة: الجامع اللطيف، ص٧٠؛ الأسـدي: إخبار الكـرام، ص١٦٥؛ باسـلامه: تاريخ الكعبة المعظمة، ص٣٦٣، الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٢٦.

(٥) ولد يزيد بن معاوية من ميسون بنت بحدل الكلبية وهي امرأة بدوية تزوجها معاوية قبل أن يلي الخلافة، غير أنها لـم تحتمل المعيشـة في دمشـق فردها إلى أهلها، فنشأ يزيد على ما عودته أمه من معيشة البدو، ولما مات معاوية بايع الناس يزيد بالخلافة. حسن: تاريخ الإسلام، ١/ ٢٣٤.

ولا نعلم بالضبط تاريخ استخدام الأغوات في الحرمين الشريفين، فلم تذكر المصادر التاريخية تاريخًا محددًا لذلك، إلا أنها ذكرت أن أول من رتب الأغوات في المسجد الحرام أبو جعفر المنصور(١)، وكان ذلك تقريبًا في عام ١٣٥هـ/ ٧٥٢م(٢).

والسبب الرئيس لاستمرارهم في الحرمين هو صلاح الدين الأيوبي، حيث عمل على تثبيتهم في أعمالهم، وكتب لهم كتابًا وقفهم فيه على المسجد النبوي، وهو موجود لديهم إلى وقت السخاوي، وقبل ذلك كان يخدم المسجد الحرام والمسجد النبوي أمراء مكة والمدينة وولاتهما ومن جاور من الحجاج، إلى أن تولى صلاح الدين الأيوبي أمر بلاد الحجاز، وكان ذلك في عام ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، فأرسل فتيانًا من الأحابيش والصقالبة، وقد اشتُرط في هؤلاء الطواشية أو الخدم أن يكونوا حفاظًا للقرآن العظيم وأن يكونوا حبوشًا، وإن لم يكن فأروامًا(٣)، فإن لم يكن وعدموا فتكاررة، وإن لم يوجد فهنود، واستمروا على هذا الوضع وهذه الشروط مدة من الزمن ثم صار الشرط باطلًا حتى صار غالبهم من أقل الطبقات الاجتماعية من الهنود(٤).

وكان يشغل هذه الوظيفة في العهد المملوكي طواشية إما من الأحباش أو غيرهم من الأجناس(٥).

---

(١) هو أبو جعفر عبدالله بن محمد بن علي العباسي ثاني الخلفاء العباسيين ولد سنة ١٠١هـ/ ٧١٩م، في الحميمة من أرض الشراة على مقربة من العقبة، توفي في عام ١٥٨هـ/ ٧٧٤م، وهو في طريقه إلى مكة لأداء فريضة الحج. المرجع السابق، ٢/ ٢٨.

(٢) باشا: مرآة الحرمين، ١/ ٢٦٠؛ البتنوني: الرحلة الحجازية، ص١٠١.

(٣) الروم: جيلٌ معروف، واحدهم رومي، ينتمون إلى عيصوً بن إسحق النبي عليه السلام، وروم ورومي من باب زنجي وزنج. ابن منظور: اللسان، ٣/ ١٥١.

(٤) السخاوي: التحفة اللطيفة، ١/ ٦١-٦٣؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص٥٣-٥٤؛ العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة، ص٢٦١؛ نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص٢٠٧.

(٥) الباشا: الفنون الإسلامية، ١/ ٤٤١.

والجدير بالذكر أن هـؤلاء الطواشـية أو الأغوات لـم يكونـوا خدمًا في المسـجد النبوي إلا في عـام ٥٥٧هـ/ ١١٦١م، وأنَّ اسـتخدامهم في المسـجد الحرام بمكـة المكرمة حـدث بعد هـذا التاريخ تقليـداً وامتثالًا لما في المسـجد النبوي من الخدم، ومما يُدَعِم هذا القول ويقوّيـه أن ابن جبير لم يذكر في رحلته سـنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م، أنه رأى بالمسـجد الحرام طواشـية وأغواتاً يخدمون في الحـرم المكي، في حين ذكـر أنه رأى هؤلاء في المسـجد النبـوي، بل ووصفهم بالأحابيـش الصقالبـة، حسـان الهيئة والمنظر، وهـو قد مكث في مكـة المكرمة للحج ثمانية أشهر[١].

وهكذا يتضح لنا مما سـبق أن اسـتخدام الطواشـية والخدم في المسـجد النبـوي أقدم منـه في الحرم المكـي، إذن فأول اسـتخدام للخـدم والأغوات كان في المسـجد النبوي في المدينة المنورة، ثم وجدوا في الحـرم المكي، ونرى أن كثيـراً من المصادر التاريخية، كصبح الأعشـى[٢] وتحفة المحبيـن[٣]، والرحلات كرحلة ابـن جبير[٤]، ورحلة ابـن بطوطة[٥]، عنـد حديثها عن الأغـوات والخدم، فإنها تتحدث عنهم في المسـجد النبوي من حيث أصلهـم وتاريخهم أو أعمالهم ومهماتهم في المسـجد، ولكننا نستنتج قياساً على ذلك أن الأغوات في المسجد الحـرام كانـوا لا يختلفـون كثيرًا عـن خدم المسـجد النبـوي وأغواتـه، فالأصل والنشـأة واحدة والأعمـال والمهمات الملقاة علـى عاتقهم في المسـجد النبوي هي «الأعمال نفسـها» التي كانوا يُكلفون بالقيام بها في المسـجد الحرام في مكة المكرمة، ولهـؤلاء الأغوات والخـدم رئيس أو كبيـر يُطلق عليه «شـيخ الخدام»

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٥٠.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ١٢/ ٢٦٠.
(٣) الأنصاري: تحفة المحبين، ص٥٣-٥٦.
(٤) ابن جبير: الرحلة، ص١٥٠.
(٥) ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٣٩.

وهـو في هيئـة الأمراء الكبـار، وجرت العـادة أن يتولى مشـيخة الخـدام أقدمهم خدمة، وأن يكون من طبقة أمير كبير، إلا أن هذا النظام ما لبث أن تغير منذ القرن التاسـع الهجري/ الخامس عشـر الميلادي، أضف إلى ذلـك أن هؤلاء الأغوات كان لهم بيت مال خاص بهم، كما أنهم يرث بعضهم بعضًا(١).

مهمات خدام الحرم وأغواته وواجباتهم:

لما يتمتع به المسـجد الحرام مـن أهمية كبيرة، ومكانـة عظيمة في جميع أصقاع البلاد، كان لا بد من تعيين عدد من الخـدام وتكليفهم بعدد من المهمات والواجبات من أهمها:

١ - العنايـة بالمسـجد الحـرام خـلال سـاعات النهـار وإغـلاق أبوابـه ليلًا، والمبيت فيه لحراسته(٢).

٢ - تنظيف المطاف وحجر إسـماعيل ومقام إبراهيم عليه السلام، والفرش الحجري المحيط بمدار المطاف الذي عليه مقامات الأئمة(٣).

٣ - القيام بخدمة الخطيب في أثناء خطبته على المنبر(٤).

٤ - إشعال القناديل وإطفاؤها، والدوران بالفوانيس بعد صلاة العشاء، وذلك لتفقد من يُخشى مبيته ومنعه من ذلك(٥).

٥ - تنزيـل القناديـل وتعليقها للتعميـر والوقـود والاهتمام بنظافتها ومسـحها وإسـراج ما يوقد منها سـحرًا، كما يضيئون القناديل التي على الأسـاطين

(١) ابـن بطوطة: الرحلـة، ١/ ١٣٩؛ باسـلامه: تاريـخ الكعبة المعظمـة، ص٣٦٣-٣٦٤؛ الباشـا: الفنون الإسلامية، ١/ ٤٤١.

(٢) السخاوي: التحفه اللطيفة، ١/ ٦١ - ٦٣؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص٥٥.

(٣) باسلامه: تاريخ الكعبة المعظمة، ص٣٦٤؛ الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٤١.

(٤) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٤٢.

(٥) السخاوي: التحفة اللطيفة، ١/ ٥٠؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص٥٥ - ٥٦.

المحاطة بصحن المطاف والمقامات الأربعة، وعادة يكون لهم نظام خاص في كل ذلك[١].

٦ - تنظيف المسجد وكنسه وإيقاد البخور بالمسجد أيام الجمع، كما يوقد البخور بعد إطفاء القناديل صونًا لرائحتها الكريهة[٢].

٧ - المحافظة على نظام المسجد الحرام وهدوئه وتنظيم صفوف المصلين وملاحظة تصرفات الوافدين على المسجد الحرام من الأطفال وغيرهم[٣].

٨ - فصل الرجال عن النساء في الحصاوي[٤]، وإخراجهن من المطاف في أوقات الصلاة، وأول من فرّق بين الرجال والنساء في الطواف خالد بن عبدالله القسري، حيث أجلس عند كل ركن حرسًا معهم سياطٌ يفرقون بين الرجال والنساء[٥].

ويُعَدُّ علي بن عبدالله بن عباس الهاشمي العباسي أول من فرّق بين النساء والرجال في جلوسهم في المسجد الحرام[٦].

وهكذا نرى أنه رغم وجود الأغوات أولًا في المدينة المنورة ثم بعدها بمدة ربما قصيرة أو طويلة - لا ندري - ولم تشر المصادر التاريخية إلى تاريخ محدد وزمن معين يشير إلى وجودهم في الحرم المكي - إلا أنهم كانت لهم تقريبًا الوظائف والأعمال أنفسها ولا اختلاف في ذلك، وإن وجد اختلاف في ذلك فهو طفيف ولا يذكر.

---

(١) الأنصاري: تحفة المحبين، ص٥٥؛ باسلامه: تاريخ الكعبة المعظمة، ص٣٦٤.

(٢) السخاوي: التحفة اللطيفة، ١/ ٥٠؛ الأنصاري: تحفة المحبين، ص٥٦؛ انظر أيضًا العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة، ص٢٦٣.

(٣) الصاوي: الكعبة المعظمة، ص٢٤٣؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٣٥٧.

(٤) وهي مساحة المسجد المحيطة بالمطاف والمفروشة بالحصباء.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ١٥؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٣٥٧.

(٦) العز بن فهد: غاية المرام، ١/ ٤٤٤.

مراسم التعيين:

لما يتمع به أغوات المسجد الحرام من شـأن كبير ومكانة عظيمة نبعت من مكانة المسجد نفسه، كان تعيين أحدهم شيخًا أو رئيسًا عليهم لا بد أن يتم بمرسوم سـلطاني، وهذا مـا يظهـر جليًا فـي كتاب صبـح الأعشـى لمؤلفـه القلقشـندي(١)، حيث ذكر صورة من المراسـيم السـلطانية الخاصة بتعيين الأغـوات ولكنها خاصة بأغوات المسـجد النبوي فـي المدينة المنـورة، ولم يذكر صورة مرسـوم سـلطاني خاص بأغوات المسـجد الحرام في مكة المكرمة، ولعل السبب في ذلك هو ظهور الأغوات في المسجد النبوي قبل ظهورهم في المسجد الحرام حيث يعود ظهورهم في المسجد النبوي إلى عام ٥٥٧هـ/ ١١٦١م – كما سبقت الإشارة إليه – ولكن ما نحن بصدد الإشارة إليه هو أن القلقشـندي ولد في عام ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م، فالظاهر أنه إلى هذا الوقت لم يكن في المسـجد الحرام طواشـية، أو أن القلقشندي لم يعثر على مرسوم سلطاني يخص طواشية المسجد الحرام وأغواتهم (٢).

والأرجح أن القلقشـندي لم يجد صورة مرسوم سـلطاني يخص طواشية المسجد الحرام وأغواتهم في مكة المكرمة؛ لأننا نرى مما تقدم أن وجود الخدم والطواشـية في المسـجد النبوي، كان فـي عام ٥٥٧هــ/ ١١٦١م، ثـم بعد ذلك وجدوا في المسـجد الحـرام، ربما بعد هـذا التاريـخ بقليل أو كثيـر، ولكن ما لا نتوقعه أن تأتي سـنة ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م، ولـم يوجد أغوات بالمسـجد الحرام، في حين كان هنـاك أغوات في المسـجد النبوي منذ عام ٥٥٧هــ/ ١١٦١م، والفرق بيـن التاريخين كبير فمن غير المعقول عدم وجود طواشـية للمسـجد الحرام عام ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ١٢/ ٢٦٠ -٢٦١.
(٢) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٢٦، ٤٢.

والجدير بالذكر أن لهؤلاء الأغوات رتباً معينةً، فنجد أن الشخص منهم يرتقي في السلم الوظيفي من رتبة إلى أخرى حتى يصل إلى رتبة شيخ طائفة الأغوات، فأول ما يدخل الأغا في الخدمة يُسمى نفر وله الخدمة، ثم يترقى بعد ذلك بالتسلسل، فيبلغ وظيفة شيخ المفتاح وتنحصر مهمته في حفظ مفاتيح غرف الأدوات كأواني تنظيف مدار المطاف والحجر وأطراف الكعبة والشمعدانات وما إلى ذلك، ثم يترقى فَيَصِلُ إلى وظيفة دور ورى ويقوم صاحبها بمراقبة الأغوات في أثناء قيامهم بتنظيف الصحن وما حوله، ثم يترقى إلى رتبة ضابط أول ويدخل في سلك البطالين[(١)]، ولهؤلاء البطالين عدد من الوظائف من أهمها كنس مدار المطاف وما يتبعه من حجر إسماعيل وتنظيم صفوف المصلين داخل الصحن والفرش الحجري المحيط بالصحن الذي عليه مقامات الأئمة فقط، ولا يحق لهم الجلوس مع الأكابر في الدكة، وإنما يجلسون خارجها، ثم يترقى الشخص إلى رتبة خبزي[(٢)] وعادة لا يتجاوز عددهم أحد عشر نفرًا، وإذا مات أحدهم ارتقى إلى الوظيفة أقدم البطالين خدمة، ثم يترقى من الخبزية فيبلغ وظيفة بيت المال الخاص بهم، ثم يترقى منها إلى رتبة نقيب ومن نقيب يرتقي إلى أعلى هذه الرتب وهي رتبة شيخ طائفة الأغوات، كما يوجد لديهم ما يُسمى بالمستلم ووظيفته تسلم الصدقات، كما أنه مسؤول عن جميع ما يتصرف فيه

---

(١) الخدام البطالون: البطالون جمع مفرده بطال، والبطال هو بطالة الفاعل من العمل أي تعطل وتفرغ فهو بطال، والبطالة: التعطل والتفرغ من العمل، وعلى ذلك فالبطالون هم الذين لا عمل لهم، وهم المقيمون بالحرم النبوي الشريف أو ممن اضطروا إلى الاعتكاف أو الاختفاء أو لمجرد حب الابتعاد والانزواء عن الناس. الدهمان: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي، ص٣٥.

(٢) خبزي: هم الأعاجم ويعرفون بالخبزيين. البدرشيني: أحمد بن هاشم، أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي، دراسة تاريخية حضارية وثائقية من واقع أرشيف القاهرة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص٢٣٠.

الأغوات ومصالح المسجد الحرام من زيت وشمع وما إلى ذلك[(١)]، وربما تكون هذه الوظيفة أو هذه الرتبة أشبه برتبة شيخ المفتاح أو ربما يكون المستلم هو شيخ المفتاح.

وفي حال خلو إحدى هذه الوظائف بالموت أو العزل أو أي سبب آخر، فإنها تُشغل عادة من الرتبة التي قبلها، ويتم ذلك حسب الأقدمية[(٢)].

وعادة لا ينضم لسلك الأغوات من يُهدَى أو يوهب لخدمة المسجد الحرام إلا بعد رضا الأغوات بدخوله، ولا يتم رضاهم إلا بدفع مبلغ من المال من قبل الواهب، أو المنضم نفسه إذا كان ذا مال[(٣)].

والجدير بالذكر أن هؤلاء الأغوات كانوا يجلّون شيخهم ويحترمونه، كما أنهم لا يخرجون عن أمره مطلقًا[(٤)].

وللأغوات قوانين انتهجوها وساروا عليها، ولهم فيها ما يسمح بمعاقبة المخطئ منهم ضربًا في حال خطئه أو إساءة سلوكه، وبالنفي لأي بلد يريده في حال السرقة، أو إذا رأوا فيه ما يشين كالخيانة[(٥)].

هذا وقد تميز الأغوات بزي معين ولباس خاص يُعرفون به، فقد وصفهم ابن بطوطة - كما سبقت الإشارة إليه - بحسن الهيئة ونظافة الصور وظرف الملابس[(٦)]، وقد كساهم صلاح الدين الأيوبي بملابس بيضاء، وعلق عليهم

(١) باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة، ص٣٦٤-٣٦٥؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٣٥٨.
(٢) الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٣٥٨.
(٣) المرجع السابق، ص٣٥٨.
(٤) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٤١-٤٢.
(٥) الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٣٥٩.
(٦) ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٣٩.

شـارات خاصة بهم، وهو أول من أرسـى هذا التقليد لخدام الحرمين الشـريفين، كمـا يُعَـدُّ أول مـن ثبّـت قاعدتهم فـي الحرميـن وأوقـف عليهـم الأوقـاف، ثم أوقـف عليهم الصالـح والناصر محمد بن قـلاوون وقفًا آخر يحصلـون منه على رواتبهم(١).

كما أن لهم نظامًا داخليًا خاصًا يسيرون عليه ويستقلون به عن غيرهم من الفئات الأخرى، فلكل شخص منهم لقب خاص اصطلحوا عليه فيما بينهم(٢).

حجرة الأَغوات:

ومن ضمن بيـت زمزم حجرة واقعة في الجهـة الجنوبية تعرف بـ «حجرة الأغـوات» وهـي تابعة لأغـوات المسـجد الحـرام، حيث يضعـون فيهـا أدوات تنظيف صحـن المطـاف والمـدار المرصـوف بالحجـر الصـوان(٣). الـذي عليه المقامات الثلاثة، كما توضع فيها الشـموع التي توضـع كل ليلة على باب الكعبة وتوقد من الغروب إلى بعد صلاة العشاء، ومن الفجر إلى الأسفار، وما إلى ذلك من أدواتهم ولوازمهم، ويقع بجانب حجـرة الأغوات باب الدرجة المصعدة إلى المظلة التي تعلو بئر زمزم(٤).

ولأغوات المسـجد الحرام مكانـة اجتماعية مرموقة، نبعت هـذه المكانة وبلا شـك من خدمتهم للمسـجد الحرام واهتمامهم بأموره، والطريف في الأمر ومـا يدعو للعجـب هو أن بعـض هؤلاء الأغـوات كان يتـزوج النسـاء، ولكنه لا

---

(١) الأنصاري: تحفة المحبين، ص٥٥؛ العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة، ص٢٦١-٢٦٢.

(٢) الكـردي: التاريخ القويـم لمكـة، م٢، ٤/ ٤١ – ٤٢؛ الزهراني: التاريخ السياسـي والحضاري لمكة، ص٣٥٧.

(٣) الصَّوَّان: ضرب من الحجارة فيها صلابة. الفيومي: المصباح المنير، ص١٣٥.

(٤) باسـلامة: تاريخ عمارة المسـجد الحـرام، ص١٨٣؛ كوشـك: يحيي حمزة، زمـزم طعام طعم وشفاء سقم، ط٢، دار العلم للطباعة – جدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص٤٢.

يمارس معهن الوطء، وإنما يتزوجها لتقوم بخدمته والتحدث معه، وعادة لا تقبل بالزواج منهم إلا امرأة أصابها الفقر والعوز ولم تجد قوت يومها فتقوم بتعذيب وإرهاق نفسيتها كامرأة، وهذا أمر يخالف طبيعة البشر، ولكن ورغم ذلك فهي ترضى بهذا الوضع، وكان ذلك مثار دهشة وتعجب المؤرخ جار الله بن فهد حيث ذكر ذلك في كتابه نيل المنى.. «في ليلة الثلاثاء خامس عشر الشهر - المقصود شهر ذي القعدة من سنة ٩٢٥هـ/ ١٥١٩م، ماتت جانسوار التركية زوجة الأغا صندل بن عبدالله الخصي عتيق السلطان بايزيد بن عثمان، فجُهِّزت ليلتها وُصلّي عليها بعد صلاة الصبح وشيّعها قضاة القضاة وخلف من الأعيان ودُفنت في تربة، وهذا شيء عجب»[١].

والجدير بالذكر أن خدمة المسجد الحرام لم تقتصر على الرجال فقط، بل شملت النساء أيضًا فهذه صفية الزبيدي[٢]، التي اختصت بخدمة الفقراء في الحرمين الشريفين، كما ترجمت بتراجم منها: الست الشيخة العالمة العاملة، الزاهدة، شيخة الصوفيات[٣].

وربما كان المقصود بخادمة الفقراء، أي التي تهتم بأمور الفقراء الموجودين في الحرمين الشريفين، وتقوم برعايتهم وخدمتهم.

هذا، وقد تنوعت اختصاصات خدام الحرم المكي؛ فمنهم من اختص بخدمة درجة الكعبة المشرفة[٤]، وقد ذكرت وثيقة الأشرف شعبان ما يدل على

---

(١) ابن فهد: نيل المنى، ١/ ١٨٩-١٩٠، انظر أيضًا الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٣٥٩.

(٢) هي صفية بنت إبراهيم بن أحمد بن يحيى الزبيدي، المكية، تكنى أم الفضل، توفيت بمكة المكرمة في سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م. الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ٤١٠.

(٣) المصدر السابق، ٦/ ٤١٠.

(٤) ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٩٧، ٤٨٤؛ معجم الشيوخ، ص٦٩؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٢/ ٣١؛ ابن فهد: نيل المنى، ٢/ ٧٣٢.

وجود خدام للسلم الذي يتوصل من عليه لفتح باب الكعبة المشرفة، وقد عُمل هذا الدرج للكعبة المشرفة في عام ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م، وظل استخدام هذا السلم اثنتين وخمسين سنة، وكانت تنحصر مهمة خدام سلم الكعبة على تنظيف السلم[١].

ومنهم من اختص بخدمة قبة العباس وبئر زمزم[٢]، ومنهم من اختص بخدمة الكعبة المشرفة[٣]، ومنهم من اختص بخدمة الفقراء في الحرمين الشريفين[٤] - كما سبقت الإشارة إليه -.

رواتب خدام الحرم وأغواته:

أوقف السلطان الأشرف برسباي وقفًا خاصًا بخدام الحرم المكي، وقرر فيه صرف ثلاثين ألف نصف فضة ديوانية سنويًا تُرسل بصحبة الركب الشريف مع أمير الحاج المصري؛ ليقوم بتسليمها لشيخ الحرم المكي الشريف[٥]، وخصصت وثيقة الأشرف شعبان لخدام سلم الكعبة المشرفة مبلغ ثلاثمئة درهم نقرة سنويًا، ولم تحدد الوثيقة عدد هؤلاء الخدام[٦].

وقد كان يحصل هؤلاء الخدام على نصيب من الهبات والصدقات التي كانت تصل إلى مكة المكرمة وتوزع على موظفي المسجد الحرام، ففي عام ٩٠٧هـ/ ١٥٠١م، دعا الخطيب محب الدين النويري للسيد جازان على ظلة زمزم، فأمر جازان بخمسة دنانير للفراشين وخدام الدرج[٧].

---

(١) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٣.
(٢) ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٦٢٧؛ ابن فهد: نيل المنى، ١/ ٢٤٦.
(٣) ابن فهد: نيل المنى، ١/ ٢٢٥.
(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ٤١٠.
(٥) البدرشيني: أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي، ص٢٣٠-٢٣١، وقد استمر ريع صرف السلطان برسباي على خدام الحرم حتى العصر العثماني.
(٦) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص١٠٣.
(٧) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٣.

ولأغوات المسجد الحرام الكثير من الأوقاف المرصودة لهم في بعض البلدان كالبصرة وبغداد والشام والمغرب والمدينة المنورة، كما كانت تأتيهم مرتبات مخصوصة من قبل الدولة العثمانية، إضافة إلى ما يصل إليهم من هبات وهدايا وصدقات من أمراء الدول الإسلامية وزعمائهم[(١)].

ولهم مرتبات بديار مصر والشام يؤتى إليهم بها سنويًا[(٢)].

---

(١) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٢٦، ٤٢؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٣٥٨

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٣٩.

الفصل الخامس

تأثير المسجد الحرام
في المجتمع المكي

المبحث الأول: المسجد الحرام وأثره في نشر العلم بوصفه جامعة دينية.

المبحث الثاني: ظهور بيوت تسمت بأسماء الوظائف.

المبحث الثالث: مكانة الوظيفة الدينية في المجتمع المكي.

المبحث الرابع: جهود العلماء في التأثير في المجتمع المكي ومحاربة البدع.

المبحث الأول

المسجد الحرام وأثره في نشر العلم بوصفة جامعة دينية

يُعَدُّ المسجد من أهم الركائز الأساسية لنشر العلم، بل يُعد نواة التعليم الأولى، ومما لا شك فيه أن النشاط التعليمي من أهم وظائف المسجد بعد الشعائر التعبدية المحضة واللصيقة به كالصلاة، إضافة إلى وظائفه الأخرى بجانب وظيفته الأساسية في العبادة. فَيُعَدُّ المسجد دارًا للحكومة تتخذ فيه أصعب القرارات وأهمها، وتُقرر فيه الغزوات وتُعقد فيه الحلقات العلمية، فمن المسجد خرجت الجيوش الإسلامية محققة أغلى الانتصارات وأروعها في مشارق الأرض ومغاربها، ومنه تخرّج كثيرٌ من العلماء والفقهاء والقرّاء، كما عُدَّ بيت الأتقياء ومكان اجتماع المسلمين والمنتدى الذي يتعارفون فيه، وانطلاقًا من هذه الشمولية وتلك الأهمية، بات المسجد مؤسسة اجتماعية جمعت المسلمين على الحب والتعاون والإخاء والإيثار، إضافة إلى دورها المؤثر في بناء الأمة الإسلامية والسير بها نحو خطى التقدم والرقي، وتطورها دينيًا وفكريًا على مر العصور والأزمان، بل أصبح المسجد عقل المجتمع المفكر وقلبه النابض والإرادة القوية التي دفعته نحو التقدم والتطور[(١)].

---

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٧٠؛ المشيقح: تاريخ أم القرى، ص٤٦؛ الوشلي: عبدالله قاسم، المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٤٨؛ الهمزاني: أثر السلاطين والأمراء، ص٤١٢.

لذا كان اهتمام الرسول ﷺ بالمسجد في الدرجة الأولى، بل كان حريصًا كل الحرص على الاهتمام به والتشجيع له، فكان جامعة إسلامية متكاملة - ولعل ذلك لم يكن في بادئ الأمر إنما تدرج حتى أصبح مدرسة إسلامية ومن ثم جامعة علمية ضخمة تجمع في جنباتها أهم العلوم والمعارف - فقد وضع الرسول ﷺ اللبنات الأولى لنهضة علمية متكاملة لم ير التاريخ لها مثيلًا، حيث أقام حلقات العلم في المسجد وعلَّم أصحابه فيها وشجع من يقيمها وجلس إليهم فيها، ورغَّب في تعهدها والحضور إليها وحذر من التقصير فيها، ويدل ذلك دلالة واضحة وجلية على المكانة الكبرى لهذه الحلقات، وما لها من أهمية بالغة وضرورة ملحة للأمة والمجتمع[١].

وقد حمل النبي ﷺ على عاتقه مهمة تعليم الجاهل وإفتاء السائل وتبيين أحكام الشريعة الغرَّاء للناس كافة وحمل الصحابةُ والتابعون من بعده هذه المهمة وساروا على نهجه في إقامة حلقات العلم، بل أصبحوا يتنافسون على حضورها ويوصي بعضهم بعضًا بها، فكان عهدهم امتدادًا واضحًا لعهده ﷺ، ولا غرابة أن يكون مد الحركة العلمية فيه مسايرًا لكل ما يجدُّ من فتوح وعلوم ومعارف شتى[٢].

وخير ما يمثل ذلك ما أوردته كتب السنة النبوية، حيث ذُكرت كثيرٌ من الأحاديث النبوية التي تؤكد على أهمية حلقات العلم وتبين فضلها، منها ما أورده البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة، فأقبل اثنان إلى رسول الله ﷺ وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله ﷺ، فأما

(١) الوشلي: المسجد ونشاطه الاجتماعي، ص٤٨.

(٢) المرجع السابق، ص٤٨-٤٩؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٢٣؛ الهمزاني: أثر السلاطين والأمراء، ص٤١٣.

أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبـًا، فلما فـرغ رسول الله ﷺ قال: «ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فآوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا، فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض، فأعرض الله عنه»[(١)].

وعن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ مر بمجلسين في مسجده، أحد المجلسين يدعون الله ويرغبون إليه، والآخر يتعلمون الفقه ويعلمونه فقال ﷺ: «كلا المجلسين خير وأحدهما أفضل من صاحبه، أما هؤلاء فيدعون الله ويرغبون إليه فإن شاء أعطاهم وإن شاء منعهم، وأما هؤلاء فيتعلمون ويعلمون الجاهل، وإنما بعثت معلماً ثم أقبل فجلس معهم[(٢)].

وعن صفوان بن عسال الراوي رضي الله عنه قال: «أتيت رسول الله ﷺ وهو في المسجد متكئًا على برد له أحمر، فقلت له: يا رسول الله، إني جئت أطلب العلم. فقال: «مرحبًا بطالب العلم، إن طالب العلم تحفه الملائكة بأجنحتها، ثم يركب بعضهم بعضًا حتى يبلغوا السماء الدنيا من محبتهم لما يطلب. فما جئت تطلب؟» قال: قلت: يا رسول الله لا أزال أسافر بين مكة والمدينة. فأفتني عن المسح على الخفين[(٣)]» وما هذا إلا جزءٌ يسيرٌ من أهم ما ذكرته السنة النبوية في فضل العلم وطلبه وجزائه والحث عليه سواء من قبل الرسول ﷺ أو من قبل الآيات القرآنية التي تحث على العلم وتعظم درجة المتعلم عن سواه، وخير ما

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، ٤/ ١٧١٣؛ ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق عبدالقادر الأرناؤط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت، ٨/ ١١.

(٢) ابن عبدالبر: أبو عمر يوسف، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، ط١، دار ابن الجوزي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ١/ ٢٢٣.

(٣) المصدر السابق، ١/ ١٥٥؛ المنذري: عبدالعظيم بن عبدالقوي: الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، تصحيح، مصطفى محمد عمارة، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م، ١/ ٥٩.

يستشـهد به في هذا المقام قوله تعالـى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[(١)].

كما جاء في محكم آياته ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٢)].

وهكذا أصبح الرسول ﷺ معلمًا في هذه الحلقات، وأصبح المسـجد منارة تنشر الهدى والحق بين الناس، ونبراسًا أضاء للكثير منهم طريق العلم والإيمان.

ونتيجة لذلك يُعَدُّ المسجد المدرسة الأولى في الإسلام، فقد فتحت كثيرٌ من المسـاجد أبوابها للـدرس والتعليم، ومدّ كثيرٌ مـن المعلمين والقـراء أيديهم لطـلاب العلم لانتشـالهم من بـرك الجهل والضلال إلـى جنان العلـم والمعرفة، خصوصـاً إذا علمنـا أن عامـة الناس مـن الذيـن يرغبون فـي تعليم أبنائهـم كانوا يبعثـون بهم إلى المسـاجد حيث حلقـات العلم التـي تدرس القـرآن والحديث، وعلى ذلك يُعَدُّ القراء من أقدم المعلمين في الإسلام[(٣)].

ويُعد مصعب بـن عمير من أهم المقرئيـن الذين كان لهم أثـرٌ إيجابيٌ في إقراء الناس وتفقيههم في أمور دينهم، وذلك عندما بعثه الرسول ﷺ إلى الأنصار ليقرئهم القرآن في المدينة قبل قدومه عليه الصلاة والسلام إليها[(٤)].

دور المسـجد الحرام فـي نشـر العـلم:

لما فُتِحَت مكة المكرمة وطُهرت من جميع الأصنام والأدناس واستُردت حرمة البيـت العتيـق، أصبح المسـجد الحـرام مركـزًا علميًا يشـع نورًا وشمسًـا سطعت لتضيء ذلك الكون المظلم مبدلة عتمته بنور العلم والهداية.

---

(١) سورة المجادلة: الآية ١١.

(٢) سورة الزمر: الآية ٩.

(٣) الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٤) الفاسـي: العقد الثمين، ٦/ ٨٣، ولمزيد من التفصيل انظر الفصـل الثالث، الوظائف التعليمية، المبحث الثاني: المؤدب، ص٢٣٤.

وعلى إثر ذلك استعاد المسجد الحرام نشاطه الشامل لمختلف جوانب المجتمع المكي الجديد، وكان له دوره المؤثر في صبغ المجتمع المكي بصبغة الإسلام واتشاحه بأخلاق الإسلام الفردية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية[١].

وهكذا صار المسجدُ الحرامُ لغيره من المساجد الأخرى القلبَ النابضَ من الجسد، ذاك القلب الذي تتجدد به ومعه الحياة. وهذا حال الحرم المكي، حيث غصَّت جوانبه بحلقات العلم المختلفة، وكانت هذه الحلقات هي بصيص النور الذي اهتدى به كثيرٌ من طلبة العلم سواء من داخل المسجد الحرام أو من خارجه، ناهيك عن طلاب العلم الوافدين إليه من أنحاء شتى من المعمورة.

وقد أثر المسجد الحرام تأثيراً بارزًا في نشر العلم والثقافة، فكان جامعة علمية ضخمة عملت على نشر العلوم الإسلامية المختلفة وتخرج منها أكابر العلماء والفقهاء.

كما كان نهرًا ومعينًا ارتوى منه كل ظمآن وتزود بعلومه الناس كافة، فلقد عيّن الرسول ﷺ بعد الفتح صاحبيه معاذ بن جبل[٢]، وأبا موسى الأشعري[٣]؛

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، انظر مقدمة المحقق الباز، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٦١؛ الوشلي: المسجد ونشاطه الاجتماعي، ص١٢٦-١٢٧.

(٢) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي، يكنى أبا عبدالرحمن، كان عمره لما أسلم ثماني عشرة سنة، شهد بدراً وأحداً والمشاهد كلها مع الرسول ﷺ، توفي عام ١٨ هـ/ ٦٣٩م. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٤/ ٤١٨-٤١٩.

(٣) هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب، أبو موسى من بني الأشعر، ولد في زبيد باليمن عام٢١ق هـ، قدم مكة عند ظهور الإسلام فأسلم، توفي في الكوفة سنة ٤٤هـ/ ٦٦٤م. ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ٢/ ٣٥١ - ٣٥٢.

ليعلما النـاس ويفقهاهم أمور دينهم، فكانا أول مدرسـين يحمـلان على عاتقهما مهمة التعليم في المسجد الحرام[١].

وقد بات المسجد الحرام صرحًا علميًا لا يستهان به، ازدحم برجال الحديث والقراء، وضـم كثيراً من كبار العلماء والفقهاء والمحدثيـن والأصوليين الذين عقدوا الحلقات العلمية التي كان لها أكبر الأثر في نشر مختلف العلوم والمعارف[٢].

هذا، وقد انتشـر العلماء والمدرسـون في أرجـاء المسـجد الحرام حيث يلقي كل عالم منهم درسًـا في العلم الذي تبحر فيه، فهذا يلقي درسًا في التفسير، وذاك يلقيه في الفقه، وآخر يلقي درسه في الحديث، والطلاب متحلقون حولهم، ومنصتون لما يلقيه المعلم أو الشيخ، ومنهم من يدوِّن ما يُلقى عليه[٣].

وكان يُعَلَّـم طلاب العلم في سـاحة الحرم المكي من قبـل كبار الصحابة الذيـن أوفدهم الرسـول ﷺ للتعليـم والقضـاء، كمعاذ بن جبـل رضي الله عنه الذي كان يفقه الناس ويبيـن لهم أمور دينهـم من الحلال والحـرام ويقرئهم القـرآن - كما سبقت الإشارة إليه - كما تولى أمر القضاء جنبًا إلى جنب مع أمير مكة عتَّاب بن أسيد[٤]. وهكذا استفاد أهل مكة منهم استفادة عظيمة لا تقدر بثمن، ولا نبالغ إذا قلنا: إنها استفادة عظيمة رفعت من شأن مكة التعليمي آنذاك[٥].

---

(١) ابن هشـام: السـيرة النبوية، ٤/ ١١٣؛ ابن كثير: أبو الفداء إسـماعيل، السـيرة النبويـة، تحقيق، مصطفـى عبدالواحـد، دار المعرفـة للطباعـة والنشـر، ١٣٩٣هـ-١٩٧٦م، ٣/ ٦٩٧؛ الديـار بكري: حسـين بن محمـد، تاريخ الخميس فـي أحوال أنفس نفيـس، مكتبة المعـارف، د. ت، ٢/ ١١٧؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ١/ ٥٦٠.

(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٧١.

(٣) عبدالله: تاريخ التعليم في مكة المكرمة، ص٤١؛ الطاسان: التعليم في مكة، ص٢٤-٢٥.

(٤) هو عتاب بن أسـيد بن أبي العيص بن أمية الأموي، يكنى أبا محمد، ولاه الرسـول ﷺ مكة وهو ابن ثماني عشرة سنة، توفي يوم توفي أبو بكر الصديق رضى الله عنه. ابن حبان البستي: أبو حاتم محمد بن أحمد التميمي، مشـاهير علمـاء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطـار، تحقيق، مرزوق علي إبراهيم، ط١، دار الوفاء، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٥٦؛ الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ٣-٧.

(٥) السباعي: تاريخ مكة، ص٦٥؛ الوشلي: المسجد ونشاطه الاجتماعي، ص١٢٧-١٢٨.

كما اتسعت في المسجد الحرام حلقة علمية ضخمة، كان لها أكبر الأثر في جميع الدارسين في المسجد الحرام، ألا وهي حلقة عبدالله بن عباس[(١)]، فقد كانت حلقة قوية أثرت في جميع طلبة العلم وهرع إليها الظامئون؛ ليرووا عطشهم العلمي ويشبعوا نهمهم الفكري منها، وقد أنتجت ضجة علمية لا مثيل لها وصل صداها إلى جميع بيوت مكة وتأثر بها الناس عامة سواء من داخل مكة أو ممن توافد على صيتها من خارج مكة، بل من جميع أصقاع البلاد من طلاب العلم وناشدي المعرفة[(٢)].

وفي القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، أخذ بعض الأمراء وبعض أعيان مكة وتجارها بتقرير عدد من الدروس لتدرَّس في المسجد الحرام مع الأخذ في الحسبان إعطاء من يدرِّس هذه الدروس أجرًا معلومًا نظير عمله هذا، ولكن هذا لا ينفي وجود بعض المدرسين الذين تصدوا لتدريس بعض الدروس لطلبة العلم من باب التطوع وكسب الأجر والمثوبة من الله سبحانه وتعالى[(٣)]، ومن بين هذه الدروس:

١ - الدرس الذي قرره شاه شجاع، حيث قرر درسًا في الحديث بالمسجد الحرام، وتولى تدريسه علي الفوِّي[(٤)]، المتوفى عام ٧٨٢هـ-١٣٨٠م،

---

(١) هو عبدالله بن عباس بن عبد المطلب، ابن عم الرسول ﷺ وأبو الخلفاء، ولد قبل الهجرة بثلاث وقيل بخمس، دعا الرسول ﷺ له أن يفقهه الله في الدين ويعلمه التأويل، مات بالطائف عام ٦٨هـ/ ٦٨٧م. ابن سعد: الطبقات الكبرى، ٢/ ٣٦٥؛ الذهبي: أبو عبدالله شمس الدين محمد، تذكرة الحفاظ، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١/ ٤٠-٤١؛ ابن حجر العسقلاني: الإصابة في تمييز الصحابة، ٢/ ٣٣٠-٣٣١.

(٢) السباعي: تاريخ مكة، ص١١٥-١١٦؛ الوشلي: المسجد ونشاطه الاجتماعي، ص١٢٨.

(٣) انظر الفصل الثالث: الوظائف التعليمية، المبحث الأول: المدرس، ص٢٠٤.

(٤) هو علي بن أحمد بن إسماعيل، أبوا لحسن نور الدين الفوي، نزيل الحرمين، توفى سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م، ودفن بتربة الصوفية بظاهر القاهرة. الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ١٢٩-١٣٠.

وكان يأخذ نظير عمله هذا نحو مئتي مثقال سنويًا، وكان يدرِّس خلف مقام الحنفية عند أول الرواق(١).

٢ - الدرس المقرر من قبل بدر الدين الخروبي، أحد تجار الكارم بمصر بالمسجد الحرام(٢)، وولي تدريسه علي بن محمد الحسني(٣).

٣ - الدرس الذي قرره بشير الجمدار أحد أمراء المماليك بمصر، وقد تولى تدريس هذا الدرس القاضي جمال الدين بن ظهيرة(٤)، والقاضي أحمد العقيلي الملقب محب الدين النويري(٥)، وقد حدث نزاع حول تدريس هذا الدرس، وكان النزاع من قبل محب الدين النويري وذلك عندما عُيّن قاضيًا للحرمين فأصرّ على انتزاع هذا الدرس من القاضي جمال الدين بن ظهيرة فكان له ما أراد(٦).

ويفهم من سياق الكلام أنه كانت تحدث كثيرٌ من النزاعات والتنافس من

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ١٣٠؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣١١.
(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٦/ ٢٣٧.
(٣) هو علي بن محمد بن عبدالرحمن الحسني، الشريف نور الدين أبو الحسن بن الشريف أبي عبدالله الفاسي، المكي المولد والدار، ولد سنة ٧٠٨هـ/ ١٣٠٨م، بمكة، درّس في الحرم في درس قرره له بدر الدين الخروبي وتصدق على يده بمائة ألف درهم، توفي في عام ٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م. المصدر السابق، ٦/ ٢٣٦-٢٣٧.
(٤) هو محمد بن عبدالله بن ظهيرة بن أحمد بن عطية القرشي المكي، قاضي مكة وخطيبها ومفتيها، جمال الدين الشافعي، ولد عام ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م بمكة، درس في درس بشير الجمدار، ثم نازعه فيه قاضي الحرمين محب الدين النويري، وولي تدريس المدرسة المجاهدية والغياثية، توفي ٨١٧هـ/ ١٤١٤م، بمكة. المصدر السابق، ٢/ ٢٠٢-٢٠٦.
(٥) هو أحمد بن محمد بن أحمد بن عبدالعزيز العقيلي، قاضي الحرمين وخطيبهما، محب الدين النويري المكي الشافعي، يكني أبا البركات، ولد في عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، بمكة درّس في درس بشير الجمدار بالحرم المكي، وأضيف إليه تدريس المدرسة المجاهدية بمكة، توفي في عام ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م. المصدر السابق، ٣/ ٧٩-٨٠.
(٦) المصدر السابق، ٢/ ٢٠٥.

قبل الموظفين في المسجد الحرام على كثيرٍ من الوظائف والمناصب المهمة، ولا يدل ذلك إلا على مدى أهمية هذه المناصب ومكانتها الكبرى، بل ومكانة متوليها في المجتمع المكي أو خارجه[(١)].

٤ - الدرس المقرر من قبل يلبغا الخاصكي أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون، حيث قرر درسًا في الفقه في المسجد الحرام وتولى تدريسه محمد الصاغاني[(٢)]، وقد باشر التدريس في هذا الدرس في شهر شوال من عام ٧٦٣هـ-١٣٦١م، ودَرَّسَ هذا الدرس بعد وفاته ابنه أحمد الصاغاني[(٣)].

ولم يأت القَرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي إلا والمسجد الحرام جامعة علمية شاملة، تضم عددًا كبيرًا من الحلقات العلمية المختلفة والمتنوعة، فمنها ما اختص بالفقه، ومنها ما اختص بالحديث، في حين اختص بعضها الآخر بالأصول والتفسير، وهكذا كان الحرم المكي مفتوحًا أمام أي طالب، مشرِّعًا أبوابه أمام الناس عامة، بل أمام كل من يلمس في نفسه المقدرة على التعلم والتعليم والتفقه في أمور الدين[(٤)].

---

(١) لمزيد من التفصيل حول هذا الموضوع انظر المبحث الثالث: مكانة الوظيفة الدينية في المجتمع المكي، ص٣٧٨.

(٢) هو محمد بن محمد بن سعيد بن عمر بن علي الصاغاني، ضياء الدين الهندي الحنفي، تولى تدريس درس الحنفية الذي قرره الأمير يلبغا الخاصكي بمكة وباشره في شوال سنة ٧٦٣هـ/ ١٣٦١م، واستمر مستوطنًا بها إلى أن مات في عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م. الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٦١-٣٦٢.

(٣) هو أحمد بن محمد بن محمد بن سعيد الصاغاني، قاضي القضاة شهاب الدين الحنفي المكي، ولد في عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، بالمدينة المنورة، عني بالعلم وله في الفقه نباهة ودرّس كثيرًا وأفتى، توفي في عام ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م. السخاوي: الضوء اللامع، ٢/ ١٧٩، ولمزيد من التفصيل حول هذه الدروس وغيرها انظر الفصل الثالث: الوظائف التعليمية، المبحث الأول: المدرس، ص٢٠٦.

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٧٣.

والجدير بالذكر أن الحرم المكي قد أثر تأثيراً بارزاً ومهمًا في نشر العلم في المجتمع المكي خاصة والمجتمع الإسلامي عامة، كما كان له دورٌ مهمٌّ في حفظ تراث العرب والمسلمين، كما لمكة المكرمة دورها القيادي المؤثر في حفظ تراث الأمة الإسلامية والدور الريادي في الدعوة الإسلامية، وانبثاق فجر الحق[١]. حيث قال تعالى في محكم آياته: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾[٢].

ولنا أن نلمس هذا الدور العلمي البارز للمسجد الحرام من خلال كتب كثيرٍ من الرحالين المسلمين، والذين لم يبخلوا علينا بذكر ما سمعوه وشاهدوه، مدونين ذلك في رحلاتهم؛ لتعم الفائدة جميع طالبي العلم وراتعي رياض المعرفة، ومن هؤلاء الرحالين ابن جبير[٣]، وابن جابر الوادي آشي[٤]، والتجيبي السبتي[٥]، وابن رشيد[٦]، وما هؤلاء إلا من باب ضرب المثال لا الحصر، فغيرهم كثيرون ممن ذكروا المسجد الحرام ودوره العلمي في رحلاتهم، ويقودنا ذلك إلى نقطة مهمة وجلية في ذات الوقت ألا وهي مدى شهرة المسجد الحرام وإشعاع شمسه ووصول نور علمه إلى أقطارٍ شتى من البلاد الإسلامية.

(١) الشريف: فريال عبدالمجيد، مكة المكرمة في كتب الرحالة المسلمين منذ القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م ص١٥٠-١٥١؛ الهمزاني: أثر السلاطين والأمراء، ص٤٢٣.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ٩٦- ٩٧.

(٣) الرحلة، ص٧١-٧٢.

(٤) ابن جابر الوادي آشي: شمس الدين محمد التونسي، برنامج ابن جابر الوادي آشي، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٤ - ٨٤.

(٥) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٣٦٢ -٣٨٠-٣٨٣-٤٣٤.

(٦) ابن رشيد: ملء العيبة، ٥/ ١٣١، ١٤١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٥٣، ٢٥٤.

حلقات العلم في المسجد الحرام:

لا شك أن اللبنات الأولى التي وضع أساسها الرسول ﷺ للحركة العلمية ومن جاء بعده من الخلفاء كان لها أكبر الأثر في النهوض بهذه الحركة العلمية المتكاملة بمكة المكرمة فيما بعد، أضف إلى ذلك المكانة الروحية التي تمتعت بها مكة المكرمة وميزتها عن غيرها من البلدان الإسلامية حيث جعلت عددًا كبيرًا من المسلمين يفدون إليها من أصقاع شتى من البلاد، فهي أشبه بالبوتقة التي يجتمع بها العلماء والمفكرون الوافدون إليها ويلتقي فيها كثيرٌ من الناس على اختلاف ألوانهم ومشاربهم، فيتدارسون فيما بينهم حيث حلقات العلم التي أصبحت تغص بالطلاب من أقطار شتى من العالم، وكانت أسطوانات وسواري المسجد الحرام مستندًا لظهور العلماء والفقهاء والأدباء والمحدثين والمفسرين وكان الطلاب يتحلقون حولهم وينهلون من معين علمهم وفقههم[١].

وقد عُدَّ المسجد الحرام في العصر المملوكي جامعة علمية ضخمة تضم كثيراً من حلقات العلم ذات التخصصات المختلفة، فهناك حلقات مختصة بمدرسي الدروس المقررة من قبل السلاطين والأمراء والتجار، وعادة تكون هذه الدروس في الفقه والحديث والقرآن الكريم وغيرها من العلوم الشرعية، ويتخذ هؤلاء المدرسون مكانًا معينًا لإلقاء دروسهم وغالبًا ما يُدْرَسُ في صحن المسجد الحرام أو أحد أروقته[٢] أو أحد المقامات الأربعة[٣]، إضافة إلى التدريس بجانب أحد أبواب المسجد الحرام[٤] كباب العمرة، وباب أجياد، وباب إبراهيم.

في حين اختصت بعض الحلقات بإقراء القرآن الكريم، وهذا ما يعطي

---

(١) ابن بطوطة: الرحلة، ص١٢٧؛ الهمزاني: أثر السلاطين والأمراء، ص٤١٧.
(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ١٨٨.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ٢٢٣.
(٤) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٣٦٧، ٢/ ١١٦.

الطالب معرفة واسعة بالقراءات، كما يعطيه فرصة لتعلم القراءة والتجويد[١]. ويختص بعض مشايخ القراءات بمكان محدد في المسجد الحرام، بل إن بعضهم كان يأخذ موافقة أحد أمراء مكة أو قضاتها، وذلك لضمان عدم منافسة أحد على الجلوس في المكان المخصص له[٢].

ومما لا يمكننا تجاهله تلك الحلقات التي اختصت بتأديب الصغار وتعليمهم وهي ما تُسمى «الكتاتيب» ونرى أن بعض هؤلاء المؤدبين قد اتخذ مكانا معينًا لحلقته أو مكتبه الذي يعلم به الصبيان فذاك مكتب يوسف بن علي بن سليمان القروي (٧٦٤هـ-١٣٦٢م)[٣]، ويقع في الجانب الشمالي من المسجد الحرام، وكان يُـؤَدِّب ويُعَلِّـمُ الأطفال به[٤]. في حين تولى أحمد بن أبي الخير محمد بن حسين القسطلاني (ت٨٠٣هـ-١٤٠٠م)، تأديب الأطفال بالمسجد الحرام تحت مئذنة باب علي[٥].

وقد تخصصت بعض الحلقات في العلوم الطبيعية إضافة إلى النحو والبيان والمعاني وغيرها من العلوم، وكان لكل حلقة من هذه الحلقات أساتذة مختصون وأنظمة معينة يسير عليها مدرس الحلقة وطلابه[٦]. فكانت هذه الحلقات في المسجد الحرام كالكلية في وقتنا الحاضر، حيث تميزت كل حلقة بوقت محدد ومنهج خاص يسير عليه الشيخ أو المدرس، وهذا هو حال كثيرٍ من كلياتنا حيث تتميز كل كلية عن الأخرى بنظام خاص تسير عليه ومنهج محدد

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ١٤٣.
(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٠٣؛ ابن حجر العسقلاني: إنباء الغمر بأنباء العمر، ٤/ ٨٧.
(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٧/ ٤٨٨.
(٤) المصدر السابق، ٥/ ٣٤٦.
(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ٢/ ١٠٩.
(٦) لقد تطرقنا إلى ذكر الحلقات العلمية في المسجد الحرام بشيء من التفصيل في الفصل الثالث: الوظائف التعليمية، لمزيد من التفصيل انظر ص٢٠٦.

وجداول معينة تسير وفقها الدراسة، مع الأخذ في الحسبان اختلاف الأسماء بين الوقت الحاضر والماضي.

وقد استمرت حلقات العلم في المسجد الحرام تُعقد منذ ذلك الوقت إلى يومنا هذا، حيث حفل المسجد الحرام بكثيرٍ من الحلقات التي تتميز عن غيرها في الإجابة على الأسئلة المطروحة من قبل كثيرٍ من الناس والمختصة بالفتيا، حيث يجلس كثيرٌ من رجال العلم في المسجد الحرام للإجابة عن تلك التساؤلات الخاصة بالأمور الدينية والاجتماعية، ومن ثم توضيح ما غمض على كثير من الناس في أمور دينهم ودنياهم، وتزداد هذه الحلقات كثرة في موسم الحج، وفي رمضان حيث بيت الله الحرام الذي يفد إليه كثيرٌ من الزوار في هذه المواسم(١).

وهكذا يجب على المعلم أو الشيخ أن يجيب عن الأسئلة التي تُطرح عليه من قبل طلاب العلم وقاصدي المعرفة، وأن يحاول مساعدتهم وإفادتهم بكل ما يحتاجون إليه من غير تذمر أو ملل، كما يجب عليه أن يتقبل أسئلتهم بصدر رحب، وأن لا يكتم علمًا تعلمه، وهذا ما حث عليه رسولنا الكريم في كثيرٍ من الأحاديث النبوية الشريفة نذكر منها: عن أبي هريرة ﵁، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار»(٢).

وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «مثل الذي يتعلم العلم ثم لا يحدث به كمثل الذي يكنز الكنز ثم لا ينفق منه»(٣).

---

(١) اللميلم: عبدالعزيز محمد، رسالة المسجد في الإسلام، ط١، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص١٦٦؛ الجابري: الحياة العلمية في الحجاز، ص٣٢٦.

(٢) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ١/ ٥٢.

(٣) المنذري: الترغيب والترهيب، ١/ ٨٦.

نظام التعليم في المسجد الحرام:

كانت حلقات العلم تُعقد يوميًا في المسجد الحرام، وكان المعلم أو الشيخ يحرص على الحضور بانتظام يوميًا ويلقي دروسه بأمانة وإخلاص، ومن جانب آخر كان الطالب يعمل بجد واجتهاد، لذلك كانت الدراسة تسير بأناة وصبر وتفهم، أضف إلى ذلك تكافؤ الفرص التعليمية للجميع، وهذا ما ميّز المسجد - كمدرسة - عن غيره من صروح العلم، فالمسجد مفتوح للمسلمين كافة لا فرق بين غنيهم وفقيرهم أو صغيرهم وكبيرهم، لذا فإن أي مسلم بإمكانه أن ينضم للحلقة التي يريدها دون قيد أو شرط، وقد قام التعليم في المسجد على مراعاة الفروق الفردية بين الطلاب، بل عُدَّ ذلك من أهم أساسيات التعليم في المسجد إذ لا تُفرض على الطالب مادة بعينها، إنما يملك الحرية التامة والمطلقة في اختيار الشيخ الذي يريد والموضوع الذي يرغب، فنرى الطالب ينتقل من حلقة لأخرى حسبما تمليه عليه رغبته وكأنه فراشة تَجُولُ في بستان العلم وتنتقى من زهور المعرفة ما تشاء، حتى يستقر به الأمر أخيرًا مع الاتجاه والموضوع الذي يلائم ميوله ورغبته[١].

وكل مدرس يلقي على طلابه العلوم التي تضلع فيها، ومن ثم فإنه لم يكن لكل عالم أو مدرس منهج محدد يسير عليه في تدريسه[٢].

فالدراسة في المسجد الحرام لم تسر وفق مناهج محددة، إذ إن مناهج حلقات العلم في الحرم كانت متروكة للمدرس فهو الذي يحدد مكان درسه ووقته، وما يريد تدريسه وما على الطالب إلا أن يختار المدرس الذي يلائمه وتستهويه طريقته في الإلقاء ويرتاح لها، ومتى ما أحسن الطالب الاستماع

---

(١) عبدالله: تاريخ التعليم في مكة، ص٣٨-٤٠؛ الهمزاني: أثر السلاطين والأمراء، ص٤١٣.

(٢) عبد الجبار: دروس من ماضي التعليم وحاضره بالمسجد الحرام، ص١٦؛ الشامخ: التعليم في مكة والمدينة، ص٩-١٠.

لأستاذه، واستوعب دروسه ونجح في الامتحان أمامه حصل منه على إجازة التدريس في ذلك الموضوع أو في الدرس الذي أتقنه، وبذلك يصبح مؤهلًا لتدريس ذلك العلم، وغالبًا ما يحصل الطالب على إجازات من مدرسين عدة[1]، وتكون هذه الإجازة كالشهادة العلمية التي تُعطى في وقتنا الحاضر لطلاب العلم، بل تعد كالزمالة في وقتنا الحاضر حيث يأتي العالم إلى العلماء ويأخذ منهم، ومن ثم يرجع إلى بلده وهو يحمل شهادة تؤيده من المسجد الحرام، فيلقي الدرس في بلده بشهادة معترف بها من أعظم جامعة إسلامية ألا وهي الحرم المكي.

ولم تكن هناك مدة محددة لتلقي العلوم وجني ثمار المعرفة من قبل طلاب العلم، بل كان الطالب يستمر في تلقي مختلف العلوم حتى يأنس في نفسه المقدرة على التعليم، وإن استدعى ذلك الرحلة في طلب العلم والتنقل إلى الأقطار الإسلامية الأخرى، وعندما يحصل على بعض الإجازات يجلس في حلقة علمية خاصة به يُحدِّث بما سمع ويفتي بما تعلم ويفقّه الناس بما قرأ[2]، خصوصاً أنه يحمل شهادة أو إجازة علمية من أطهر بقاع الأرض، وهذا ما يؤيد ما أشرنا إليه سابقًا.

وقد تنوعت الدروس الملقاة في حلقات العلم في المسجد الحرام، فلم يقتصر التعليم على إلقاء العلوم الدينية للوعي الديني فقط، وإنما كان المسجد الحرام مركزًا علميًا شاملًا لتعليم العلوم الإسلامية المختلفة كعلوم الحديث

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، انظر مقدمة المحقق الباز، ص٦٢؛ الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٢٩-٢٣٠؛ عبدالله: تاريخ التعليم في مكة، ص٤٣؛ عبدالعزيز: محمد الحسيني، الحياة العلمية في الدولة الإسلامية، وكالة المطبوعات، الكويت، د. ت، ص٣٩؛ الهمزاني: أثر السلاطين والأمراء، ص٤١٥.

(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٧٣.

والتفسير والفقه على المذاهب الأربعة، إضافة إلى علوم البلاغة والنحو والصرف والشعر والسير والمغازي، وعلم القراءات، وهذا ما أشار إليه العديد من الرحالين المسلمين عند حديثهم عن المسجد الحرام[١]، كما أيدت ذلك كثيرٌ من المصادر التاريخية[٢].

أما أوقات التدريس في المسجد الحرام فكان يبدأ الدرس عادة منذ انفلاق الفجر إلى بعد صلاة العشاء[٣]، وعادة ما يُدَرَّسُ في أروقة الحرم أو في أحد المقامات الأربعة، كما اتخذ بعض العلماء أماكن مخصصة لإلقاء دروسهم، وغالبًا ما تكون هذه الأماكن عند باب إبراهيم، وباب العمرة، وباب الندوة، وباب أجياد، وغيرها من الأماكن الأخرى في الحرم[٤].

التبادل الثقافي:

كانت هذه الأماكن وغيرها تعجُّ بكثيرٍ من طلاب العلم والمدرسين والعلماء الذين قدموا إلى مكة المكرمة للاستفادة والدراسة على أيدي علمائها وفقهائها، وهذا ما كان له بالغ الأثر في النهوض بالحركة العلمية؛ لكون مكة المكرمة كانت محطة لمرور هؤلاء العلماء القادمين من الأقطار الإسلامية المختلفة، أضف إلى ذلك نظرة هؤلاء العلماء لمكة المكرمة بوصفها مركزاً علمياً تُعقد فيه حلقات العلم المختلفة في مختلف العلوم والمعارف، وهذا ما أدى إلى الإقبال العظيم من قبل طلاب العلم من البلدان الإسلامية الأخرى، ومن جميع طبقات الشعب[٥].

---

(١) ابن رشيد: ملء العيبة، ٥/ ١٣١، ٢٦٣؛ التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٣٦٢، ٣٨٢، ٤٣٤.
(٢) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٦٠؛ الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٣، ٥/ ٥٢٢.
(٣) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٧٢؛ الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٣، ٥/ ٥٢٢.
(٤) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٣٦٧، ٢/ ١١٦، ٤/ ١٨٨؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ٢٢٣.
(٥) عبد الجبار: دروس من ماضي التعليم وحاضره بالمسجد الحرام، ص١٥-١٦؛ الشامخ: التعليم في مكة والمدينة، ص١٠-١٤؛ الهمزاني: أثر السلاطين والأمراء، ص٤١٨.

ومـا إن حط هـؤلاء العلماء رحالهم فـي مكة المكرمة والمسـجد الحرام حتى ظلـوا ينهلون من ريـاض المعرفة ويغرفون مـن نهر لا ينضـب، ولم يكتفوا بذلـك بل كمـا أحضـروا مـن علـوم ومعـارف ومعلومـات أخـذوا معهـم مثلها إلى بلادهـم ليفيدوا كمـا اسـتفادوا، فكان المسـجد الحـرام مقرًا ومكانًـا لإلقاء المحاضرات والنشـاطات الثقافية التي شـارك بها كبار العلماء الوافدين إلى مكة المكرمة، فـكل عالم يلقـي محاضرة في المجـال الذي برع فيه، وهكذا شـهدت ساحات الحرم المكي الشريف كثيرًا من هذه المحاضرات وتلك الخطب الدينية والثقافية[١].

وقد أدَّى ذلك دورًا إيجابيا ورئيسـيًا في التبادل الثقافي بين طلاب العلم، كما حصل التبـادل العلمي بيـن علماء المسـلمين تارة بعقد حلقـات الدرس في المسجد الحرام، وتارة بتبادل الكتب العلمية وتارة أخرى بإهداء إنتاجهم العلمي إلى هذه الأماكن المقدسة[٢].

وخير مـا نستشـهد به في هـذا المقام مـا فعلـه عبدالرحمن بـن أحمد بن محمد الشـهير بابن عيـاش[٣] عندما أتـى إلى مكـة المكرمة، حيث كوّن مدرسـة علمية وتصدى لتدريس الطلبة في المسـجد الحرام ليلًا ونهارًا فانتفع به كثير من أهل مكة والقادمين إليها[٤].

---

(١) الفاسـي: العقـد الثميـن، ٢/ ٥٢؛ ابـن العمـاد: شـذرات الذهـب، ٤/ ١٤٨؛ الهمزانـي: أثـر السلاطين والأمراء، ص٤١٨.

(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٢١٤.

(٣) هـو عبدالرحمن بـن أحمد بن محمد بن يوسـف بن عياش الزيـن أبو الفرج الدمشـقي الأصل المكي الشـافعي ويعرف بابن عياش، ولد عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م، بدمشق، تصدى في الحرمين الشـريفين لنشـر القراءات ليلًا ونهارًا فانتفع به خلق من أهلهمـا والقادميـن عليهما، توفي عام ٨٥٣هـ/ ١٤٤٩م، بمكة ودفن بالمعلاة. السخاوي: الضوء اللامـع، ٤/ ٥٩-٦٠.

(٤) المصدر السابق، ٤/ ٦٠؛ المشيقح: تاريخ أم القرى، ص٥٠.

كما تـرك المقريـزي[١] عندما جـاور بمكة سـنة ٨٤٤هــ/ ١٤٤٠م، كثيراً من مؤلفاته فـي مكة المكرمة؛ ليسـتفيد منها طـلاب العلم، ومـن أبرزها الخطط المقريزية، والسلوك[٢].

كمـا أنه من كان يفقد كتابًـا ولا يعرف مكانه ينادي في المواسـم على من يدله عليه[٣].

والجديـر بالذكر أن هـؤلاء الوافدين إلى مكـة المكرمة، لـم يكتفوا بأخذ العلـوم والمعارف من علماء مكة وفقهائها، بل أخـذوا أخلاقهم وعاداتهم، وهذا ما يوضح لنا بشـكل جلي فوائد الرحلة في طلب العلم، فالبشر يأخذون علومهم ومعارفهم وأخلاقهم بعضهـم من بعض، تارة علمًا وتعليمًـا وإلقاءً، وتارة أخرى محاكاة وتلقينًا بالمباشرة، وهذا ما يكون أشد استحكامًا وأقوى رسوخًا، والرحلة تفيـد كثرة الشـيوخ، وعلى قدر كثرة الشـيوخ يكـون حصول الملكة ورسـوخها، وتعدد المشـايخ بلا شـك يفيد طالب العلم إفـادة عظيمة خصوصـاً إذا عرفنا أن لكل شـيخ منهم طريقته في التعليم ومنهجه وأسلوبه الخاص به، وهذا يؤدي إلى زيادة إفادة طالب العلم واتساع مداركه وثقافته[٤].

ويبلغ التفاعل العلمي والثقافي في المسـجد الحرام مداه في موسم الحج، حيث يكثر الطلاب فـي دروس العلماء المكيين وحلقاتهم العلمية، فيكون موسـم الحـج مكانًا للقـاء العلماء، وطـلاب العلم من أقطار شـتى من العالم الإسـلامي،

---

(١) هو أحمد بن علي بن عبدالقادر، أبو العباس الحسـيني العبيدي الشـهير بالمقريزي نسبة لحارة في بعلبك تعرف بحارة المقارزة، ولد عام ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م، بالقاهرة، حج أكثر من مرة وجاور، وكان يحب أن يكتب بمكة ويحدث بكتابه إمتاع الأسمـاع فتيسـر له ذلك، توفي عام ٨٤٥هـ/ ١٤٤١م، بالقاهرة. ابن فهد: معجم الشيوخ، ٦٣-٦٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٢/ ٢١-٢٥.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ٢/ ٢٢؛ المشيقح: تاريخ أم القرى، ص٤٨.

(٣) الحموي: أبو عبدالله ياقوت، معجم الأدباء، ط٣، دار الفكر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ١٦/ ١٠٢.

(٤) شلبي: التربية الإسلامية، ٥/ ٣١٨.

فيتدارسون فيما بينهم مشكلات المعرفة ويأخذ بعضهم من بعض العلوم المختلفة كالحديث والتفسير والفقه والعربية، فيعود أكثرهم إلى بلاده وقد شعر بما استفاد، بل يعود وهو محمّل بكنوز العلم والمعرفة التي لا تقدر بثمن، ونتيجة لذلك نراه يعاود الكرة مرات ومرات[١]. فهذا الشيخ أبو الحسن عبدالرحمن بن محمد بن علي الشافعي المكي[٢] الذي حج أكثر من ستين حجة وكان إذا طاف بالبيت العتيق لا يكلم أحدًا وله بداخل الحرم الشريف بيت خلف قبة الشراب يتعبد فيه كما يسمع فيه الأحاديث النبوية، وقد لازمه كثيرٌ من طلاب العلم واستفادوا من علمه وروايته[٣]، ولو لم يستفد هذا الشيخ مما في مكة المكرمة من العلوم والمعارف بأنواعها المختلفة لما عاود الكرة مرات ولما حج أزيد من ستين حجة.

وذاك محمد بن أحمد المصري (ت٧٩٢هـ-١٣٨٩م)[٤] الذي كان كثير التردُّد للحج والمجاورة، ولكثرة مجاورته في مكة لقب بـ «حمامة الحرم»[٥].

وهكذا يتضاعف اتساع الحلقات العلمية في موسم الحج، ويشتد التنافس بين طلاب العلم، خصوصاً إذا علمنا أن نشاط مكة العلمي لم يقتصر أبدًا على حلقات الدروس في الحرم المكي ومن علمائها المكيين، بل وافاها أهل العلم

---

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٢٢٣؛ السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص٧٦.

(٢) عبدالرحمن بن محمد بن علي بن الحسين الطبري المكي الشافعي، يُكنى أبا الحسن، مفتي مكة، كان رجلًا صالحًا منقطعًا مقبلًا على شأنه، غزير العلم، شديد الإقبال على فروع الفقه وغوامضه، ولد عام ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م توفي عام ٧٠١هـ/ ١٣٠١م، وترجم بالإمام مفتي الحرمين. الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٥٤.

(٣) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٣٦٢.

(٤) محمد بن أحمد بن علي بن عبدالرحمن المصري الحجازي الشافعي، الشهير بالرخاء، المحدث المقرئ شمس الدين أبو عبدالله الملقب بحمامة الحرم، ولد تقريبًا عام ٧٢١هـ/ ١٣٢١م، كان كثير التردد إلى الحجاز للحج والمجاورة ولكثرة مجاورته بمكة كان يلقب بحمامة الحرم، مات عام ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م بالقاهرة. ابن فهد: الدر الكمين، ١/ ٢٦.

(٥) المصدر السابق، ١/ ٢٦-٢٨.

من أنحاء المعمـورة من الفقهاء والمحدثيـن، فكانت مجامعها في موسـم الحج تغـصّ بالمسترشـدين والمسـتفتين، وكأنهـا خليـة تعج بطـلاب العلم وناشـدي المعرفة، كما أن مجالس المناظرات كانت تعقـد في بيوت فقهائها وحلقاتهم في المسجد، وهذا ما يشبع نهم المناظرين ويروي غلة السائلين[١].

ولما كانت اللغة العربيـة هي لغة التدريس، فكان كل قـادم من أقصى بقاع الأرض إلـى المسـجد الحرام يسـتطيع فهم هـذه المحاضـرات والـدروس وتلك المناظرات وهـذا يجعل هؤلاء العلماء وطـلاب العلم القادمين إلـى مكة المكرمة عنـد عودتهم لبلادهـم كالصحـف والمجـلات والكتب السـيارة التي تنقـل العلم والمعرفـة من مـكان إلى آخر، وهـم كذلك ينقلـون نتاج ما سـمعوه وخلاصته من محاضـرات ودروس إلى البلـدان الأخرى كافة[٢] التـي ينتقلون إليهـا. فقد قام ابن جابر الوادي آشـي بنشـر مـا تلقاه مـن علوم ومعـارف شـتى عندما عاد إلـى وطنه تونس، بل قد التف حوله الطلبة آخذين منه ما تعلمه، وتخرَّج عليه أكابر العلماء[٣].

كمـا قام ابن جابر بنسـخ كتاب «خلاصة سير سيد البشر»[٤] لمؤلفه محب الدين الطبري[٥] من أصله[٦].

---

(١) السـباعي: تاريخ مكة، ص١٥٢؛ الوشـلي: المسـجد ونشـاطه الاجتماعـي، ص١٢٨-١٢٩؛ الطاسان: التعليم في مكة في العهد المملوكي، ص٢٥.

(٢) الخربوطلي: الحضارة العربية الإسلامية، ص٢٢٩.

(٣) ابن جابر الوادي آشي: البرنامج، ص١٤.

(٤) خلاصة سير سيد البشر لمحب الدين أحمد بن عبدالله الطبري المتوفى عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م أوله الحمد للـه على نواله إلخ، وهو مختصر مرتب على أربعة وعشـرين فصـلًا جمع من اثني عشر مؤلفًا ما بين كبير انتخبه وصغير ألحقه. حاجي خليفة: كشف الظنون، ١/ ٧١٨.

(٥) أحمد بن عبدالله بن محمد بن أبي بكر، شـيخ الحجاز محب الدين الطبري المكي الشـافعي، يُكنى أبـا جعفر، وأبـا العباس، سـمع بمكة، ترجمـه البرزالي بشـيخ الحجاز واليمـن وترجمه الذهبي بشـيخ الحـرم والفقيه والمحدث وكان شـيخ الشـافعية ومحـدث الحجـاز، توفي عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م بمكة ودفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٣٦.

(٦) ابن جابر الوادي آشي: البرنامج، ص١٤.

وهذا دليل واضح وجلي على أنه أخذ معه هذه النسخة إلى موطنه؛ ليفيد بها طلاب العلم هناك، كما استفاد هو منها ومن غيرها.

كما قام القطب أبو بكر بن أبي العباس القسطلاني(١)، المصري المولد، حيث ولد عام ٦١٤هـ/ ١٢١٧م، وحمله أبوه عام ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، إلى مكة المكرمة، فنشأ بها وسمع من علمائها، ودرّس بمدرسة دار زبيدة(٢)، بالحرم الشريف بحضرة والده(٣).

وهذا يدل على أن كثيراً من العلماء كانوا يأتون بأبنائهم إلى مكة المكرمة؛ لينشؤوا بها وينهلوا من علمها، وبالتأكيد أن هذا الذي نشأ بمكة المكرمة وأخذ من علمائها، لا بد أن ذلك سينعكس عليه في حال رجوعه لبلده من إنتاج فكري ونشر لأهم العلوم التي تعلمها إضافة إلى ما سيحمله معه من نسخ الكتب التي تعلم منها.

وهكذا يحصل التبادل الثقافي بين أبناء البلدان الإسلامية المختلفة، كما يحدث تبادل الكتب وانتقالها من المشرق إلى المغرب، والعكس صحيح، حيث نرى أن كثيراً من العلماء الوافدين إلى مكة المكرمة كانوا يأتون بكثير من الكتب العلمية المفيدة، وبعضهم الآخر يصنف كتبه في مكة المكرمة، بل ويتركها لهم؛ ليستفيدوا منها سواء كان هؤلاء الطلبة من مكة المكرمة أو من خارجها.

---

(١) محمد بن أحمد بن علي بن محمد بن الحسن، الشيخ قطب الدين، أبو بكر بن الشيخ أبي العباس القسطلاني المكي الشافعي، ولد عام ٦٠٤هـ/ ١٢١٧م بمصر، وحمل في موسم سنة ٦١٩هـ/ ١٢٢٢م، إلى مكة فنشأ بها ودرس بمدرسة دار زبيدة بالحرم بحضرة والده، توفي عام ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م. الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٣٥.

(٢) مدرسة دار زبيدة: يبدو أنها مدرسة طاب الزمان الحبشية، تاريخ وقفها سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، وجعلت وقفيتها على فقهاء الشافعية، وهي من دار زبيدة. الفاسي: العقد الثمين، ١/ ١١٧، ٨/ ٢٦١؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص٦.

(٣) مرداد: حسن سيد عبدالله، المجاورون المصريون في الحرمين الشريفين، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٣٨، الدار العربية للكتاب، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص١٢٠.

ومن أهم هؤلاء العلماء المقريزي - كما سبقت الإشارة إليه - كما قام ابن هشام جمال الدين عبدالله بن يوسف (ت٧٦١هـ-١٣٥٩م) برحلتين إلى مكة المكرمة، الأولى في عام ٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م، والثانية في عام ٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م، وقد ألّف في رحلته الأولى كتابًا في الإعراب إلا أنه ضاع منه، ولكنه عاود الكرة في رحلته الثانية وألفّ كتابه الجامع الكبير المسمى «مغني اللبيب»[1] وقد صّرح في مقدمة كتابه هذا بأنه ألفه خلال وجوده في مكة المكرمة، ولا بد أن طلبة العلم في مكة المكرمة قد استفادوا منه استفادة عظيمة.

ولقد هيَّأ موسم الحج، لأبناء مكة وغيرهم فرصًا علمية متعددة قلَّما تحدث، فأفسح المجال أمامهم للاطلاع عن كثب على عدد من المعارف، والعلوم، كما يسرّ لهم الاستفادة من روافد ثقافية وفكرية متباينة فساعدهم وبشكل جلي على بلورة أفكارهم وتناسقها، فكان موسم الحج للطلاب المقيمين بمكة المكرمة فرصة لهم للالتقاء بعلماء العالم الإسلامي وأئمتهم المشهورين والأخذ عنهم، ومن ثم الحصول منهم على إجازات علمية تؤهلهم للتدريس في ساحات المسجد الحرام[2]. فقد كان السخاوي نشيطًا في نشر العلم وإفادة الناس منه ومنح الإجازات لمن يتقنه وذلك في أثناء مجاورته في الحرم

---

(١) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لجمال الدين بن هشام الأنصاري، المتوفى عام ٧٦١هـ/ ١٣٥٩م، جمع فيه الحروف والأدوات، فتحدث عن كل منها في باب خاص جمع فيه كل ما يتصل بالأداة من قواعد وأحكام وما يمثل لها من شواهد، ثم أفرد أبوابًا أخرى لأحكام عامة تتصل بأشباه الجمل والجمل وأقسامها والذكر والحذف وأصول توجيه الإعراب. ابن هشام: أبو محمد عبدالله جمال الدين، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق محمد عبدالحميد، القاهرة، د. ت، ١/ ب، ٩؛ العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة، ص١٣٥.

(٢) ابن بشكوال: أبو القاسم خلف عبدالملك، الصلة، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ٢/ ٤٢٦؛ ابن الأبار: أبو عبدالله محمد بن عبدالله، تكملة الصلة، مكتبة الخانجي - مصر، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م، ١/ ٨٢-٨٣؛ السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص٧٦-٧٨.

الشـريف[١]. كما قام أبو علي بن العرجاء إمام الحرميـن بإجازة أحمد بن علي بن أحمد الأنصاري[٢] وأخيه أبي القاسم عبدالرحمن، وكان ذلك في أثناء وجودهما بمكة المكرمة لأداء فريضة الحج[٣].

كمـا كان بعـض العلمـاء يأتـون لأداء فريضـة الحـج مصطحبيـن معهـم تلامذتهم ومريديهم وهذا يترتب عليـه إقامة بعض المداولات والدروس العلمية فيتيح أمام أبناء مكة فرصة سـانحة لاكتسـاب مزيدٍ من العلـوم والمعارف، فكان الحـج يعمل علـى تجميع المسـلمين من كل مـكان ومن ثم تقريـب مجتمعاتهم ولهجاتهم وتوطيد أواصرهم[٤].

أما طلبة العلم من غير المكيين، فنحن لا نغالي إذا قلنا: إِن موسـم الحج كان لهم مثل بعثة علمية شاملة ومكثفة، تتوافر لهم خلاله كثير من الفرص العلمية المتنوعة التي تكفل لهم الاستفادة والاستزادة من بحر معلومات لا ساحل له ولا ضفـاف، فيطيب لبعضهـم البقاء جوار هـذا البيت العتيـق فيسـتفيدون من علماء مكة وفقهائها، خصوصاً أن الطالب يعد نفسـه مبتعثًا إلـى أكبر جامعة علمية، كما أنـه يضع في حسـبانه المكانـة الدينية والفـارق الروحـي، فنـرى أن الطالب يأتي إلى مكـة المكرمة محمـلًا ببعض العلـوم، فيلقي ما عنـده في الحلقـات العلمية المقامة في المسـجد الحرام مبينًا علومه ومعارفه التي حصل عليها في بلاده وفي البلـدان الأخرى التـي يمر عليها، كمـا أنه يبيـن طريقة عرضه في إلقـاء الدروس

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ١/ ٢٧٢؛ آل مشاري: منى حسن، المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي، رسالة ماجسـتير غير منشورة، جامعة الملك سـعود، ١٤٠٩هـ/ ١٤١٠هـ، ص١٣٠.

(٢) هو أحمد بن علي بن أحمد الأنصاري السرقسـطي، نزل الإسكندرية، يكنى أبا العباس ويُعرف بابن الفقيه. ابن بشكوال: الصلة، ١/ ٨٢.

(٣) المصدر السابق، ١/ ٨٢.

(٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ٥/ ١٥٨؛ السنيدي: الحياة العلمية في مكة، ص٨٠-٨١.

والمحاضرات، وأحيانًا يتوقف الدعاة والعلماء عن إلقاء دروسهم ومحاضراتهم ويستمعون لهذا الآتي من بلده لإلقاء ما عنده وإفادة غيره سواء من طلاب مكة المكرمة أو ممن وفد إليهم من البلدان الأخرى، فيكون بذلك قد استفاد وأفاد من هذه البعثة العلمية، فألقى ما عنده وأُخذ ما عند غيره من علم ومعرفة، ولا يعود إلى بلده إلا وقد امتلأت جعبته بالأخبار وذاكرته بالخطب والدروس، وامتلأ ذهنه بالصور والمشاهد المختلفة، وقلَّما خلا عام من أعوام القرون الثلاثة - السابع والثامن والتاسع من الهجرة - من عالم شهير في الحرمين يأخذ عنه شباب العَالَم ويحذون حذوه في الدراسة والاطلاع[١].

وخير من نستشهد به في هذا المقام، الشيخ إمام المقام الشريف رضي الدين أبو إسحاق إبراهيم الطبري الشافعي المكي[٢]، الذي أخذ عن جماعة من العلماء في مكة المكرمة سواء من أهلها أو الوافدين عليها، فقد أخذ عن أبي الحسن علي بن هبة الله بن الجُميزي وأبي عبدالله محمد بي أبي الفضل المرسي ونجم الدين سليمان بن خليل العسقلاني[٣]، كما أجازه جماعة من العلماء كابن الصلاح وغيره[٤].

---

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٢٢٣؛ الهمزاني: أثر السلاطين والأمراء، ص٤٤٠.

(٢) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، الشيخ رضي الدين الطبري، يُكنى أبا أحمد، ويقال: أبو إسحاق، المكي الشافعي، إمام المقام الشريف، ولد عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م، ولي الإمامة وحدث أزيد من خمسين سنة، توفي عام ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م بمكة ودفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٥١.

(٣) سليمان بن خليل بن إبراهيم بن يحيى الكناني العسقلاني المكي الشافعي، يُكنى أبا الربيع ويلقب (نجم الدين)، إمام المقام وخطيب المسجد الحرام ومفتيه، ولد قبل ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م وولي خطابة المسجد الحرام مع الإمام بالمقام، توفي عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م. المصدر السابق، ٤/ ٢٣٥.

(٤) ابن جابر الوادي آشي: البرنامج، ص٨٥.

وقد أخذ كل من البلوي والتجيبي من عدد من العلماء في المسجد الحرام، حيث ذكر البلوي ذلك قائلًا: «ومن أرجحهم عقلًا، وأوضحهم فضلًا، الشيخ العالم الفاضل أبو العباس أحمد بن إبراهيم الشافعي ﷺ»[(١)] إلى أن قال: «لقيته بحرم مكة الشريف تجاه الكعبة المعظمة فسمعت عليه كثيرًا من أحاديث رسول الله ﷺ ومن غير ذلك، وانتفعت به، وأجازني الإجازة التامة المطلقة العامة»[(٢)].

كما ذكر التجيبي أنه لقي الشيخ أبا الحسن المكي، فأجازه جميع ما تجوز له روايته، وكتب له بذلك بخط يده المباركة[(٣)].

وقد زخرت كثيرٌ من المصادر التاريخية وكتب التراجم بأسماء كثيرين من العلماء والمجاورين الذين كان لهم دور بارزٌ في التدريس في حلقات العلم في المسجد الحرام، ويكفي أن نلقي نظرة سريعة على بعض الكتب، فعلى سبيل المثال لا الحصر هناك كتاب «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين»[(٤)] وكتاب «الضوء اللامع لأهل القرن التاسع»[(٥)] كما أشار ابن جبير إلى هذه الحلقات وما يدور فيها من علوم مختلفة ودروس متعددة قائلًا: «والحرم محدق بحلقات المدرسين وأهل العلم»[(٦)].

---

(١) أحمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم أبو العباس ابن الإمام رضي الدين الطبري، المكي الشافعي، إمام المقام الشريف، ولد عام ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م، ناب في القضاء بمكة عن ابن أخته القاضي شهاب الدين الطبري، وأعاد بالمدرسة المجاهدية بمكة، وخلف أباه في الإمامة، توفي عام ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م بمكة ودفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٦.

(٢) البلوي: تاج المفرق، ١/ ٣١٤.

(٣) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٣٧٦.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٥٢-١١٦، ٣/ ١٦٤ و٤/ ١٨٨.

(٥) السخاوي: الضوء اللامع، ٤/ ٢٨٤، ٧/ ٢١٤، ٩/ ٢٢٣، ١١/ ١٣٢.

(٦) ابن جبير: الرحلة، ص٦٠.

وهكذا نستطيع أن ندرك مدى استفادة أهل مكة من هذا الاحتكاك والاتصال بالوافدين من الأقطار الإسلامية المختلفة، وخير ما يمثل ذلك ما ذكره ابن رشيد في كلام هذا نصه: «لقيت بالحرم الشريف بعض العلماء الوافدين في الركب وأخبرني باسمه فأنسيته، ولم أره قبل ولا بعد»[(١)].

ويدل هذا دلالة واضحة وغير قابلة للشك على أن العلماء كانوا يأتون من جميع أصقاع البلاد للاستفادة وتلقي العلم في مكة المكرمة بشكل عام والمسجد الحرام بشكل خاص، وذلك لكونه جامعة علمية عظيمة زخرت بعلوم ومعارف شتى، ومن ثَمَّ نشر ما تعلموه في هذه الجامعة عند عودتهم إلى مواطنهم.

فقد قام محمد بن عبدالله بن راشد البكري القفصي[(٢)] بنشر ما تلقاه وتعلمه في أثناء مدة مجاورته بمكة المكرمة عندما عاد إلى موطنه، حيث رجع إليها بعلم عظيم[(٣)]، كما قام ابن جابر الوادي آشي أيضًا بنشر ما تعلمه عندما عاد إلى وطنه[(٤)].

هذا، وقد زخرت كثيرٌ من كتب التراجم بكثير من تراجم العلماء الراحلين إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقلَّما نجد من لم تكن له رحلة إليهما، حيث

---

(١) ابن رشيد: ملء العيبة، ٥/ ٢٦٢.

(٢) هو محمد بن عبدالله بن راشد البكري القفصي، المكنى أبو عبدالله، نشأ بالمغرب وتعلم بها، حج عام ٦٨٠هـ/ ١٢٨١م، ولقي علماء الحرمين وأخذ عنهم، ثم رجع بعلم وخير كثير، وذاع صيته وأسند إليه قضاء قفصة ثم صُرف عنه فاشتغل بالتدريس، توفي بتونس عام ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥، ودفن بها، ولا يُعلم متى ولد. المراغي: عبدالله مصطفى، الفتح المبين في طبقات الأصوليين، ط٢، دار الكتب العلمية، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م، ٢/ ١٣٩.

(٣) المصدر السابق، ٢/ ١٣٩.

(٤) ابن جابر الوادي آشي: البرنامج، ص١٤.

إن قيمة العالم ومكانته تكمن في كثرة ماله من رحلات ومشايخ تلقى عنهم علوماً ومعارف شتى[١].

ولقد كان كثيرٌ من علماء الأندلس والعراق والشام ومصر واليمن وحضرموت والمغرب وبلاد شنقيط يفدون إلى مكة المكرمة لا للحج وحده، وإنما لنشر العلم والاستزادة منه، وليكونوا حبل الصلة الوثيق بين شرق البلاد وغربها بالعلم والمعرفة[٢].

كما حرص حجاج المغرب والأندلس على نقل ما تعلموه من علمائهم في الحرمين الشريفين، وتدوين ذلك في مخطوطاتهم، وقام بعض منهم بشراء كثير من المؤلفات في الموضوعات المختلفة مثل كتاب أخبار مكة للمؤرخ محمد بن عبدالله الأزرقي[٣].

والجدير بالذكر أن فائدة الدروس الملقاة في الحرم المكي لم تقتصر على المكيين أنفسهم، بل نهل من هذه المدرسة علماء من الأقطار الإسلامية كافة، كما كانت ترد إلى مشاهير الحرم أسئلة من المدن والأقطار المجاورة وكانوا يتولون الرد عليها[٤].

وخير مثال على ذلك هو أن القاضي جمال الدين بن ظهيرة - وهو ممن

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ٥/ ١٧٠؛ ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر - لبنان، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ١/ ٣٦١.

(٢) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٣، ٥/ ٥٢٤.

(٣) الهمزاني: بندر محمد، علاقات مكة المكرمة الخارجية في عهد أسرة الهواشم، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص٣٢٧.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، انظر مقدمة المحقق الباز، ص٦٣؛ عبدالله: تاريخ التعليم في مكة، ص٤٣-٤٤.

تولى التدريس في الحرم المكي في القرن الثامن الهجري - كانت ترد إليه أسئلة كثيرة من الطائف ولِيِّـه، كما كانت ترده أسئلة من عدن وغيرها من المدن اليمنية، فيجيب عليها أجوبة مفيدة ومفصلة[١]، ورضي الدين الطبري[٢] الذي تدور عليه الفتيا أيام الموسم[٣].

وهكذا كان للمسجد الحرام في العصر المملوكي دور علمي كبير وبارز لم تقتصر فائدته على المكيين، بل نهل من بحر هذا العلم وتزين بجواهره الثمينة علماء من بلدان إسلامية شتى....

أثر العلماء المجاورين في إثراء الحركة العلمية في المجتمع المكي:

كان العلماء يفدون إلى مكة المكرمة من جميع الأقاليم الإسلامية؛ ليلبوا داعي الله ويؤدوا الفريضة التي أمرهم بأدائها.

قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ ...﴾[٤].

لذلك أصبح موسم الحج فرصة ثمينة للقاء العلماء والفقهاء من الأقطار الإسلامية كافة، لأنهم كانوا يتدارسون العلوم المختلفة فيما بينهم، ويأخذون عن بعضهم كثيرًا من العلوم المتنوعة، كالتفسير والحديث والفقه والعربية، ثم يعود

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٠٥.

(٢) هو إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر، الشيخ رضي الدين الطبري، يكنى أبا أحمد، ويقال أبو إسحاق، المكي الشافعي، إمام المقام الشريف، ولد عام ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م، وكان شيخ مكة، ويفتي على مذهب الشافعي، توفي عام ٧٢٢هـ/ ١٣٢٢م، بمكة. المصدر السابق، ٣/ ١٥١-١٥٣.

(٣) ابن رشيد: ملء العيبة، ٥/ ١٣١؛ الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٥٣.

(٤) سورة الحج: الآية ٢٧.

أكثر هـؤلاء العلماء إلى بلادهـم وهم يحملـون معهم ما وجـدوه بمكة من كتب وعلوم ومعـارف وأحاديث كانـت لهم أغلى الكنـوز وأندر الجواهـر التي يمكن أن يحملها معه الشـخص عند عودته إلى موطنه، أما بعض هـؤلاء العلماء، فكان يفضل الإقامة والبقاء بجوار بيت الله الحرام[١].

ومن هنا نشـأ ما عُرف في التاريخ الإسـلامي باسـم المجاورة[٢]، فكانت الغاية من هذه المجاورة الانقطاع والعبادة والطاعة وطلب العلم والمعرفة بجوار بيت الله الحرام[٣].

ولقد كان لهـؤلاء المجاورين دورهم المؤثـر والملموس وأثرهم العلمي الكبير بمكة المكرمة حيث أسـهموا بشـكل إيجابي في النهوض بالحركة العلمية الموجودة بها، وهذا جعل مكة المكرمـة في تلك المدة تصبح واحدة من البلدان التي تُشد إليها الرحال لطلب العلم، وتقصي المعرفة[٤].

وقـد عُـدَّ المسـجد الحـرام مـن أهـم المؤسسـات التي بـرز فيها نشـاط المجاورين العلمي، وهذا ليس بجديد على المسـجد الحـرام، حيث عُدَّ من أكبر الجامعـات العلمية التـي أَدَّتْ دورًا بـارزًا في نشـر العلم؛ لذا نشـط المجاورون في إقامة كثيرٍ مـن الحلقـات العلمية في الحـرم المكي الشـريف، والتي تركزت فـي العلوم الدينيـة[٥]، ومن ذلك مـا ذكره البلوي من أنه سـمع علـى أبي عبدالله

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٢٢٣؛ الهمزاني: علاقات مكة المكرمة، ص٣١٣.

(٢) المجـاورة: الاعتكاف فـي المسـجد، والمجـاورة بمكة والمدينـة يراد بهـا المقـام مطلقًا غير ملتزم بشـرائط الاعتكاف الشرعي. ابن منظور: اللسـان، ١/ ٧٢٤؛ المنجد في اللغة والإعلام، ص١٠٩.

(٣) الزيلعـي: أحمد عمر، مكـة وعلاقاتها الخارجيـة، ط١، جامعة الريـاض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص١٣٧-١٣٩.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٥٥؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٤/ ٣٠٤-٣٠٥.

(٥) البلوي: تاج المفرق، ١/ ٣١٣.

محمد بـن عبدالرحمن بن محمد بـن عمر المكي المالكي واسـتفاد منه اسـتفادة عظيمـة، كما أنه أجـازه جميع مـا يحمله ويرويه إجـازة تامة مطلقـة عامة، وذلك عندما لقيه بالحرم المكي الشريف[١].

كما كان لأحمد بـن عبدالله العامري الدمشـقي (ت٨٢٢هـ/ ١٤١٩م)[٢] حلقة حافلة بالنبهاء في المسـجد الحرام يقرأ بها دروسًـا في الفقـه والحديث[٣]. وقـد أَدَّبَ بعـض المجاورين الأطفـال وأقرأهم بالمسـجد الحرام، كالحسـن بن عبدالأحد بـن عبدالرحمـن الرسـعني الحنبلـي، حيث جـاور بمكة سـنين كثيرة، وأدّب بها الأطفال بالمسجد الحرام[٤].

هـذا، وقد كان هـؤلاء المجاورون على درجـة كبيرة من النشـاط العلمي الذي أفاد المسلمين، وقد تمثل هذا النشاط في إنتاج كثيرٍ من الكتب والمؤلفات فـي الفنون والعلـوم المختلفة على يد عدد ممـن جاور من العلمـاء، نذكر منهم: محمد بـن محمـد الكاشـغري النحـوي (ت٧٠٥هــ/ ١٣٠٥م)[٥] الـذي اختصر كتاب أسـد الغابة لابـن الأثير في أثنـاء مجاورته بمكـة، التي اسـتمرت مدة أربع

---

(١) البلوي: تاج المفرق، ١/ ٣١٣-٣١٤.

(٢) أحمد بـن عبدالله بـن بدر بـن مفـرج العامـري، الغـزي الدمشـقي الشـافعي، ولـد عـام ٧٦٠هـ/ ١٣٥٨م بغزة، أقرأ في عام ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م بالمسـجد الحرام مختصر ابن الحاجب فـي الأصول فـي حلقة حافلـة بالنبهـاء، توفـي بمكة عـام ٨٢٢هــ/ ١٤١٩م ودفـن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٣٤-٣٦.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ٣٥؛ آل مشاري: المجاورون في مكة والمدينة، ص١٣٥.

(٤) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٣٤٧.

(٥) محمد بـن محمد بـن علي الكاشـغري، أقـام بمكة ١٤ سـنة وصنف بهـا كتابًا سـماه «مجتمع الغرايـب، ومنبـع العجايب» في أربع مجلـدات، وقدم اليمـن وكان أول قدومـه حنفيًا ثم صار شـافعيًا، اختصر أسـد الغابة لابن الأثير في أثناء مجاورته بمكة، توفي عـام ٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م. المصدر السابق، ٢/ ٣٧٩.

عشرة سنة[١]، وبرهان الدين إبراهيم الأقصراني القاهري (ت٩٠٨هـ/ ١٥٠٢م)، المجاور بمكة المكرمة لمدة ثلاث سنوات وألف فيها كتابًا سماه «أحكام الحكم لشرح الحكم» وهو شرح على كتاب الحكم لابن عطاء الله، كما أَلَّف في الزيارات النبوية[٢].

هذا، وقد جاور الحسن بن محمد بن الحسن العمري الصغاني (ت٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)[٣] بمكة المكرمة سنين طويلة، وله عدد من المؤلفات وإن كنا لا نعرف على وجه التحقيق ما الكتب التي صُنفت في مكة المكرمة، إلا أنه يغلب على الظن أن بعضًا من مؤلفاته قد صُنفت في مكة لكون أن المجاورة في بيت الله الحرام تمنح صاحبها فرصة كبيرة للتفرغ للتصنيف.

وهكذا يمكننا القول بأن الحج كان له دورٌ رئيسٌ في إثراء الحركة العلمية، بل كان أحد مقومات البيئة العلمية في مكة المكرمة، فالمسلمون يأتون من كل جهة ثم يتفرقون وقد أخذ كل منهم من العلوم والدروس والمعارف ما هو كفيل بإشباع حاجاته العلمية ونهمه الفكري وإرواء ظماء المعرفة لديه.

ومما ينبغي الإشارة إليه أنه كان لعلاقات مكة المكرمة الخارجية أكبر الأثر في اجتذاب عدد كبير من المجاورين إليها من بقاع شتى من الأرض، من

(١) ابن القاضي: أبو العباس أحمد بن محمد، ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، ط١، دار التراث – القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، ٢/ ٣١٥؛ آل مشاري: المجاورون في مكة والمدينة، ص١٣١.

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب، ٨/ ٣٧.

(٣) هو الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن علي بن إسماعيل العمري، من ولد عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يكنى أبا الفضائل ويلقب بالرضي الصغاني، ولد عام ٥٧٧هـ/ ١١٨١م، جاور بمكة سنين، له تواليف منها: مجمع البحرين، العباب الزاخر واللباب الفاخر، الشوارد في اللغات، وكتاب التراكيب وغيرها، توفي عام ٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م، ببغداد ودفن بداره. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٤٠٧-٤٠٨.

مصر والعراق والشـام والمغرب والأندلس والجزائر[١] واليمـن[٢] وبلاد ما وراء النهـر[٣]. إضافـة إلى قـرب المسـافة التي كانـت تربط مكـة المكرمـة بغيرها من البلدان الإسلامية كالقاهرة[٤].

وكان السـبب في قـدوم هـؤلاء المجاورين إلى مكـة المكرمـة والمدينة المنورة نفسها هو العامل الديني حيث يوجد الحرمان الشريفان بهما، إلى جانب أن هاتين المدينتين المقدسـتين كانتا بعيدتين عن الحروب والفتن السياسـية التي كانت موجودة في المناطق الأخرى، وهذا جعل هـؤلاء المجاورين يقضون جُلّ وقتهم في الصلاة والعبادة في رحاب هذين الحرمين[٥].

هذا، وقد جاور عدد كبير من العلماء الذين كان لهم دور مؤثر في إثراء الحياة العلمية بين أفراد المجتمع المكي، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

١ - شـمس الدين السـخاوي[٦]. فقد جاور بمكة ثلاث مـرات، وكان يحدث

(١) الفاسي، العقد الثمين، ٤/ ٤٢٦، ٥/ ٥٢٠، ٦/ ١٤؛ ابن العماد: شذرات الذهب، ٤/ ٢٥٣.

(٢) الأسـنوي: جمال عبدالرحيم، طبقات الشـافعية، تحقيق عبدالله الجبوري، دار العلوم للطباعة والنشر - الرياض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ١/ ٢١٣-٢١٤.

(٣) ابن الجوزي: أبو الفـرج عبدالرحمن بن علـي، المنتظم في تاريخ الملـوك والأمم، ط١، دائرة المعـارف العثمانية، حيـدر أباد، ١٣٥٧هــ، ٦/ ٣٩١-٣٩٢؛ سـبط ابن الجـوزي: أبو المظفر يوسـف، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، تحقيق جنان جليل الهموندي، الدار الوطنية - بغداد، ١٩٩٠م، ص١١٤؛ الهمزاني: علاقات مكة المكرمة الخارجية، ص٣١٤.

(٤) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٥) مالكي: سليمان عبدالغني، بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية فـي بغـداد، دار الملك عبدالعزيـز - الريـاض، ١٤٠٣هــ/ ١٩٨٣م، ص١٨٧؛ باقاسـي: بلاد الحجاز في العصر الأيوبي، ص١٠٢؛ الهمزاني: علاقات مكة المكرمة الخارجية، ص٣١٤.

(٦) هـو محمد بـن عبدالرحمن بن محمـد الملقب بشـمس الديـن أبو الخير ويعرف بالسـخاوي، ولد عـام ٨٣١هـ/ ١٤٢٧م، جاور بمكـة المكرمة والمدينة المنورة، وحمـل الناس من أهلهما والقادميـن عليهما عنه الكثيـر جدًا رواية ودرايـة، وحصلوا من تصانيفه جملـة، وهو صاحـب كتاب الضوء اللامـع لأهل القرن التاسـع، توفي عام ٩٠٢هــ/ ١٤٩٦م. ابن العماد: شـذرات الذهب، ٧/ ١٥-١٦.

فيها سواء لأبنائها أو للوافدين عليها، كما كانت له حلقة درس بالمسجد الحرام، فحمل عنه الكثير رواية ودراية، وقد جاور السخاوي مرتين في المدة التي نحن بصدد دراستها، مرة في عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦١م، ومرة في عام ٨٨٥هـ/ ١٤٨٤م[١].

٢ - التقي المقريزي، الذي حدث بمكة وحدث بكتابه إمتاع الأسماع، كما حدث ببعض تصانيفه ومروياته، وسمع منه الفضلاء واستفاد منه كثيرٌ من أهل مكة والوافدين عليها[٢].

٣ - الحافظ ابن حجر العسقلاني[٣]، حدث وسمع منه الفضلاء.

والجدير بالذكر أن المجاورة لم تقتصر على الرجال، بل لقد جاور كثيرٌ من النساء، وتركن أثرًا ملموسًا في باقي المجتمع المكي، نذكر منهن على سبيل المثال:

١ - أنس النستراوي[٤]، جاورت وحدثت بحضور زوجها التقي المقريزي وبعده أيضًا.

٢ - زينب العراقي[٥]، جاورت بمكة وحدثت بالكثير، وسمع منها الفضلاء،

---

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ٨/ ١٤.

(٢) المصدر السابق، ٢/ ٢١-٢٥.

(٣) هو أحمد بن علي بن محمد بن محمد إمام الأئمة الشهاب أبو الفضل الكناني العسقلاني المصري ثم القاهري الشافعي، ويعرف بابن حجر وهو لقب لبعض آبائه، ولد عام ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م بمصر، حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين عند الصدر السفطي شارح مختصر التبريزي، وصلى به على العادة بمكة، وبحث في صغره وهو بمكة العمدة على الجمال بن ظهيرة، توفي عام ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، تزاحم الأمراء والأكابر على حمل نعشه، ولم يخلف بعده في مجموعه مثله. المصدر السابق، ٢/ ٣٦.

(٤) هي أنس ابنة عبدالكريم بن أحمد النستراوي الأصل القاهري، ولدت عام ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م، توفيت عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٢م، وكانت دينّة كريمة، راغبة في الخير. المصدر السابق، ١٢/ ١١.

(٥) زينب بنت عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن، بنت الزين العراقي الأصل القاهري، ولدت عام ٧٩٠ هـ/ ١٣٨٨م، حجت وحدثت بالكثير وسمع منها الفضلاء، ماتت عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م. المصدر السابق، ١٢/ ٤٣.

ونقـل عنهـا أهل مكـة والمجـاورون، وممـن نقل عنهـا مـن المجاورين السخاوي[(١)].

وما هؤلاء إلا طائفة قليلة من كثر جاوروا بمكة المكرمة وأدّوْا دورًا بارزًا وجليًا في إثراء الحركة العلمية في المجتمع المكي.

وقد تفاعل هؤلاء العلماء المجاورون مع علماء الحرمين الشريفين تفاعلًا كبيرًا ومؤثرًا على الطرفين، إذ سمعوا وأجاز بعضُهم بعضًا فاستزادوا بذلك علمًا وفضلًا، فقد أجاز إبراهيم بن يحيى الصنهاجي (ت٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م)[(٢)] للفاسـي مروياته في الحديث[(٣)]، كما قام السخاوي بمنح الإجازات لطلاب العلم في أثناء مجاورته في الحرمين الشريفين[(٤)].

والجديـر بالذكر أنه لـم يكن لطبقـة المجاورين أثـرٌ واضحٌ علـى الحياة العلمية في مكة المكرمة فحسـب، بـل بدا هذا الأثر واضحًـا على جميع جوانب الحياة فيها بصفة عامة.

فقـد شـارك المجـاورون فـي بعض مراسـم تعييـن الـولاة فـي الحرمين الشـريفين، إذ كانت تُقرأ في حضورهـم مع القضاة والأمراء والأعيان، كمرسـوم تعيين الشـريف محمد بن بركات بن حسن بن عجلان (من ٨٥٩هـ-١٤٥٥م إلى ٩٠٣هـ-١٤٩٧م) الذي قـرئ في اجتماع حضره الأمـراء والقضاة والمجاورون والأعيان[(٥)].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، انظر مقدمة المحقق الباز، ص٦٠.

(٢) هو إبراهيم بن يحيى بـن محمد بن حمود بن أبي بكـر الصنهاجي، برهان الدين، أبو إسـحاق، نزيل مكة، أجاز للفاسـي مروياته، توفي بمكة عام ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧م، ودفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ١٧٠-١٧١.

(٣) المصدر السابق، ٣/ ١٧١؛ آل مشاري: المجاورون في مكة والمدينة، ص١٣٠.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ٣١٥، ١٠/ ٦.

(٥) المصدر السابق، ٧/ ١٥٢؛ آل مشاري: المجاورون في مكة والمدينة، ص٦٥.

كما كان لهم دور في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن ذلك ما فعله تغري برمش عندما منع المؤذنين في الحرم المكي من المدائح النبوية فوق المنابر ليلًا، كما منع المداحين من الإنشاد فيه[١].

كما قاموا بكثير من الأعمال والإصلاحات في أرض الحرم الشريف، ومن ذلك ما حدث في عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، عندما عاون بعضهم بعضًا في إصلاح الحرم الشريف وتنظيفه إثر ما ألَمَّ به من خراب من السيول التي هطلت على مكة المكرمة في هذه السنة[٢].

كما عمّر الزين عبدالباسط ناظر الجيوش في الديار المصرية حينما جاور بمكة عام ٨٣٥هـ/ ١٤٣١م، مدرسة بباب العجلة نُسبت إليه[٣]. وأنشأ أبو بكر عمر بن مزهر في عام ٨٧١هـ/ ١٤٦٧م، حينما كان مجاورًا بمكة رباطًا أوقفه[٤].

كما كان لهم دور في رؤية أهلّة الشهور العربية، لتحديد ابتداء تلك الشهور، وهذا ما ذكره ابن جبير قائلًا: «استهلَّ هلاله - يعني شهر رجب - ليلة الخميس الموفي عشرين لشهر أكتوبر بشهادة خلق كثير من الحجاج المجاورين والأشراف أهل مكة»[٥].

وقد مارس المجاورون كثيراً من الأعمال وتقلدوا الوظائف الدينية المختلفة في المسجد الحرام، ومن أهم المناصب التي تقلدوها منصب القضاء، وذلك لاتساع معارفهم وغزارة معلوماتهم الشرعية، فساروا في القضاء سيرة حسنة بعفة ونزاهة، وممن تولى هذا المنصب هو «طاهر بن بشير الإربلي» الذي

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٢٥٢.
(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢١٤-٢١٥.
(٣) المصدر السابق، ٤/ ٦٣.
(٤) المصدر السابق، ٤/ ٤٧٤.
(٥) ابن جبير: الرحلة، ص٩٤.

هاجر إلى مكة المكرمة وجاور بها مدة ست عشرة سنة وتولى الإمامة والقضاء في الحرم المكي[١].

وقد تولى عبدالرحمن بن محمد بن أبي الطاهر محمد بن عبدالرحمن المصري[٢] الأذان بمئذنة دار الندوة بالحرم المكي الشريف[٣].

كما تولى كثيرٌ من المجاورين وظيفة الإمامة في المسجد الحرام، ومنهم يحيى بن أحمد النحوي (ت٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م) الذي تولى إمامة المالكية بمكة المكرمة[٤].

وقد تولى عدد كبير منهم التدريس في المسجد الحرام، أدَّى دورًا أساسيًا في بث العلم في مكة المكرمة، نذكر منهم على سبيل المثال:

- علي بن أحمد الفوّي المتوفى عام ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م، وقد تولى تدريس درس الحديث للسلطان شاه شجاع في المسجد الحرام[٥].

وقد أكسبت المجاورة أصحابها نضجًا علميًا نتيجة احتكاكهم بعلماء الحرمين حيث انعكس ذلك إيجابًا عليهم عند عودتهم إلى بلدانهم، فنجد أن بعض المجاورين عندما يعود إلى بلده يتقلد أكبر المناصب هناك، وخير من نستشهد به في هذا المقام أحمد بن علي المقريزي المجاور بمكة المكرمة

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٢٩٣؛ العبيكان: الحياة العلمية والاجتماعية في مكة، ص١٤٥.

(٢) عبدالرحمن بن محمد بن أبي الطاهر محمد بن أبي الفتح العمري المصري الأصل المكي المولد والدار ولد عام ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م المؤذن بالحرم الشريف، كان مؤذنًا بمئذنة دار الندوة تلقاها عن أبيه عن جده، توفي عام ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م بمكة ودفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٥٧.

(٣) المصدر السابق، ٥/ ٧٥؛ مرداد: المجاورون المصريون، ص١١٣.

(٤) السيوطي: بغية الوعاة، ٢/ ٣٣٠.

(٥) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٢٣٤.

الذي أسـهمت مجاورته في مكة المكرمة في اتساع أُفُقه العلمي ونضجه الفكري نتيجة لاحتكاكه بعلماء الحرمين الشـريفين وغيرهم من علماء المسـلمين، حيث تولى عدة مناصـب بالقاهرة كالحسـبة والإمامة بجامـع الحكم، كما لـه كثيرٌ من المؤلفات القيمّة في التاريخ[١].

ومما لا يمكننا تجاهله أن هناك عدة عوامل شجعت علماء وأدباء البلدان الإسـلامية على القدوم إلى مكـة المكرمة والمجـاورة بها، بل كانـت حافزًا قويًا لهم، ولعـل من ذلك رغبتهم فـي أن يكون لهـم نصيب مما يرسـله خلفاء الدول الإسلامية وأمراؤها وسـلاطينها وتجارها إلى مكة المكرمة من نفقات وصدقات وهبات[٢].

ففـي عـام ٦٦٧هـ/ ١٢٦٩م، حـج الظاهر بيبـرس وقـام في أثنـاء حجه بأعمال بر كثيرة برهـن بها على مراعاتـه لمصالح الأشـراف والمجاورين وعامة أهـل مكة على السـواء، ويُـروى أن صدقاته شـملت جميع أهل مكة بشـكل عام والمجاورين والفقهاء بشكل خاص[٣].

وفـي عـام ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، حـج الملـك الناصـر محمد بـن قـلاوون وتصدَّق على أهل الحرم وشملت صدقته المجاورين والفقهاء[٤].

وهكذا نسـتطيع القول أن هـؤلاء المجاورين قد اسـتفادوا من مجاورتهم لبيت الله الحرام اسـتفادة عظيمة سـواء كانت مادية أو معنوية، إضافة إلى أثرهم الواضـح والملمـوس علـى المجتمع المكـي، فكمـا اسـتفادوا أفـادوا أهل مكة

(١) السخاوي: الضوء اللامع، ٢/ ٢١-٢٢؛ آل مشاري: المجاورون في مكة والمدينة، ص١٤٢.
(٢) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٢٢٢-٢٢٣.
(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٩٤.
(٤) الجزيري: الدرر الفرائد، ١/ ٦٧٨-٦٧٩.

وطلاب العلـم، وتركوا بصمـات واضحة علـى المجتمع المكـي، ولا نغالي إذا قلنا: إن هؤلاء المجاورين كانوا كالحجر الذي حرّك المياه الراكدة، حيث أنعشوا الحيـاة العلمية في مكة المكرمـة، كما كان لهم دور كبير في تحسـين أحوال مكة الاجتماعية، والعلمية، والثقافية[١].

خزائن الكتب في المسجد الحرام:

لقد كـرّم الله الحجـاز بأن جعلها مهد الرسـالة السـماوية التـي بعث الله بها سـيد الأنبياء والمرسـلين سـيدنا محمد ﷺ فبرزت المدينتـان الكريمتان مكة المكرمة والمدينة المنـورة بوصفهما مركزين مهمين للحضارة الإسـلامية، فكان وجود المكتبات بها مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بوجود الكتب والمصاحف في الحرمين الشريفين، وهذا قديم قدم الإسلام نفسه[٢].

فالمسجد الحرام يضم كثيرًا من نسـخ القرآن الكريم والكتب الإسلامية، لكونه ملتقـى المسـلمين لأداء المناسـك التعبدية مـن ناحية، والتعلـم من ناحية أخـرى، كما يحصـل التبـادل العلمي بين علماء المسـلمين سـواء بعقـد حلقات الدرس في المسـجد الحرام أو بتبادل الكتـب العلمية، أو إهـداء نتاجهم العلمي إلى هذه الأماكن المقدسـة، خصوصاً إذا علمنا أن كثيرًا من الخلفاء والسلاطين، والأمراء وكبـار التجار والأغنياء والعلماء كانوا يرسـلون بعض كتبهم إلى خزائن الكتب بالمسـجد الحـرام؛ لينتفع بها طلاب العلم، كما أرسـل بعض السـلاطين خزائن الكتب ووقفها على طلبة العلم؛ ليسـتفيدوا منها، ومن ذلك ما حدث عام

(١) الزيلعي: مكة وعلاقاتها الخارجية، ص١٥٠-١٥١.

(٢) البركاتـي: ناصـر عبداللـه سـلطان، التطـور التاريخي لمكتبـة الحـرم المكي الشـريف، مجلة العصـور، المجلـد الثانـي، الجـزء الثانـي، دار المريخ للنشـر - لنـدن، ١٤٠٧هــ/ ١٩٨٧م، ص٣٢٢.

٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م، عندما بعث السلطان قايتباي الجركسي بخزانة كتب أوقفها على طلبة العلم، وجعل مقرها في مدرسته التي أنشأها بجوار المسجد الحرام[١].

كما أوصى بعض العلماء بوقف كتبهم بعد وفاتهم على مكتبات المسجد الحرام، وهكذا أصبح المسجد الحرام يضم مئات الكتب في العلوم الدينية واللغوية والأدبية المختلفة وجملة من المصاحف بخطوط حسنة[٢].

ونتيجة لهذا كله، تميزت مكة المكرمة والمدينة المنورة عن غيرها من المدن بالنشاط العلمي، والعناية بالمأثور من أقوال النبي ﷺ، كما تميزت بشيوع المذاهب الإسلامية القائلة بالرأي والآخذة بالقياس على ضوء ما ورد في كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ[٣].

وبالرغم من وجود مثل هذه الكتب والمصاحف إلا أنه لم تكن توجد مكتبة بمعناها الاصطلاحي في المسجد الحرام، إنما أُنشئت خزائن للكتب في الحرم المكي على مر العصور في أنحاء متفرقة من الحرم. ولعل هذه الخزائن الموجودة في المسجد الحرام كانت هي النواة الأولى للمجموعات المكتبية لمكتبة الحرم المكي الشريف فيما بعد -.

أما تاريخ بدء اتخاذ خزائن الكتب في المسجد الحرام، فإن هناك أدلة تاريخية تشير إلى وجود خزائن للكتب في المسجد الحرام يعود تاريخها إلى القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، ومن أهم هذه الإشارات أنه في عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م، دخل الحرمَ المكي سيلٌ ووصل إلى خزائن الكتب، فأتلف منها الشيء الكثير[٤].

---

(١) النهروالي: الأعلام، ص٢٢٥؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص٣٧.
(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٢١٣، ٣/ ٧٦٦.
(٣) السباعي: تاريخ مكة، ص١٥٣.
(٤) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ٣١٢؛ البركاتي: التطور التاريخي لمكتبة الحرم، ص٣٢٢.

ولقد تعرضت هذه الخزائن لكوارث عدة منها التلف والضياع وذلك لعدم وجود مكان مخصص لها يحميها من عبث العابثين ويحفظها من عوارض الزمان كالسيول وغيرها، كما أن هذه الكتب والمصاحف المنتشرة ليس لها أماكن مخصصة لحفظها أو فهارس تُدّون فيها؛ ليسهل الرجوع إليها والاستفادة منها، وإنما كانت موضوعة في دواليب في دائر حائط الحرم المكي، وكانت هذه الدواليب مكشوفة، وهذا ما جعلها عرضة للتلف، وخصوصاً في أوقات هطل الأمطار[١]. وهذا ما تنبّه له بعض من السلاطين والعلماء فأنشؤوا خزانة للكتب داخل المسجد الحرام، وذلك لحمايتها من أي طارئ يطرأ عليها، ولعل هذه الخزانة هي نفسها التي أنشأها الشيخ محمد المكناسي - كما أشار إلى ذلك التجيبي قائلًا: «ونهب العربان كتب مكة الموقفة على الحرم الشريف»[٢] وقد شاهد ابن بطوطة هذه الخزائن حيث قال: «ويلي قبة زمزم قبة الشراب المنسوبة إلى العباس رضي الله عنه..» إلى أن قال: «وبها اختزان المصاحف الشريفة والكتب التي للحرم الشريف»[٣] كما أشار إليها البلوي بكلام هذا نصه: «وتلي هذه القبة العباسية على انحراف عنها قبة أخرى، وهاتان القبتان مخزنان لأوقاف البيت الكريم من مصاحف وكتب وشمع وغير ذلك»[٤]، ولا شك أن هذه الخزائن بها كثيرٌ من الكتب الموقوفة على المسجد الحرام، إضافة إلى الكتب الخاصة بكل عالم يتولى التدريس في المسجد الحرام، فقد ذكر التجيبي أن لنجم الدين الطبري خزانة كتب كبيرة إلى جانب الكتب الموقوفة من قبل علماء مكة المكرمة[٥].

ويتضح لنا من هذا كله مدى حرص العلماء على دفع الحركة العلمية

(١) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٥٨؛ الهمزاني: علاقات مكة المكرمة الخارجية، ص٣٢٦.
(٢) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٣٠٦.
(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٥٩.
(٤) البلوي: تاج المفرق، ١/ ٣٠٦.
(٥) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٣٧٦؛ نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص٢٥٧.

والنهوض بها وتشجيع طلبة العلم، كما يتضح لنا دورهم البارز في تأمين الكتب للدارسين، وذلك من خلال حرصهم على بعث نسخ من كتبهم لطلابهم مهما بعدت الدار، ومن ثم وقف هذه الكتب على مكتبات المسجد الحرام؛ ليعم نفعها أكبر عدد من طلاب العلم، وليتواصل عملهم الخيِّر بعد وفاتهم، مصداقًا لقول الرسول ﷺ: «إن مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته علمًا نشره، وولدًا صالحًا تركه، ومصحفًا ورَّثه، أو مسجدًا بناه، أو بيتًا لابن السبيل بناه، أو نهرًا أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحته وحياته يلحقه من بعد موته»[١].

ما تعرضت له خزائن الكتب في المسجد الحرام:

لا شك أن لموقع مكة الجغرافي دورًا كبيرًا فيما أصابها من حوادث طبيعية كالسيول وغيرها، فهي تقع في وادي إبراهيم الذي يستمد مياهه من جبل ثبير غيناء[٢]، وجبل ثبير النصع[٣]، وأيضًا من جبلي الطارقي[٤]، وحراء[٥]، التي

---

(١) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ١/ ٤٤.

(٢) ثبير الأثبرة أو ثبير غيناء: هو الجبل الذي يقابل حراء من الجنوب بينهما طريق الطائف المار بنخلة اليمانية على طول وادي أفاعية، ويشرف على منى من الشمال، وهو أشمخ جبال مكة، تراه وأنت تدخلها من الغرب عند أم الدود (أم الجود) ولا ترى غيره. البلادي: معجم معالم الحجاز، ٢/ ٦٩.

(٣) ثبير النصع: هو الجبل المشرف على المزدلفة من الشمال الشرقي، يسمى شماله الجبل الأحدب، ولا يعرف اليوم اسم ثبير النصع، وقد شق اليوم في ريع المرار طريقًا بين مزدلفة ووادي السقيا. المرجع السابق، ٢/ ٧٠.

(٤) الطارقي: كأنه نسبة إلى طارق وهو الجبل الذي تراه وأنت تؤم مكة عن طريق نجد إذا وصلت العلمين، يتصل به من الشرق جبل سلع، ومن الجنوب الشُّعُر جمع شعراء جبال منقادة بين وادي السقيا غربًا ووادي الضيقة شرقًا. المرجع السابق، ٥/ ٢١٨.

(٥) حراء: جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال، وهو الجبل الشامخ ذو الرأس الأزلج المقابل لثبير الأثبرة من الشمال، فيه الغار الذي كان يتعبد فيه النبي عليه الصلاة والسلام. المرجع السابق، ٢/ ٢٤٨-٢٤٩.

تدفع مياهها غربًا حيث تنحصر ويقوى بين الحجون[١]، وكداء[٢]، والخنادم[٣]، مارًا بقوته الجارفة بالحرم المكي الشريف ثم بالمسفلة متجهًا غربًا إلى أن يصب في وادي عرنة[٤] من الشمال جنوب الحديبية وتتكانفه بيوت مكة وأحياؤها وتصب في أودية وشعاب عدة، وهذا يجعل سيله عارمًا، وكثيرًا ما دخل الحرم المكي وخربه بمروره[٥].

وتبع هذا الخراب تلف كثير من خزائن الكتب المتناثرة في كل جوانبه، ولموقع الحرم المكي حيث يضيق به الوادي لانحصاره بين قعيقعان[٦]، وأبي قبيس تعرض لنكبات السيول المتتالية والتي دائمًا ما تترك آثارها على موجوداته من تلف أو فقدان الشيء الكثير منها، ومنها خزائن الكتب المنتشرة في أماكن عدة[٧].

وقد ذكرت كثير من المصادر التاريخية إشارات واضحة وصريحة لهذه الحوادث التي منيت بها خزائن الكتب في المسجد الحرام، كحوادث

---

(١) الحجون: جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهلها، وقال الأصمعي: هو الجبل المشرف الذي بحذاء مسجد البيعة على شعب الجزارين. البلادي: معجم معالم الحجاز، ٢/ ٢٣٨-٢٣٩.

(٢) كداء: ثنية بمكة بين جبل الحجون وقعيقعان، تصل بين وادي ذي طوى والأبطح، صارت تعرف اليوم باسم (الحجون) أو الحجول. المرجع السابق، ٧/ ١٩٦-١٩٧.

(٣) الخنادم: هي جبال مكة الشرقية التي تبدأ من أبي قبيس متجهة شرقًا إلى المفجر الذي يفصل بين جبال منى وجبال مكة وتمتد جنوبًا حتى تشرف على المفجر الغربي الذي يفصلها عن ثور، وهي جبال تضرب إلى السمرة وفي بعضها جدد بيض. المرجع السابق، ٣/ ١٦٠.

(٤) وادي عرنة: وادٍ بحذاء عرفات، وقال البعض مسجد عرفة والمسيل كله، وهو وادٍ يأخذ أعلى مساقط مياهه من الثنية شرق مكة بحوالي سبعين كيلًا وهي طريق قديم إلى الطائف ثم ينحدر فيسمى الصدر ثم وادي الشرائع، قال الأزهري: بطن عرنة وادٍ بحذاء عرفات. الحموي: معجم البلدان، ٤/ ١١١؛ البلادي: معجم معالم الحجاز، ٦/ ٨١-٨٢.

(٥) البلادي: معجم معالم الحجاز، ١/ ٢٩.

(٦) قعيقعان: هو جبل مكة المشرف على المسجد الحرام من الشمال الغربي، وله عدة أسماء من كل جانب منه. البلادي: معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية، ص٢٥٥-٢٥٦.

(٧) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص٥٩.

السيول التي بليت بها خزائن الكتب في الحرم المكي، إضافة إلى بعض الحوادث كالسرقة والحرق، حيث إن هذه الكتب وضعت في دواليب مكشوفة فكان بعضها عرضة للسرقة، في حين تعرض بعضها الآخر للتلف جراء الحرائق والسيول، ومن أهم هذه السيول ما تعرض له المسجد الحرام في مدة ما قبل الدراسة حيث جاء سيل عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م الذي صعد إلى الخزائن وتسبب في إتلاف عدد كبير من هذه الكتب، ويعد هذا الحادث من أكبر المصائب على العلم والعلماء، لما فقدوه من كتب التراث وأمهات الكتب ونوادرها[(١)].

كما حدث سيل آخر في عام ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م، ودخل الحرم من جميع الأبواب وجعل حول الأعمدة التي في طريقه جرفًا مقدار قامتين وأكثر، ولو لم تكن أساسيات الأعمدة محكمة البناء لرماها، كما قلع بعض أبواب الحرم وطاف بالمنابر، ووصل للكعبة وبلغ عندها قامة وبسطة ودخلها من خلل الباب وعلا فوق عتبتها أكثر من نصف ذراع بل شبرين، ووصل إلى القناديل الموجودة في المطاف، ومات فيه نحو ستين نفرًا تحت الردم، وأغرقت جميع الكتب الموجودة في قبة الكتب[(٢)] - وهي قبة الفراشين -، وعُرف هذا السيل بسيل القناديل[(٣)] وربما يكون سبب تسميته بسيل القناديل لأنه وصل إلى قناديل المطاف فأطفأها وألحق الضرر بها.

كما تعرضت خزائن الكتب في المسجد الحرام لسيل آخر في عام ٩٠٢هـ/ ١٤٩٦م، وقد دخل هذا السيل إلى القبب فأتلف بعض المصاحف وبعض «صحيح البخاري» الذي كان في ثلاثين جزءًا[(٤)].

---

(١) البتنوني، الرحلة الحجازية، ص٥٩.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٤/ ١٨٠؛ الفاسي: شفاء الغرام، ٢/ ٢٦٧.
(٣) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٣٥٧.
(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٢١٤؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٥٦٢-٥٦٣.

ونتيجة لاستمرار هذه الكوارث، وما ألحقته من أضرار بخزائن الكتب في الحرم المكي فكر القائمون على الحرمين الشريفين بجمع شتات ما بقي في تلك الخزائن من كتب ومصاحف، ولا نستطيع تحديد تاريخ محدد لجمع شتات هذه الكتب، ولكن ما نستطيع أن نعتمد عليه في ذلك الإشارات التي وردت في بعض المصادر التاريخية، فقد جاء في ذكر حوادث عام ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م، ما يؤيد دخول السيل للحرم المكي ووصوله لخزائن الكتب(١) - كما سبقت الإشارة إليه - كما جاء في ذكر حوادث سيل سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م الذي أغرق الحرم ووصل أيضًا لخزائن الكتب أو لقبة الكتب التي كانت تسمى حينئذ بقبة الفراشين(٢).

ويفهم من سياق الكلام أن هذه الكتب قد جمعت في مكان بعينه كقبة الفراشين، الأمر الذي أدى إلى تنظيمها، كما روى النجم ابن فهد في كتابه، وقفية المكناسي لكتاب المقرَّب لابن أبي زمنين المالكي ووضعه في خزانة المالكية بالمسجد الحرام(٣).

ويدل ذلك دلالة واضحة على أن هذه الكتب رُتبت ووضعت في مكان معين كالقبب وهذا ساعد على تنظيمها وسهولة الاطلاع عليها من قبل طلاب العلم، ورغم أن هذا الترتيب لم يكن بالمعنى الذي وصل إليه علم المكتبات، ومع أنه تنظيمٌ بدائيٌ إلا أنه كان ملائمًا للحال في ذلك الوقت.

والجدير بالذكر أن هذه الكتب عندما نقلت من الخزائن المنتشرة في أنحاء الحرم المكي، وضعت في خزائن مخصصة كقبة الفراشين الواقعة بالقرب من

---

(١) الأزرقي: أخبار مكة، ٢/ ٣١٢.

(٢) الفاسي: شفاء الغرام، ٢/ ٢٦٦- ٢٦٧.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٤٨٧-٤٨٨.

بئر زمزم[١]، وقبة الشـراب أو القبة العباسـية[٢]، وكلا هاتين القبتين أُعدتا لمصالح المسجد الحرام وحفظ الشمع والمصاحف التي أُوقفت على المسجد الحرام[٣].

ولقد شاهد كثير من الرحالين هذه القبب وذكروها في رحلاتهم، وذكروا أنها كانـت خزائن للكتب الموجـودة في المسـجد الحرام، فقد ذكرهـا ابن جبير قائلًا: «.. وهاتان القبتان - أي القبة العباسـية وقبة الفراشيـن - مخزنان لأوقاف البيت الكريم من مصاحف وكتب وأنوار وشـمع وغير ذلك»[٤] وقال ابن بطوطة «ويلي قبة زمـزم قبة الشـراب المنسـوبة إلى العبـاس رضي الله عنه..» إلى أن قـال: «وبها اختـزان المصاحــف الكريمة والكتـب التي للحـرم الشـريف..»[٥]، ودعَّم ذلك البلوي حين قـال: «وهاتان القبتـان مخزنان لأوقاف البيـت الكريم من مصاحف وكتب وشمع وغير ذلك»[٦].

ولقد تطورت هذه الخزائن بشكل واضح وملموس؛ لتصبح فيما بعد نواة لمكتبة الحرم الشريـف، والتي مرت بعدة مراحل ومسميات حتى وصلت إلى ما وصلت إليه في الوقت الراهن، حيث أُطلق عليها في بادئ الأمر اسم «دار الكتب المكيـة» عــام ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م، ومن ثم حُـوّل اسـمها فيما بعد إلـى «مكتبة الحرم المكي الشريف»[٧].

---

(١) لقـد تطرقنا لذكـر قبة الفراشـين بشـيء من التفصيـل في الفصـل الرابـع: الوظائـف الخدمية، المبحث الثالث: الفراش، ص٢٨٦ .

(٢) لمزيد من التفصيل حول هذه القبة انظر الفصل الرابـع: الوظائـف الخدميـة، المبحـث الأول: السقايـة، ص٢٦٧.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص٦٦؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٥٩؛ الطبري: الأرج المسكي، ص١٧٧.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص٦٦.

(٥) ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٥٩.

(٦) البلوي: تاج المفرق، ١/ ٣٠٦.

(٧) البركاتي: التطور التاريخي لمكتبة الحرم المكي، ص٣٢٦؛ الدهاس: المدارس في مكة، ص٤٠.

المبحث الثاني

ظهور بيوت تسمت بأسماء الوظائف

تمتع المسجد الحرام بمكانة مرموقة وسامية في نفوس المسلمين قاطبة، وقد نبعت هذه المكانة من كونه إمام المساجد في الدنيا وقائدها إلى الله ﷻ يوم القيامة في الآخرة، وجعله الله تعالى أول المساجد في أرضه، وقد اختصه بعدد من الخصائص، حيث قال تعالى في محكم آياته: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

كما أنه قبلة المسلمين في أنحاء شتى من المعمورة، ولا يجوز أن ينحرفوا عنها أبدًا، وذلك لكي يكون اتجاه المصلين جميعًا إليه، كما أمر الله بذلك، فقد قال الله تعالى: ﴿قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبۡلَةٗ تَرۡضَىٰهَاۚ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ﴾[2].

قبلة واحدة تتجه إليها الأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها، فتشعر أنها جسد واحد وكيان واحد وقلب واحد، تتجه إلى هدف واحد وتسعى لتحقيق منهج واحد[3].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٤.

(٣) الوشلي: المسجد ونشاطه الاجتماعي، ص٣٣٠-٣٣١.

ولهـذه الأهميـة الكبـرى، كان لا بد مـن تعيين موظفيـن أكفـاء، مؤهلين لخدمة هذا البيت الطاهر الشريف. وقد اكتسبت هذه الوظائف أهمية بالغة نبعت من أهمية الحرم نفسـه، وحظي أصحابها بتقدير لا مثيل لـه من قبل جميع الناس سواء من أهل مكة أو من خارجها.

ونتيجة لما تمتعت بـه هذه الوظائف من أهمية كبـرى، فقد ظهرت بيوت تسـمت بأسـماء هذه الوظائف، فهناك «بيت آل الشـيبي، بيت الريس، بيت نائب الحرم» وهذا ما سنوضحه بشـيء من التفصيل في هذا المبحث، حيث سنتحدث عن هذه الأسر وعملها وإلى من تنتسب، وما إلى ذلك من أمور.

أولًا: بيت آل الشيبي:

يرجـع بيت آل الشـيبي إلى ذرية شـيبة بن عثمان بـن أبي طلحة الحجبي من أولاد عبد الـدار، وبنو أبي طلحة هم الذين تكون لهم سـدانة الكعبة، وشـيبة هذا هو جد بني شـيبة حجبة الكعبة المشرفة إلى يومنا هذا، وقد ذكره بعضهم في المؤلفة قلوبهم، وهو من فضلائهم[١].

وفي قصي يجتمع نسـبهم مع نسب الرسـول ﷺ[٢] وقد دفع الرسول ﷺ مفتاح الكعبة إلى شـيبة بن عثمان وابن عمه عثمان[٣] بأمر مـن الله ووحيه وقال: «خذوها يا بنـي أبي طلحة تالدة خالـدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم، يـا عثمان: إن الله سبحانه وتعالى استأمنكم على بيته فخذوه بأمانة الله عزّ وجلّ»[٤].

---

(١) الفيروز آبادي: إثارة الحجون، ورقة ١٢.

(٢) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٦٠.

(٣) هو عثمان بن طلحة بن أبي طلحة واسـم أبي طلحـة - عبدالله - بن عبـد العُزَّى بن عثمان بن عبد الدار بـن قصي القرشـي العبـدري، ومات عام٤٢هـ/ ٦٦٢م، وقيـل: قُتل يـوم أجنادين، وروى عنه ابن عمه شيبة وعبدالله بن عمر وغيرهما. الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ١٦٥-١٦٦.

(٤) الأزرقي: تاريخ مكة، ١/ ٢٧٨.

وبنـو أبي طلحة هم الذين يلون سـدانة الكعبـة دون بني عبد الدار[١].
وعـادة يتولى هذه الوظيفـة أكبر الأفراد سـنًا من بني شـيبة، وأول من تولاها زمـن النبي ﷺ شـيبة بن عثمـان[٢]، ولكـن هذا لا ينفـي صحة تولية شـخص آخر فـي الوظيفة مع وجـود الأكبر سـنًا، والدليل على ذلك أن بعض شـيوخ الشـيبيين أفرغ هذه الوظيفـة لولده مع وجود من هو أكبر منه سـنًا من أقاربه، فبـرز الأمـر السـلطاني بتأييـد ذلـك فاسـتمر المتولـي لهـذا المنصـب دهـرًا طويـلا[٣].

إذن لا حـرج فـي توليـة شـخص آخـر فـي هـذا المنصب مـع وجود الأكبـر سـنًا؛ لأن الأحـق بهـذا المنصـب مـن كان أعلـم بالأحـكام المتعلقة بـه من بنـي شـيبة صغيـرًا كان فـي السـن أو كبيـرًا[٤]. ومـا رد الشـيبيون إلى قاعدتهـم مـن تقديـم الأكبـر سـنًا، إنما هـو لقطـع النـزاع بينهـم، واتبـاع ما كان عليـه سـلفهم، أضف إلى ذلك أن مسـتندهم فـي تقديم الأكبر سـنًا فعل النبـي ﷺ عندما دفـع مفتاح الكعبة يـوم الفتح إلى عثمان مع وجود شـيبة بن عثمان وهو ابن عمـه[٥]، ولكن لا ضير في أن يلي المنصب شـخص آخر مع وجود الأكبر سـنًا، فالعبـرة في ذلـك العلم بالأحـكام المتعلقـة بالمنصب لا كِبَر السـن وصغره، فلو عيّن السـلطان من هو أصغر سـنًا وجب امتثال أمره؛ لأنه ليس في ذلك معصية.

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٢٦٦.
(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٥.
(٣) العجيمـي: حسـن بن علي، الفتـح الغيبـي فيما يتعلـق بمنصب آل الشـيبي، مخطـوط، جامعة الملك سعود، رقم ٣٤١- تاريخ، ورقة ١ أ.
(٤) المصدر السابق: ورقة ١ ب.
(٥) الدهلـوي: عبدالسـتار الكتبـي الصديقـي المكـي، السلسـلة الذهبيـة فـي الشـجرة الحجبيـة، مخطوط، مكتبة الحرم المكي، رقم ٢٤٢٣، تاريخ، ورقة ١٨٢-١٨٣.

والجدير بالذكر أن الحجابة منصب بني شيبة، ولاَّهم رسول الله ﷺ إياها، ولا يجوز لأحد أن ينزعها منهم[١].

وقد كان سدنة البيت الشريف على درجة من العلم بحكم ارتباطهم بالبيت الشريف وتأثرهم بعلماء المسجد الحرام ومحدثيه وطلبة العلم، فنهلوا من هذا الوسط الديني الرفيع وغرفوا من ذاك البحر الواسع، ومما يدل على اتساع معرفتهم، وعلمهم الغزير، تولي بعض السدنة لأهم الوظائف في المسجد الحرام بجانب سدانة البيت. فعلى سبيل المثال لا الحصر، محمد بن علي الشيبي[٢] الذي عُيّن قاضياً لمكة من قبل السلطان الأشرف برسباي عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م، إضافة إلى نظارة المسجد الحرام، واستمر إلى أن توفي عام ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م[٣].

وقد ظل بيت آل الشيبي خالدًا في مكة المكرمة، كما ظلت خدمتهم في سدانة الكعبة المشرفة خالدة تالدة مصداقًا لقول الرسول ﷺ[٤]، وإذا كان بعضهم قد هاجر إلى الآفاق، ورحل هنا وهناك في عدة مناسبات من عهود التاريخ، إلا أن نسلهم لم ينقطع عن مكة المكرمة[٥].

ولا يزال بيت آل الشيبي في مكة المكرمة إلى يومنا هذا، بل يُعد من أعرق البيوتات وأهمها في مكة المكرمة، وما اكتسبوا هذه الأهمية وتلك المكانة المرموقة، وذاك التقدير والاحترام من قبل جميع الناس إلا من أهمية وظيفتهم،

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ١٦٦.
(٢) هو محمد بن علي بن محمد بن أبي بكر أبو المحاسن القرشي العبدري المكي الشيبي، ولد عام ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م، بمكة ونشأ بها، وكان مشكور السيرة، ومات في عام ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م. السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ١٣-١٤.
(٣) المصدر السابق: ٩/ ١٤؛ السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص١٨٥.
(٤) السباعي: تاريخ مكة، ص٥٦٨.
(٥) المرجع السابق، ص٥٦٨.

حيث أسبغت عليهم خدمتهم لبيت الله الحرام شرفًا عظيمًا، ومكانة عالية في نفوس المسلمين قاطبة، كما أن احتفاظهم بمفاتيح الكعبة المشرفة زادهم شرفًا، وقد جرت العادة أن تُسلم إليهم كسوة الكعبة المشرفة لينزعوا الكسوة القديمة عنها ويكسوها بكسوتها الجديدة.

ثانيًا: بيت الريس:

قبل أن نتطرق للحديث عن بيت الريس ونسبهم وأعمالهم، لا بد وأن نعرف من هو الريس وما تعريفه، وهذا ما وضحه باسلامه قائلًا: «رئيس الموقتين الذي يبلغ المؤذنين الأذان في الأوقات الخمسة وهم على منابر المسجد الحرام السبعة المحاطة به»(١).

كما يُبَلِّغُ عموم المبلغين في صلاة الجمعة وصلاة العيدين، ويُبَلِّغُ كل إمام يؤم الناس خلف مقام إبراهيم عليه السلام في بعض الصلوات الخمس(٢).

وقد عُرف هذا البيت بـ «بيت الزمزمي» نسبة إلى جد هذه العائلة علي بن محمد البيضاوي المعروف بالزمزمي، حيث كان القائم بخدمة بئر زمزم الشيخ سالم بن ياقوت(٣)، كما أنه كان مؤذنًا، فقدم عليه علي بن محمد البيضاوي من شيراز عام ٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م، فباشر عنه في خدمة بئر زمزم، ثم تزوَّج ابنته فورث أولاده خدمة زمزم وصار لهم أمر البئر مضافًا إليه سقاية العباس(٤).

---

(١) باسلامة: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص١٨٢-١٨٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٨٢-١٨٣.

(٣) هو سالم بن ياقوت المكي، أبو أحمد، المؤذن بالحرم الشريف، كان يؤذن بمئذنة الحزورة، وتوفي عام ٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م، بمكة. الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ١٥٨.

(٤) المصدر السابق: ٥/ ٢٩٥-٢٩٦؛ الزمزمي: نشر الآس، ورقة ٤١ أ؛ اللبني: جعفر بن أبي بكر، الحديث شجون شرح الرسالة الجدية لابن زيدون، مخطوط، مكتبة مكة المكرمة، رقم ٣٢، أدب، ورقة ٦١.

وكان يقـال لهم بيـت الزمزمي، ثم غلـب عليهم لقب «بيـت الريس» لأن رئاسـة المؤذنين عندهم فلا يؤذن المؤذنون في المنابر حتى يسـمعوا أذان الريس على قبة زمزم[١]، وهم ينتسبون إلى آل الزبير بن العوام[٢].

وقـد ذكر السـباعي أن بيـت الريس يرجع في نسـبه إلـى آل الزبيـر قائلًا: «ولكن الشيخ أسعد ريس وهو من حفدتهم «بيت الريس» في هذا العصر أطلعني على وثيقة تثبت انتسـابه لآل الزبيـر، ولا أرى في هذا ما يتعـارض مع ما ذكر في نشر النور أو نشـر الاس فقد يكون أحد الأجداد هاجر من مكة فظل النسل بعيدًا عنها إلى أن عاد إليها علي بن محمد»[٣].

وهكذا نسـتطيع القول أنه لما تولى بنو العباس الخلافة، شـغلتهم أعمال الملك عن القيام بأمر السـقاية فعهـدوا بها إلى آل الزبيـر - المتولين التوقيت في المسـجد الحرام - بالنيابة، إلـى أن طلب الزبيريـون من الخلفاء العباسـيين ترك السـقاية لهم، فتركوها لهم بموجب منشور يقضي بذلـك، إلا أنه لكثرة الحجـاج فقـد أشـركوا معهـم آخرين فـي العمـل عرفـوا باسـم «الزمازمة» إلـى أن أتى العثمانيون فعملوا على تثبيت آل الزبير في عمل السـقاية ولا تزال رئاستها بيدهم إلى اليوم، ويعرف آل الزبير اليوم بـ «بيت الريس»[٤].

والجديـر بالذكر أن منصـب التوقيت بالمسـجد الحرام والمشـيخة على المؤذنيـن مخصوص بـ «بيت الريـس» وأصلهـم مـن كازرون[٥]، وهذا المنصب منذ قدم الزمـان خاص ببيت الريـس، ولا يحق لأحد أن يشـاركهم فيه، وقد أراد

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٦٧؛ اللبني: الحديث شجون، ورقة ٦١.
(٢) اللبني: الحديث شجون، ورقة ٦١.
(٣) السباعي: تاريخ مكة، ص٤٧٠.
(٤) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م١، ٢/ ٥٣٠.
(٥) انظر ص٧٧.

جماعة كثيرون من قديم الزمان مشاركتهم فيه، إلا أن الولاة تصدوا لهم ومنعوهم من ذلك[١].

كما أرجع خليفة الزمزمي عائلة الزمزمي إلى أسرة الكازروني[٢].

وهذا ما يدعم ويؤيد أن بيت الزمزمي هو نفسه بيت الريس أو لعله فرع منه، أضف إلى ذلك أن أغلب المؤذنين أو أكثر من يتولى منصب رئيس المؤذنين في المسجد الحرام يعود أصله إلى بيت الكازروني[٣].

وقد انحصرت هذه الوظيفة أو هذا المنصب في أسرة بيت الريس يتوارثونها جيلًا بعد جيل، وهم لا يزالون إلى يومنا هذا، حيث يُعدُّ بيت الريس من أشهر البيوت في مكة المكرمة، ولم يحصلوا على هذه الشهرة إلا من خلال عملهم الذي أكسبهم شهرة كبيرة ومكانة مرموقة في مكة المكرمة.

والمعروف أن بيت الريس مهنتهم خدمة بئر زمزم والإشراف عليها، وإغلاقها وفتحها، وتوزيع الحصص بين السقاة، إضافة إلى توليهم رئاسة الأذان في المسجد الحرام، ولم يكونوا ممن يُوَزِّعُ ماء زمزم على الحجاج أو الأهالي؛ لأن هذه الوظيفة أو هذا العمل من اختصاص السقاة أو الزمازمة، فقد حظي الزمازمة بنقابة خاصة لهم في مكة المكرمة وهم يطلبون أجرًا على عملهم أو استعمال أوانيهم الخاصة، غير أن الدخول إلى بئر زمزم واستعمال الماء مسموح به لكل فرد مجانًا[٤].

---

(١) الطبري: الأرج المسكي، ص١٨٧.

(٢) الزمزمي: نشر الآس، ورقة ١٦٠ب – ١٦١ب.

(٣) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ١٦٥، ٢١٤، ٣/ ٤١٩، ٥/ ١١٣، ٢٧٩.

(٤) هورخرونيه: سنوك، صفحات من تاريخ مكة المكرمة، ترجمة عودة الشيخ، مكتبة الدار المئوية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م، ١/ ٧٥.

ومما لا يمكننا تجاهله أن هذه الأسر أو هذه البيوت «بيت آل الشيبي، بيت الريس» لم تنل هذه الشهرة وتلك المكانة المرموقة في نفوس المسلمين سواء من أهل مكة، أو من خارجها إلا من خلال وظائفهم المهمة في المسجد الحرام، وخدمتهم لهذا البيت الطاهر، فأسبغت عليهم وظائفهم تلك الشهرة وذاك الشرف العظيم، وهذا جعلهم يتسمون بأسماء وظائفهم.

وكم كنت أتمنى أن أتعمق أكثر في الحديث عن هذه البيوت وأن أذكر أكثر من هذه الأسر، إلا أنني وقفت عاجزة أمام ذلك، حيث إن كثيراً من المصادر التاريخية لم تشر إلى ذكر تلك البيوت، وحتى التي أشارت إلى ذكرها، أشارت إلى ذلك بشيء من الإيجاز الذي لا يُشبع نهم القارئ ويروي عطشه الفكري، وأنا هنا لا أنكر فضل هذه المصادر التاريخية التي أمدتني وأفادتني بكثير من المعلومات، إلا أنني كنت أرغب في الاستزادة والتحدث عن هذه البيوت بشيء من الاطناب الممتع والإسهاب الشيّق الذي لا يُمل، خصوصاً أن هذه البيوت تُعد من أشهر وأعرق البيوت في مكة المكرمة منذ القدم وإلى يومنا هذا.

كما أنه على حد علمي لا توجد رسائل علمية تحدثت عن هذه البيوت، خصوصاً تلك الرسائل التي تحدثت عن تاريخ مكة المكرمة، فهي لم تشر إليها، رغم شهرتها ومكانتها المرموقة في المجتمع المكي.

المبحث الثالث

مكانة الوظيفة الدينية
في المجتمع المكي

يستمد المسجد الحرام مكانته السامية وشرفه العظيم من صلته بالإسلام وارتباطه الوثيق بتعاليمه وتطبيقاته العملية، لكونه رمزًا وشعيرة من شعائر الإسلام.

كما يستمد مكانته من كونه مضافًا إلى الله ﷻ المعبود لأنه بيته الذي وضعه للعبادة، ولإخلاص العبودية له وحدة دون سواه، بما اختص الله ﷻ به نفسه من أنواع العبادات القولية والفعلية والعقدية، حيث قال الله تعالى في محكم آياته: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾[1]. ولقد مثل ذلك المسجد الحرام، حيث كان مقرًا ومتجهًا لهذه العبادة ومثابة للناس وأمنًا لهم وإمامًا لكل مساجد الدنيا واتجاهها إليه إلى يوم القيامة قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[2]. ومن مكانة المسجد الحرام الدينية والربانية تنبع وتأتي مكانته الاجتماعية، فهو مركز التجمع ونقطة انطلاق كثير من أعمال الحياة الاجتماعية، إضافة إلى كونه مصدر توجيه المجتمع إيمانيًا وماديًا وروحيًا، ولهذا كله فقد احتل مكانة عظيمة لا مثيل لها عند المسلمين وفي مجتمع الإسلام[3].

---

(١) سورة الجن: الآية ١٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٩٦.

(٣) الوشلي: المسجد ونشاطه الاجتماعي، ص١٣-١٧.

ولهذه الأهمية وتلك المكانة المرموقة للمسجد الحرام نبعت أهمية الوظيفة الدينية ليس في المجتمع المكي فحسب، بل في جميع أصقاع البلاد، وأصبح لمتوليها مكانة مرموقة وسامية سواء في المجتمع المكي عامة أو في المسجد الحرام خاصة، ناهيك عن مكانته الرفيعة خارج مكة المكرمة، حيث كان يحظى بالاحترام والتقدير والمكانة الرفيعة، والتي نبعت بلا شك من مكانة وظيفته.

ونتيجة لهذه الأهمية، كان لا بد من تسليط الضوء على مكانة الوظيفة الدينية في المجتمع المكي ولا نقصد هنا بالوظيفة الدينية، الدينية فقط، حيث قسمنا الوظائف في هذا البحث أربعة أقسام فمنها الدينية والإدارية والتعليمية، إضافة إلى الوظائف الخدمية، ونحن هنا نقصد جميع هذه الوظائف دون تخصيص الوظائف الدينية بعينها، لأن هذه الوظائف كانت داخل المسجد الحرام، وفي بيت الله العتيق، فبغض النظر عن التسميات. تُعَدَّ جميع الوظائف التي في المسجد الحرام وظائف دينية.

ولما يتمتع به متولي هذه الوظائف من مكانة مرموقة، وما يحظى به أصحاب هذه الوظائف من أهمية كبيرة، إضافة إلى ما يغدقه السلاطين في مصر وغيرها من البلدان الإسلامية على العلماء وأصحاب هذه الوظائف من أموال ورواتب كبيرة، إضافة إلى الهبات والصدقات، كل ذلك فتح بابًا من أبواب التنافس بين أصحاب هذه الوظائف، خصوصاً أن بعض الموظفين عَدَّ ما يغدقه السلاطين من الأموال حقًّا مشروعاً يتوارثه الأبناء من الآباء.

والجدير بالذكر، أن هذا التنافس كان في بادئ الأمر تنافساً شريفاً، لا تشوبه أي نزاعات أو خصومات، إلا أنه فيما بعد ولّد سنة سيئة ألا وهي الوشاية والإطاحة والإيقاع بعضهم ببعض، فكان بعض الموظفين يشي ببعضهم الآخر عند السلطان، أو يكيد له كي يُعزل من الوظيفة ويحل هو محله، أو أن يدفع

رشـوة للسـلطان ليتولى الوظيفة، وهـذا ما أدى فـي نهاية المطاف إلـى أن يتولى بعض الوظائـف من ليس أهلًا لها، وهذا ما سـنوضحه بشـيء مـن التفصيل فيما يلي:

أولًا: الوظائف الدينية

١ - الإمامة:

تُعَدُّ الإمامـة من أهم الوظائـف الدينية، بل مـن الوظائف الرئيسـة، وتنبع أهمية الإمام من أهمية الوظيفة نفسـها وهي إمامة المصلين، وربما اسـتمد الإمام هذا الاسـم من أنه يتقدم المصلين ويقودهم في الصلاة فَعُـدَّ بذلك قدوة لهم أي إمامًا. وكانـت إمامة الصـلاة وظيفة تتمتع بأهميـة كبرى، لأن النبـي ﷺ كان يؤم المصلين بنفسـه، وعَدَّ المسـلمون استخلاف الرسـول ﷺ لأبي بكر الصديق في إمامة الصلاة علاقة قوية بموافقته عليه الصلاة والسـلام لاسـتخلاف أبي بكر في إمامة المسـلمين[١]، فعندما أمر الرسـول ﷺ أبـا بكر الصديق بأن يـؤم الناس في الصلاة، عَدَّ المسـلمون ذلك إشـارة واضحـة من الرسـول باسـتخـلاف أبي بكر الصديـق فـي إمامة المسـلمين من بعـده[٢]. كمـا كان الخلفاء في صدر الإسـلام يؤمون المصلين بأنفسـهم، ثم صاروا يسـتنيبون من يقوم بذلك، أضف إلى ذلك أن الإمـام كان يُعَيَّنُ ويعزل بمرسـوم من قبل السـلطان[٣]، وكل ذلــك يعود أولاً وأخيرًا لأهميـة هذه الوظيفـة وأهمية متوليهـا ومكانته الكبرى، حيـث عُدَّ الإمام لسان حال السلطان، فكان السـلطان يستشيره في كثير من الأمور والقضايا - كما سبقت الإشـارة إليه عند حديثنا عن الإمام - ولشـدة التنافس على هذا المنصب

---

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٦٩؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ١/ ٩٤.

(٢) ابـن هشـام: السـيرة النبويـة، ٤/ ٢٢٥؛ الغزالـي: محمد، فقه السـيرة، عالـم المعرفـة، د. ت، ص٤٩٩.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٠٢، ٥٣٨.

المهـم، كان السـلطان يعيـن أكثر مـن إمام لـكل مقام، علـى أن يتقاسـموا راتب الوظيفـة فيمـا بينهـم[١]، ولكن رغم ذلـك كثيرًا ما تحدث مشـكلات بيـن الأئمة المشـتركين، والتـي تحل عـادة بعقـد مجلس يحضـره قائـد الحاميـة المملوكية والقاضـي الشـافعي، فتحسـم المشـكلة لأحـد الطرفيـن أو يختار شـخصًا آخر، وخلال ذلـك يُمنـع المتنازعون من العمـل، ويعين مـن يقوم بالعمـل حتى تحل المشكلة[٢].

وقد يتحول هذا التنافس إلى صورة معتمة، لا يُرى من خلالها إلا الوشاية وإطاحة بعـض الموظفين ببعضهـم بغية الاسـتحواذ على اهتمام السـلطان وحبه وحظوته، وخير ما نستشـهد بـه في هـذا المقام أنه عندمـا حج السـلطان قايتباي لم يكن إمام المسـجد الحرام محب الدين الطبري من ضمن من اسـتقبله خارج مكة، وكانت هذه فرصة سـانحة ليشـي به حسـاده عند السـلطان، فأمر به فحضر فعاتبه في ذلـك، فردّ عليـه ردًا بليغًا حيث قـال: «إني أسـتقبلك في أشـرف بقعة وهي المسجد الحرام» فسّر السلطـان لجوابه، ثم بلغه أنه لا يتقاضى شيئًا لوظيفة الإمامة، فقال له: إني فرضت لك مئة دينار شـهريًا لقاء إمامتك، فقال: إن إمامتي حسـبة لله لا أقبل عليها جزاء، ثم ما لبث أن خرج من المجلس دون أن يـأذن له السـلطان وقال وهو يخرج: «سلام عليكم»، فاستغل الوشاة هذه الفرصة للوشاية به بعد أن فشلوا بالوشـاية به في المرة الأولى، فقالوا للسلطان: انه أراد الآية ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ لَا نَبۡتَغِي ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[٣] فلـم يسـمع السـلطان لوشـاية هؤلاء النـاس، وقال: «إنني تصورته أسـدًا قوي الشـكيمة في أول مقابلته لي». ولما عاد السـلطان إلى مصر أرسل أمرًا بتعيين الشيخ محب الدين الطبري رئيسًا للقضاة ومشيخة الحرم

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٥٥، ٤/ ٦٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٦/ ٢٨٨، ٩/ ٢١٧.
(٢) المصدر السابق: ٤/ ٧٢-٧٣.
(٣) سورة القصص: الآية ٥٥.

والإفتاء والتدريس والحسبة فوصل الرسول إلى مكة وأراد تسليم الأوامر إلى الشيخ نفسه، فلما انتهي إلى بيته، قيل له: إنه ذهب يحمل عجين بيته ليخبزه في فرن في أقصى الشارع، فعجب الرسول من ذلك واستخف بعمله ثم انتظره إلى جدار البيت حتى حضر، وسلمه الأوامر، فأهداه الشيخ رغيفين من خبزه فصعب ذلك على الرسول، وقال: إنَّ مثل هذه التعيينات لا تقل مكافأتها عن الألف. فأعاد الشيخ إليه أوراق التعيينات وقال: تفضل فأعدها إلى سلطانك فإنه لا حاجة لي بها[1].

يتضح لنا من هذه الحادثة مدى التنافس والوشاية التي قد تحدث بين الموظفين بغرض إيقاع بعضهم ببعض؛ لكي ينال الواشي اهتمام السلطان ومحبته، ولكن ما يجدر بنا الإشارة إليه في هذه الحادثة، مدى تعقل السلطان، وردة فعله السليمة حيث لم يستمع للوشاة، وهذا هو الأصح، بل يجب التأكد من الأقوال التي تصل للشخص، وتقديم حُسن النية على سوئها. وذلك امتثالًا لقوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾[2].

كما تدل هذه الحادثة دلالة واضحة على تواضع هذا الإمام برغم مكانته المرموقة، ومنصبه الديني المهم وتقدير السلطان له، إلا أنه لم يغتر بذلك، بل ضرب أروع الأمثلة في التواضع.

ولأئمة المقامات في المسجد الحرام مكانة متميزة عند أهل مكة، فهم عادة يحضرون في جميع المناسبات الدينية، كما أنهم يشاركون عادة في

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٥٤؛ السباعي: تاريخ مكة، ص٣٣٨.
(٢) سورة الحجرات: الآية ٦.

المجالس التـي تُعقد في المسـجد الحرام وتعـرض فيها بعض المشـكلات التي تحدث في مكة لتدارسها وإيجاد الحلول المناسبة لها[١].

٢ - الأذان:

تمتع المؤذنون في المسجد الحرام بمكانة مرموقة ومحترمة في المجتمع المكي، وذلك لصلة المؤذن بالصلاة، الركن الثاني من أركان الإسـلام، فالمؤذن هـو الذي يعلم الناس بوقـت الصـلاة، وينبههـم لذلك. فيرفع نـداء الله في اليوم خمس مـرات، ومن هـذا المنطلـق كان المؤذن موضـع عناية ورعاية المسـلمين وخصوصاً ملوك الدول الإسـلامية وسـلاطينهم. فنـرى أن هؤلاء الملـوك كانوا يرسـلون كثيراً من الهدايا والهبات للمؤذنين في كل سـنة[٢]، كما أن السلطان قد يزيد فـي راتب أحدهم حتـى يصل إلى ضعف مـا جرت به العـادة[٣] وقد وردت كثيرٌ من الأحاديث النبوية التي تبين فضل المؤذنين عن سواهم ومكانتهم الرفيعة والمرموقـة نذكر منها، عـن جابـر بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سـئل رسـول الله ﷺ من أول مـن يدخل الجنة؟ قـال ﷺ: «الأنبياء والشـهداء والمؤذنـون، مؤذنو الكعبة، ومؤذنو بيت المقدس، ومؤذنو مسجدي، ثم سائر الناس على قدر أعمالهم»[٤].

كما اهتـم الخلفـاء بالمؤذنيـن وأولوهم عنايـة واهتمامـاً خاصاً، فقـد جاء أن عبدالملك بـن مروان لما ولّـى حاجبه قال لـه: «قد وليتـك حجابة بابـي إلا عن ثلاثة المؤذن للصلاة فإنه داعي الله، وصاحب البريد فأمر مـا جاء به، وصاحب الطعام لئلا يفسد»[٥].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ١٨٤؛ السخاوي: التبر المسبوك، ص١٧٥.
(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٩١.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ١٢٥؛ الطاسان: الوظائف الدينية والإدارية، ص٣٠٢.
(٤) الفاكهي: أخبار مكة، ٢/ ١٣٤؛ البلادي: عاتق بن غيث، فضائل مكة وحرمة البيت الحرام، دار مكة، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م، ص١٢٦.
(٥) ابن خلدون: المقدمة، ص٢٣٨.

٣ - الخطابة:

لخطيب المسجد الحرام مكانة كبيرة في نفوس المسلمين على ألوانهم وطبقاتهم ومستوياتهم المختلفة، وقد نبعت هذه الأهمية بلا شك من أهمية الوظيفة نفسها، حيث تُعَدُّ الخطابة من أعلى المناصب الدينية في المسجد الحرام مكانة، ولعل ذلك نابع مما يُلقى على عاتق الخطيب من مسؤولية إلقاء الخطب في يوم الجمعة، وفي العيدين، كما يُلْقِي الخطبة في عرفة ومنى في موسم الحج، كما يحمل على عاتقه إرشاد الناس وحثهم لما فيه الخير والصلاح وذلك من خلال الخطب التي يلقيها عادة في المسجد الحرام، كما أنه يجب أن تجتمع في الخطيب شروط الإمامة والخطابة؛ لأنه عادة من يخطب بالناس في الصلوات هو الذي يؤمهم فيها، لذلك لا يتولى هذا المنصب عادة إلا كبار علماء مكة الشافعيين أو أحد أفراد أسرة اشتهرت بالعلم في مكة، وكانت بعض الأسر العلمية في مكة تتوارث هذه الوظيفة كأسرة الطبري، والنويري[١]، وابن ظهيرة[٢]، بل تكاد تنحصر هذه الوظيفة في هذه الأسر المكية التي اشتهرت بكثرة علمائها[٣] وإن كان بيت الطبري في ذلك أقدم، كما يُعلم من سير التواريخ القديمة[٤].

---

(١) النويري: نسبة لنويرة وهي بلدة من عمل البهنسا، ونويرة بلفظ تصغير النار، بلدة من صعيد مصر الأدنى، كانت باسم الأمير تغري بردي، فأصل هذه الأسرة مصرية وأول من قدم منهم مكة شهاب الدين أحمد بن عبدالعزيز العقيلي الجزولي (ت٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م) حيث تردد إلى مكة مرات عديدة وتأهل بها. الحموي: معجم البلدان، ٥/ ٣٦١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ١١/ ٢٣٢؛ الزبيدي: تاج العروس، ٣/ ٥٨٩.

(٢) ابن ظهيرة: هي أسرة علمية مشهورة في مكة، وصفهم السخاوي بالبيت الكبير وهي قبيلة بمكة، منهم حفاظ وعلماء ومحدثون، هم من بني مخزوم، وبنو مخزوم من أكثر قريش بقية حيث ينتهي نسبهم إلى الوليد بن المغيرة ﵁، وهي تعد من أكبر الأسر العلمية المكية عددًا في عصر المماليك. السخاوي: الضوء اللامع، ١١/ ٢٥٦؛ الزبيدي: تاج العروس، ٣/ ٣٧٥؛ معتوق: علم الحديث، ص٣٩١.

(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٥٢؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٤٤-٤٥؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٠.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٥٢؛ الطبري: الأرج المسكي، ص١٨٦.

وقد حدث خلال العهد المملوكي نظام وراثة منصب الخطابة في الأسرة الواحدة فنرى أن الابن يرث المنصب بعد وفاة والده، ويدل ذلك على مدى الحرص على المنصب وجعله في أسرة واحدة حتى ينتهي أفرادها فينتقل المنصب إلى أسرة أخرى، وهذا ما حدث بالنسبة للأسر الثلاثة الآنفة الذكر. فبعد أن انتقل هذا المنصب المهم من بيت الطبري إلى آل النويري، نافسهم الظهيريون منافسة شديدة على المنصب، حتى وصل الأمر بالخطيب المعزول من الخطابة أن يسافر إلى مصر؛ ليقنع السلطة بإصدار أمر تعيينه من جديد[١].

كما حظي الخطيب بمكانة مرموقة عند سلاطين الدولة المملوكية، فعادة يصدر قرار تعيينه من قبل السلطان ويرسل السلطان مع قرار التعيين خلعة تشريف. وتستمر هذه الخلعة تُرسل للخطيب كل سنة هدية من السلطان[٢].

وللخطيب مكانة كبيرة عند سلاطين الدول الإسلامية الأخرى وأمرائهم، فعندما يقوم سلاطين هذه الدول وأمراؤها بإرسال هدايا وخُلع لموظفي المسجد الحرام يكون للخطيب نصيبٌ منها، كما يرسل بعض الحكام هدايا سنوية للخطيب كتلك التي تصل أحياناً من حكام اليمن[٣]، وتنبع هذه الأهمية من وظيفة الخطيب نفسه، فنرى أن صاحب هذا المنصب يكون واعظاً ومرشداً للمسلمين[٤].

كما يحظى الخطيب بمكانة كبيرة عند عامة المسلمين سواء داخل مكة أو خارجها، فنرى أن مكانته خارج مكة تماثل مكانته عند أهلها، فإذا حلّ الخطيب

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٣٣.
(٢) السخاوي: التبر المسبوك، ص١٨٦.
(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٩١.
(٤) العمري: شهاب الدين أحمد، التعريف بالمصطلح الشريف، تحقيق محمد حسين، ط١، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص١٦٤.

فـي أحد البلـدان الإسـلامية يُشـرّف بإلقاء خطبـة الجمعة فـي ذلك البلـد وإمامة المسلمين في هذه الفريضة، كما نجد أن الخطيب عند إلقائه خطبته في ذلك البلد يكون بالزي نفسه الذي يلبسه عادة عند إلقائه الخطبة في المسجد الحرام[١].

ولهذه الأهمية الكبرى للخطيب والتي بلا شك نبعت من أهمية الوظيفة نفسـها، نجد تنافسـاً بين العلماء من أجل الحصول على هذا المنصب[٢]، لذلك نجد أن السلطان قد يعين أربعة أشـخاص للقيام بالوظيفة نفسها[٣] وهذا بالطبع سـيُحدث كثيراً من المشـكلات والتنازع بين المشـتركين علـى المنصب، وهذا يسـتدعي تدخل الشـريف لحـل النزاع، وذلـك من خـلال منع المشـتركين من أداء الوظيفـة ويطلب من أحـد علماء مكة القيـام بالمهمة بدلًا منهم، ثم يرسـل للسـلطان يخبره بالمشـكلة، ويطلب منه حلها والفصل فيها[٤].

ولحل هذه المشكلات وغيرها، نرى أن السـلطان يعين في هذا المنصب شركاء من أسرة واحدة[٥].

وللخطيـب أن يجعـل نائبًا مـن أحـد أقاربـه، وإن كان الغالـب أن ينوب الابن عن أبيـه[٦]، أو الأخ عن أخيـه[٧]، وذلك يقلل المشـكلات التي قد تحدث بين الخطيـب ونائبه، إلا أنـه أحيانًا ما تحدث مشـكلات بين الخطيـب ونائبه مع قرابتهم[٨].

---

(١) ابن طولون: مفاكهة الخلان، ٢/ ٢٣.
(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٧٥.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ٢/ ١٦٩.
(٤) المصدر السابق، ٩/ ٢١٤.
(٥) المصدر السابق، ٩/ ١٩٣.
(٦) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣١٥؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ٤٥.
(٧) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٣٠.
(٨) المصدر السابق، ٣/ ٤٦٩.

وفي حال تولي الخطيب لأكثر من وظيفة، فإنه عادة يجعل له نائبًا واحدًا ينوب عنه في جميع وظائفه[١]، وأحيانًا يجعل نائبًا عنه في وظيفة الخطابة ونواباً آخرين في وظائفه الأخرى[٢].

وفي حال اشتراك أكثر من واحد في منصب الخطابة، يتفق الشريكان على جعل نائب واحد لهم[٣].

وفي بعض الأحيان يُعين الخطيب ونائبه بقرار سلطاني واحد[٤]، أما إذا عزل الخطيب فإن نائبه عادة يعزل معه[٥].

والجدير بالذكر أنهم في حال عدم استطاعتهم الوصول إلى منصب الخطابة، يسعون إلى التنافس على منصب آخر لا يقل أهمية عن منصب الخطيب ألا وهو منصب نائب الخطيب، فيُعد صاحبُ هذه الوظيفة ذا مكانة كبرى بكونه نائبًا لخطيب المسجد الحرام، بل يُعد هذا المنصب مغريًا لكثير من علماء مكة، بدليل أننا نجد كثيرًا منهم يسعى في طلب التوسط للحصول عليه[٦].

٤ - القضاء:

يُعد منصب القضاء من أهم المناصب بعد إمرة مكة، حيث كان يُختار القاضي من بين العلماء والفقهاء البارزين في الفقه والفتيا[٧]. وقد ذكر القلقشندي، أن وظيفة القضاء تُعد من الوظائف المهمة في المجتمع المكي، بل

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٦٩.
(٢) الفاسي: العقد الثمين، ١/ ٢٨١، ٢٨٥.
(٣) السخاوي: الضوء اللامع، ٩/ ١٩٣.
(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٣٠.
(٥) المصدر السابق، ٣/ ٥٣٧.
(٦) المصدر السابق، ٣/ ٤٦٩.
(٧) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٥٤، ٣/ ٧٨٧.

تُعَدُّ الوظيفة الثانية بعد ولاية مكة، وقد أرسل بعض السلاطين إلى فقيه مصري مرسوماً يقضي بتوليته قضاء مكة، افتتحه بالبسملة والثناء على الله ورسوله، ثم تلت ذلك كلمات في تعظيم وظيفة القضاء «هي أجلّ منصب بتلك الأباطح، ونورها في الجبين لائح، فإن الشرع نشأ منها والوحي أنزل فيها فَزُهيت البطائح وظهرت النصائح..»[1].

وإذا كان منصب القضاء في المسجد الحرام بهذه الأهمية، وتلك المكانة المرموقة، فلا بد أن يكون متوليه أهلًا لذلك، ولقد أورد المرسوم وصفًا لفضائل القاضي الذي نال الشرف العظيم والمكانة السامية بتوليه هذا المنصب حيث ورد في المرسوم..: «ولما كان فلان هو فرع الدوحة المثمرة ومحصِّلاً من العلوم الشرعية المادة الموفَّرة، وله البحوث التي هي عن أحسن الفوائد وغُرر الفرائد مسفرة، ورَضيُّ أهل الحرم، لما جبل عليه من خير وكرم، وتمسك بالعروة الوثقى والقوى الأتقى»، ثم يختتم المرسوم بتوجيه القاضي بأن يكون في هذا المكان الطاهر، في أم القرى: «.. كالوالد المشفق على الورى، وليتمسك من التقوى بأوثق العرى، وليخش رب هذا البيت إنه سميع يسمع ويرى، ووفد الله قطعوا إليه المراحل في السّرى؛ ليصافحوا كفه المضمخ عنبرًا، وليقض بين الخصوم بالحق..»[2].

وهكذا تتضح لنا الأهمية الخاصة التي اكتسبها منصب القضاء في مكة المكرمة، والتي نبعت بلا شك من أهمية مكة نفسها في نفوس المسلمين، فهي أطهر البقاع، بل كانت لغيرها من البلدان الإسلامية كالعين من الرأس، ولذلك كان لقاضي مكة مكانة محترمة في نفوس حكامها وعامتها، بل في نفوس جميع الناس في أصقاع شتى من البلاد.

---

(١) القلقشندي: صبح الاعشى، ١٢/ ٢٤٠-٢٤١.

(٢) المصدر السابق، ١٢/ ٢٤٠-٢٤١؛ السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٤١.

وقد تمتع قضاة مكة بمكانة سامية وكلمة مسموعة لدى سلاطين المماليك، وما كانوا ليتمتعوا بتلك المكانة لولا شهرتهم العلمية وصلاحهم ونزاهتهم ومواقفهم في إحقاق الحق ودحض الباطل، كما تمتعوا بتقدير أمراء مكة لهم وكسب ولائهم، وهذا يدل على مكانة القضاة لدى السلطة في مصر. وخير ما نستشهد به في هذا المقام ما حدث في عام ٧٧٣هـ/ ١٣٧١م عندما تعرض القاضي أبو الفضل النويري وهو في طريق زيارته للمسجد النبوي لاعتداء من قبل ابن أمير مكة الشريف محمد بن عجلان[١]، حيث هاجم القافلة وأخذ مبلغًا من المال من أهلها مقابل إطلاقها، وبمجرد أن سمع الشريف عجلان بهذا الخبر توجه إلى المدينة النبوية مصطحبًا معه ابنه؛ ليعتذر عما بدر منه ويعيد الأموال التي أخذها ويسترضي القاضي عن فعل ابنه[٢].

ولمكانة القضاة المرموقة، أصبح منصب القضاء مصدرًا من مصادر تنافس العلماء، بل أصبحت المنافسات العائلية على هذا المنصب أحد مظاهر الحياة الاجتماعية في مكة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، وهذا قد يجلب نقمة السلطان، وعادة نقمة السلطان على القاضي تعني عزله أو سجنه أو إخراجه من مكة[٣].

أما إن كان الصراع بين الأسر على القضاء مقلقًا للسلاطين، فيعمدون إلى عزل الجميع وتولية شخص محايد لا ينتمي إلى أي من الأسر العريقة، ولكن

---

(١) هو محمد بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي الحسني المكي، ولي إمرة مكة نيابة عن أخيه علي بن عجلان نصف سنة في عام ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م، ثم وليها بعد قتل أخيه إلى أن قدم أخاه حسن من مصر عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م، توفي عام ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩هـ. ابن تغري بردي: الدليل الشافي على المنهل الصافي، ٢/ ٦٥٤.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٣١٥؛ السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص١٧٦.

(٣) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٤٨.

سـرعان ما تحاك ضده الوشايات والدسـائس - كردة فعل طبيعية لكونه ليس من الأسـر العريقة المعروفة - وهذا يؤدي أخيـرًا إلى عزله؛ ليتولـى الأمر من جديد أحد أعضاء تلك الأسر كالظهيريين والنويريين والطبريين[١].

ولـم يكن يُعْزَل قاضٍ عـن قضائه إلا بذنب أو شـكوى يتبين من صحتها، ويكون العـزل من قبل السـلطان إذا تدخل أصحـاب النفوذ وأقنعـوه بعزل قاضٍ وتولية قاضٍ آخـر[٢]، ومن ذلك ما حـدث في عام ٨٧٨هــ/ ١٤٧٣م، عندما زار السـيد بـركات[٣] والقاضـي الشـافعي برهـان الدين بن ظهيـرة مصـر، وطلبا من السـلطان قايتبـاي المحمـودي عـزل قاضـي المالكية الشـيخ ابـن أبي اليمن عن قضـاء المالكية، فرفض السـلطان طلبهما لعدم وجود سـبب لعزلـه، ولـم يحصل تنفيذ طلبهما إلا بعد أن تدخل أحد مقربي السـلطان وأقنع السـلطان بعزل قاضي المالكية فتم ذلك[٤].

وقد يصـل التنافـس علـى المنصـب ببعضهم إلـى الجـراءة بدفع رشـوة للسـلطان أو أحد رجال الدولة مـن أجل أن يحصـل على المنصـب، وربما كان ذلك فـي أثنـاء ضعـف الدولـة المملوكيـة، وانهيـار اقتصادهـا[٥]، فيترتـب على ذلك بأن يلي المنصب من لا يسـتحقه، بـل ليس أهلًا له، ومثلمـا حدث في عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م،حيـث إن القاضي الشـافعي صلاح الدين بن ظهيـرة كان يدفع

---

(١) السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص١٤٨.
(٢) العز بن فهد: غاية المرام، ٢/ ٥٩٥.
(٣) هو بركات بن محمد بن بركات بن حسن بن عجلان الحسني المكي، ولد عام ٨٦١هـ/ ١٤٥٦م، دخل القاهرة عام ٨٧٨هـ/ ١٤٧٣م ومعه قاضي مكة البرهاني فأكرم السلطان موردهما، واستمر بتزايد في الترقي حتى صار مرجعًا في حل الأمور. السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ١٤.
(٤) العز بن فهد: غاية المرام، ٣/ ٥٣، ٦٠.
(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٨٧-٧٨٨.

للحفاظ على وظيفته - تنظيمات إدارية تتعلق بولاية القضاء بمكة - مبلغًا من المال على سبيل الرشوة[١].

أضف إلى ذلك أنه في حال اشتداد التنافس بين العلماء على المنصب يضطر السلطان إلى تعيين قاضٍ من غير أهل مكة[٢]، ولعل ذلك حلٌ ناجع لمواجهة اشتداد التنافس بينهم ومن ثم حل المشكلة من جذورها بتعيين شخص من غير أهل مكة في منصب القضاء.

وهكذا ينبغي لكل ذي ولاية، سواء كان قاضيًا أم غيره أن يتنزه عن قبول هدايا أهل عمله، ولا يقبل من أي شخص أي هدية، وإن كان يُهدى إليه قبل ذلك حتى تنفذ خصومته[٣].

فقد روى إسماعيل بن أبي خالد عن قيس بن أبي حازم عن عدي بن عميرة الكندي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من استعملناه منكم على عمل فكتمنا مخيطًا فما فوقه كان غلولًا يأتي به يوم القيامة»[٤].

٥ - الفقيه والمفتي:

لقد اكتسب الفقيه مكانة دينية مهمة في المجتمع المكي حيث أثر الفقهاء تأثيراً غاية في الأهمية في توجيه المجتمع وحمايته، ومن ذلك توسطهم في إيقاف الصراع بين المتصارعين في مكة مثلما حدث في عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م

---

(١) العز بن فهد، بلوغ القرى، ٣/ ٧٨٨.
(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، مج٢/ ١٠١٩-١٠٢٠.
(٣) الماوردي: أدب القاضي، ٢/ ٢٦٤ - ٢٦٥.
(٤) مسلم: صحيح مسلم، ٣/ ١٤٦٥.

بين الشريف حسن بن عجلان ورميثة، وإصلاح ذات البين ومحاولة نشر الأمن والسلام في أرجاء البلاد عامة ومكة المكرمة خاصة[١].

كما يقوم الفقهاء والقضاة وغيرهم بحضور الجنائز، بل وحضور الربعات التي تقرأ عادة في المسجد والمعلاة بعد دفن الميت[٢].

كما يُعَدُّ منصب الفقيه من المناصب المهمة والحساسة في الدولة الإسلامية بشكل عام والمجتمع المكي بشكل خاص؛ وذلك لما للفقهاء من دور بارز وكبير في العالم الإسلامي، يتناسب مع مركز الدين في نفوس المسلمين شعوبًا وحكامًا، وغالبًا يقف الفقهاء في صف الخليفة لكونه رأس الدولة ومدبر أمورها وممثل الشريعة الإسلامية، كما ترجع أهمية الفقهاء وخطورة مركزهم في الدولة إلى اشتغالهم في الإفتاء أو توليهم منصب الإفتاء وما يترتب على ذلك من أمور مهمة كالعزل والتنصيب والعفو والقتل والسجن وما إلى ذلك من قضايا مهمة في الدولة، كحضور الجنائز، بل وحضور الربعات التي تقرأ عادة في المسجد والمعلاة بعد دفن الميت[٣]، كما أن الولاة كانوا يعنون عناية خاصة بالفقهاء، فيحاولون التقرب منهم وخطب ودهم، ومن ثم استمالتهم إلى جانبهم، بل ربما حاد بعض الفقهاء عن الحق واستمرأ صلات الولاة، ولذلك كان ينبغي على الفقيه أن يتحلى بالأخلاق الإسلامية، رافضًا التوسط أو تدخل أحد من السلاطين والأمراء في تغيير فتاويه أو جعلها لصالح شخص دون آخر، كما يجب عليه أخذ الحيطة والحذر من تملق بعض السلاطين والطمع في دنياهم، ومن ثم السير نحو عكس طريق الحق[٤] كما اكتسب المفتي مكانة دينية مهمة في

(١) العز بن فهد: غاية المرام، ٢/ ٣٠٦ - ٣٠٧.
(٢) المصدر السابق، ٢/ ٥٩٧. وما أشير إليه هنا من قراءة الربعات بدعة مذمومة شرعاً.
(٣) المصدر السابق، ٢/ ٥٩٧.
(٤) السبكي: معيد النعم، ص٦٨؛ الباشا: الفنون الإسلامية، ٢/ ٨٠٨، ٨٠٩.

المجتمع المكي حيث أدَّى دورًا بـارزًا في الإجابة عن المسـائل الدينية المهمة، فَعُدَّ المفتي كسـراج نير، ودليل ميسـر وواضـح لمن غمض عليه شـيء من أمور دينه ودنياه، ومن هذا المنطلق تكمن أهمية وظيفة المفتي بل وأهمية المفتي نفسه لكونه مرشدًا للناس.

٦ - سدانة الكعبة:

تُعد خدمة الكعبة المشرفة من أفضل القربات إلى الله سبحانه وتعالى(١)، ولذلـك تمتـع سـدنة الكعبـة بمكانـة كبيـرة ومرموقة عنـد أهـل مكـة، والبلدان الإسـلامية الأخرى. فللسـادن وأسـرته منزلة مرموقة في المجتمع المكي، وهذا ما نراه عند فتح الكعبة المشـرفة، حيث يدخل السـادن وحده فيها ثم يغلق الباب دونه ويصلـي ركعتين، ثـم يدخل الحاضـرون من أسـرته وحدهم ويُغلـق الباب دونهم ويصلون ركعتين، وبعد ذلك يُسمح للناس بالدخول(٢).

أما مكانة السـدنة عند سلاطين البلاد الإسـلامية الأخرى وأمرائها، فإنهم أيضًا تمتعوا بمكانة كبيرة عند هؤلاء السلاطين والأمراء، فعادة عندما يرسل أحد هؤلاء السـلاطين أو الأمراء هبات وهدايـا لأهل مكة وموظفي المسـجد الحرام يكون للسدنة نصيب منها(٣).

وهـذه الوظيفـة لا تقـاس بغيرهـا مـن الوظائـف؛ لأنها مـن اللـه، دفعها رسـول الله ﷺ إليهم(٤) لذلك لا يحدث أي نزاع أو تنافس بين أفراد الأسرة على الوظيفة، رغـم أنها من أكثـر الوظائف الدينية فـي الحرم المكي شـرفًا وصاحبها

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٧٢.
(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٧٠؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٥٥.
(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٨١.
(٤) الحجبي: إعلام الأنام، ص٢٧٩.

يتمتع بمكانة مرموقة[١]. ولعل سبب ذلك يعود إلى أنهم قد ورثوا نظامًا يسيرون عليه. وذكر بعض المؤرخين والفقهاء أن تقديم السدنة لأكبرهم من فعل الرسول ﷺ عندما دفع مفتاح الكعبة إلى عثمان بن طلحة؛ لأنه أكبرهم سنًا، وبعد وفاته تولى السدانة من بعده ابن عمه شيبة[٢].

إلا أنها في زمن من الأزمنة اعتراها بعض الفساد، وهذا ما يوضحه ابن جبير قائلًا: «وفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من الشهر المذكور - أي في ذي القعدة من سنة ٥٧٩هـ/ ١١٨٣م - نفذ أمر الأمير مكثر بالقبض على زعيم الشيبيين محمد بن إسماعيل[٣]، وانتهاب منزله وصرفه عن حجابة البيت الحرام، طهره الله، وذلك لهنات نُسبت إليه لا تليق بمن نيطت به سدانة البيت العتيق ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[٤] أعاذنا الله من سوء القضاء، ونفوذ سهام الدعاء، بمنه.. وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من الشهر المذكور جاء زعيم الشيبيين المعزول يتهادى بين بنيه زهوًا وإعجابًا ومفتاح الكعبة المقدسة بيده قد أعيد إليه، ففتح الباب الكريم وصعد مع بنيه السطح المبارك الأعلى بأمراس من القنب غليظة يوثقونها في أوتاد الحديد المضروبة في السطح ويرسلونها إلى الأرض، فيربط فيها شبيه محمل من العود ويجلس فيه أحد سدنة البيت من الشيبيين فيصعد به على بكرة معدة لذلك في أعلى السطح المذكور، فيتولى خياطة ما مزقته الريح من الأستار، فسألنا عن كيفية صرف هذا الشيبي المعزول إلى خطته على صحة الهنات المنسوبة إليه، فأعلمنا

---

(١) الطاسان: الوظائف الدينية والإدارية، ص٢٩٥.

(٢) الأزرقي: تاريخ مكة، ١/ ٢٧٥؛ الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي: الحرمان الشريفان، التوسعة والخدمات خلال مائة عام، د. ت، ص٢٥٩ - ٢٦٠.

(٣) هو محمد بن إسماعيل بن عبدالرحمن الشيبي، زعيم الشيبيين صاحب حجابة الكعبة. الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ١١٢.

(٤) سورة الحج: الآية ٢٥.

أنه صودر عليها بخمسمئة دينار مكية استقرضها ودفعها، فطال التعجب من ذلك والاعتبار، وتحققنا أن إظهار القبض عليه لم يكن غيرة ولا أنفة على حرمات الله المنتهكة على يديه. مع كونها في خطة دونها الخلافة رفعة، والحال تشبه بعضها بعضًا، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۗ ﴾[١]. وإلى الله المشتكى من فساد ظهر حتى في أشرف بقاع الأرض، وهو حسبنا ونعم الوكيل..»[٢].

٧ - الحسبة:

تمتع المحتسب بأهمية كبرى ومكانة مرموقة في المجتمع المكي، لم تقتصر على عامة الناس فقط، بل تعدتها إلى حكام مكة المكرمة وأمرائها، فعندما يقدم المحتسب إلى مكة، كان يخرج للقائه شريف مكة، ومن ذلك ما حدث في عام ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م، عندما خرج السيد بركات حاكم مكة لمقابلة المحتسب آصباي والاحتفاء به[٣]. ومع ما تميز به المحتسب من أهمية بالغة ومكانة سامية، ومع أن مضمون هذه الوظيفة ومهمة متوليها الرئيسة هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنه قد ظهر فيها الفساد من قبل بعض الأشخاص الذين كانوا يدفعون الأموال نظير عملهم في هذه الوظيفة، ويُعد هذا من أهم عيوب هذه الوظيفة، حيث نرى أنه قد يتولاها غير المؤهلين لها أو المرتشين أو من ليس كفئاً لشغلها وهذا يؤدي في نهاية المطاف إلى تدهور المرافق والخدمات وازدياد معاناة الناس؛ وذلك لكون المحتسب مسؤولًا مسؤولية كاملة عن جميع المرافق والخدمات من المساجد والأسواق والحمامات والمنازل والشوارع، وقد يتعرض بعض المحتسبين لغضب العامة عندما يفيض الكيل وينتشر الظلم، وفي هذه الحالة يتدخل الشريف لتهدئة الأحوال وتحسين

---

(١) سورة الجاثية: الآية ١٩.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٤٢-١٤٥.

(٣) العز بن فهد: غاية المرام، ٣/ ١٠٠.

الأمور، وإعادة الأمن إلى الأسواق، ويبدو أن العلاقة بين هذه الوظيفة والحالة الاقتصادية علاقة طردية، فتنصلح أحوال المحتسب ويتولى مهماته باقتدار إذا ازدهرت الحياة الاقتصادية والعكس صحيح، ولأنها وظيفة مهمة تجمع في صلاحياتها عدة وظائف تمتع صاحبها بمكانة خاصة لتعدد صلاحياته وكثرة مهماته، إضافة إلى العوائد التي تعود عليه من جراء هذه الوظيفة، نجد أنه قد تولاها في بعض الأحيان بعض الموظفين نظير رشوة دفعوها لأولي الأمر[1]، وهذا ما أدى إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية - كما سبقت الإشارة إليه -، ومما لا شك فيه بأنه لو لم تكن هذه الوظيفة مهمة، ولو لم يتميز صاحبها بتعدد صلاحياته وكثرة ما يحصل عليه من فوائد وأموال، لما حصل التنافس عليها، وكثرت النزاعات والخلافات وكثير من المشكلات من قبل بعض الموظفين، حتى ممن ليس أهلًا لذلك، ويعود ذلك بلا شك لسببين رئيسين: إما طمعًا في الحصول على الأموال، وإما طمعًا في المركز والمنصب الذي يحظى به المحتسب؛ لأنه موظف متعدد الصلاحيات والمهمات، ومن ثم حظي بمكانة مرموقة في المجتمع المكي.

ثانيًا: الوظائف الإدارية

١ - شيخ الحرم أو ناظره:

لما يتمتع به شيخ الحرم أو ناظره من مكانة سامية في المجتمع المكي، نابعة من كونه مسؤولاً مسؤولية تامة عن موظفي الحرم المكي ومشرفًا عليهم، إضافة إلى المهمات الجسام الملقاة على عاتقه، ونتيجة لهذه الأهمية وتلك المكانة المرموقة حظي ناظر الحرم بتقدير واحترام لا مثيل لهما سواء من قبل السلاطين والأمراء أو من قبل عامة الناس، فنرى أن شيخ الحرم أو ناظره كان يحاط باهتمام السلطان ورعايته،

---

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٨٢٨.

وذلك لكونه مسؤولًا عن موظفي المسجد الحرام، أضف إلى ذلك أنه كانت تصل إليه كثيرٌ من الهبات والهدايا من البلدان الإسلامية المختلفة شأنه في ذلك شأن جميع موظفي المسجد الحرام، ولكن ما يجدر بنا قوله في هذا المقام هو أن هذه الأهمية وتلك المكانة المرموقة جعلت كثيراً من الأشخاص يطمع في الحصول على هذه الوظيفة والوصول إليها بمختلف الطرق والوسائل، بالتنافس على المنصب تارة، ودفع الرشوة للسلطان تارة أخرى، وكل ذلك قد يجعل السلطان يشرك اثنين في الوظيفة[١]، وأحيانًا يعين السلطان من يدفع له رشوة[٢]. ومن ذلك ما حدث في عام ٨٣٧هـ/ ١٤٣٣م عندما مات قاضي مكة وناظر الحرم الشريف جمال الدين محمد بن علي بن عيسى الشيبي، فأعيد بعده لقضاء مكة ونظر الحرم القاضي جلال الدين أبو السعادات بن ظهيرة في ثامن عشر جمادى الآخرة من السنة نفسها، ولكن ما لبث أن عُزل القاضي أبو السعادات في ذي الحجة عن نظر الحرم بداود بن علي الكيلاني[٣] ببذل مال[٤] للسلطان، فلما قرئ توقيعه في الحرم المكي أنكر ذلك صاحب مكة السيد بركات كما أنكر ذلك أهلها ومنع السيد بركات داود من التحدث وأقام عوضاً عنه الأمير سودون المحمدي شاد العمائر متحدثًا في النظر حتى يرد ما يعتمد عليه، وكاتب السلطان بأن الفقراء وغيرهم من أهل الحرم لم يرضوا بولاية داود، فكتب لسودون بالتحدث في نظر الحرم، فوصله ذلك في أول السنة الآتية أي في عام ٨٣٨هـ/ ١٤٣٤م، فباشر ذلك، ولم يعهد ذلك فيما مضى[٥].

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٧٩، ٥٨٢.

(٢) المقريزي: السلوك، ج٤، مج٢/ ٩٢٠؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٧٣.

(٣) هو داود بن علي بن بهاء الدين الكيلاني الخواجا، تولى نظر المسجد الحرام عوضًا عن أبي السعادات فأنكر ذلك أهل مكة، توفي عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م. السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٢١٤.

(٤) تعني رشوة دفعها للسلطان الأشرف برسباي، والبذل هنا مصطلح من مصطلحات العصر المملوكي. ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، الحاشية، ١٥/ ٢١٧.

(٥) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٧٣ - ٧٤؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٢٨٦.

٢ - ناظر العمارة:

من الأهمية بمكان أن نبين مكانة ناظر العمارة وإنْ لم تتطرق لذلك المصادر التاريخية بشكل صريح، ولكن لا بد وأن يكون ناظر العمارة ذا مكانة مرموقة في المجتمع المكي بسبب ما يقوم به من أمور معمارية سواء في المسجد الحرام أو في خارجه، ناهيك عما يقوم به من أمور معمارية في المشاعرالمقدسة.

والجدير بالذكر أن ناظر العمارة يُختار من قبل السلطان في حال دعت الحاجة للقيام بعمارة معينة في المسجد الحرام، وعادة ما يكون هذا الناظر من أحد أمراء السلطان[1]. ولو لم تكن هذه الوظيفة مهمة، لما اختير الشخص القائم بأمر العمارة برتبة أمير، أضف إلى ذلك أن ناظر العمارة كان يحظى إضافة إلى راتبه بنصيب من الهدايا والهبات والصدقات التي كانت تُرسل من قبل سلاطين البلاد الإسلامية وأمرائها لموظفي المسجد الحرام.

٣ - المطوف:

وقد تمتع المطوف بمكانة مرموقة في المجتمع المكي، وذلك لكونه مرشدًا لحجاج بيت الله الحرام وقاصدي المسجد الحرام، فَعُدَّ دليلًا ومرشدًا يبين لهم مناسكهم، ولا نغالي إذا قلنا: إن المطوف عُدَّ مدرسة بحد ذاتها، نهل من معينها كثيرٌ من زوار بيت الله الحرام خصوصاً ممن لا يجيد اللغة العربية، فنرى أن المرشد حمل على عاتقه مسؤولية تعليم زوار بيت الله الحرام مناسكهم، والمشاعر المقدسة، لأنهم في بلد غير بلدهم، ويؤدون فريضة الله، فكانوا شديدي الحرص على تأدية مناسكهم على أكمل وجه.

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٦٥؛ النهروالي: الإعلام، ص١٩٢.

لذا كان المرشد بالنسبة إليهم بصيص النور الذي أضاء لهم دربهم، فأدوا مناسكهم على أكمل وجه، ورجعوا إلى بلادهم وهم يشعرون بطمأنينة؛ لأنهم أدوا مناسكهم على الوجه المطلوب، وكان من الطبيعي أن يحظى المرشد باحترام وإجلال كثيرٍ من زوار بيت الله الحرام، والتقدير الكبير الذي حظي به، إضافة إلى ما كان يناله من أموال نظير إرشاده لهم، خصوصاً وأن هؤلاء المرشدين (والذين عرفوا فيما بعد باسم المطوفين) كانوا في بادئ الأمر من القضاة وأعيان مكة[١]، واختصوا بتطويف كبار الشخصيات من الملوك والأمراء[٢]، وكل ذلك بلا شك جعل المرشد يحظى بمكانة اجتماعية مرموقة ليس في مكة فحسب بل في أصقاع شتى من البلاد.

ثالثًا: الوظائف التعليمية

١ - المدرس:

تُعد وظيفة المدرس من أهم الوظائف التعليمية على الإطلاق، وذلك لأن المدرس يحمل على عاتقه مسؤولية تنشئة جيل بأكمله سواء من أهل مكة المكرمة أو ممن يفد إليها من خارجها؛ ليتعلم كثيراً من أمور الدنيا والدين، لذلك حظي المدرس بمكانة مرموقة في المجتمع المكي إضافة إلى مكانته السامية خارج مكة المكرمة، كما حظي بتقدير واحترام كثير من طلبة العلم والذين عَدُّوا المدرس شيخًا يبين لهم الكثير من أمور هذا البحر العميق، ولهذه الأهمية فقد حظي المدرس باهتمام كثير من سلاطين البلاد الإسلامية وأمرائها، فنرى أن بعض الأمراء والسلاطين خصص دروسًا معينة وخصص لمن يُدَرِّسُها

(١) العصامي: سمط النجوم العوالي، ٤/ ٤٥-٤٨.

(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ١/ ٥٠٣؛ السباعي: تاريخ مكة، ص٣٣٧.

أجرًا معلومًا وثابتًا، كما أرسل بعضهم الآخر كثيراً من الهبات والصدقات التي حصل المدرس بلا شك على نصيب وافر منها[١].

ونتيجة لهذه الأهمية وذاك المركز المرموق الذي حظي به المدرس، نشأ تنافس ونزاع حول تدريس الدرس الذي قرَّره بشير الجمدار أحد أمراء المماليك بمصر، بين القاضي جمال الدين بن ظهيرة والقاضي أحمد العقيلي الملقب بمحب الدين النويري، وذلك عندما عُيّن محب الدين النويري قاضيًا للحرمين أصّر على انتزاع الدرس من القاضي جمال الدين بن ظهيرة فكان له ما أراد[٢].

ولو لم تكن هذه المهنة ذات أهمية كبيرة ويعد صاحبها ذا مكانة مرموقة في المجتمع المكي، لما سعى إليها القاضي محب الدين النويري، ونازع عليها القاضي ابن ظهيرة، زيادة إلى ذلك أنه ربما يكون النزاع والتنافس على هذه الوظيفة نتيجة لما يحصل عليه المدرس الذي يتولى تدريس هذه الدروس من أجر ثابت وكبير، إضافة للهدايا والصدقات التي يحصل عليها من أمراء البلاد الإسلامية وسلاطينها.

٢ - المؤدب والمقرئ:

تمتع كل من المؤدب والمقرئ بمكانة اجتماعية مرموقة في المجتمع المكي؛ لما حمل كل منهما على عاتقه من مسؤولية كبرى في تعليم طلبة العلم وإخراجهم من ظلمات الجهل إلى نور العلم والمعرفة، فقد حمل المؤدب مسؤولية تعليم الأطفال والصبيان في الكتاتيب، وهي بلا شك مهمة صعبة؛ لأن الطفل بحاجة ماسة إلى من يعلمه كثيراً من الأمور الدينية، كقراءة القرآن والتفسير زيادة إلى الحساب وغيره من العلوم، كما أن الطفل يحتاج إلى رعاية

---

(١) الدهاس: المدارس في مكة، ص ٨.

(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٢/ ٢٠٥؛ عبدالله: تاريخ التعليم في مكة، ص٤٢-٤٣.

خاصة، ومن هنا ظهرت المكانة المرموقة للمؤدب، فالمؤدب عادة يتبع طريقة معينة لتعليم الصغار، كما أنه مسؤول عن تربية جيل بأكمله، وقد تخصص بعضهم بتأديب أبناء الخلفاء والأمراء والوزراء وأعيان مكة[١]. وهذا بلا شك مما زاد من مكانة المؤدب، فمن الطبيعي أن يغدق الخليفة أو الأمير والوزير على مؤدب أبنائه ويهب له كثيراً من العطايا والأموال.

كما تمتع المقرئ أيضًا بمكانة سامية في المجتمع المكي، فقد حمل هو الآخر على عاتقه مهمة إقراء القرآن خصوصاً وأن القرآن الكريم أول علم دُرّس في المسجد الحرام، وهذا ما زاد من مكانة المقرئ، بل نبعت أهمية وظيفته من أهمية العلم الذي عني بتدريسه ألا وهو القرآن الكريم، وقد حظي المقرئ كغيره من موظفي المسجد الحرام بنصيب من الهدايا والهبات التي كانت تصل إلى مكة المكرمة من قبل الأمراء والسلاطين من بلاد إسلامية شتى، والجدير بالذكر أن بعض المؤدبين قد أثرى من هذه المهنة[٢] وتكسب بعضهم الآخر بإقراء الأطفال[٣].

رابعًا: الوظائف الخدمية

١ - السقاية:

كانت سقاية الحجاج من المناصب المهمة في المجتمع المكي، وكانوا يتفاخرون بها؛ لأنهم كانوا يعملون على سقاية حجاج بيت الله الحرام. كما ورد في الحديث أن النبي ﷺ أتى وبني المطلب يسقون على زمزم فقال: «انزعوا بني

(١) البيهقي: المحاسن والمساوئ، ٢/ ٢١٢-٢١٦.
(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ١٠/ ١٢٠-١٦٩.
(٣) المصدر السابق، ١/ ٢٦٢-٢٦٣، ٢/ ٥٦.

عبد المطلب فلو لا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم» فناولوه دلوًا فشرب منه[١].

وقد قال الفضل بن عبدالرحمن بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب في ذكر فضل بني عبد المطلب في زمزم:

لقد فضّل الرحمن آل محمدٍ
بعلمٍ، وكان الله بالناس أخبرا
سقاهم ليسقوا الحاج في الحج زمزمًا
وخطّ لهم في جنة الخلد كوثرا[٢]

ولتلك المكانة المرموقة التي حظي بها السقاؤون في المجتمع المكي، حرصت معظم الأسر التي تعمل بهذه الوظيفة على توارث العمل بهذه الوظيفة وتوارث مشيختها[٣]. ونتيجة لهذه المكانة السامية والرفيعة في المجتمع المكي وخارجه كان كثيرٌ من سلاطين البلاد الإسلامية وأمرائها يرسلون الهدايا والصدقات إلى مكة المكرمة، وكان يحظى السقاؤون بنصيب وافر منها، مثلما حدث في عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م، عندما وصلت إلى مكة المكرمة صدقة العثمانيين وأخذ منها الشريف والقضاة وأرباب الوظائف في الحرم المكي الشريف[٤] - كما سبقت الإشارة إليه -، ولكثرة الأسر التي تعمل في هذه الوظيفة عادة ما تحصل النزاعات والتنافس بينها على تولي المشيخة، وفي هذه

---

(١) مسلم: صحيح مسلم، ٢/ ٨٩٢.
(٢) الفاكهي: أخبار مكة، ٢/ ٥٣-٥٨؛ العاملي: معالم مكة والمدينة، ص٩١-٩٢.
(٣) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٨٢-٥٨٣.
(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨٢.

الحالة تتقاسم الأسرتان مكافأة وظيفة المشيخة، لسد باب النزاع وحل المشكلة من جذورها[١].

كما يحدث النزاع أيضًا على وظيفة مشيخة السقاية بين أبناء الأسرة الواحدة، لذلك ولفض النزاع أصبح التنظيم المتبع أن تكون التولية مناصفة بين أفراد الأسرة الواحدة، ففي عام ٨٩٧هـ/ ١٤٩١م، وصل إلى مكة ابن الزمزمي وبيده مرسوم من الخليفة بنصف مشيخة قبة سقاية العباس، واجتمع هو والمشايخ الأولون عند قاضي القضاة الشافعي ناظر المسجد الحرام وأعطاه المرسوم، فمكنه من النصف فدخل القبة هو وأخوه وولده، وأولاد أقربائهم وغيرهم[٢].

وفي عام ٩٠١هـ/ ١٤٩٥م، أحضر علي بن عبدالعزيز الزمزمي أحد شيوخ قبة السقاية بالمسجد الحرام مرسومًا جاء من الخليفة إلى ناظر المسجد وفيه الاستقلال له ولجماعته بجميع السقاية دون أولاد الشيخيْن أبي الفتح ونابت الزمزمي، فأحضرهم الناظر وأمرهم برفع أيديهم واستقلال الأوليين[٣].

٢ - الوقادة، الفراشة، البوابة:

لا بد أن لكل وظيفة من هذه الوظائف مكانة عالية في المجتمع المكي، ولصاحبها مركزاً اجتماعياً مرموقاً ومكانة سامية في نفوس أهل مكة، ناهيك عن المكانة التي تمتع بها هؤلاء الموظفون خارج مكة، فيكفي الشخص شرفًا وفخرًا ومكانة سامية أنه يعمل في المسجد الحرام بغض النظر عن مسمى تلك الوظيفة.

وما نراه أن نظرة الناس لموظفي المسجد الحرام نظرة ملؤها الاحترام

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٥٨٢-٥٨٣.
(٢) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٨١-٨٢.
(٣) المصدر السابق، ٢/ ٨١-٨٢.

والتقدير وذلك لما لوظائفهم من مكانة في المجتمع المكي وخارجه، ومما زاد هذه المكانة علوًا التقدير المادي والمعنوي من قبل الأمراء والسلاطين، فنجد أن هؤلاء الموظفين كانوا يحصلون على رواتب مغرية نظير أعمالهم، علاوة على ما يحصلون عليه من هبات وهدايا من أمراء وملوك الدول الإسلامية الأخرى، ولو لم تكن هذه الوظائف مهمة وذات مكانة سامية لما أصبح لمتوليها نصيبٌ وحظٌ مما يرسله السلاطين والأمراء من رواتب وهبات وصدقات لأهل مكة المكرمة عامة، وموظفي المسجد الحرام خاصة.

ففي عام ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م، يُذكر أن ناظر الخاص قدم إلى مكة المكرمة، وزعت صدقته على موظفي الحرم فنال كل فراش أشرفياً[١].

وفي عام ٩٢٠هـ/ ١٥١٤م، حج السلطان الغوري وفرق صدقته بمكة، فنال منها البوابون ثمانين دينارًا[٢].

٣ - خدام الحرم وأغواته:

تُعد خدمة المسجد الحرام من أشرف المهن على الإطلاق حيث تباهى بها الخلفاء والسلاطين منذ قديم الزمان، حتى أنه لُقب بعض هؤلاء الخلفاء أو أطلق على نفسه لقب «خادم الحرمين الشريفين» وهذا يعني أن الخدمة في الحرمين الشريفين محترمة جدًا، ويوجد ضمن رتب الدولة العلية رتبة مخصوصة اسمها «خادم الحرمين الشريفين»[٣] - كما سبقت الإشارة إليه -.

ولا شك أن هذه المكانة المرموقة التي حظي بها خدام الحرم المكي

---

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٧٩٣.
(٢) المصدر السابق، ٢/ ٨٣، ٣/ ٧٩٣.
(٣) باشا: مرآة الحرمين، ١/ ٢٦٠؛ البتنوني: الرحلة الحجازية، ص١٠١.

نابعة من مكانة المسجد الحرام نفسه، ولم يحصلوا على هذه المكانة الاجتماعية إلا بخدمتهم المسجد الحرام.

وحظي هؤلاء الخدام كغيرهم من موظفي المسجد الحرام باحترام وتقدير سلاطين البلاد الإسلامية المختلفة وأمرائها، حيث كان لهم نصيب مما يرسله هؤلاء الأمراء(١).

ولأغوات المسجد الحرام الكثير من الأوقاف المرصودة لهم في بعض البلدان كالبصرة والشام والعراق وغيرها.. كما كانت تأتيهم مرتبات مخصوصة من قبل الدولة العثمانية، كما أن لهم المرتبات بديار مصر والشام يُؤتى إليهم بها سنويًا(٢).

إذن يتضح لنا من كل ما سبق ومما يفهم من سياق الكلام أن جميع الوظائف في المسجد الحرام تمتعت بمكانة مرموقة في المجتمع المكي وفي جميع أصقاع البلاد الإسلامية وإن أغفلت بعض المصادر التاريخية التحدث عن مكانة بعض الوظائف ومكانة موظفيها.

ويكفي أن متولي الوظيفة في المسجد الحرام تمتع بمكانتيْن مهمتين، ألا وهي المكانة الدينية والمكانة الاجتماعية، فالمكانة الدينية كونه موظفًا في أشرف بقاع الأرض وأطهرها يحفه الجو الروحاني الطاهر من جميع الجهات.

والمكانة الاجتماعية المرموقة والتي ظهرت واتضحت من نظرة الناس له سواء من داخل مكة المكرمة أو خارجها. فكلهم ينظر إليه نظرة إجلال وتقدير

---

(١) الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٢، ٤/ ٢٦، ٤٢.

(٢) ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٣٩؛ انظر الفصل الرابع، المبحث الخامس: خدام الحرم وأغواته، ص٣١٩.

بل وغبطـه؛ لأن كل شـخص يتمنى أن يكـون موظفًا فـي بيت الله الحـرام واهبًا روحه وجسده رخيصة لخدمة أطهر البقاع وأشرفها.

ومع ما ظهر مـن تنافـس ونزاعات ومشـكلات على بعـض الوظائف في زمن مـن الأزمنة، وما اعترى بعضها الآخر من فسـاد في وقت مـن الأوقات، إلا أن هـذا يمكن أن نرجعـه لأهمية هـذه الوظائـف، ورغبة كل شـخص من هؤلاء الأشـخاص في أن يحظى بالمكانة المرموقة سواء عند السـلطان أو في المجتمع المكي أو في بقاع شتى من الأرض، فكل شـخص منهم كان يرغب في أن تكون له حظـوة عند السـلطان، كما كان يرغـب في أن يشـعر بالفخر والاعتـزاز لكونه موظفًا في المسـجد الحـرام، لذلك نجـد أن بعضهم قـد عمل بمختلـف الطرق والوسائل من أجل الحصول على بعض هذه الوظائف.

المبحث الرابع

جهود العلماء في التأثير في المجتمع المكي ومحاربة البدع

تمتع المسجد الحرام بمكانة دينية كبيرة، نبعت من كونه محل إعلان العبودية الخالصة لله رب العالمين، كما أنه مظهر التوحيد، ورمز الوحدة بين المسلمين، وجامع الأفئدة لحب رب العالمين، وما الحج إليه واتجاه المسلمين للصلاة إليه إلا مظهر من مظاهر ذلك، حيث قال الله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾[١].

لذا كلف الله سبحانه وتعالى القائمين عليه بأن يجعلوه دائمًا وأبدًا، في الليل والنهار مهيئًا لهذه الغاية وصالحًا لتحقيق هذه الهداية، ومستقبلًا لكل من يأتي إليه من مشارق الأرض ومغاربها، حيث قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾[٢].

فالمسجد الحرام مقصد البشرية جمعاء في كل زمان ومكان، تقصده البشرية رجاء أن تنال حاجتها وتصل إلى غايتها من أمور الدنيا والآخرة.

وهكذا أصبح للمسجد الحرام مكانة دينية سامية في نفس كل مسلم

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٠.

(٢) سورةالبقرة: الآية ١٢٥.

تجعله دائمًا – ما بقي المسلمون – محط أنظارهم، وهم بحكم الدين لا يمكن أن ينصرفوا عنه أبدًا، فالعلاقة بين المسلم والمسجد الحرام علاقة أزلية، مليئة بالحب والشوق وأحاسيس روحانية شتى، فمهما ابتعد المسلم عن المسجد الحرام يظل في شوق دائم للقاء هذا البيت العتيق، وإن قرب ازداد شوقه أضعافًا مضاعفة.

تلك هي مكانة المسجد الربانية؛ لصلته بالإسلام وكونه رمز العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى دون سواه.

ولكن رغم هذه المكانة السامية التي تمتع بها المسجد الحرام، ورغم الجو الروحاني الذي ملأ الأرجاء إيمانًا وطمأنينة، إلا أن كل ذلك لم يمنع ظهور بعض البدع في أقدس بقاع الأرض وأشرفها. ورغم أن هذه البدع كانت في بادىء الأمر من بعض الجهلة إلا أنها ما لبثت أن انتشرت بشكل ملحوظ، حتى أصبحت – إن صح التعبير – سمة بارزة.

ولكن قبل أن نسترسل في الحديث عن هذه البدع المضلة ودورها في التأثير على المجتمع المكي، ومن ثَمّ دور العلماء في محاربتها ومحاولة السيطرة عليها وإزالتها، لا بد أن نتطرق لمفهوم البدعة، ليتضح لنا وبشكل جلي ما البدعة وما معناها.

البدعة لغة:

بدع الشيء وابتدعه: أنشأه وبدأه[١] والبدع: الأول في كل أمر[٢].

---

(١) ابن منظور: اللسان، ١/ ٢٢٩.

(٢) ابن عباد: المحيط في اللغة، ١/ ٤٢٩.

اصطلاحًا:

الحدث وما ابتدع في الدين بعد الإكمال، والبدعة كل محدثةٍ[(١)].

ويمكن أن نقول: إن البدعة «عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله ﷻ»[(٢)]، وهذا على رأي من لا يدخل العادات في معنى البدعة وإنما يخصها بالعبادات، وأما على رأي من أدخل الأعمال العادية والعادات في معنى البدعة فيقول البدعة: «طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية»[(٣)].

١- بدعة تعدد الأئمة في المسجد الحرام:

كان الناس في مكة يصلون في المسجد الحرام خلف إمام واحد عند مقام إبراهيم عليه السلام، إلى أن حدثت بدعة المقامات في مكة، فأنشئت حول الكعبة أربعة مقامات، لكل من المذاهب السنية الأربعة (الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي) إضافة إلى مقام الشيعة الزيدية، يؤم في كل واحد منها إمام يصلي خلفه أتباع مذهبه[(٤)]. فيصلي الأئمة الأربعة مرتبين؛ الشافعي في مقام الخليل عليه السلام، ثم الحنفي في مقام الحنفية يليه إمام المالكية في المقام المتعين له، ثم إمام الحنابلة بعده في مقامه، وهذا في الفروض الأربع؛ الفجر والظهر والعصر والعشاء – وقد بينا مكان مقام كل إمام من الأئمة في موضعه[(٥)] – أما في صلاة المغرب فإنهم يصلون جميعًا في وقت واحد، وذلك لضيق الوقت،

---

(١) ابن منظور: اللسان، ١/ ٢٢٩.

(٢) الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى، الاعتصام، المكتبة التجارية الكبرى – مصر، د. ت، ١/ ٣٧؛ محفوظ: الإبداع في مضار الابتداع، ص١٥.

(٣) الشاطبي: الاعتصام، ١/ ٣٧؛ محفوظ: الإبداع في مضار الابتداع، ص١٥.

(٤) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٦٩-٧٠.

(٥) انظر الفصل الأول: الوظائف الدينية، المبحث الأول: الإمام، ص ٤٤.

فيحصل بذلك اللبس والتشويش على المصلين بسبب اشتباه أصوات المبلغين، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي، وسجد الحنفي بسجود الحنبلي، وتراهم منصتين، كل واحد إلى صوت المؤذن أو الإمام الذي يتبعه مخافة السهو، ومع هذا يحدث السهو على كثير من الناس[(١)].

وظاهرة تعدد الأئمة في المسجد الحرام لم تظهر إلا بعد وجود المذاهب الفقهية الأربعة بمكة، فمال أتباع كل مذهب إلى رجل منهم، فقدموه ليصلي بهم جماعة، فمضى العمل على ذلك منذ ذلك اليوم[(٢)].

ويبدو أن ابتداء إنشاء المقامات في المسجد الحرام كان في منتصف القرن الخامس الهجري، وهذا ما بينه الفاسي قائلًا: «وأما وقت حدوثهم، فلم أعرفه تحقيقًا، ورأيت ما يدل على أن الحنفي والمالكي كانا موجودَيْن في سنة ٤٩٧هـ، وأن الحنبلي لم يكن موجودًا، وذلك لأن الحافظ أبا طاهر السلفي[(٣)] حج هذه السنة، ورأى فيها أبا محمد بن العوضي القروي المقرئ إمام مقام الخليل عليه السلام بالمسجد الحرام، وذكر أنه أول من يصلي من أئمة الحرم المقدس قبل المالكية والحنفية والزيدية، ووجه الدلالة من هذا على ما ذكرناه من أن الحنبلي لم يكن موجودًا في هذه السنة، عدم ذكر السلفي له وذكره لإمام الزيدية، ولو كان الحنبلي موجودًا حينئذ لذكره السلفي، فإنه أولى بالذكر من إمام الزيدية، والله أعلم، ورأيت ما يدل على أنه كان موجودًا في عشر ٥٤٠هـ»[(٤)].

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٧٨؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٧٩؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص١٣٢-١٣٣؛ الأسدي: إخبار الكرام، ص١٩٧-١٩٨.

(٢) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٩٦؛ العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ٧٠.

(٣) هو أحمد بن محمد الأصفهاني السلفي، صاحب كتاب «معجم السفر»، توفي عام ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م. الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٩٥.

(٤) المصدر السابق، ١/ ٣٩٥.

ومنهم مـن يُرجع ظهورهـا للعصر الفاطمـي، حيث كثرت البـدع الغريبة فـي ذلك العصـر، خصوصاً وأنه كان للفاطميين السـيادة الاسـمية علـى الحجاز في القرن الرابع الهجري[١]، ويُفهم من سـياق الكلام أن نشـوء المقامات الأربعة في المسـجد الحرام كان في القرن الرابع أو الخامس الهجـري، لأن ابن عبد ربه صاحـب العقد الفريـد والمتوفى عـام ٣٢٨هــ/ ٩٣٩م، لم يذكر هـذه المقامات عند وصفه للمسجد الحرام، رغم أنه ذكر أروقة المسـجد الحرام وأبوابه وسقاية العباس وأشـياء أخرى، إلا أنه لم يشر مجرد إشـارة إلى وجود المقامات الأربعة في الحـرم المكي[٢]. في حين ذكرهـا ابن جبير في رحلته عـام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م للمسـجد الحـرام[٣]، كمـا ذكرهـا الفاسـي في كتابه شـفاء الغـرام - كما سـبقت الإشارة إليه -.

والجدير بالذكر أن ناصر خسرو عندما حج في عام ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م، لم يأتِ على ذكر هذه المقامات في رحلته، في حين وصف مكة وآثارها، ولو كانت المقامات موجودة في تلك السنة لذكرها ولم يغفل التحدث عنها[٤].

وبناء عليه يمكننا القول أن حدوث المقامات الأربعة في المسجد الحرام كان بين سنتي ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م و٤٩٧هـ/ ١١٠٣م، والله أعلم.

وقـد ذكـر بعـض المؤرخيـن[٥] أن حـدوث المقامـات كان بيـن سـنتي ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م و٤٨٨هــ/ ١٠٩٥م، لأن أول ذكر لمقـام المالكية جاء في كتاب

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، انظر مقدمة المحقق الباز، ص٦٧.
(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٧/ ٢٤٨-٢٤٩.
(٣) ابن جبير: الرحلة، ص٧٨.
(٤) خسرو: سفرنامة، ص١٢١-١٣٧.
(٥) عباس: المسجد الحرام، تاريخه، أحكامه، ص١٦٦.

إتحاف الورى[١] في حوادث ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، وهذا شيء لا نختلف عليه إطلاقًا، ولكن ما لا يمكننا تأييده بأي شكل من الأشكال هو أن تكون أنشئت ما بين عام ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م، و٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م، لأنها لو أنشئت بعد عام ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م، لذكرها ناصر خسرو عند زيارته للمسجد الحرام، ولما أغفل الحديث عنها، خصوصاً وأنها من البدع المضلة، والأحداث الغريبة التي حدثت في مكة، والتي لا يمكن إغفالها مطلقًا.

سبب نشوئها:

تُعَدُّ هذه البدعة من أشد البدع التي ظهرت في الحرم المكي الشريف وأنكرِها، حيث لم يكن فيه في زمن السلف الصالح شيء من هذا؛ لأن أهل العلم نقلوا أن مكة المكرمة - شرفها الله - لم يجمع فيها الصلاة المفروضة بالحرم المكي الشريف بإمامين في حالة واحدة ولا جماعة بعد جماعة منذ أن أمّر الرسول ﷺ عتّاب بن أسيد عام الفتح في السنة الثامنة من الهجرة، إلى أن غلب الديلمي[٢] على العراق، فتفرّق العلماء من العراق ومن الحجاز إلى غيرهما من البلدان، فبقي الناس في المسجد الحرام أشتاتًا لا إمام لهم يقيم لهم الصلاة، أو يقومون بإتباعه في أمورهم الدينية المختلفة، وهذا أدى إلى أن يميل أهل كل مذهب في الحرم الشريف إلى رجل منهم ليتقدمهم في الصلاة، فمضى العمل على ذلك منذ ذلك اليوم - كما سبقت الإشارة إليه - وكان الأولى والحق أن

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٤٨٧-٤٨٨.

(٢) من عام ٣٣٤هـ-٤٤٧هـ/ ٩٤٥م- ١٠٥٥م، أما الديلم فمساكنهم في الجبل والسهل فيما يلي بحر طبرستان (بحر قزوين أو بحر الخزر). أبو إسحاق الصابي: إبراهيم بن هلال الكاتب، المنتزع من كتاب التاجي لأبي إسحاق الصابي، تحقيق محمد حسين الزبيدي، وزارة الإعلام - العراق، ١٩٧٧م، ص١٥-١٦، ٢٩-٣٠، ولعل المقصود بالديلمي معز الدولة البويهي الذي استولى على العراق سنة ٣٣٤ هـ حيث إنه كان من الديالمة.

يجتمع الناس كلهم خلف إمام واحد، لا أن ينصِّب كل أهل مذهب رجلاً منهم يصلي بهم جماعة[١].

ولا بد أن إنشاء هذه المقامات حصل بعد مشادة واختلاف بين أتباع المذاهب، إما في تعيين الإمام العام، أو لأجل اختلافات في صحة صلاة أحدهم وراء إمام من غير مذهبه، أو ربما يكون السبب الجوهري لذلك هو إلزام بعض المذاهب متبعيها الصلاة خلف إمام يتبع مذهبهم، وللمسلم أن يقلد عالمًا بعينه في مسألة ما، دون التعصب لمذهب خاص بحيث لا يقبل من غيره ولو ظهر العلم والدليل خلاف مذهبه بوضوح، وهذا ما أنكره العلماء في كل زمان ونادوا بمحوه، بل حاولوا جاهدين تضييق شقّة الخلاف بين أصحاب المذاهب ومتبعيهم[٢]، ولكن ما من قلوب تعي أو آذان تصغي بل وصل الحد ببعض المتعصبين إلى تأييد هذه البدعة، وهذا أدى إلى جدل كبير بين المعارضين والمؤيدين، ويسعى كل منهم إلى تأييد ومساندة ذوي النفوذ لهم[٣].

وذكر الشوكاني أن إنشاء المقامات الأربعة في المسجد الحرام بدعة مضلة، بإجماع علماء المسلمين، أحدثها فرج بن برقوق[٤]، في أوائل المئة التاسعة من الهجرة، والعجب كل العجب من بدعة تظهر في أشرف بقاع الأرض وخيرها،

---

(١) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٩٦.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، انظر مقدمة المحقق، الباز، ٤/ ٦٧-٦٨؛ عباس: المسجد الحرام، تاريخه وأحكامه، ص١٦٤.

(٣) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٤٩٤.

(٤) هو فرج بن برقوق الجركسي، الملقب بالناصر، ولد عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م، استقر في السلطنة بعهد من أبيه إليه، بعد موته في شهر شوال سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م، وعمره دون عشر سنين،كان سلطانًا مهيبًا، فارسًا،كريمًا، كما كان فتاكًا وظالمًا وجبارًا منهمكًا على الخمر واللذات، طامعًا في أموال الناس، خلع في عام ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، بأخيه المنصور بن عبدالعزيز، قُتل في عام ٨١٥هـ/ ١٤١٢م. العصامي: سمط النجوم العوالي، ٤/ ٣٤.

مـن غير أن يحرك سـاكنًا من جاء مـن الملوك المائليـن إلى الخيـر، خصوصاً وقد صارت هـذه المقامات فـي بيت اللـه الحرام سـببًا لتفريـق الجماعـات واختلاف القلــوب، والتباين الكلي في أطهـر بقاع الأرض، وقد كان الصـادق الأمين ـ عليه الصلاة والسـلام ـ ينهى عـن الفرقة والاختـلاف، ويحث على الاجتمـاع والألفة، خصوصاً وأن هذه البدعة عُدَّتْ من أشد البدع وأخطرها على الإسلام والمسلمين، لما سـببته من فرقة بين الجماعات، ووقوف كل طائفة فـي مقام من هذه المقامات وكأنهم أديان وشرائع مختلفة، بل وصل الأمر بهم إلى أن يتعصب أتباع كل مذهب لمذهبهم من غير الأخذ من غيره، ولو ظهر فيه الخير والصـواب[1].

وكل ذلك أدى إلى اتسـاع دائرة الخلاف وتشتت الجماعات وهم بذلك خالفوا قول الله تعالى: ﴿ وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ ﴾[2].

زوال البدعة:

تُعَدُّ هـذه البدعة من أشـد البـدع وأعظمهـا، إذ إن تعدد الأئمـة في مكان واحـد وزمان واحـد، منهي عنه شـرعًا لمـا يؤدي مـن تفريق الجماعـات وفصم عرى التآلف بينهم، كما يفسد حكمة مشروعية الجماعة في المساجد وخصوصاً المسـجد الحـرام، وقد تذبـذب موقـف سـلاطين الدولـة المملوكية حيـال هذه البدعة، فتـارة يتصـدون لهـا ويحاربونها فـي محاولة جـادة منهم للقضـاء عليها وإزالتها، وتارة أخرى يؤيدون اسـتمرارها، ولـم يزل العلمـاء ينكرون ذلك قديمًا وحديثًـا إلى أن زالت بسـعي جماعة مـن أهل الخيـر والصلاح عند ولـي الأمر،

(١) الشـوكاني: البدر الطالع، ٢/ ٢٦، ويبدو أن الشـوكاني هنا توهم، فالمقامات أنشئت منذ العهد الفاطمي، أي قبل أن يأتـي الناصر فرج بن برقوق، ولا يُعرف من الذي أنشـأها، أو ربما مقصد الشوكاني أن الناصر فرج هو من قام بتجديدها لا إنشائها، فمن غير المعقول أن ينشئ الشخص شيئًا ثم يأمر بإبطاله وإزالته وذلك عندما حدث في عام ٨١١هـ/ ١٤٠٨م.

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٠٣.

ولكن هذا الزوال كان جزئيًا في بعض الصلوات، ففي عام ٨١١هـ/ ١٤٠٨م، سعى جماعة إلى الناصر فرج بن برقوق من أجل إبطال هذه البدعة، وبالفعل ورد أمره بإبطال صلاة المالكي، والحنبلي والحنفي في صلاة المغرب لأنهم كانوا يصلونها في وقت واحد وبسبب اجتماعهم في الصلاة يحصل للمكيين لبس وتشويش بسبب التباس أصوات المبلغين واختلاف حركات المصلين، حتى إن المالكي قد يسجد لسجود الحنفي أو يسلم الشافعي لسلام الحنبلي، وهذا الفعل ضلال في الدين، فصار الشافعي يصلي بمفرده بالناس المغرب، وهكذا اجتمعوا في صلاة المغرب، على إمام واحد وهو الشافعي(١).

ولعل اختيار السلطان للإمام الشافعي دون سواه وتقديمه على غيره من المذاهب، لأن مصر كانت على هذا المذهب، أو لأنه المقدم من الإمام العباسي(٢).

إلا أن إنهاء البدعة لم يستمر طويلًا، فما لبث أن عادت مرة أخرى في عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م، بأمر من السلطان المملوكي المؤيد أبي النصر شيخ صاحب مصر، حيث أمر بأن يعود الأئمة الثلاثة(٣) يصلون المغرب جميعًا كما كانوا يصلون قبل ذلك. ففعلوا ذلك في ليلة السادس من ذي الحجة من السنة نفسها (٤).

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٩٣-٣٩٤؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٤٦٦.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٧٨؛ العبدلي: إمارة الحاج، ص٢٧٩-٢٨٠.

(٣) الحنفي والمالكي والحنبلي.

(٤) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٩٤؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٠٩، وقد ظلت هذه البدعة قائمة حتى مطلع العهد السعودي، فعمل الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود على إبطالها وجمع المصلين على إمام واحد في جميع الأوقات، والصلوات، كما عمل على توحيد صفوف المسلمين بعد تفرقها مدة من الزمن وكان ذلك في عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م. باسلامه: تاريخ عمارة المسجد الحرام، ص٢٣٣؛ الكردي: التاريخ القويم لمكة، م٣، ٥/ ٩٥.

ويتضح لنا مما سبق أن هـذه البدعة كادت تـزول ثم ما لبثـت أن عادت مرة أخرى، من غير أدنى اعتراض من حاكم مكة الشـريف حسـن بن عجلان، أو من العلماء الكُثُر الذين كانـوا في ذلك العهد في مكة المكرمـة، كما يبدو أن أمر السـلطان لمنع تعدد الأئمة كان متوقفًا على ما يبلغه ويصل إليه من أخبار، لا عن معايشة منه لواقع مكة المكرمة والمسجد الحرام، والدليل على ذلك أن السلطان الناصـر فرج منع تعدد الأئمة عندما سـعى إليه جماعة من أهـل الخير وطلبوا منه إزالتها وإبطالها.

موقف العلماء من هذه البدعة:

سبق أن ذكرنا أن نشأة المقامات في المسجد الحرام كان نتيجة اختلافات مذهبيـة، وتعصب كل فئـة لمذهبها، ولا شـك أن ذلـك يُعدّ من الأمـور المنكرة الشـنيعة في المسـجد الحرام، ومن البدع المضلة، بل عُدَّ ذلك الفعل ضلالاً في الدين لما فيه من المنكرات التي لا تخفى إلا على من غلب عليه الهوى. ولذلك نـرى أن العلماء وقفوا مـن هذه البدعـة موقفًا صارمًـا وأنكروها، وقـد صدر في ذلك عدد مـن الفتاوى، ولكن ما مـن أذن تصغي أو قلب يشـعر ويعي، فقد أفتى الإمام أبو القاسم عبدالرحمن بن الحسين بن الحباب المالكي بمنع الصلاة بأئمة متعددة وجماعات مرتبة في الحرم المكي الشـريف، وعدم جوازها على مذاهب العلماء الأربعة، وكانت هذه الفتوى في عام ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م[(١)].

ثم إن بعض الناس قد اسـتفتى في ذلـك بعض علماء الإسـكندرية فأفتوا بخلاف ما أفتى به ابن الحباب، وقد أفتى بذلك شـداد بن المقدم وعبدالسلام بن عتيـق والشـيخ أبو الطاهر بـن عـوف الزهـري، ولمـا وقـف ابـن الحبـاب على فتاويهـم أملى في الـرد عليهم، أشـياء كثيرة وحسـنة، كما نقل إنـكار جماعة من

(١) الفاسي، شفاء الغرام، ١/ ٣٩٤؛ ابن فهد، إتحاف الورى، ٢/ ٥١٦.

العلمـاء الشـافعية والحنفية والمالكيـة لذلك عندمـا حضروا الموسـم بمكة عام ٥٥١هـ/ ١١٥٦م[١].

وقـد وقـف كثيرٌ مـن العلمـاء موقف المنكـر والمتعجـب من قيـام بدعة كهذه في أشـرف بقاع الأرض وأطهرهـا، فرَّقت عبادة العباد، كما شـتتّت شـمل المسـلمين وصيرتهم كالملل المختلفـة في الدين وقرّت بها عيـن إبليس اللعين، حيث تفرَّق المسـلمون، وأصبح لكل طائفة منهم إمـام يؤمهم ويتبعونه في جميع أمورهم، وكأن لكل طائفة منهم شـريعة وملة مختلفة ! وهم في الأصل جميعهم مسـلمون ويدينون بديـن واحد وكلمة واحدة وهي شـهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمدًا رسول الله[٢].

ولا يفوتنـا أن نذكـر أن موقـف العلماء مـن هـذه البدعة وإنكارهـم لها، وإن لـم يسـتطيعوا منعهـا وإبطالهــا، يُعـد نوعًـا مـن أنـواع تأثيـر العلمـاء على المجتمـع المكـي، فلم يقفـوا مكتوفي الأيـدي، وذلـك عندما سـعى جماعة من أهل الخير إلى الناصـر فرج بن برقوق طالبين منه إبطالهـا والقضاء عليها في عام ٨١١هــ/ ١٤٠٨م، فتم لهم ذلـك، إلا أن تعصب بعض الأشـخاص من الجهلة، وعدم معرفتهم بأمور دينهم كتب لهذه البدعة أن تعود مرة أخرى، وبأمر من أحد سلاطين المماليك في عام ٨١٦هـ/ ١٤١٣م- كما سبقت الإشارة إليه -.

٢ - بدعة الدعاء للحاكم من على قبة زمزم:

من جملة البدع في المسـجد الحرام في العصر المملوكـي، بدعة الدعاء

---

(١) الفاسـي: شـفاء الغرام، ١/ ٣٩٤-٣٩٥؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٢/ ٥١٧-٥١٨؛ ولمزيد من التفصيل حول هـذا الموضوع، انظر الفصـل الأول، الوظائف الدينيـة، المبحث الأول، الإمام، ص٤١.

(٢) الصنعاني: محمد بن إسماعيل الأمير اليمني، تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، د. ت، ٢٣-٢٤.

للحاكم من على قبة زمـزم، حيث كان يُدعى له جهرًا بحيث يسـمعه كل من كان في المسـجد الحرام، وعـادة يدعو رئيـس المؤذنين مـن على قبة زمـزم، ويكون هذا الدعاء إعلاناً للناس بتولي حاكم جديد أو إعلان اسـتمرار الحاكم نفسـه[١]. ويكون الدعاء عادة في أثناء طواف الحاكم بالبيت الشريف، وبعد صلاة المغرب من كل يوم[٢]، كما.. يكون الدعاء للحاكم في أول يوم من كل شـهر، حيث يأتي أمير مكة وقـواده يحفون به وهو لابس البياض معتمٌ متقلدٌ سـيفًا وعليه السـكينة والوقار، فيصلي عند المقام ركعتين ثم يقبِّل الحجر، ويشرع في الطواف، ورئيس المؤذنيـن علـى أعلـى قبة زمـزم فعندما يكمـل الأمير شـوطًا واحـدًا يتوجه إلى الحجـر لتقبيله، حينهـا يبدأ رئيـس المؤذنين بالدعاء لـه، والتهنئة بدخول الشـهر وذكـر القصائد التـي مُدح بها الحاكـم وأجداده مـن آل البيـت[٣]. وكان أمير مكة السيد الشـريف يأمر رئيس المؤذنين بالدعاء لمن يريد الدعاء له من أسرته، وخير ما نستشهد به ما حدث في عام ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م، عندما أمر الشريف عجلان بن رميثة رئيس المؤذنين بالدعاء لابنه أحمد[٤]، في أثناء طواف ابنه، وكان هذا الأمر لتهيئة ابنه لتولي منصب رفيع في حكم مكة المكرمة[٥].

وكان الدعاء يشـمل أيضًا السـلطان التركي عندما يتقلد حكم الدولة عند توليته حيـث يصل إلـى مكة المكرمـة مرسـوم بإخبار النـاس بالحاكـم الجديد،

---

(١) المقريزي: السلوك،ج٤، مج١/ ٣٧١؛ السنجاري: منائح الكرم، ٣/ ٤٩.
(٢) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٥٦.
(٣) ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٧٨؛ السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص٢٨٨-٢٨٩.
(٤) هو أحمد بن عجلان بن رميثة بن أبي نمي الحسـني المكي، يكنى أبا سـليمان ويلقب بشهاب الدين، أمير مكة، ورئيس الحجاز، ولي إمرة مكة شريكًا لأبيه ومستقلًا، ثم شريكًا لابنه محمد، توفي عام ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م، ودفن بالمعلاة. الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٥٥-٦٢.
(٥) المصدر السابق، ٣/ ٥٦.

فيدعو المؤذن للسلطان من على قبة زمزم[١]، ومن ذلك ما حدث عندما تولى السلطان قايتباي حيث دُعي له على زمزم عندما وصل الخبر إلى مكة المكرمة.

٣ - بدعة الدعاء الذي كان يدعوه إمام الزيدية:

كان للزيدية عبادات وشعائر يؤديها أتباع ذلك المذهب ويعتقدونها، ويلتزمون بها ولا يرضون بديلًا عنها، شأنهم في ذلك شأن بقية المذاهب الشيعية، ومن ضمن تلك العبادات والشعائر التي اتخذها أتباع المذهب الزيدي والتزموا بها بعض الأدعية الخاصة التي يدعو بها إمامهم ويجاهر بها في المسجد الحرام، حيث كان يصلي بين الركنين: اليماني والحجر الأسود، فإذا صلى صلاة الصبح دعا بدعاء مبتدع مجاهرًا بصوته قائلًا: «اللهم صلِّ على محمد وعلى آل بيته المصطفين الأطهار، المنتخبين الأخيار، الذين أذهب الله عنهم الرِّجس وطهَّرهم تطهيرًا، اللهم انصر الحق والمحقين، واخذل الباطل والمبطلين؛ ببقاء ظل أمير المؤمنين، ترجمان البيان، وكاشف علوم القرآن، الإمام محمد بن المطهر بن يحيى بن رسول، الذي بالدين أحيا، إمام المتقين وحجاب الضالين، اللهم انصره، وشعشع أنواره، واقتل حُساده، واكبت أضداده..»[٢]. وإذا صلى صلاة المغرب دعا أيضًا بهذا الدعاء، وقد نصب له منبرًا في الحرم المكي يخطب عليه يوم العيد وغيره بمذهبه، وكل ذلك من البدع التي لا أساس لها من الصحة، حيث لم يرد هذا الدعاء في السنة النبوية، ولم يدعُ به الصحابة أو من سار على نهجهم من السلف الصالح.

وقد كان موقف العلماء والحكام من هذه البدعة موقفًا صارمًا وشديدًا،

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٨٢.

(٢) المصدر السابق، ٣/ ١٨٠؛ السنجاري: منائح الكرم، ٢/ ٣٤٢-٣٤٣.

حيث ضربوا بيد من حديد على أئمة المذهب الزيدي في المسجد الحرام، وقاموا بمنعه وإخراجه منه، ففي عام ٧٢٦هـ/ ١٣٢٥م كان السيد عطيفة منفردًا بإمرة مكة، فوصل إليه مرسوم من السلطان يقضي بإبطال مقام الزيدية، والإنكار عليه في ذلك، فدخل السيد عطيفة عند وصول المرسوم إلى المسجد الحرام وأخرج إمام الزيدية إخراجا عنيفًا(١).

وفي عام ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م، قُبض على إمام الزيدية أبي القاسم محمد بن أحمد اليمني، وكان يصلي في الحرم بطائفته مجاهرًا بذلك، كما نصب له منبرًا في الحرم، يخطب عليه يوم العيد وغيره بمذهبه، وضُرب ضربًا مبرحًا بالمقارع(٢)؛ ليرجع عن مذهبه فلم يرجع وسُجن، إلا أنه فرّ إلى وادي نخلة(٣). وفي السنة نفسها في الموسم ضرب الأمير عمر شاه عليًّا مؤذن الزيدية حتى مات(٤).

وفي عام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م، عقد لكبير الزيدية أبي القاسم بن محمد بن حسين الشُّقيف مجلس بحضرة القاضي عز الدين بن جماعة(٥)، واسُتتيب فيه، وكتب بخطه أنه يبرأ إلى الله من اعتقاد أهل البدع من الزيدية والإمامية، وأنه

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٥/ ٢١٤؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ١٨٤.

(٢) المقرعة: التي تُضرب بها الدابة، والمقرعة خشبة تُضرب بها البغال والحمير، وقيل: كل ما قُرع به فهو مقرعة. ابن منظور: اللسان، ٥/ ٢٣٨.

(٣) وادي نخلة: وادٍ من الحجاز بينه وبين مكة مسيرة ليلتين، إحدى الليلتين من نخلة يجتمع بها حاج اليمن وأهل نجد ومن جاء من قبل الخط وعمان وهجر يبرين فيجتمع حاجهم بالبوباءة وهي أعلى نخلة وهي تسمى نخلة اليمانية وتسمى النخلة الأخرى الشامية. البلادي: معجم معالم الحجاز، ٩/ ٤٦.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٦١-٢٦٢؛ السنجاري: منائح الكرم، ٢/ ٣٦٣-٣٦٤.

(٥) عز الدين بن جماعة: هو عبدالعزيز بن محمد بن إبراهيم بن جماعة الكناني الشافعي، حموي الأصل، ولد عام ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م، ولي قضاء الديار المصرية، وجاور بالحجاز، مات بمكة عام ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م، ومن كتبه «هداية السالك إلى المذاهب الأربعة في المناسك». السنجاري: منائح الكرم، ٢/ ٣٦٤؛ الشوكاني: البدر الطالع، ١/ ٣٥٩.

يواظب على الجمعة والجماعة، وإن خرج عن ذلك جعل فيه ما تقتضيه الشريعة المطهرة، كما حضر في السنة نفسها أبو القاسم محمد بن أحمد اليمني إمام الزيدية - الذي فرَّ في عام ٧٥٤هـ - إلى القاضي عز الدين بن جماعة تائبًا مما كان عليه من مذهب الزيدية، فعقد له مجلس بالحرم الشريف، حضره أمير الركب وعامة أهل مصر ومكة، وأشهدهم أنه رجع عن مذهب الزيدية، كما أعلن مواظبته على صلاة الجمعة والجماعة مع أئمة الحرم، وإن خرج عن ذلك فُعل به ما تقتضيه الشريعة، وكتب ذلك بخطه[١]، وكان سبب عودته وتوبته خوفًا من أن يحصل له ما حصل لعلي مؤذن الزيدية الذي ضربه الأمير عمر شاه حتى مات[٢].

وهكذا يتضح لنا مدى تأثير الأمراء والسلاطين في المجتمع المكي، ودورهم البارز في القضاء على كل ما يظهر من بدع دخيلة على الدين الإسلامي، حيث كانوا يقمعونها ويقضون عليها ويزيلونها من بيت الله الحرام، فللَّه الحمد على ذلك أولًا وأخيرًا.

٤ - بدعة العروة الوثقى:

ابتدع بعض الجهلة في الكعبة المشرفة أمريْن باطليْن عظم ضررهما على العامة، أحدهما العروة الوثقى، حيث عمدوا إلى موضع عال من جدار البيت المقابل لباب البيت فسمّوه بالعروة الوثقى، وأوقعوا في قلوب العامة، وفي العقول الضعيفة أن من ناله بيده فقد استمسك بالعروة الوثقى، فألجأهم ذلك إلى أن يقاسوا بالوصول إليها شدة وعناء، وقد أعدُّوا داخل البيت الشريف كرسيًا من الخشب الساج، فينصبونه؛ ليتمكن من الصعود عليه من دفع إليهم شيئًا، ويركب بعضهم

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٦٥-٢٦٦؛ السنجاري: منائح الكرم، ٢/ ٣٦٣-٣٦٤.
(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٢٦٥.

فوق بعض، وربما صعدت الأنثى فوق الذكر ولامست الرجال ولامسوها فلحقهم بذلك أنواع من الضرر في الدنيا والدين، وارتكبوا بذلك أشنع المحرمات(١).

وقد ظهرت هذه البدعة منذ النصف الأول من القرن السابع من الهجرة، حيث ذكرها كثيرٌ من الرحالين الذين زاروا المسجد الحرام؛ كابن رشيد الذي كان في مكة عام ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م، والتجيبي الذي زار الحجاز في عام ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م، وقد حذر التجيبي من هذه البدعة، وذلك عندما دعاه أحد العوام ليركب على ظهره حتى يلامس العروة الوثقى، فزجره عن ذلك ونهاه وبيّن له أنها بدعة وضلالة(٢).

زوال البدعة:

لقد أنكرها علماء المسلمين في هذه الحقبة وحاربوها حتى أزيلت(٣).

وقد بيّن التجيبي أن العروة الوثقى التي فرض الإسلام على الناس الالتزام بها هي كلمة لا إله إلا الله(٤)، حيث قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ﴾(٥) أي لا انقطاع لها.

---

(١) ابن الصلاح: أبو عمرو بن عثمان بن عبدالرحمن، صلة الناسك في صفة المناسك، تحقيق محمد عبيد، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م، ص١٢٧؛ ابن رشيد: ملء العيبة، ٥/ ٢٦٤؛ التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٦٤؛ أبو علفة: رائد بن صبري، معجم البدع، ط١، دار العاصمة – الرياض، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ص٤٠١.

(٢) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٦٤؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ١٣٣؛ العبدلي: إمارة الحاج، ص٢٨٢.

(٣) المقريزي: السلوك، ج٢، مج١/ ١٢؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ١/ ٣٠٢.

(٤) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٦٤..

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

٥ - بدعة سرّة الدنيا:

البدعة الثانية التي ابتدعت في الكعبة المشرفة بعد العروة الوثقى هي سرة الدنيا، وهي عبارة عن مسمار في وسط البيت سموه «سُرَّة الدنيا»، وحملوا العامة على أن يكشف أحدهم عن سرته وينبطح بها على ذلك الموضع حتى يكون واضعًا سرته على سرة الدنيا بزعمهم[١]، والغرض من هذه البدعة والتي قبلها أخذ أموال الناس بالباطل، بحيث يجلس أحد الشيبيين بإزاء هذا المسمار المسُمّى بسرة الدنيا ويضع يده عليه، ولا ينحّيها إلا أن يدفع إليه شيء من المال، والعامة من ضعاف القلوب والعقول تزدحم على هذه البدعة وأشباهها[٢].

زوال البدعة:

أزيلت هذه البدعة في عام ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م، وذلك عندما سعى الأمير بيبرس الجاشنكير[٣] عند الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب مصر بأن بمكة المكرمة جملة من البدع المنكرة في الدين ومن ضمنها سرة الدنيا، فكتب صاحب مصر صحبة أمير الركب يأمر الأشراف أبا الغيث وعطيفة أمراء مكة ألا يمكنوا أحدًا من مس المسمار الذي في الكعبة والذي عُرف بسرَّة الدنيا، وقد حصل بهذه البدعة وبدعة العروة الوثقى كثيرٌ من المفاسد القبيحة، حيث ظلت العوام متعلقة بها، ومعتقدة فيها، وقد كان الفضل بعد الله أولًا وأخيرًا في زوال

---

(١) ابن الصلاح: صلة الناسك، ص١٢٧؛ الطبري: القرى قاصد أم القرى، ص٥٠٢؛ ابن رشيد: ملء العيبة، ٥/ ٢٦٥؛ محفوظ: الإبداع في مضار الابتداع، ص١٦٥.

(٢) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٦٤-٢٦٥.

(٣) هو: بيبرس البرجي العثماني الجاشنكير، الملك المظفر، كان من مماليك المنصور قلاوون، وترقى إلى أن قرره جاشنكير، حج بالناس في عام ٧٠١هـ/ ١٣٠١م، ولما حج قلع المسمار المسمى بسرة الدنيا. ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، ١/ ٥٠٣.

هذه البدعة للسلطان محمد بن قلاوون، إضافة إلى الدور البارز الذي قام به أمراء مكة وأشرافها من التعاون مع السلطان والقضاء على هذه البدعة المضلة(١).

سبب هذه البدع وموقف الناس منها:

إن السبب الرئيس لظهور هاتين البدعتين «العروة الوثقى – سرة الدنيا» في أشرف بقاع الأرض أن السدنة الشيبيين أو من أراد ذلك منهم، أراد أن يحتال على من له مال من حجاج بيت الله الحرام، فيأخذه منه، فابتدع أمر العروة الوثقى وسرة الدنيا وأمر الناس بأن يكشفوا بطونهم -كما سبقت الإشارة إليه- فإذا وافقهم على ذلك ظهرت المنطقة التي يضع فيها ماله فيعلم ما عنده، ثم إذا رفعوه على رقابهم إلى الكوة المذكورة أو الكرسي المذكور في العروة الوثقى تحيلوا في حل منطقته، أو في المنطقة التي يضع فيها ماله حول بطنه، وأخذوها بجملتها أو ما أمكن لهم أخذه، لعلمهم أنه مشغول بالوصول إلى العروة الوثقى، أما إذا كان فطنًا يلحون عليه في الطلب حتى يدفع لهم شيئًا مما عنده، ولم يكن السدنة في قديم الزمان يتعرضون لأحد من الحجاج، ولا يكاد يقبلون من أحد شيئًا إذا عرضه عليهم، ولا يغترون بشيء من طعام الدنيا(٢).

إذن يتضح لنا أن الداعي لظهور هاتين البدعتين المحدثتين في الدين الإسلامي، الحاجة الشديدة إلى المال، نسأل الله السلامة من الوقوع في هذه البدع وتطهير البيت العتيق منها، وبسط الرزق على الشيبيين حتى يغنيهم عن هذا التكسب الشنيع(٣).

---

(١) المقريزي: السلوك، ج١، مج٣/ ٩٤٠-٩٤١؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ١٣٦-١٣٧.
(٢) التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٦٥.
(٣) المصدر السابق، ص٢٦٤-٢٦٥؛ نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص٢١٥.

والدليل علـى أن هذه الأمور مـن البدع، عدم وجودهـا زمن زيارة ابـن جبير لمكـة المكرمـة، ورغم أنها كانـت موجودة زمـن وجـود العبدري في مكة، إلا أنه لم يشـر إليها، إنما ذكر أن القائمين على الكعبة المشرفة لا يسمحون لأحـد أن يدخلهـا إلا بعـد أن يدفع شـيئًا من المـال عند بابهـا[1]. والمشـاهد أن هاتين البدعتين لقيتـا إقبالًا كبيرًا من الناس، وخصوصـاً الجهلة وضعاف العقول والقلـوب، حيـث عَدُّوهـا حقيقة مسـلَّمًا بهـا، لا تقبل الشـك أبـدًا، ولعل بعض ضعاف النفـوس وأصحاب العقائد الفاسـدة اسـتغلوا بعض الجهـال من حجاج بيت الله الحـرام، حيث روّجوا تلك الشـائعات وعملـوا على انتشـار هذه البدع الضالة والمضلة، رغبة منهم في جلب المال بأي شـكل من الأشكال، والتكسب من هؤلاء الجهلـة، فعملوا جاهدين على جلب الناس لما يُسـمى بالعروة الوثقى وسُرَّة الدنيا والتصديق بهما.

والجدير بالذكر أن ممارسـة مثل هذه البدع في أقـدس بقاع الأرض، يعدُّ انتهـاكاً صريحاً لحرمات بيت الله الحرام، وعدم احترام قدسـيته، حيث اسـتغلوا أقدس البقاع وأشرفها لممارسـة أعمال النصب والاحتيال، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

٦ - بدعة ليلة النصف من شعبان:

من البدع المحدثة في الدين الإسـلامي بدعة الاحتفـال بليلة النصف من شـعبان، حيث يبادرون فيها إلى أعمال البر والخير من الطواف والصلاة والعمرة أفرادًا وجماعات، فيجتمعون في المسـجد الحرام جماعات، لـكل جماعة إمام، ويوقدون السـرج والمصابيح والمشـاعل، ثـم يصلون مئة ركعة يقـرؤون في كل ركعة فاتحة الكتاب وسـورة الإخلاص، يكررونها عشـر مـرات، وطائفة التزمت

(١) العبدري: الرحلة المغربية، ص١٧٦؛ نواب: الرحلات المغربية والأندلسية، ص٢١٥.

الحجر المبارك للصلاة على انفراد، في حين آثر بعضهم الآخر الاعتمار، وطائفة آثرت الطواف على هذا كله، أغلبها المالكية[١].

ولا شـك أن قيام ليلة النصف من شـعبان وإيقاد المشاعل والمصابيح فيهـا، وصلاة سـت ركعات فـي ليلـة النصف بنيـة دفع البـلاء، وطـول العمر والاسـتغناء عن النـاس وقراءة سـورة يـس، والدعـاء في هـذه الليلـة، بدعاء مخصـوص بقولهم «اللهم يا ذا المن، ولا يمن عليه، يـا ذا الجلال والإكرام»، حدث في الدين الإسـلامي، وبدعة مخالفة لسـنة سـيدنا محمـد ﷺ، لما فيها مـن المنكـرات والمعاصي الظاهـرة والباطنـة، كإيقاد المشـاعل والمسـارج، وتكرار بعض السور كسورة الفاتحة وسورة الإخلاص عشر مرات، وارتكاب أشـنع المحرمات وأقبحها باسـم الديـن؛ كخروج النسـاء في هـذه الليلة، بل وخروجهن إلى القبـور مع بعضهن الدف يضربن بـه، وبعضهن يغنين بحضرة الرجـال ورؤيتهم لهـن، زاعميـن أنهن مـا خرجـن إلا للعبـادة، وزيـارة قبور الأولياء والعلماء والصالحين، وهنا يحدث الانكشاف والاختلاط بين الرجال والنساء[٢].

ويعود أصل هـذه البدعة إلى عام ٤٤٨هــ/ ١٠٥٦م، حيث قدم رجل من نابلس يُعـرف بابن أبي الحمـراء إلى بيت المقـدس، وكان ابـن أبي الحمراء هذا حسـن التلاوة، فقام يصلي في المسـجد الأقصى ليلة النصف من شعبان، فصلَّى خلفه رجل، ثم انضاف إليهما ثالث ورابع، فما ختم هذه الصلاة إلا وهم جماعة كثيرة، ثم جاء فـي العام القابل، فصلى معه خلق كثير، فشـاعت هـذه الصلاة في

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١١٩-١٢٠؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٨٣.
(٢) ابن الحاج: أبو عبدالله محمد، المدخل، ط١، المطبعة المصرية بالأزهر، ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م، ١/ ٣١٠-٣١١.

المسجد، وانتشـرت في المسـجد الأقصى وبيوت الناس ومنازلهم، ثم استقرت كأنها سنة(١).

وهكذا يتضح لنا أن هذه البدعة المضلة أول ما ظهرت في المسجد الأقصى، ثم مـا لبثت أن انتشـرت في جميـع المسـاجد والمنـازل، وأصبحت كأنها سـنة عن الرسول ﷺ، رغم أنه لم يرد ما يؤكد أن الرسـول ﷺ فعل ذلك أو أحداً من أصحابه من بعده، وهذا ما يدل على أنها بدعة محدثة، لا أصل لها في الدين الإسلامي.

ويُعتقد أن أول من أحدث إيقاد النار والشـموع في هـذه الليلة، البرامكة، فأدخلوا فـي دين الله ما أوهموا به العوام وضعاف القلوب أنه من سـنن الإيمان، ومقصودهم عبادة النار، وترويج دينهم، فعليهم وزر ذلك(٢).

موقف العلماء من هذه البدعة:

لقد وقف كثيرٌ من العلماء من هذه البدعـة موقف المنكر، وقد أنكر ذلك أكثر العلماء مـن أهل الحجاز. كمـا أنكر ذلك فقهـاء المدينـة وأصحاب مالك، وقالـوا: إن كل ذلـك بدعـة محدثة فـي الدين الإسـلامي، ولـم يثبت فـي قيامها جماعة شيء عن الرسـول ﷺ ولا عن أصحابه(٣)، وهكذا فإن صلاة ليلة النصف من شعبان بدعة منكرة قبيحة، أحدثها الجهلة في الدين الإسلامي.

---

(١) الطرطوشـي: أبو بكر محمد بن الوليد، الحوادث والبدع، تحقيـق عبدالمجيد تركي، ط١، دار الغرب الإسـلامي، ١٤١٠هــ/ ١٩٩٠م،ص٢٦٦-٢٦٧؛ أبو شـامة: عبدالرحمن المقدسـي، الباعث علـى إنـكار البدع والحـوادث، تحقيق بشـير عيـون، ط١، مكتبـة المؤيـد – الطائف، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص٥٠-٥١.

(٢) محفوظ: الإبداع في مضار الابتداع، ص١٤٢؛ أبو علفة: معجم البدع، ص٣٠٠.

(٣) ابن رجب الحنبلي: زيـن الدين أبو الفرج، لطائف المعارف فيما لمواسـم العـام من الوظائف، ط١، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص١٦١؛ الشقيري: محمد عبدالسلام، السنن والمبتدعات، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، ص١٣٣.

وروى ابن وضاح عن زيد بن أسلم قال: «ما أدركنا أحدًا من مشيختنا ولا فقهائنا يلتفتون إلى ليلة النصف من شعبان، ولا يلتفتون إلى حديث مكحول، ولا يرون لها فضلًا على سواها»(١).

وقد ذكر القرطبي في كتابه(٢) ما يدل على أنها بدعة لا أساس لها قائلاً: «حدثنا ابن وضاح قال: حدثنا ابن أبي مريم قال: حدثنا نعيم بن حماد قال: حدثنا عبدالرزاق عن معمر عن ابن أبي مليكة قال: قيل له: إن زياد النميري يقول: إن ليلة النصف من شعبان أجرها كأجر ليلة القدر، فقال ابن أبي مليكة: لو سمعته منه وبيدي عصا لضربته بها، وكان زياد قاصًا».

ويرى بعض الباحثين والمؤرخين أن ما أوقع الناس في هذه البدعة القبيحة المضلة هو اعتمادهم على جملة من الأحاديث الضعيفة والموضوعة منها:- ما أخرجه ابن ماجه في سننه عن علي ﷺ أن النبي ﷺ قال: «إذا كان ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلتها وصوموا يومها»(٣).

وعن عائشة ﷺ، عن النبي ﷺ: «إن الله ينزل ليلة النصف من شعبان إلى السماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم بني كلب»(٤).

ومما يدعم هذا القول ويقويه ما ذكره أبو شامة نقلًا عن الحافظ ابن دحية: «قال أهل التعديل والتجريح: ليس في حديث ليلة النصف من شعبان حديث يصح، فتحفظوا عباد الله من مفترٍ يروي لكم حديثًا «موضوعًا» يسوقه في معرض الخير، فاستعمال الخير ينبغي أن يكون مشروعًا من الرسول ﷺ، فإذا

(١) أبو شامة: الباعث على إنكار البدع والحوادث، ص٥١.
(٢) القرطبي: محمد وضاح، البدع والنهي عنها، تحقيق محمد دهمان، ط٢، دار البصائر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٤٦.
(٣) أبو شامة: الباعث على إنكار البدع والحوادث، ص٥٣.
(٤) المصدر السابق، ص٥٣.

صح أنه كذب خرج من المشروعية وكان مستعمله من خدم الشيطان؛ لاستعماله حديثاً على رسول الله ﷺ لم ينزل الله به من سلطان»[١].

وهكذا يتضح لنا أن الاحتفال بليلة النصف من شعبان من البدع المحدثة في الدين الإسلامي، بدعة ليس لها أصل صحيح، وكل ما ورد في فضلها أحاديث ضعيفة لا يجوز الاعتماد عليها، لأن كل شيء لم يثبت بالأدلة الشرعية كونه مشروعًا، لم يجز للمسلم أن يحدثه في دين الله، سواء فعله مفردًا أو في جماعة، وسواء أسرّه أو أعلنه، لعموم قول النبي ﷺ «من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»[٢] ولو شرع تخصيص ليلة النصف من شعبان باحتفال أو شيء من العبادة؛ لأرشد النبي ﷺ الأمة إلى ذلك، أو فعله بنفسه، ولو وقع شيء من ذلك لنقله الصحابة إلى الأمة، ولم يكتموه عنهم، وهم خير الناس، ومن ثم فإن الاحتفال بليلة النصف من شعبان بدعة محدثة في الإسلام، وتخصيصها بشيء من العبادة بدعة منكرة[٣].

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية عن صلاة نصف شعبان فأجاب قائلًا: «إذا صلى الإنسان ليلة النصف وحده أو في جماعة خاصة كما كان يفعل طوائف من السلف، فهو أحسن، وأما الاجتماع في المساجد على صلاة مقدرة كالاجتماع على مئة ركعة، بقراءة ألف: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ دائمًا، فهذا بدعة لم يستحبها أحد من الأئمة. والله أعلم»[٤].

---

(١) أبو شامة: الباحث على إنكار البدع والحوادث، ص٥٢.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، ٣/ ١٣٤٤.

(٣) ابن باز: عبدالعزيز بن عبدالله، مجموع فتاوى ومقالات متنوعة، مكتبة المعارف – الرياض، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م، ١/ ١٩٢، ١٩٤، ١٩٧.

(٤) ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن عبدالحليم، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد، مكتبة المعارف – الرباط، د. ت، ٢٣/ ١٣١.

كما ذكر رحمه الله أن جميع الأحاديث المذكورة في فضلها إنما هي أحاديث موضوعة، ولم يستحبها أحد من أئمة الدين[١].

كما بيّن النووي أن صلاة الرغائب المعروفة في أول ليلة جمعة من رجب، بدعة قبيحة ومنكرة، يتعين تركها والإعراض عنها، بل يجب على ولي الأمر منع الناس من فعلها وحذَّر الناس من ألا يغتروا بكثرة الفاعلين لها؛ لأن الرسول ﷺ قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[٢]، وقياسًا عليه فإن قيام ليلة النصف من شعبان بدعة منكرة، لا أساس لها في الدين الإسلامي.

٧ - بدعة إخراج المصحف في حالة وجود قحط:

من عادة أهل مكة في حالة وجود قحط، إخراج مصحف مكتوب بخط زيد بن ثابت[٣] الصحابي الجليل، وقد كان هذا المصحف في خزانة في القبة العباسية أو قبة الشراب، وهو لأحد الخلفاء الأربعة، وقيل إنه مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه، منتسخ سنة ثماني عشرة من وفاة الرسول ﷺ، تنقص منه ورقات كثيرة، وهو بين دفتي عود مجلّد بمفاليق من صُفر، كبير الورقات، وكان أهل مكة إذا أصابهم القحط أخرجوه من القبة المذكورة، وفتحوا باب الكعبة ووضعوه في القبة مع المقام، ثم يجتمع الناس وهم كاشفون رؤوسهم داعين ومتضرعين، ومتوسلين بالمصحف حتى يتداركهم الله برحمته[٤].

---

(١) ابن تيمية: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ٢٣/ ١٣٤.

(٢) مسلم: صحيح مسلم، ٣/ ١٣٤٣؛ النووي: أبو زكريا محيي الدين بن شرف، فتاوى الإمام النووي المسماة بالمسائل المنثورة، مطبعة التوفيق - دمشق - ١٣٤٨هـ، ص٢٦.

(٣) هو زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد الأنصاري، الخزرجي، عندما قدم النبي ﷺ إلى المدينة كان عمره ١١ سنة، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحي وغيره، وكان أعلم الصحابة بالفرائض، توفي عام ٤٥هـ/ ٦٦٥م. ابن الأثير: أسد الغابة، ٢/ ١٢٦-١٢٧.

(٤) ابن جبير: الرحلة، ص٨٠؛ التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٣٢٧؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٥٩؛ السليمان: العلاقات الحجازية المصرية، ص٢١٥.

والواقـع أن هذه العـادة بدعة محدثة في الدين الإسـلامي، لا أسـاس لها من الصحـة؛ لأن الوارد في السـنة أنه فـي حالة القحـط والجدب يسـارع الناس إلى إقامة صلاة الاستسـقاء والتضرع إلى الله سـبحانه وتعالى وطلب الغيث منه، وعادة يجتمع الناس لإقامة هذه الصلاة في أماكن خارج البلد لأجل السـعة، كما يقومون بالاسـتغفار والتوبة والإقلاع عن الذنوب، وطلـب الصفح والمغفرة من الله تعالى، وهذا ما دعا إليه الرسول ﷺ وسار عليه الصحابة والتابعون من بعده.

٨ - بدعة الوقيد على المقامات الأربعة:

من عـادة أهل مكـة إيقاد مشـاعل المقامـات التي بالمسـجد الحـرام في الأوقات التي جرت العادة بها في العشـر الأواخر من رمضان، وليلة العيد، وليلة هلال شـهر رجب، وليلة هلال شـهر ربيع الأول وغيرها، وهذا ما عُرف بالوقيد، وعادة يجتمع الرجال والنسـاء لرؤيته وبذلك يحدث اختلاط بينهما، كما يحدث للمصلين والطائفين تشويش، بسبب اجتماع الناس لرؤية الوقيد[١].

وهذه بلا شـك بدعة محدثة فـي الدين، حالهـا في ذلك حـال غيرها من البدع، التـي أحدثها بعض الجهلة، حيـث لم يرد أن الرسـول ﷺ أو أصحابه من بعده كانوا يفعلون ذلك، كمـا أن بعض الأمراء والحكام سـعوا جاهدين لإزالتها والقضاء عليهـا، وذلك لما فيهـا من المنكرات الشـنيعة التي ترتكب في أشـرف بقاع الأرض كاختلاط الرجال بالنساء والتشويش على المصلين والطائفين.

زوال البدعة:

سـعى الأمير تغري برمش لإزالة هـذه البدعة ومنعها، وقد اسـتطاع ذلك

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٢٥٢؛ ابن الضياء القرشـي: أبو البقاء أحمد، مختصر تنزيه المسجد الحرام عن بـدع الجهلة العوام، ط١، دار البشـائر الإسـلامية - بيـروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص١٨؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٢٧-٥٢٨؛ السنجاري: منائح الكرم، ٢/ ٤٢١.

في عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، بعد أن وافقه على ذلك جماعة من فقهاء مكة وكتبوا له خطوطهم بذلك، كما كتب له بمثل ذلك غيرهم من علماء القاهرة، ولكن إزالة هذه البدعة لم يدم طويلًا، فما لبثت أن عادت مرة أخرى، وقد نال تغري برمش بسببها إيذاء من بعض الجهلة وأصحاب الهوى من العلماء، حيث إن بعض فقهاء مكة بعد أن وافقوا على إزالة هذه البدعة، قالوا بخلاف ما كتبوا، لمخالفة تغري برمش لهم في هواهم، وسعى بعضهم عند بعض حكام مكة من جهة الدولة في الإذن في إيقاد المشاعل، والمديح في ليلة هلال رجب من عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م، فوافق الحاكم على ذلك، ولما عرف تغري برمش بالوقيعة خرج من منزله بالمدرسة المجاهدية بمكة لمنع ذلك، ولم يكن له علم بموافقة الحاكم على ذلك - فناله من العامة أذى عظيم ولولا دفع من يعرفه من الترك عنه، لكثر تضرره مما ناله، وكان ذلك في غيبة صاحب مكة، فلما عاد إليها وعلم بما حصل أنكر على من أمر بعودة هذه البدعة من جهته، وأمر باتباع تغري برمش في ذلك، فلم يتجاسر أحد على مخالفة ذلك[1].

وهكذا، وفق الله الحكام إلى إبطال هذه البدعة والقضاء عليها، وإحقاق الحق، كما يتضح لنا. بشكل جليٍّ أن بعض البدع والمحدثات كانت تحدث من غير علم صاحب مكة، ولكن بمجرد علمه ومعرفته بهذه البدع، يتخذ الإجراء اللازم لإزالتها وإلغائها في الحال، كما أن هذه البدع غالبًا ما تجد تأييدًا من بعض الجهال والعوام وممن تزيّا بزيّ العلم.

٩ - بدعة الاحتفال بختم القرآن:

من عادة أهل مكة الاحتفال بأولادهم عند ختم القرآن حفظًا وتجويدًا،

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٢٥٢-٢٥٣؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٥٠-٥٥١؛ السنجاري: منائح الكرم، ٢/ ٤٢٥؛ معتوق: علم الحديث في مكة المكرمة، ص٣٩-٤٠.

ويقام ليلة الختم احتفالٌ عظيمٌ في المسجد الحرام، وتضاء لذلك الشموع وتوقد الثريات، وتزداد الإضاءة في محرابه حتى لا يكاد يُرى من شدة الأنوار[١].

وقد يفعلون ما هو أشد من ذلك، فنرى أن المؤذنين يجتمعون في تلك الليلة في موضع الختم فيكبرون جماعة، بل زادوا على ذلك ما هو أشد قبحًا، فإذا خرج القارئ من الموضع الذي صلى فيه أتوه ببغلة أو فرس ليركبها، ثم تختلف أحوالهم في ذهابه؛ فمنهم من يقرأ القرآن بين يديه، والمؤذنون يكبرون بين يديه، ومنهم من يقوم بالإنشاد والغناء، وبعضهم يضيف ضرب الطبل والأبواق والدف، ثم بعد ذلك يعملون أنواعًا من الأطعمة والحلاوات[٢].

وخير ما نستشهد به في هذا المقام ما حدث في عام ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م، عندما صلى البدر بن كاتب السر[٣] بالناس التراويح في شهر رمضان في مقام الحنفي، وكان ذلك في أثناء مجاورة والده، ومدّ والده للناس سمط حلوى ليلة الختم بزيادة دار الندوة، وفرَّق صدقته على الفقهاء[٤].

كما تم الاحتفال أيضًا في عام ٨٨٢هـ/ ١٤٧٧م، عندما صلّى الشريف

---

(١) ابن فهد: إتحاف الورى، انظر مقدمة المحقق، الباز، ٤/ ٦٩؛ انظر أيضًا الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٤٥٥.

(٢) ابن الحاج: المدخل، ٢/ ٣٠٠-٣٠١.

(٣) هو محمد بن أبي بكر بن محمد البدر بن الزين بن البدر الأنصاري الدمشقي الأصل القاهري الشافعي، يعرف كسلفه بابن مزهر، ولد عام ٨٦٠هـ/ ١٤٥٥م أكمل حفظ القرآن ثم صلى به بمقام الحنفية من المسجد الحرام في سنة ٨٧١هـ/ ١٤٦٦م لما حج به والده في الرجبية بملاحظة فقيهه الشمس بن قاسم والمنهاج وجمع الجوامع وغيرها، ناب عن والده في كتابة السر بالديار المصرية، ولم يذكر تاريخ وفاته. السخاوي: الضوء اللامع، ٧/ ١٩٧.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٤٧٤.

هيزع بـن محمد بن بـركات[١]، فعُلقت القناديـل وأوقدت الشـموع، وكان يخرج من بيته كل ليلـة من ليالي رمضـان بالزفّة، بصحبـة جماعة من الأعيـان والقضاة والفقهاء، وفي ليلة الختم زُفَّ راكبًا من البيت إلى باب الصفا، ثم إلى المسعى ثم إلى باب السلام، وعند دخوله المسجد الحرام، أوقدت الشموع وزيد في الوقيد، وأنشـد المنشـدون خلف الختم، ووزع والـده الأعطيات والهدايـا على موظفي المسـجد الحرام، كما فرّق علـى القضاة والفقهـاء والتجـار والأمـراء وغيرهم، أصنافًا عدة من الحلاوات[٢].

وكلمـا كان المختتـم للقـرآن أحـد أبناء مكـة الأثريـاء أو أحـد أصحاب المناصب الإدارية أو الشرعية كان الاحتفال كبيرًا وذا فخامة وأبهة.

ولـم تشـر المصـادر التاريخيـة إلى بدء هـذه العـادة أو البدعـة - إن صح التعبيـر - إلا أنهـا لم تسـتمر، وإن كانت تـدل دلالـة واضحة على مـدى اهتمام أهـل مكة بتشـجيع أولادهم علـى تعلم القـرآن وحفظـه وتعويدهم علـى تحمل المسـؤولية، إلا أنهـا بدعـة محدثة فـي الدين الإسـلامي، حيث ترتكـب في ليلة الختـم أشـد المنكـرات - كمـا سـبقت الإشـارة إليـه - كمـا أن فيهـا الكثير من الإسـراف والتكلف، وهذا مـا لا يطيقه مـن كان ذا ضائقة مالية، وهـذا ما يحدثنا به ابن الحاج قائلًا: «لقد رأيت بعض المشـايخ عمل لولـده ختمًا ببعض ما ذكر، فلما جاءت السـنة الثانية سـألته عن ولده فـي أي موضع صلَّى القيـام، فقال لي:

---

(١) هو هيزع بن محمد بن بركات بن حسـن بن عجلان الحسـني، ابن صاحب الحجـاز، ولد عام ٨٦٩هـ/ ١٤٦٤م، وقيل: إنه ولد ببدر في أثناء رجوع والده من المدينة عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م، حفظ القرآن، وصلى به بالناس في المسـجد الحرام عام ٨٨٢هــ/ ١٤٧٧م، بين مقام المالكي والحنبلـي، مـات فـي ذي القعـدة، فـي عـام ٨٩٤هــ/ ١٤٨٨م. السـخاوي: الضـوء اللامع، ١٠/ ٢٠٩.

(٢) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٦١٨-٦١٩.

أنا منعته من القيـام فقلت له: ولم؟، قـال: لأن الأصحاب والإخـوان والمعارف يطالبوننـي بالختـم، فأحتاج إلى كلفـة كثيرة. فانظر إلى شـؤم البـدع كيف جرّت إلى ترك الطاعات وترك المحافظـة على حفظ الختمة؛ لأن الصبي إذا كان يصلي بالقرآن في كل سنة بقيت الختمة عليه ولـم ينسها في الغالب»[١].

إذن يتضح مما سـبق أن ما يحدث في ليلة ختم القرآن كله من البدع التي لا أصل لها في السـنة ولا أسـاس لها من الصحة، بل إن كل مـا يحدث من إيقاد وإنشاد، واحتفال، يؤدي إلى اختلاط الرجال بالنساء، والتشويش على المصلين، كما يؤدي إلى كثرة اللغط في المسـجد ورفع الأصوات والخوض في أشياء ينزه المسـجد عـن بعضها في غيـر رمضان، فما بالك بشـهر هـو من أفضل الشـهور، والطامـة الكبـرى أنهـم يفعلـون كل ذلـك وفـي اعتقادهم أنـه من إظهار شـعائر الإسـلام، وهو ليس من الإسلام في شـيء، لكونه لم يكن من فعل من مضى من الصحابة والتابعين.

١٠ - بدعة الفرقعة الخطيبية:

وتكون هذه الفرقعة في شـهر رمضان، في صـلاة التراويح، حيث يصلي كل إمـام بطائفتـه، ولكن الشـافعي يكون أكثـر الأئمة اجتهـادًا، وذلـك أنه يكمل التراويـح المعتادة، التي هي عشـر تسـليمات ثم يدخل الطواف مـع جماعة، فإذا فرغ من الأسـبوع، ضربـت الفرقعة الخطيبية[٢]، ضربة يسـمعها من في المسـجد الحـرام، لعلو صوتهـا، وكأنها إيذان بالعـودة إلى الصلاة، ثم يصلـي ركعتين، ثم يطوف أسـبوعًا فإذا أكملوه، ضربـت الفرقعة، مـرة أخرى، وهكذا إلـى أن يتموا

(١) ابـن الحـاج: المدخـل، ٢/ ٣٠١، ولمزيد مـن التفصيل في هـذه البدعة، انظر المصدر نفسـه، ٢/ ٣٠٠-٣٠٥.

(٢) هذه الفرقعة التـي تكون بين يدي الخطيب يوم الجمعة، انظر الفصـل الأول، الوظائف الدينية، المبحث الثالث، الخطيب، ص ٨١.

عشرين ركعة، ثم يصلون الشفع والوتر وينصرفون وسائر الأئمة لا يزيدون على ذلك شيئًا، والمتناوبون لصلاة التراويح خمسة أئمة، أولهم إمام الفريضة[١].

وهذه الفرقعة تستعمل في شهر رمضان المبارك، وعادة يُضرب بها ثلاث ضربات عند الفراغ من أذان المغرب، ومثلها عند الفراغ من أذان العشاء الآخرة، وهي بلا شك من جملة البدع المحدثة في المسجد الحرام[٢].

وهكذا يتضح لنا أن هذه الفرقعة على الرغم من أنها وسيلة من وسائل تنبيه الناس للعودة للصلاة، يستخدمها الإمام لذلك، كما يستخدمها الخطيب في يوم الجمعة، حيث يضرب بها على درج المنبر ثلاث ضربات، إلا أنها عُدَّت من البدع في الحرم المكي، وهذا ما بينه الرحالون في كتبهم، ومن خلال زيارتهم للمسجد الحرام، حيث ذكر ابن جبير ذلك قائلًا: «وهي لا محالة من جملة البدع المحدثة في هذا المسجد المعظم، قدَّسهُ الله»[٣].

ولعل عَدَّها بدعة؛ لكونها لم تكن قبل ذلك، ولم يرد في السنة ما يدل عليها أو أن الرسول ﷺ والصحابة من بعده فعلوا ذلك، كما نرى أنها زالت وانتهت.

١١ - بدعة الطواف بالميت حول الكعبة:

من العادات المتبعة في مكة المكرمة، بل من البدع السائدة فيها في العصر المملوكي، الطواف بالميت حول الكعبة سبعة أشواط، بعد غسله وتكفينه، وقبل أن يُدفن، وقد كان هذا الأمر خاصاً بعلية القوم من الأمراء

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٢-١٢٣؛ ابن بطوطة: الرحلة، ١/ ١٨٤؛ حلاق: مكة المكرمة، ص١٦٥.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٢-١٢٣؛ حلاق: مكة المكرمة، ص٨١.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص١٢٢-١٢٣.

والعلماء والقضاة وأشراف مكة المكرمة، ولم يكن هذا الفعل أو هذه البدعة - إن صح التعبير - محدثة في العصر المملوكي، بل ورد ما يؤكد أن ذلك حدث قبل عهد المماليك ففي عام ٥٠٤هـ/ ١١١٠م، طيف بالشيخ أبي بكر أحمد بن علي بن أحمد العلثي[١].

وقد كان العلماء على علم بعدم صحة ذلك، ولكنهم اعتادوا أن يُعمل ذلك بعلية القوم، فسُكت عنه، وخير ما نستدل به على ذلك ما حدث في عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م، عندما توفي الشيخ سليمان بن خليل بن إبراهيم العسقلاني[٢]، إمام مقام إبراهيم وخطيب المسجد الحرام، فطيف به حول الكعبة قبل أن يُصلى عليه، فكان حاضرًا الشيخ أبو العباس الميورقي، فسأل ابن أخي الشيخ سلمان الفقيه محمد بن عمر عن دليل شرعي في الطواف بالميت، فأجابه بأن العادة جرت للأشراف من البيت الحاكم ومن عظم قدره من الناس ولهذا هم يقومون به تقليدًا[٣].

وفي عام ٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م، توفي السيد بركات[٤]، بأرض خالد من

---

(١) أبو يعلي: أبو الحسين محمد، طبقات الحنابلة، مطبعة السنة المحمدية، د. ت، ٢/ ٢٥٥-٢٥٦؛ السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص٢٨٩.

(٢) هو سليمان بن خليل بن إبراهيم العسقلاني المكي الشافعي، يكنى أبا الربيع، ويلقب نجم الدين، إمام المقام، وخطيب المسجد الحرام ومفتيه، ولد قبل ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، توفي عام ٦٦١هـ/ ١٢٦٢م، وصلى عليه بعد أن طيف به بالكعبة سبعًا، ودفن بالحجون. الفاسي: العقد الثمين، ٤/ ٢٣٥-٢٣٧.

(٣) المصدر السابق، ٤/ ٢٣٧؛ السالمي: الحياة الدينية في مكة، ص٢٨٩-٢٩٠.

(٤) هو بركات بن حسن بن عجلان بن رميثة السيد زين الدين الحسني المكي، ولد عام ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م بالحشّافة بالقرب من جدة، فيه خير كثير، وله بمكة مآثر وقرب نافعة، توفي عام ٨٥٩هـ/ ١٤٥٤م. السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ١٣-١٤.

وادي مر[١]، فُحمل على سرير على أعناق الرجال ودخل من ثنية كدي[٢] من أسفل مكة، وغُسل بداره بأجياد ودُخل به المسجد الحرام وطِيف به أسبوعًا حول الكعبة، وصلي عليه عند باب الكعبة ودُفن بالفسقية[٣] التي أعدت له بالمعلاة[٤].

وكان يصاحب الطواف بالميت ذكر لمحاسنه وأوصافه، يذكرها المؤذن من فوق قبة زمزم[٥].

ومن عادتهم بعد الطواف بالميت حول الكعبة والصلاة عليه، أنْ يشيعه جميع الناس حتى النساء والبنات، كما يجزُّ النساء شعورهن، ومن ثم تقرأ الربعات التي يجتمع عليها جمع غفير من الناس والتي قد تستمر إلى عدة أيام،

---

(١) وادي مر: يسمى بذلك لمرارة مياهه، وسمي مر الظهران وهو اسم الوادي، ويسمى الآن وادي فاطمة وبه حصن، ومنازل، وزرع، وبه عيون ماء ومنه تجلب الفواكه لمكة. البلادي: معجم معالم الحجاز، ٨/ ١٠٠-١٠٢.

(٢) كدي: ثنية بمكة يخرج منها الطريق من الحرم إلى جرول تفصل بينها نهاية قعيقعان في الجنوب الغربي وجبل الكعبة، جعل فيها في زمن الأشراف مركز اسم البضائع الآتية من جدة فسميت «ريع الرسام» والعامة تقول: «الرسان» خطأ ولا تعرف اليوم إلا بريع الرسام، ثنية ما زالت معروفة بهذا الاسم يخرج فيها الطريق من مسفلة مكة إلى ثور والخارج منها يدع جبل المثيب يمينه ثم يهبط على بطحاء قريش. المرجع السابق، ٧/ ٢٠٢.

(٣) فسقية: كلمة عامية لها عدة دلالات أهمها: أنها مجمع المياه كما أنها أيضًا المحل الذي يدفن به الميت، ومن معانيها حوض الوضوء، وهو الحوض المعد لمياه الوضوء والاغتسال بالميضأة وله أشكال متعددة منها المستطيل والمربع والمثمن والمستدير. الزبيدي: تاج العروس، ٧/ ٤٨-٤٩؛ أمين: محمد محمد وليلى إبراهيم، المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية، الجامعة الأمريكية – القاهرة، د. ت، ص٨٥.

(٤) ابن فهد: إتحاف الورى، ٤/ ٣٤٧؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ١٤؛ العصامي: سمط النجوم العوالي، ٤/ ٢٩٢.

(٥) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٣/ ٣٣٤، ٥٩٣-٥٩٤.

وهذا يؤدي إلى تعطل الأسواق والبيع والشراء، وكل ذلك من الغلو والتطرف والمغالاة في إظهار الحزن على الميت[١].

وكل ذلك بدعة شنيعة في الدين لا أساس لها من الصحة، ولم تُنقل عن السلف، بل يجب على ولاة الأمر إزالتها ومحاربتها، والقضاء عليها، وهذا ما حدث بالفعل، فالحمد لله على زوال هذه البدعة[٢].

وهكذا فقد زالت هذه البدعة وانتهت لما فيها من المنكر الشنيع والفعل القبيح، وخروج عن سنة سيدنا محمد ﷺ، فالميت بعد غسله يكفن ويصلى عليه ويدفن، من غير طواف حول الكعبة أو غلو وتطرف في إظهار الحزن، فإكرام الميت دفنه، وليس الطواف به وقراءة الربعات وفعل ما لا يجب أن يُفعل في بيت هو من أشرف بيوت الله، ألا وهو المسجد الحرام، وإن كنا لا نعلم بالتحديد متى زالت هذه البدعة، ولم تشر المصادر التاريخية إلى ذلك، إلا أنها زالت ولله الحمد.

١٢ - بدعة قراءة الربعات بعد دفن الميت:

من العادات السيئة والبدع المنكرة المنتشرة في مكة في العصر المملوكي قراءة الربعات، بعد دفن الميت، والمراد بها قراءة أجزاء من القرآن تُقرأ بعد دفن الميت في المسجد الحرام، وفي المعلاة على قبر الميت حتى يختم القرآن، وهذا ما حدث عند وفاة أم دلال زوجة الشريف صاحب مكة الجمالي محمد بن بركات وهي زبيدة[٣]، وُصلِّي عليها بعد صلاة الصبح عند باب الكعبة، ودفنت

---

(١) العز بن فهد، بلوغ القرى، ٢/ ١٨٧-١٨٨.

(٢) السنجاري: منائح الكرم، ٣/ ٢٤٥.

(٣) هي أم دلال الزبيدية زوج الشريف محمد بن بركات صاحب الحجاز، ماتت في شعبان سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م، خارج مكة فحملت وصلي عليها ثم دفنت بالمعلاة. السخاوي: الضوء اللامع، ١٢/ ١٤٦.

بالمعلاة، وعُمل لها ربعة بالمسجد الحرام وبالمعلاة، واستمر حضور الربعة بالمسجد الحرام والمعلاة إلى يوم الختم، وعادة يكون مع الجمع قارئ بالغيب يُطلق عليه «الفقيه» وتختلف مدة القراءة حسب اهتمام أهل الميت، ومنزلة المتوفى، فأقصرها ثلاثة أيام وقد تصل إلى شهر أو أكثر[١].

وهذه من أشد البدع في الدين الإسلامي، حيث لا يوجد نص من القرآن والسنة على ذلك، ولم يفعل الرسول ﷺ أو الصحابة والتابعون من بعده ما فعله الناس في العصور المتأخرة، فالميت لا تنفعه هذه الربعات التي تُقرأ على قبره، ولا ينفعه بعد موته إلا عمله الصالح، والحمد لله الذي وفق أولي الأمر إلى إبطال هذه البدعة وزوالها، وإن لم تشر المصادر التاريخية إلى تاريخ أو وقت معين لزوالها إلا أنها زالت وانتهت.

١٣ - بدعة ميزاب[٢] الكعبة:

ومن عادة أهل مكة عند هطل المطر، أنهم يتبادرون إلى الحجر، فيقعون تحت الميزاب متجردين من ثيابهم يتلقون الماء الذي ينصبّ من الميزاب برؤوسهم وأيديهم وأفواههم، ويزدحمون عليه ازدحامًا عظيمًا، وهذا يسبب ضوضاء عظيمة في المسجد الحرام، وترتفع أصواتهم بالدعاء والتضرع إلى الله، ويحرص كل شخص منهم أن ينال جسمه من رحمة الله نصيبًا، فمنهم من يبلّ به ثوبه، ومنهم من يأخذ منه في إناء، وبعضهم يتجرد عن الملبوس إلا ما

---

(١) العز بن فهد: بلوغ القرى، ٢/ ١٨٧؛ الزهراني: التاريخ السياسي والحضاري لمكة، ص٤٦١.

(٢) شبه أنبوب في أعلى الجدار الذي على الحجر، وهو من صفر مذهب، وقد خرج عن الحائط نحو أربع أذرع، وسعته نحو شبر، ويقابله في الأرض من قاع الحجر رخامتان خضراوان يقع عليهما ماؤه عند وقوع المطر. التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٨١؛ البلادي: فضائل مكة، ص٩٠.

يستر عورته[١]. والنساء يقفن خارج الحجر وينظرن لذلك الموقف بعيون دوامع وقلوب خواشع وهن يتمنين الظفر بذلك الموقف، وكان بعض الحجاج يبلّ ثوبه بذلك الماء ... ويخرج إليهن ويعصره في أيدي بعضهن فيتلقينه شربًا ومسحًا على الوجوه والأبدان، وما يفعل ذلك إلا من باب الإشفاق عليهن؛ لأنهن لا يستطعن الوقوف تحت الميزاب، والدخول في ذلك الازدحام العظيم[٢].

وما هذه إلا من جملة البدع المحدثة في المسجد الحرام، لما يحدث فيها من المنكرات الشنيعة، فنرى الرجال متجردين من ثيابهم، كما نرى الضوضاء العظيمة التي تحدث في المسجد الحرام، وهذا يؤدي إلى التشويش على المصلين أو الطائفين في المسجد الحرام، علاوة على الازدحام العظيم الذي قد يؤدي إلى أن يدوس بعضهم بعضاً، أو يلحق الضرر بكبار السن وضعاف الأبدان.

ولعلهم ابتدعوا هذه البدعة لظنهم أن الدعاء تحت الميزاب مستجاب، وهو ما لم يثبت به دليل.

وعلى الرغم من هذا وذاك، فإن ما ابتدعوه من ازدحام تحت الميزاب، وتجرد من الثياب ما هو إلا بدعة مضلة، أحدثها بعض الجهلة في الدين الإسلامي، وإن كنا لا نعلم متى بالتحديد انتهت هذه البدعة وزالت إلا أنها انتهت، فلو لم تكن بدعة محدثة في الدين لاستمرت إلى يومنا هذا، فلله الحمد على زوالها.

---

(١) ابن جبير: الرحلة، ص٩٢؛ التجيبي: مستفاد الرحلة والاغتراب، ص٢٨٢.
(٢) ابن جبير: الرحلة، ص٨١.

١٤ - بدعة وضع مفتاح الكعبة في فم الصغير:

من عادة المكيين إذا ثقُل لسان الصبي المولود، وأبطأ كلامه، جاؤوا به إلى حجبة الكعبة المشرفة، وسألوهم أن يدخلوا مفتاح الكعبة في فمه، فيأخذ الحجبة الصبي، ويدخلونه خزانة الكعبة، ويغطون وجهه، ثم يدخلون مفتاح الكعبة في فمه فينطلق لسانه، ويتكلم سريعًا، وهو مجرب بمكة[١].

وما هذا إلا بزعمهم حيث لم يرد في النصوص والأحاديث النبوية ما يؤيد ذلك، ولم تشر المصادر التاريخية أن الصحابة أو التابعين فعلوا ذلك، فوضع مفتاح الكعبة في فم الصبي الذي ثقُل لسانه من أجل أن يكسبه ذلك فصاحة بدعة محدثة في الدين الإسلامي، ذكرها كثيرٌ من المؤرخين في كتبهم، وأشارت إليها كثيرٌ من المصادر التاريخية[٢].

ولا نعلم إن كانت هذه البدعة ما زالت إلى اليوم أو قد انتهت وبطلت، كما انتهى غيرها من البدع وزال، حيث لم تشر المصادر التاريخية إلى ذلك، ولعلها انتهت لكون غيرها من البدع قد زال وانتهى. والله أعلم.

١٥ - بدعة المدائح النبوية:

تُعَدُّ المدائح النبوية من البدع المحدثة في مكة المكرمة، بل في المسجد الحرام، حيث يُنْشد المؤذنون والمداحون مدائح سيدنا محمد ﷺ من القصائد المشهورة بعد صلاة العصر يوم الاثنين والخميس والجمعة، ويختتم المادح هذه المدائح بقراءة ما تيسرت له قراءته من كتاب الله ثم يدعو للسلطان ولوالديه ولذريته ولجميع المسلمين[٣].

---

(١) الفاسي: شفاء الغرام، ١/ ٣٠١؛ ابن الضياء القرشي: أحوال مكة، ١/ ٢٤٠؛ ابن ظهيرة: الجامع اللطيف، ص٣٣؛ الأسدي: أخبار الكرام، ص٩٣.

(٢) راجع مصادر الحاشية السابقة.

(٣) القحطاني: أوقاف السلطان الأشرف شعبان، ص٩٨.

ولا شك أن هذه المدائح من البدع التي لا تمت للدين الإسلامي بصلة؛ لأننا لم نسمع أو نقرأ أن صحابة رسول الله ﷺ كان ينشدون مثل هذه المدائح لا في المسجد الحرام ولا في غيره من المساجد، وقد حاربها كثيرٌ من الأمراء وعمل على إزالتها، ومنهم الأمير تغري برمش حيث عمل على منع هذه البدعة وغيرها من البدع في عام ٨١٨هـ/ ١٤١٥م، وقد وافقه على ذلك جماعة من فقهاء مكة، لكن ما لبث أن سعى بعض الناس عند بعض حكام مكة من جهة الدولة في الإذن بأن تُعاد المدائح النبوية على المنائر، في ليلة هلال رجب، وكان ذلك في عام ٨٢٠هـ/ ١٤١٧م، فأُعيدت، ولما عرف تغري برمش بذلك خرج من بيته لمنع ذلك، فناله من العامة أذى عظيم، وكان ذلك في غيبة صاحب مكة، فلما حضر أنكر على من أعاد هذه البدعة، وأمر باتباع تغري برمش في ذلك، فلم يتجاسر أحد على مخالفة ذلك حتى مات تغري برمش[1].

وهكذا نرى مدى اهتمام الأمراء والحكام بإزالة هذه البدعة، لما تسببه من تشويش على المصلين والطائفين بسبب ارتفاع أصوات المدَّاحين في المسجد الحرام.

١٦ - المقشات التي تغسل بها الكعبة المشرفة:

من العادات المتبعة بعد غسل الكعبة المشرفة، أن يقذف أمير مكة المكانس والمقشات التي غُسل بها البيت إلى الحجاج الواقفين عند الباب من أجل التبرك بها[2].

وهي مقشات صغيرة من الخوص طولها نحو ٣٠ سنتميترًا، تُغسل بها الكعبة المشرفة، وبعد الانتهاء من غسل الكعبة يقف شريف مكة ويلقي بها على الحجاج الذين يكونون قد وقفوا بجانب الباب ألوفًا مؤلفة، فيتزاحمون عليها

---

(١) الفاسي: العقد الثمين، ٣/ ٢٥٢؛ ابن فهد: إتحاف الورى، ٣/ ٥٢٧، ٥٥٠-٥٥١؛ السخاوي: الضوء اللامع، ٣/ ٣٢.

(٢) الحجبي: هامش الإتمام، ورقة ٩٣.

ويتلقفونهـا بحال غريبة جـدًا، ومن يحصل علـى واحدة من هذه المقشـات كأنه حصل على كنز ثمين، بل على أثمن شيء في العالم، وتكون هذه المقشة بالنسبة إليه خيراً من الدنيا وما فيها، ويحفظها على سبيل البركة لأنها أثر شريف من بيت الله الحرام، وقد يقوم بعض المطوفين والزمازمة بغمر المقشات بالماء، ويدّعُون أنها من التي غُسلت بها الكعبة، ومن ثَمّ يبيعونها إلى الحجاج[١].

وتُعَدُّ هذه من البدع والخـدع المبتدعة في الدين الإسـلامي والتي يخدع بهـا النـاس، وخصوصاً الحجـاج القادمين مـن أنحاء شـتى من البـلاد، من أجل التكسب منهم.

ومما يدل دلالـة واضحة على ذلك مـا يفعله بعض المطوفيـن والزمازمة من غمر بعض المقشات بالماء وادعاء أنها من المقشات التي غسلت بها الكعبة، وقد زالت هذه الخدعة المبتدعة لما فيها مـن الغش والخداع ؛ لأجل أخذ أموال النـاس بالباطـل ومن غير وجـه حق، وهـذا ما نهى عنـه الرسـول ﷺ حيث قال: «ليس منا من غش»[٢]، خصوصاً وأن هذا الخداع يحدث في أقدس بقاع الأرض وأطهرها، من غير أدنى مراعاة لقدسية هذا البيت الشريف.

والجديـر بالذكر أن هذا الفعـل محرم، لأنه لو كانت هذه المقشـات فعلًا من المقشـات التي غسـلت بها الكعبة، فذلك محرم؛ لأنه لا يجـوز التبرك بها أو بغيرها، وإن كانت ليسـت من المقشات التي غسـلت بها الكعبة فهذا أيضا محرم لما في ذلك من الغش والخداع.

وصفـوة القـول أن كل هـذه البـدع والخـدع التي اسـتحدثت فـي الدين الإسـلامي، لا تمت للدين وللسـنة النبوية بصلة، حيث بيّن الرسـول ﷺ أسـاس الدين الإسـلامي الصحيح وسـار علـى نهجـه الخلفـاء والصحابة من بعـده إلى

(١) البتنوني: الرحلة الحجازية، ص١٠٩.

(٢) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ٢/ ٢٠.

أن جاء قوم ضلوا وأضلوا وابتدعوا في الدين ما ليس فيه، معتقدين أن ذلك من تمام الإسلام وعقائده، ومن مكملات الشريعة الغرّاء وهم منحرفون عن الطريق السوي بابتداعهم الذي لا أساس له من الصحة، ولا أصل له في الدين الإسلامي، ولو كان الرسول في ذلك العصر ورأى ما رأى من بدع لأنكرها، أشد الإنكار ولرفضها وأزالها منذ ظهورها، بل منذ كونها بذرة صغيرة وقبل أن تمتد جذورها وتقوى وتنتشر في أنحاء شتى من البلاد، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[١].

والموفق السعيد من أحيا سنة وأمات بدعة، خصوصاً وأن هذه البدع مع السكوت عن الإنكار لها باتت كأنها سنن مقررات، وشرائع محررات، فاختلط المشروع بغيره، وصار المتمسك بمحض السنة كالخارج عنها، لذلك وجب التمسك بالدين الإسلامي واتباع الكتاب والسنة فهما الإمامان اللذان أُمرنا بالاقتداء بهما، حيث لا يحصل كمال الاتباع إلا بالاقتداء برسول الله ﷺ في جميع حالاته، (عباداته، وعاداته، وحركاته)، وبالسلف الصالح من هذا الكمال المشرب الأصفى والحظ الأوفى[٢].

قال رسول الله ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي عضّوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «اتبعوا ولا تبتدعوا، فإنما هلك من كان قبلكم بما ابتدعوا في دينهم وتركوا سنن أنبيائهم بآرائهم، فضلوا وأضلوا»[٤].

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.
(٢) محفوظ: الإبداع في مضار الابتداع، ص١٢، ١٤.
(٣) ابن ماجه: سنن ابن ماجه، ١/ ٧٩.
(٤) الدارمي: أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن، سنن الدارمي، تحقيق مصطفى ديب البغا، ط١، دار القلم، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ١/ ٧٤.

وما أتعس رجلًا ترك سبيل السنة الشارحة للكتاب واستبدل بالعذب العذاب، وبدّل بالنور الظلمات، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾(١).

وجملة القول إن ما ظهر من بدع في أشرف بقاع الأرض وأطهرها ما هو إلا مرض منتشر في كل مكان، إلا أن المتعلم العاقل قوي القلب والإيمان يقوى على قلبه فيضعفه، وغيره لا يقوى عليه فيصبح مرتعًا له يسرح فيه ويمرح.

ولعل سبب ظهور مثل هذه البدع المفسدة للعقيدة في الحرم المكي الشريف، يرجع أولًا وأخيرًا إلى ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمكة المكرمة، واقتصار العلماء على التعليم والحديث دون التعرض لذلك إلا من قلة، حيث فرط بعض العلماء وتهاون بعض الحكام والولاة، وهذا جعل الحبل على غاربه حتى استبيحت المحرمات وراجت سوق البدع والمنكرات، أضف إلى ذلك ضعف الوازع الديني في نفوس بعض سدنة بيت الله الحرام، وسعيهم وراء كسب المال بطرق غير مشروعة، كما سعى بعض موظفي الحرم كالمطوفين والزمازمة إلى خداع الناس من أجل كسب المال أيضًا.

ومما يذكره التاريخ في هذا العهد –المملوكي – أن علماء مكة اجتمعوا على توقيع عريضة طلبوا فيها إلغاء بدع المؤذنين وما يتغنون به من المدائح النبوية فوق المآذن وإلغاء الاحتفال بليالي ختم القرآن في رمضان ومنع إيقاد مشاعل المقامات في رمضان وهلال ربيع الأول ورجب، وغيرها من البدع المحدثة في مكة المكرمة، فُقبل ما عرضوه وصدر أمر بإلغاء البدع وإزالتها، إلا

---

(١) سورة النور: الآية ٦٣.

أنـه لم يمض على ذلك عامان حتى سـعى بعـض الكبراء لدى أمـراء مكة لإعادة هذه البدع، فأُعيدت[١].

فـلا حول ولا قوة إلا بالله من فسـاد ظهر في أشـرف بقاع البلاد، ومنكر تفشى بين العباد، وابتداع عن الحق حاد.

قـال تعالـى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾[٢].

---

(١) الغازي: إفادة الأنام، ٣/ ٢٢٠.

(٢) سورة النور: الآية ٥٤.

الخاتمة

الحمد للـه على ما تفضل والصلاة والسـلام على خير خلقـه الهادي إلى طريق الحق الأمثل، سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ أما بعد..

فبفضل من المولى ﷻ حاولت جاهدة أن أُلِمّ بالوظائف في الحرم المكي في العصر المملوكـي الممتد من عام ٦٤٨هـ إلى عـام ٩٢٣هـ، ومن خلال هذه الدراسة التي شـملت الحديث عن كثير من الوظائف في المسجد الحرام، إضافة إلـى الحديث عـن المسـجد الحـرام ودوره العلمـي وأهم البـدع الموجـودة فيه خرجت بنتائج عدة منها:

١ - ظهـور كثير من الوظائـف المتنوعة والمتعـددة في المسـجد الحرام، فقد عرفـت الوظائف الدينيـة كالإمام والمـؤذن والخطيب والقاضـي والفقيه وسـادن الكعبة والمحتسـب، والوظائف الإدارية كشـيخ الحرم أو ناظره وناظر العمـارة والمطوف، كمـا عرفت الوظائـف التعليميـة المتمثلة في المدرس والمؤدب والمقـرئ، إضافة إلى الوظائف الخدمية التي تشـمل السقاية والوقاد والفراش والبواب وخدام الحرم وأغواته.

وقـد قـام كل موظـف مـن أصحاب هـذه الوظائـف بكثيـرٍ مـن الأعمال والمهمات التي تخص المسجد الحرام، وأدوا واجبهم على أكمل وجه.

ولا تزال هذه الوظائف مسـتمرة في المسـجد الحرام إلـى وقتنا الحاضر

بمسمياتها وأعمال أصحابها وواجباتهم، وإن طرأ عليها شيء من التغيير، فهو من باب التطور والارتقاء بها لتتناسب مع مكانة المسجد الحرام.

٢ - اهتمام سلاطين الدولة المملوكية بأمر المسجد الحرام والكعبة المشرفة اهتمامًا منقطع النظير، وعناية فائقة، تجلَّت فيما قاموا به من أعمال عظيمة في الحرم المكي من عمارة وترميم وإصلاح، واختيار أفضل المهندسين والبنائين واستخدام أفضل مواد البناء وتخصيص كبار رجال الدولة كالأمراء وغيرهم للإشراف على هذه الأعمال، كما تجلى هذا الاهتمام وظهر بشكل واضح في تعيين عدد كبير من الموظفين في المسجد الحرام والإشراف عليهم، والدقة في اختيارهم واشتراط عدد من الشروط التي يجب أن تتوافر فيمن يلي هذه الوظائف، وكل ذلك من أجل أن يكون الموظف المناسب في المكان المناسب، فنرى أنها تتحرى الدقة في تعيين الموظفين في الوظائف الدينية، وذلك لارتباطها بالدين والعقيدة، كما تهتم بتعيين أشخاص معينين في الوظائف الإدارية وآخرين في الوظائف التعليمية والخدمية.

٣ - تحريم الصلاة في المسجد الحرام خلف أربعة أئمة من قبل عدد من العلماء من جميع المذاهب الإسلامية؛ لكون ذلك مخالفًا للدين الإسلامي، وما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه والسلف الصالح، ولما في ذلك من التشويش على المصلين والاختلاط في أعظم أركان الإسلام، ولكون الصلاة خلف أربعة أئمة من أخطر البدع التي أدت إلى تفرقة المسلمين وانتشار العداء بينهم.

٤ - ظهور توارث المنصب في الوظائف الدينية في المسجد الحرام من إمامة وخطابة وقضاء وغيرها، وحصرها في الأسرة الواحدة، فنرى أن الابن يرث المنصب بعد وفاة والده، ويظل المنصب في هذه الأسرة حتى

تنتهي فينتقل إلى أسرة أخرى، كالخطابة التي استمرت في بيت الطبري ثم انتقلت إلى آل النويري، فنافسهم عليها الظهيريون منافسة شديدة، بل قد يصل الأمر إلى أن يعين السلطان طفلًا رضيعًا في المنصب ليحل محل والده المتوفى على أن يقوم أحد أقاربه بمهمات الوظيفة حتى يبلغ الطفل.

٥ - اهتمام الدولة المملوكية بأمر القضاء في مكة المكرمة، فقد استُحدث في مصر في عصر المماليك لأول مرة سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م، تعيين أربعة قضاة على المذاهب الأربعة، على أن يرأسهم القاضي الشافعي، وبذلك أصبح منذ ذلك الوقت في مصر وغيرها من البلاد التي تتبع الدول المملوكية أربعة قضاة، وقد ظلت الدولة في مصر محتفظة بمركزية تعيين القضاة في المسجد الحرام.

٦ - كان المسجد الحرام من أهم مصادر الفتيا لعدد كبير من المستفتين وطلاب العلم من أنحاء شتى من الجزيرة العربية، وذلك لما تمتع به علماء مكة المكرمة من مكانة علمية ودينية لا مثيل لها، فنجد أن أكثر من يفتي بمكة هم القضاة الأربعة، وكانت الأسئلة الفقهية ترد إلى هؤلاء العلماء من اليمن والطائف وغيرها وكانوا يجيبون عنها إجابات وافية، بل إن بعض العلماء كان يكتب فتاويه ويرسل بها إلى من يسأل سواء في مكة أو خارجها، ويدل هذا على مدى شهرة هؤلاء العلماء وغزارة علمهم.

٧ - اهتمام سلاطين المماليك بأمر الحسبة في مكة المكرمة، وذلك لكثرة سكانها، وكثرة الوافدين إلى المسجد الحرام من أصقاع شتى من البلاد، فكان لا بد من وجود من يقوم بأمر الحسبة ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن أجل هذا كله حرص سلاطين الدولة على تقليد أمر الحسبة للرجال المشهود لهم بالكفاءة والأمانة والشدة على الحق من القضاة

وغيرهـم؛ ليقوموا بـردع المخالفين ومعاقبتهم والأخذ بشـدة على يد كل من تُسوِّل له نفسه الخروج عن القوانين والقواعد الإسلامية.

٨ - المركزية في تقليد المناصب الدينية في المسـجد الحـرام فكان أصحاب الوظائـف الدينية كالأئمة والخطباء والقضاة وسـدنة البيت والمحتسـبين ونظـار الحرم يعينون من قبل السـلطان المملوكـي في مصـر، وعادة يُقرأ قرار التعيين في المسـجد الحرام أمام أعيان مكـة ووجهائها، وكان يصل مع قرار التعيين خلعة مقدمة من السلطان للمُعيّن في أحد هذه الوظائف.

٩ - كانت وظيفة ناظـر الحرم قائمة من قبل العصـر المملوكي، إلا أنها كانت تُعرف بمشيخة الحرم ومتوليها هو شـيخ الحرم، ثم بدأ لفظ الناظر يُطلق على متوليهـا، فأول مرة أُطلـق فيها لفظ ناظـر كان في العصـر الفاطمي، ولكنهـا كانـت ضمـن نطـاق ضيـق ولـم تنتشـر وتتعـدد إلا فـي العصـر المملوكـي، ويُعَدُّ منصور بن منعة أول ناظر للمسـجد الحـرام في العصر المملوكي، حيث ولي الوظيفة عام ٦٢٤هـ.

١٠ - نشـوء مهنـة الطوافة فـي العصـر المملوكي، حيـث لم تكن موجـودة في العصور السابقة، ويعود السبب في ذلك إلى جهل الأمراء والحكام باللغة العربية أو ميل الجراكسـة أنفسـهم إلـى الأبهـة والبذل، فكانـوا يفضلون الاعتماد على من يخدمهم ويتلو أمامهم الأدعية والأذكار الشـرعية، وقد بدأت في أول الأمـر لدى كبار رجـال الدولة، وأول المطوفيـن كانوا من القضاة؛ حيث كانوا على درجة عالية من العلم الشرعي والتبحر في أمور الديـن، وقد ظلت مهنـة التطويف ضيقـة النطاق في عهد الجراكسـة ولم يتسـع نطاقها إلا في العصر العثماني، وذلك بسـبب خروجها من تطويف كبار الشخصيات إلى تطويف العامة من زوار بيت الله الحرام.

١١ - عُرفت الإجـازة بوصفها شـهـادة علمية فـي تاريخ التربية الإسـلامية منذ

أوائل القرن الرابع الهجري، وأول من بدأ بمنحها علماء الحديث، فكانت تمُنح في بادئ الأمر لرواية الحديث، ولكن ما لبث أن اتسع نطاقها وأصبحت شاملة لعلومٍ شتى، وهي تعادل الشهادات العلمية في وقتنا الحاضر.

١٢ - تُعدُّ الوظائف الخدمية من الوظائف التي تميزت بأن يكون لأصحابها رئيس أو شيخ يرأسهم ويكون مسؤولًا مسؤولية كاملة عن جميع أعمالهم والإشراف عليهم وتوزيع العمل بينهما، «كرئيس الزمازمة» و«شيخ الوقادين» و«شيخ الفراشين» و«شيخ طائفة الأغوات»، ولعل السبب في وجود رئيس أو شيخ لهذه الوظائف، أنها من الوظائف التي تتعلق بخدمة المسجد الحرام، ونظافته وتفقُّد شؤونه، لذلك استدعت الحاجة وجود رئيس أو شيخ يشرف على هؤلاء الموظفين ويراقبهم في أداء أعمالهم ويقوم بتنظيمهم.

١٣ - هناك بعض الوظائف التي لم يكن يعين أصحابها بقرار سلطاني؛ كالوقاد والفراش، وذلك لأن هذه الوظائف صغيرة ولا تتطلب مهارة أو إجازة، كما أنها من الوظائف الخدمية التي ليس لها علاقة بالدين والعقيدة، لذلك لا يوجد لمتوليها تعيين رسمي من قبل السلطان، بل ما نلحظه أنه قد يُعين أحد هؤلاء الموظفين من قبل أحد أصحاب الوظائف الدينية كالفراش الذي كان يُعين ويُعزل من قبل ناظر المسجد الحرام.

١٤ - اهتمام السلطة في مصر بأمر المسجد الحرام وتفقد شؤونه كافة، وبدا ذلك جليًا في عام ٨٣٠هـ/ ١٤٢٦م، عندما أصدر السلطان الأشرف برسباي مرسومًا يقضي بتعيين بوابين لأبواب المسجد الحرام من العوام الجهلة الذين ليس لهم حرفة ولا صناعة - من باب المواساة؛ ليكون لهم مصدر رزق - وعزل من كان بوابًا من القضاة والفقهاء، حيث كان

قبل هذا التاريخ يقوم ببوابة أبواب المسجد الحرام أعيان مكة وعلماؤها وكبار أصحاب الوظائف الدينية كالقضاة والفقهاء.

١٥ - حرص الخلفاء والسلاطين والأمراء من البلدان الإسلامية المختلفة على إرسال كثيرٍ من الهبات والأموال لموظفي المسجد الحرام، إضافة إلى ما يحصلون عليه من رواتب من قبل السلطة المملوكية في مصر، وقد شملت هذه الهدايا والهبات موظفي المسجد الحرام كافة بتخصصات شتى من وظائف دينية وإدارية وتعليمية وخدمية.

وهذا يدل على مدى اهتمام هؤلاء السلاطين والأمراء بأمر الموظفين في الحرم المكي، كما يدل على مكانة هؤلاء الموظفين والتي نبعت بلا شك من مكانة المسجد الحرام.

١٦ - تمتعت مكة المكرمة في العصر المملوكي بنهضة علمية كبيرة، تجلت في ظهور كثيرٍ من حلقات العلم المتنوعة في المسجد الحرام حتى عُدَّ المسجد الحرام آنذاك من أكبر الجامعات العلمية التي ضمت في جنباتها كثيراً من حلقات العلم ذات التخصصات المختلفة، وكان توافد العلماء على مكة في المواسم ومشاهدتهم لهذه النهضة العظيمة عاملًا أساسيًا في اجتذاب عدد كبير من العلماء للبقاء في مكة والمجاورة بها ومنافسة زملائهم في إقامة الحلقات العلمية، واستقبال طلاب العلم، وهذا أدى إلى انتشار العلماء في أرجاء المسجد الحرام، ومن ثم نشر العلم في المجتمع المكي، إضافة إلى تحسين أحوال مكة الاجتماعية والعلمية والثقافية.

١٧ - توافد على مكة المكرمة والمسجد الحرام عدد كبير من طلبة العلم والعلماء من أقاليم إسلامية شتى، وظلوا يغرفون من نهر لا ينضب، ولم يكتفوا بذلك بل كما أحضروا من علوم ومعارف، أخذوا معهم مثلها إلى

بلادهم؛ ليفيدوا كما استفادوا، ولقد أدَّى ذلك دورًا ايجابيًا في التبادل الثقافي بين طلاب العلم، والنهوض بالحركة العلمية في مكة التي لم تقتصر فائدتها على المكيين فقط، بل استفاد منها كثيرٌ من العلماء وطلبة العلم من جميع البلدان الإسلامية الذين ربطتهم رابطة واحدة وهي رابطة الدين الإسلامي الحنيف.

١٨ - نتيجة لما تمتعت به الوظائف الدينية في المسجد الحرام من أهمية كبرى نبعت من أهمية الحرم المكي ومكانته السامية في نفوس جميع المسلمين، فقد ظهر كثيرٌ من البيوت التي تسمت بأسماء هذه الوظائف كـ «بيت آل الشيبي وبيت الريس وبيت آل نائب الحرم» وقد ظلت هذه البيوت تحظى بأهمية كبرى، كما حظي أصحابها بتقدير لا مثيل له من قبل جميع الناس، وما زالت هذه البيوت موجودة إلى وقتنا الحاضر بمسمياتها ومهمات أصحابها وأعمالهم.

١٩ - بروز كثيرٍ من الصراعات على المناصب الدينية من قبل العلماء والموظفين، وهذا حدا ببعضهم إلى استخدام الوسائل والطرق كافة من أجل الحصول على هذه الوظائف كالبذل للسلطان أو كيد الموظفين لبعضهم، وكان ذلك بلا شك من أجل أن يحظى هؤلاء الأشخاص بمكانة مرموقة في المجتمع المكي وخارجه، نتيجة توليه منصبًا من المناصب المهمة في المسجد الحرام، أو من أجل الحصول على كثيرٍ من الأموال والهبات التي تخصص عادة لموظفي المسجد الحرام، وهذا ما جعل الدولة أحيانًا تولي المنصب لأكثر من شخص أو أن تجعل التولية مناصفة بين أفراد الأسرة الواحدة من أجل فض النزاعات أو حل المشكلات التي تحدث بين الموظفين.

٢٠ - ظهور كثيرٍ من البدع الدخيلة على الدين الإسلامي في أقدس بقعة من

بقاع الأرض وهي المسجد الحرام، ومن أهم البدع بدعة تعدد الأئمة في المسجد الحرام، وتعد من أقدم البدع التي ظهرت في الحرم المكي، حيث يرجع تاريخ ظهورها إلى العصر الفاطمي وذلك لكثرة البدع الغريبة في ذلك العصر خاصة، حيث كان للفاطميين السيادة الاسمية على الحجاز في القرن الرابع الهجري، وقد ظلت هذه البدعة في المسجد الحرام متذبذبة الوجود، فما تنتهي حتى تعود مرة أخرى، إلى أن زالت بشكل نهائي في أول العهد السعودي على يد الملك عبدالعزيز آل سعود، وجمع المصلين على إمام واحد وكان ذلك في عام ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م.

كما ظهر كثيرٌ من البدع المخالفة للدين الإسلامي، كبدعة العروة الوثقى وسرة الدنيا وليلة النصف من شعبان وبدعة الوقيد، وغيرها من البدع التي كان لها تأثير خطير على الناحية الدينية، إلا أن الدولة وقفت منها موقفًا صارمًا وحاسمًا، وأخذت برأي العلماء في محاربتها ومنعها، ويدل ذلك دلالة جلية على مدى احترام سلاطين المماليك للعلماء خصوصاً ما يمس الدين الإسلامي.

٢١ - يُعَدُّ الجهل بأمور الدين من بعض الناس، وضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حيث اقتصر العلماء على التعليم والحديث دون التعرض لذلك إلا من قلة، إضافة إلى تهاون بعض الحكام وضعف الوازع الديني في نفوس بعض الموظفين الذي يسعون لكسب المال من الحجاج وعامة الناس - من أهم أسباب ظهور كثيرٍ من البدع في المسجد الحرام واستمرارها قرونًا طويلة، إلا أنها لقيت من يتصدى لها ويقضي عليها ويقف لها بالمرصاد من العلماء والأمراء والسلاطين، ما أدى في نهاية المطاف إلى القضاء عليها وزوالها بشكل نهائي من المسجد الحرام.

وختامًا أرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت في عرض أهم النتائج التي توصل إليها البحث، وأن أكون قد حققت الغاية المنشودة منه، كما أرجوه أن يثيب كل من مد لي يد العون وأسهم في خروج هذا العمل إلى النور، وأولهم سعادة أستاذي الفاضل الدكتور/ فواز بن علي الدهاس، جزاه الله خير الجزاء وأمدَّ في عمره ونفع بعلمه ووفَّقه لما فيه الخير والصلاح.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الغر المحجلين، سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

الملحقات

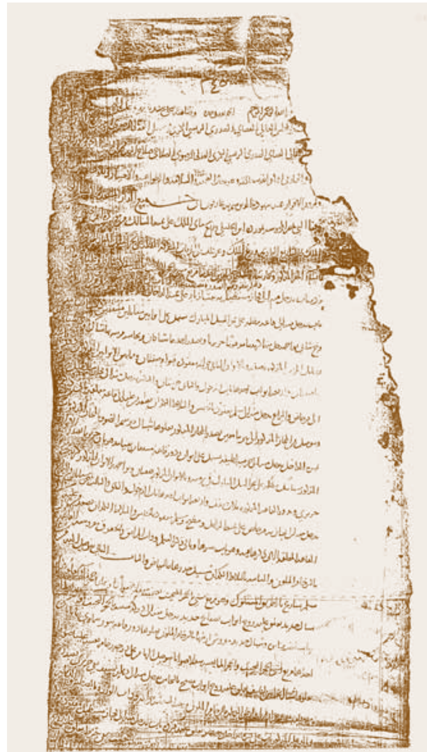
١- الوثائق

٢- الصور

الوثائق

الوثيقة الأولى

حجة وقف محمد نور الدين علي الجزولي،
٣ شوال ٧٦٦هـ، رقم الوثيقة ٤٥،
دار الوثائق القومية – مصر.



ومحتواها كالآتي:

جميع الدار المستجدة الإنشاء الكاملة أرضًا وبناءً التي بمصر المحروسة بموردة ابن الخليلي وريع سـناء الملك على يمنة السالك من موردة ابن الخليلي وريـع سـناء الملك طالبـا ريـع العاوى وريـع الملـك وغيـر ذلك مـن الطرقات المتفرقة المطلة على بحر النيل المبارك في زمنه المعروفة بإنشـاء المقر المذكور وعمارته.

بعد انقراض الموقوف عليهم.

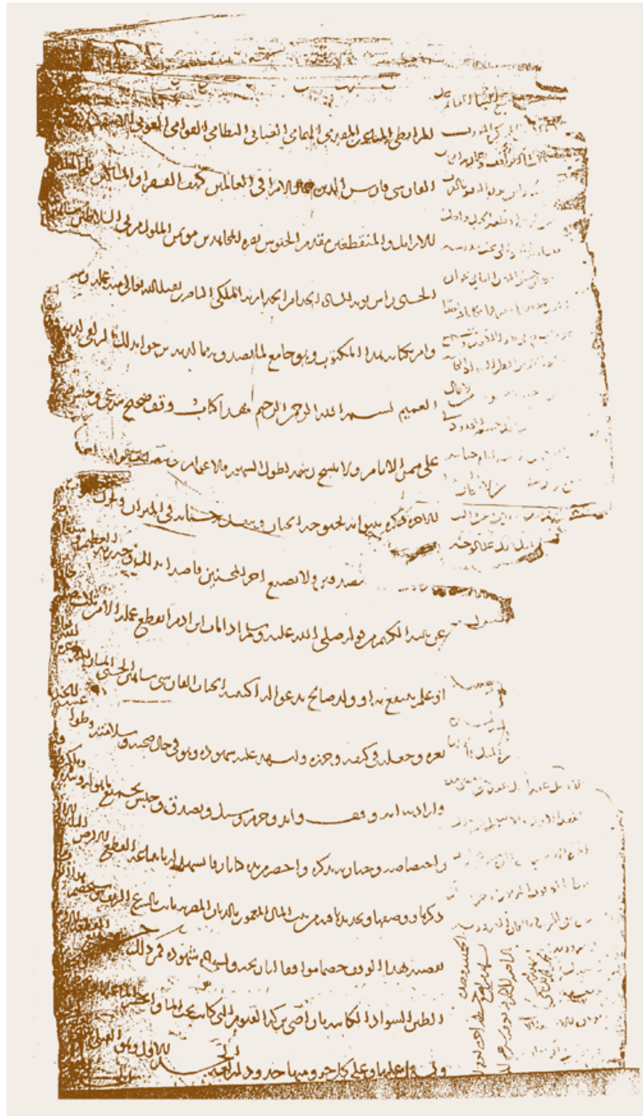
سطر ١٣ من أسفل الوثيقة: ولم يبق منهم أحد كان ذلك مصروفًا.

فـي مصالح الحرمين الشـريفين شـرفهما اللـه تعالى وعظمهمـا، يصرف الناظر ريع ذلك على ما يراه في ثمن زيت وشمع وحصر وقناديل.

ونقد للمجاورين بمكة المشرفة والواردين إليها.

الوثيقة الثانية

حجة وقف شاهين بن عبدالله الحسني الطواشي، تاريخها ٢٧ محرم ٨٠٨هـ، رقم الوثيقة ٦٢، دار الوثائق القومية – مصر.



ومحتواها كالآتي:

قطعة أرض بأراضي بركة الفيوم، أرض بناحية طمويه، أرض المقنن، أرض معروفة بالجزيرة بمنى الأمير بالجيزة، ثلاثة أبنية وإِسطبلين بظاهر القاهرة مجدرة البقر بالقرب من مدرسة السلطان حسن، قطعة أرض ناحية دموه جيزة، قرية دجانية بالقدس.

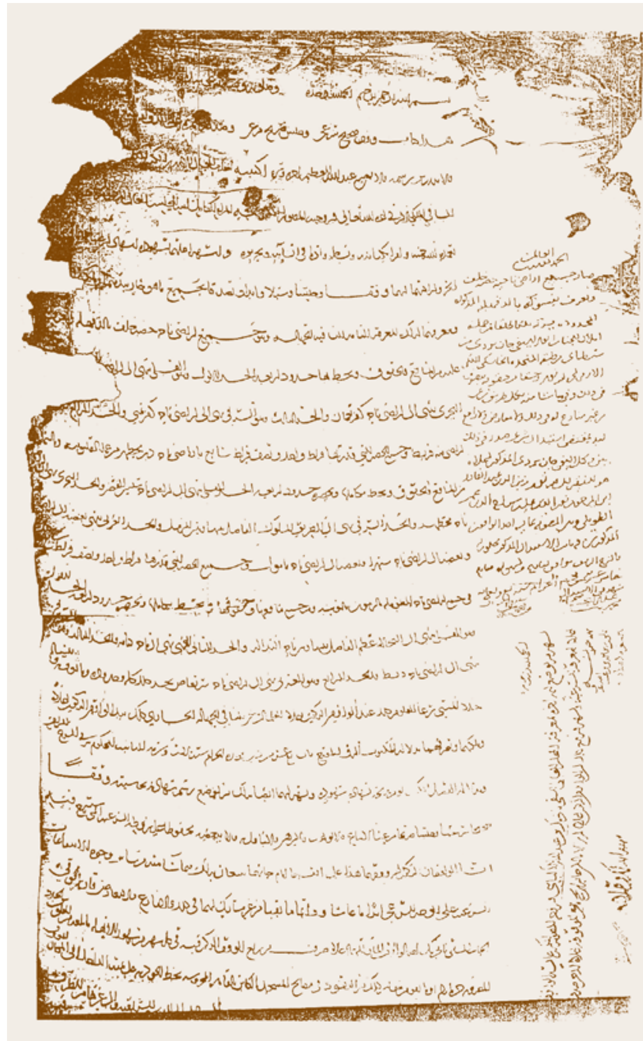
يصرف بالحرم المكي ١٠٠ درهم نقرة شهريًا لتعليم عشرة أيتام، ٥٠ درهم نقرة سنويًا لكسوتهم، ٣٠ درهم نقرة شهريًا لمؤدبهم، ٢٠٠ درهم نقرة سنويًا لمدرس شافعي، ١٠٠ درهم نقرة سنويًا لأربعة طلبة شافعية، ٢٠٠ درهم نقرة سنويًا لمدرس حنفي، ١٠٠ درهم نقرة سنويًا لأربعة طلبة حنفية، ٢٠٠ درهم نقرة سنويًا لقارئ قرآن، ٢٠٠ درهم نقرة سنويًا لمتصدر الفرائض، ٥٠٠ درهم نقرة سنويًا برسم تسيل ماء، يصرف بالحرم المدني، ١٠٠ درهم نقرة شهريًا لعشرة أيتام، ٥٠ درهم نقرة سنويًا لكسوتهم، ٥٠ درهم نقرة شهريًا لمؤدبهم، ٣٠ درهم نقرة سنويًا لقارئ بالروضة، ٣٠ درهم فضة بيضاء برسم سقاية ماء، ١٥٠٠ درهم نقرة سنويًا للخدم البطالين بالحرم النبوي.

الوثيقة الثالثة

حجـة وقف عائشـة بنـت برجك بـن عبداللـه الأقبغـاوي ، وزوجها تانـي بك بن عبدالله الألياسي،

تاريخها ٨٦٤هـ، رقم الوثيقة (١٢٣)،

دار الوثائق القومية ـ مصر.



ومحتواها كالآتي:

جميع أراضي ناحية حصة خلف بالدقهلية، وحصة قدرها قيراط ونصف في أراضي ناحية در بحطهر من عمل القليوبية، وحصة قدرها قيراط ونصف في أراضي ناحية الطوفلة بالزيتون الغربية.
بعد انقراض العتقاء يصرف للحرمين ما يلي:
.... صرف الناظر المذكور
ما كان يصرف للعتقاء المذكورة أعلاه لرجل من أهل الخير حافظًا لكتاب الله العزيز يكون مقيمًا بالمدينة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والرحمة والرضوان في كل سنة من الفلوس الجدد المضروبة ألفا درهم وأربعمئة درهم أو ما يقوم مقامها من النقود على أن يقرأ تجاه الحجرة الشريفة النبوية في كل يوم نصف حزب من القرآن العظيم في مصحف شريف بعد صلاة الصبح ويختم دعاءه بالصلاة على النبي ﷺ والترضي عن الصحابة أجمعين فإن تعذرت القراءة بعد الصبح قرأ القارئ في أي وقت تيسر له قراءته فيه، وما فضل بعد ذلك يصرف لجهة الحرمين الشريفين نصفين بالسوية فيصرف من ذلك، (لمستقر بالمكان المذكور فيه في كل سنة) من الفلوس الجدد المضروبة ثمانمئة درهم أو ما يقوم مقامها من النقود وما فضل يصرف للحرمين المشار إليهما أعلاه فيوزع نصف للحرم المكي في (جامكية) المؤذنين والفراشين والوقادين، ونصف للحرم المدني يصرف للفقراء والمساكين المجاورين بالحرم المدني من الفقهاء وغيرهم كل ذلك حسب ما يراه الناظر ويؤدي إليه اجتهاده من الزيادة والنقصان، فإن تعذر الصرف لأحدهما صرف للآخر فإن تعذر والعياذ بالله تعالى صرف إلى الفقراء والمساكين أينما كانوا وحيثما وجدوا.

الوثيقة الرابعة

حجة وقف أم الحسن ، ابنة أبي عبدالله محمد بن محمد البلقيني، تاريخها ٣ صفر ٩١٧هـ ، رقم الوثيقة ٢٧٣،
دار الوثائق القومية – مصر.



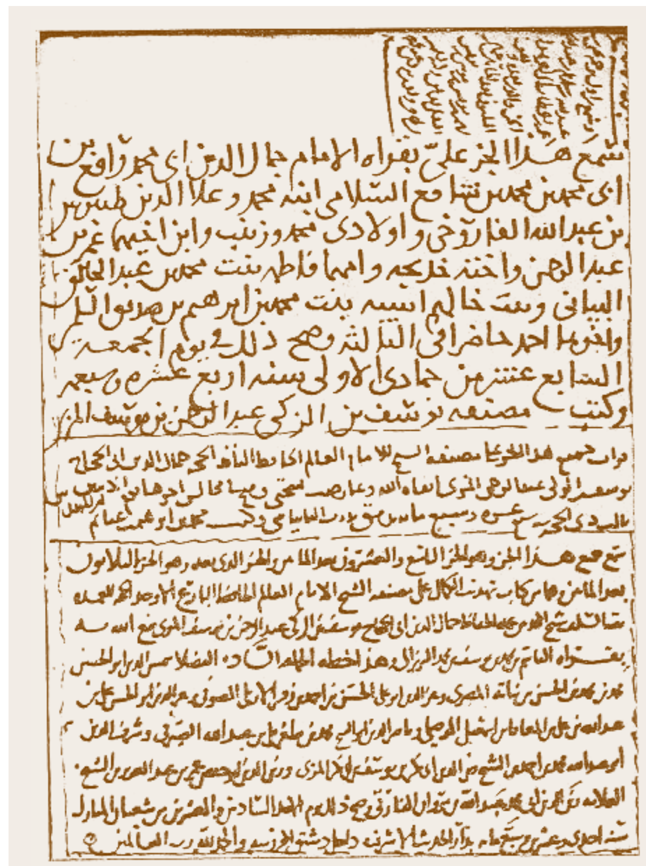
حسبنا الله ونعم الوكيل وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

ومحتواها كالآتي:

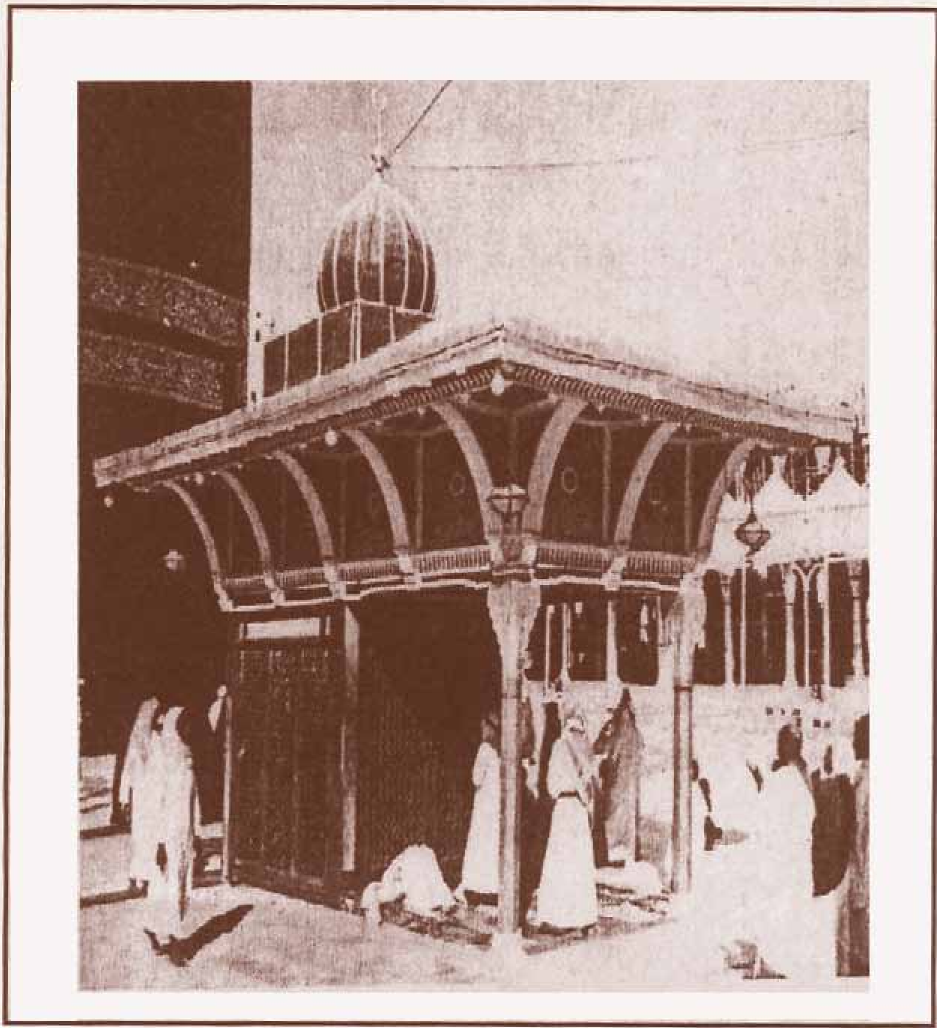
جميع المكان الكامل أرضاً وبناءً الكائن ظاهر القاهرة المحروسة خارج باب البحر ببولاق بخط حلقة السمك (وكالة).

يقسم الفاضل من ريع الوقف: أثلاثا، فالثلث الأول لمن يوجد من أولاد السعدي إبراهيم المذكور وذريته ونسله وعقبه ما عقبوا ودائمًا ما تناسلوا، والثلث الثاني يقسم بين شيخ الشيبية خدام البيت الشريف وخدام الدرجة الشريفة نصفين بالسوية، والثلث الثالث لخدام الحجرة الشريفة النبوية على الحال بها مشرفها أفضل الصلاة والتسليم، ويكون من جملتهم عبدالسلام بن صالح وأخوه مدة حياتهما، وإن انقرضت ذرية السعدي إبراهيم المذكور صرف ما كان يصرف لهم لمستولدته جان حييت مدة حياتها، ثم من بعدها يضم للثلثين الآخرين ويصرف في مصارفهما.

الصور

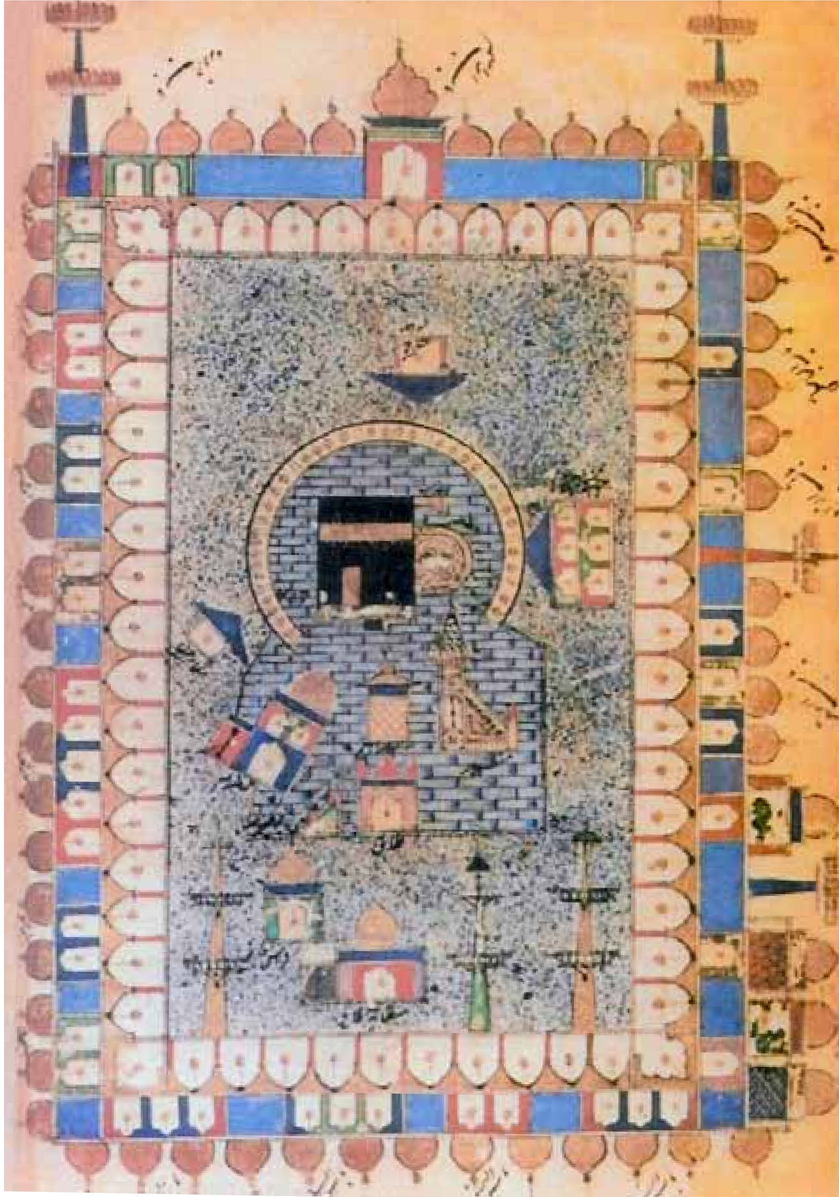


نموذج للإجازات القديمة فيه خطوط المزي وابن غنائم والبرزالي.
نقلًا عن إجازات السماع في المخطوطات القديمة،
مجلة معهد المخطوطات العربية ، ص٢٣٢



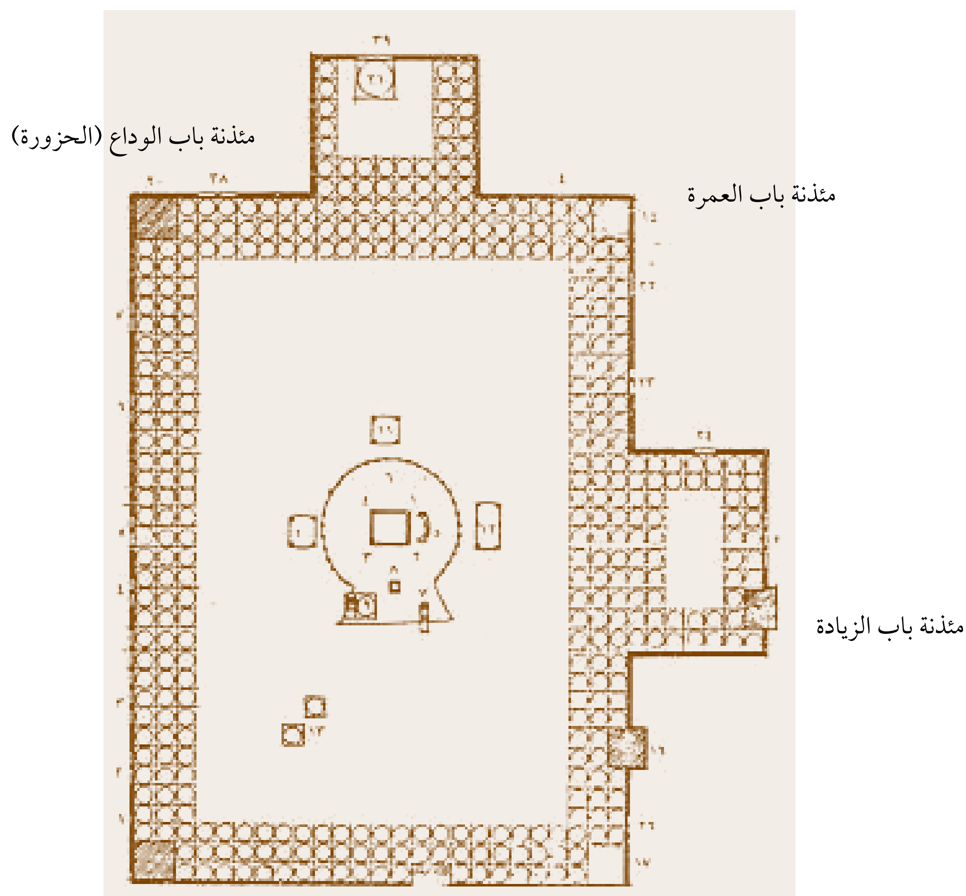
الصورة رقم (١)

مقام إبراهيم عليه السلام
نقلًا عن التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم



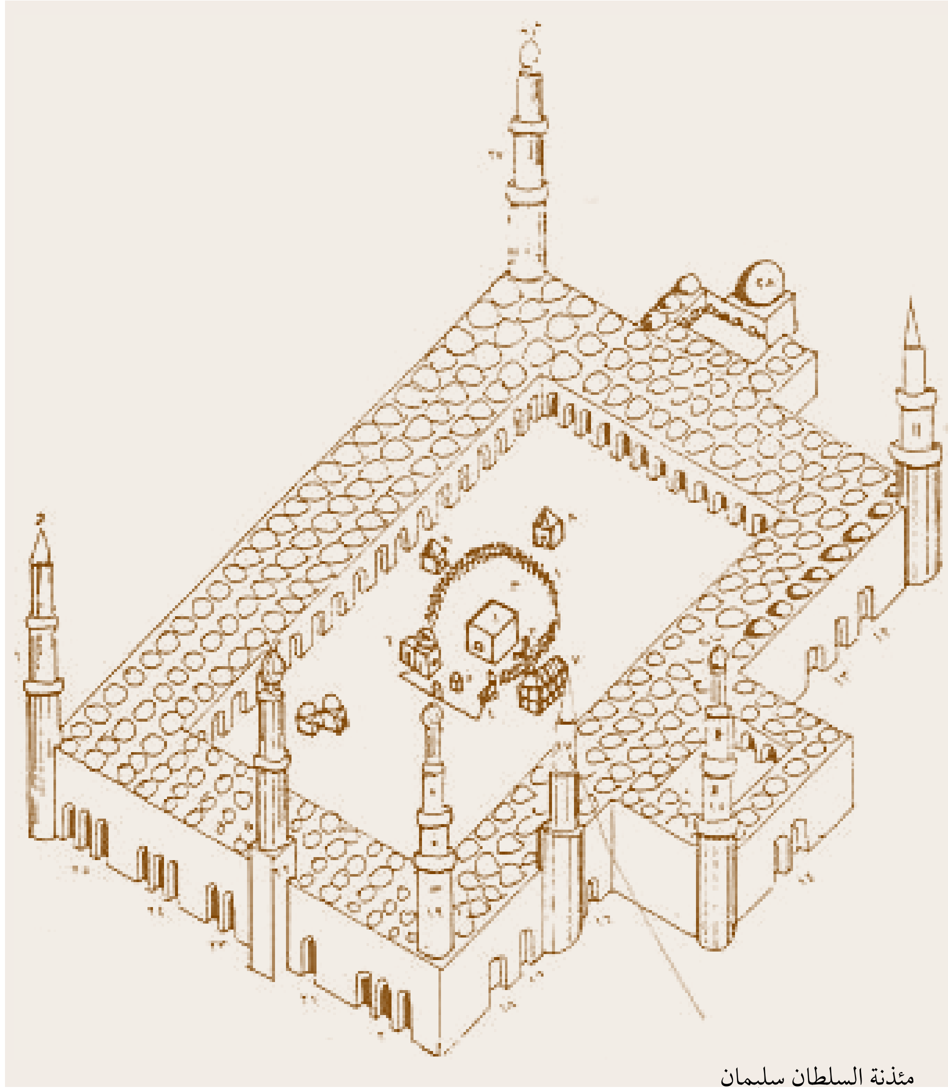
الصورة رقم (٢)

المسجد الحرام وتظهر فيها أماكن المقامات
نقلًا عن الأطلس المصور لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة

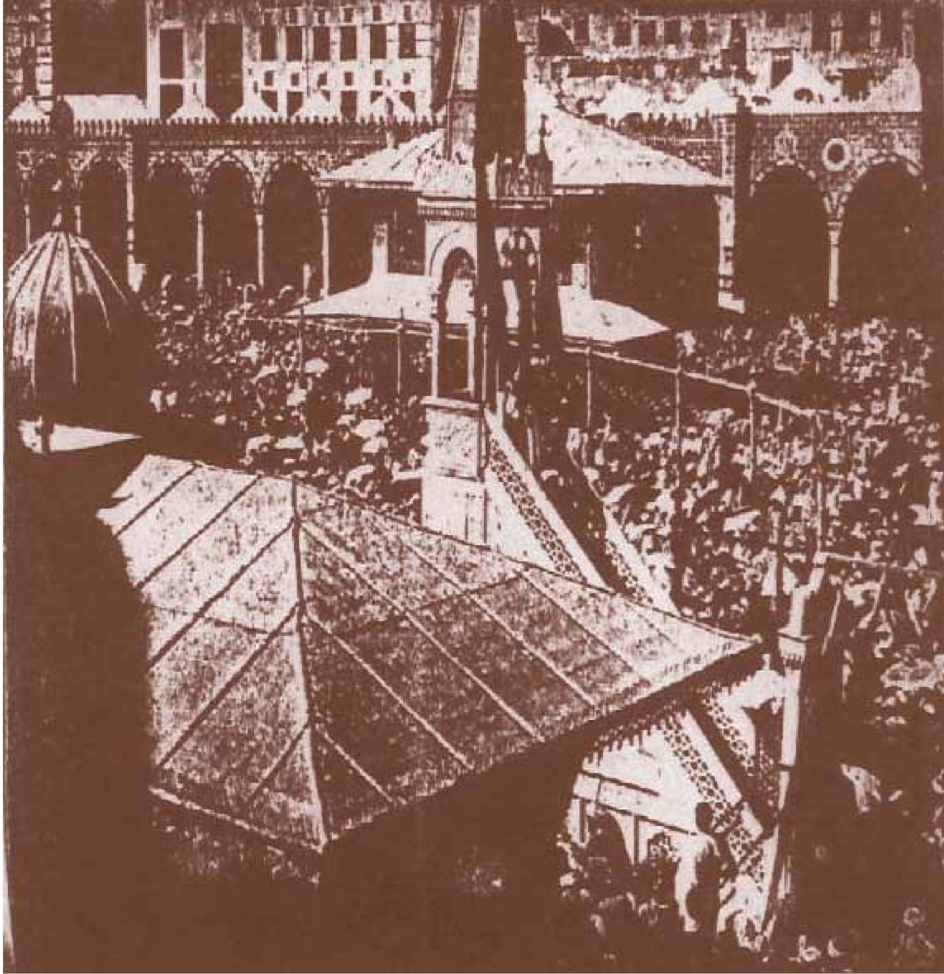


الصورة رقم (٣)

المآذن في المسجد الحرام
نقلًا عن المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي

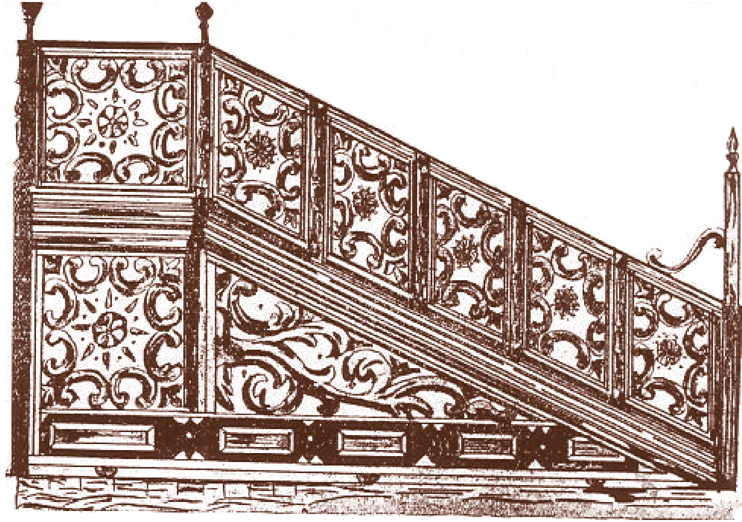


الصورة رقم (٤)
مئذنة السلطان سليمان خان
نقلًا عن المسجد الحرام بمكة المكرمة ورسومه في الفن الإسلامي



الصورة رقم (٥)

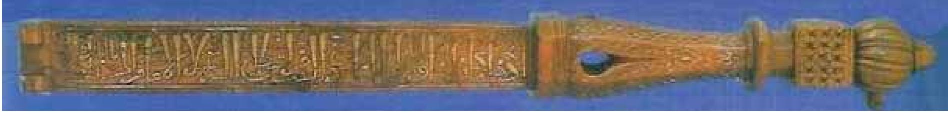
المسجد الحرام ويظهر فيها المنبر الذي يصعد عليه الخطيب لأداء خطبة الجمعة والعيدين نقلًا عن مرآة الحرمين



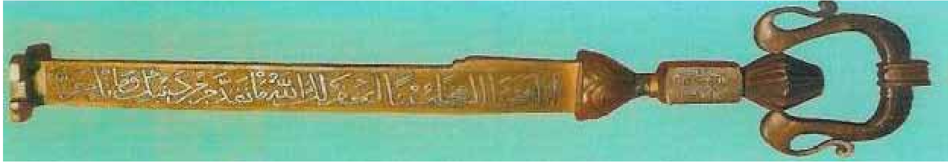
الصورة رقم (٦)
السلم الذي يُصعد عليه لداخل الكعبة المشرفة أو ما يطلق عليه (درج الكعبة)
نقلًا عن مرآة الحرمين



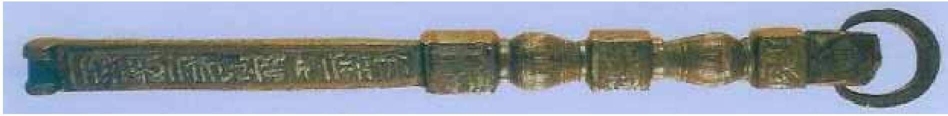
الصورة رقم (٧)
الكيس الذي يوضع فيه مفتاح الكعبة لصيانته وحفظه من الضياع أو السرقة
نقلًا عن كتاب فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم عليه السلام



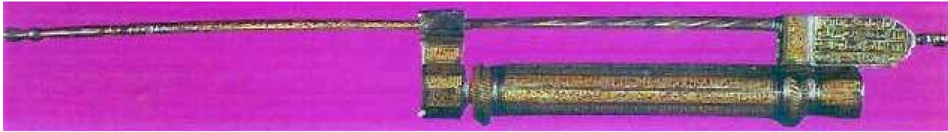
قفل باب الكعبة تاريخه: ٦٥٩-٦٦٠هـ/ ١٢٦١م طوله ٢٧ سم



قفل باب الكعبة تاريخه: ٧٤٣هـ/ ١٣٤٢م طوله ٣٤ سم



قفل باب الكعبة تاريخه: ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م طوله ٣٢ سم



قفل باب الكعبة تاريخه : ٨٠٤هـ/ ١٤٠١-١٤٠٢م طوله ٥٠ سم



قفل باب الكعبة ومفتاحه تاريخه : القرن ٩هـ/ ١٥م طول القفل ٢٤سم وطول المفتاح ١٩ سم

الصورة رقم (٨)

قفل باب الكعبة المشرفة ومفتاحه، نقلًا عن كتاب الكعبة المشرفة



الصورة رقم (٩)
الدوارق التي كان يبرّد فيها ماء زمزم ليشرب منه زوار البيت الحرام
نقلًا عن منار الجامعة





نموذج شمعدان يستخدم في تلك الحقبة

الصورة رقم (١٠)

الشمعدانات التي يوضع فيها الشمع للإضاءة

نقلًا عن الفنون الزخرفية الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي



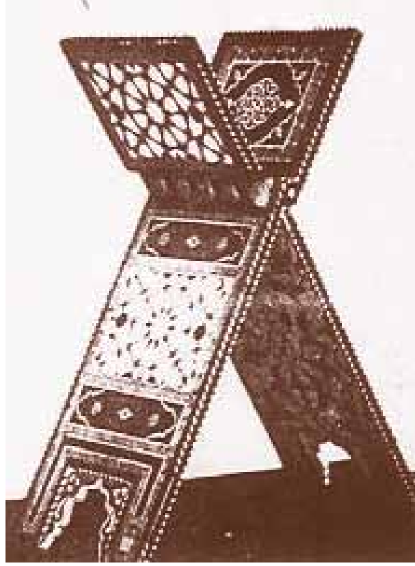
شمعدان من النحاس المكفت بالفضة



حامل شمعدان من النحاس المكفت بالفضة

الصورة رقم (١١)

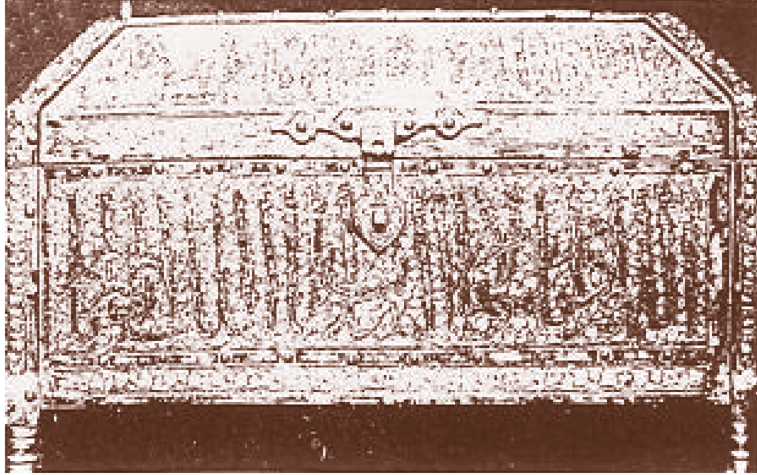
الشمعدانات في (القرن ٧هـ/ ١٣م)، نقلًا عن الفنون الإسلامية في العصر العثماني



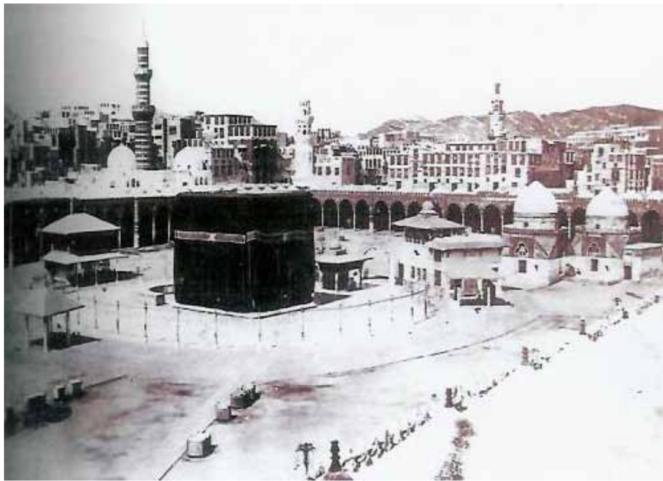
الصورة رقم (١٢)
كرسي مصحف (رحل) القرن ١٠هـ/ ١٦م
نقلًا عن الفنون الإسلامية في العصر العثماني



الصورة رقم (١٣)
صندوق خشبي لحفظ أجزاء القرآن الكريم
نقلًا عن الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر الأيوبي والمملوكي



الصورة رقم (١٤)
صندوق مصحف من الخشب المصفح بالنحاس المكفت بالذهب والفضة، مصر، ق٨هـ
نقلًا عن الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر الأيوبي والمملوكي



الصورة رقم (١٥)
المسجد الحرام ويظهر في الصورة قبة سقاية العباس وقبة الفراشين،
وقد أزيلتا عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م. نقلًا عن صفحات من تاريخ
مكة المكرمة في نهاية القرن الثالث عشر الهجري



الصورة رقم (١٦)

المسجد الحرام وتظهر به أغلب الأبواب التي ذكر الرحالون والمؤلفون أسماءها نقلًا عن مرآة الحرمين

الكشاف العام

(آ–أ)

(ت)

(ج - خ)

(ص - ظ)

(ع - غ)

(ف - ق)

(ن – هـ)

(و– ي)

المصادر والمراجع

أولًا: الوثائق:

- حجة وقف السلطان الأشرف برسباي مؤرخة في ١٦ جمادى الآخرة سنة ٨٢٧هـ/ ١٤٢٣م، رقم الوثيقة (٨٨٠ق)، أوقاف مصر.
- حجة وقف السلطان الأشرف قانصوه الغوري مؤرخة في ٢٦ محرم سنة ٩٠٩هـ/ ١٥٠٣م، رقم الوثيقة (٨٨٢ق)، أوقاف مصر.
- حجة وقف السيف أيتمش بن عبدالله الظاهري الأتابكي رأس نوبة الأمراء الملكي المؤرخة في ٢ رجب سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م، رقم الوثيقة (١١٤٣ق)، مكرر أوقاف مصر.
- حجة وقف أم الحسن بنة أبي عبدالله محمد بن محمد البلقيني المؤرخة في ٣ صفر سنة ٩١٧هـ/ ١٥١١م، رقم الوثيقة (٢٧٣)، رقم المحفظة (٤٢)، دار الوثائق القومية مصر.
- حجة وقف شاهين بن عبدالله الحسني الطواشي المؤرخة في ٢٧ محرم سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م، رقم الوثيقة (٦٢)، رقم المحفظة (١٠)، دار الوثائق القومية مصر.
- حجة وقف عائشة بنت برجك بن عبدالله الأقبغاوي وزوجها تاني بك بن عبدالله الألياسي المؤرخة في ١٢ جمادى الثاني سنة ٨٦٤هـ/ ١٤٥٩م، رقم الوثيقة (١٢٣)، رقم المحفظة (١٧)، دار الوثائق القومية مصر.

- حجة وقف محمد نور الدين علي الجزولي المؤرخة في ٣ شوال سنة ٧٦٦هـ/ ١٣٦٤م، رقم الوثيقة (٤٥)، رقم المحفظة (١٧)، دار الوثائق القومية مصر.

ثانيًا: المصادر المخطوطة:

الحجبي: حسن عبدالقادر على محمد الشيبي.

١ - **هامش الإتمام على إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام**، مخطوط، مكتبة الحرم المكي الشريف، تحت رقم ٢٤٢١، تاريخ.

الدهلوي: عبدالستار الكتبي الصديقي المكي (ت١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م).

٢ - **السلسلة الذهبية في الشجرة الحجبية**، مخطوط، مكتبة الحرم المكي الشريف، تحت رقم ٢٤٢٣، رقم المخطوط ٤/ ٤ دهلوي، تاريخ.

الزمزمي: خليفة بن أبي الفرج (ت١٠٦٠هـ/ ١٦٥١م).

٣ - **نشر الآس في فضائل زمزم وسقاية العباس**، مخطوط، مكتبة الأسد الوطنية، الجمهورية السورية، تحت رقم ٥٩١٠، ميكروفيلم ٥٤٩٣.

عجيمي: حسن بن علي (ت١١١٣هـ/ ١٧٠٢م).

٤ - **الفتح الغيبي فيما يتعلق بمنصب آل الشيبي**، مخطوط، جامعة الملك سعود، تحت رقم ٣٤١، تاريخ.

الغازي: عبدالله بن محمد (ت١٣٦٥هـ/ ١٤١٣م).

٥ - **إفادة الأنام بذكر أخبار البلد الحرام**، مخطوط، مكتبة الحرم المكي الشريف، ٤ أجزاء، ج١ تحت رقم ٢٧٤٣، ج٢ تحت رقم ٢٧٤٤، ج٣ تحت رقم ٢٧٤٥، ج٤ تحت رقم ٢٧٤٦، تاريخ.

الفيروزآبادي: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ/ ١٤١٤م).

٦ - **إثارة الحجون لزيارة الحجون**، مخطوط، جامعة الرياض، شؤون المكتبات، تحت رقم١٨٤.

القليوبي: شهاب الدين.

٧ - **هذا تاريخ مكة**، مخطوط، مكتبة الحرم المكي الشريف، تحت رقم ٢٧٠٤، ميكروفيلم مصور.

اللبني: جعفر بن أبي بكر.

٨ - **الحديث شجون شرح الرسالة الجدية لابن زيدون**، مخطوط، مكتبة مكة المكرمة، تحت رقم ٣٢، أدب.

ثالثًا: المصادر المطبوعة:

٩ - ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي (ت٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م).

١٠ - **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق محمد مصطفى، الطبعة الأولى، فرانز شتاينر، فيسبادن، ١٣٩٥ هـ/ ١٩٧٥م.

١١ - ابن أبي الدم: شهاب الدين إبراهيم بن عبدالله (ت٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م).

١٢ - **أدب القضاء وهو الدرر المنظومات في الأقضية والحكومات**، تحقيق محمد عبدالقادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ابن الأبار: محمد بن عبدالله بن أبي بكر القضاعي (ت٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م).

١٣ - **التكملة لكتاب الصلة**، تصحيح السيد عزت العطار، مكتبة الخانجي - مصر، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م.

ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن على بن محمد الجزري (ت٦٣٠هـ/ ١٢٣٣م).

١٤ - **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، دار الفكر، دون ذكر سنة الطبع.

ابن الأثير: مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد (ت٦٠٦هـ/ ١٢١٠م).

١٥ - **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دار الفكر، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

ابن الإخوة: محمد بن محمد بن أحمد القرشي (ت٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م).

١٦ - **معالم القربة في أحكام الحسبة**، تحقيق محمد محمود شعبان، صديق أحمد عيسى المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٦م.

ابن الجزري: شمس الدين أبو الخير محمد بن محمد (ت٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م).

١٧ - **غاية النهاية في طبقات القراء**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م.

ابن الجوزي: أبو الفرج عبدالرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م).

١٨ - **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**، الطبعة الأولى، دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد، ١٣٥٧هـ.

ابن الحاج: أبو عبدالله محمد بن محمد العبدري (ت٧٣٧هـ/ ١٣٣٦م).

١٩ - **المدخل**، الطبعة الأولى، المطبعة المصرية بالأزهر، ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م.

ابن الحسين: يحيي بن الحسين بن القاسم (ت١١٠٠هـ/ ١٦٨٨م).

٢٠ - **غاية الأماني في أخبار القطر اليماني**، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مراجعة محمد مصطفى زيادة، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

ابن الصلاح: أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن (ت٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م).

٢١ - **صلة الناسك في صفة المناسك**، تقديم الشيخ محمد السبِّيل، تحقيق

محمد بن عبدالكريم بن عبيد، طبع على نفقة الشريف منصور صالح أبو رياش، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

ابن الضياء القرشي: أبو البقاء محمد بن أحمد الحنفي (ت٨٥٤هـ/ ١٤٥١م).

٢٢ - **أحوال مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف**، تحقيق عبدالكريم الباز، دون ذكر سنة الطبع.

٢٣ - **مختصر تنزيه المسجد الحرام عن بدع الجهلة العوام**، الطبعة الأولى، دار البشائر الإسلامية، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

ابن العراقي: ولي الدين أبو زرعة أحمد بن عبدالرحمن (ت٨٢٦هـ/ ١٤٢٢م).

٢٤ - **الذيل على العبر في خبر من غبر**، تحقيق: صالح مهدي عباس، القسم الأول، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

ابن العماد: أبو الفلاح عبدالحي الحنبلي (ت١٠٨٩هـ/ ١٦٧٨م).

٢٥ - **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، دار الآفاق الجديدة، بيروت، دون ذكر سنة الطبع.

ابن القاضي: أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي (ت١٠٢٥هـ/ ١٦١٦م).

٢٦ - **ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، الطبعة الأولى، دار التراث، القاهرة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

ابن المستوفي: شرف الدين بن أبي البركات بن أحمد (ت٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م).

٢٧ - **تاريخ إربل المسمى نباهة البلد الخامل بمن ورد من الأماثل**، تحقيق سامي بن السيد خماس الصفار، بغداد، ١٩٨٠م.

ابن بشكوال: أبو القاسم خلف بن عبدالملك (ت٥٧٨ هـ/ ١١٨٢م).

٢٨ - **الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم**، تصحيح السيد عزت العطار، الطبعة الثانية، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

ابن بطوطة: محمد بن عبدالله (ت٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧م).

٢٩ - **رحلة ابن بطوطة (تحفة الناظر في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)**، تحقيق علي المنتصر الكناني، الطبعة الرابعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ابن تغري بردي: جمال الدين أبو المحاسن يوسف (ت٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م).

٣٠ - **الدليل الشافي على المنهل الصافي**، تحقيق فهيم شلتوت، مكتبة الخانجي، مصر، بدون ذكر سنة الطبع.

٣١ - **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**، تحقيق محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

٣٢ - **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، تحقيق إبراهيم على طرخان، مراجعة محمد مصطفى زيادة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن عبدالحليم (ت٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م).

٣٣ - **الحسبة في الإسلام أو وظيفة الحكومة الإسلامية**، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، مؤسسة مكة للطباعة والإعلام، مكة المكرمة، دون ذكر سنة الطبع.

٣٤ - **مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية**، جمع وترتيب عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، مكتبة المعارف - الرباط، دون ذكر سنة الطبع.

ابن جابر الوادي آشي: شمس الدين محمد التونسي (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).

٣٥ - **برنامج ابن جابر الوادي آشي**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، تونس، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

ابن جبير: محمد بن أحمد الكناني الأندلسي (ت٦١٤هـ/ ١٢١٧م).

٣٦ - **رحلة ابن جبير (التذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار)**، دار بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

ابن جماعة: بدر الدين سعد الله الكناني (ت٧٣٣هـ/ ١٣٣٢م).

٣٧ - **تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم**، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

ابن حبان البستي: أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد (ت٣٥٤هـ/ ٩٦٥م).

٣٨ - **مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار**، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، الطبعة الأولى، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

ابن حجر العسقلاني: أحمد بن علي بن محمد (ت٨٥٢هـ/ ١٤٤٩م).

٣٩ - **الإصابة في تمييز الصحابة**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٤٠ - **إنباء الغمر بأنباء العمر**، تحقيق حسن حبشي، مطابع الأهرام، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

٤١ - **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق محمد سيد جاد الحق، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة، ١٣٥٨هـ/ ١٩٦٦م.

٤٢ - **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تقديم وتحقيق عبدالقادر الحمد، الطبعة الأولى، طُبع على نفقة الأمير سلطان بن عبدالعزيز، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.

ابن حنبل: أبو عبدالله أحمد بن محمد (ت٢٤١هـ/ ٨٥٥م).

٤٣ - **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

ابن حوقل: أبو القاسم بن حوقل النصيبي (ت٣٦٧هـ/ ٩٧٨م).

٤٤ - **صورة الأرض**، دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

ابن خلدون: عبدالرحمن بن محمد (ت٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م).

٤٥ - **العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن**

عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة جمال للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

٤٦ - **مقدمة ابن خلدون**، الطبعة الرابعة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

ابن خلكان: أحمد بن محمد (٦٨١هـ/ ١٢٨٢م).

٤٧ - **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، دون ذكر سنة الطبع.

ابن دقماق: إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي (ت٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م).

٤٨ - **الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين**، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، مراجعة: أحمد السيد دراج، جامعة أم القرى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٢م.

ابن رجب الحنبلي: زين الدين أبو الفرج عبدالرحمن (ت٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م).

٤٩ - **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**، ضبطها وكتب هوامشها إبراهيم رمضان وسعيد اللحام، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

ابن رشيد: أبو عبدالله محمد بن عمر (ت٧٢١ هـ/ ١٣٢١م).

٥٠ - **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة إلى الحرمين مكة وطيبة**، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

ابن زنبل: أحمد الرمال (ت٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م).

٥١ - **آخرة المماليك أو واقعة السلطان الغوري مع سليم العثماني**، تحقيق عبدالمنعم عامر، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

ابن سعد: محمد بن سعد بن منيع البصري (ت٢٣٠هـ/ ٨٤٤م).

٥٢ - **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

ابن شاهين: غرس الدين خليل الظاهري (ت٨٧٣هـ/ ١٤٦٨م).

٥٣ - **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**، اعتنى بتصحيحه بولس راويس، المطبعة الجمهورية، باريس، ١٩٨٤م.

ابن شداد: القاضي بهاء الدين (ت٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م).

٥٤ - **النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية أو سيرة صلاح الدين**، تحقيق جمال الدين الشيال، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

ابن طولون الدمشقي: شمس الدين محمد (ت٩٥٣هـ/ ١٥٤٦م).

٥٥ - **مفاكهة الخلان في حوادث الزمان**، تحقيق محمد مصطفى، الدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.

ابن ظهيرة: جمال الدين محمد جار الله بن محمد (ت٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م).

٥٦ - **الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف**، الطبعة الرابعة، المكتبة الشعبية، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

ابن عبدالبر: أبوعمر يوسف (ت٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م).

٥٧ - **جامع بيان العلم وفضله**، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، الطبعة الأولى، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

ابن عبد ربه: أبو عمر أحمد بن محمد (ت٣٢٨هـ/ ٩٣٩م).

٥٨ - **العقد الفريد**، قدم له عمر عبدالسلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

ابن فهد: جار الله محمد عبدالعزيز بن عمر المكي (ت٩٥٤هـ/ ١٥٤٧م).

٥٩ - **نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الطبعة الأولى، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

ابن فهد: عمر بن فهد (ت٨٨٥هـ/ ١٤٨٠م).

٦٠ - **إتحاف الورى بأخبار أم القرى**، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الطبعة الأولى، مطبوعات مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م، الجزء الرابع تحقيق عبدالكريم الباز، جامعة أم القرى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٦١ - **الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، دراسة وتحقيق عبدالملك بن دهيش، الطبعة الأولى، مكتبة النهضة الحديثة، دار خضر، بيروت، دون ذكر سنة الطبع.

٦٢ - **معجم الشيوخ**، تحقيق محمد الزاهي، راجعه وقابله على أصله حمد الجاسر، دار اليمامة، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

ابن قتيبة: أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت٢٧٦هـ/ ٨٨٩م).

٦٣ - **عيون الأخبار**، الطبعة الأولى، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٦هـ/ ١٩٢٨م.

ابن كثير: عماد الدين إسماعيل بن عمر (ت٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).

٦٤ - **البداية والنهاية**، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٦٦م.

٦٥ - **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى عبدالواحد، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

ابن ماجه: أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني (ت٢٧٣هـ/ ٨٨٦م).

٦٦ - **سنن ابن ماجة**، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

ابن مسكويه: أبو علي أحمد بن محمد (ت٤٢١هـ/ ١٠٣٠م).

٦٧ - **تهذيب الأخلاق في التربية**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت٧١١هـ/ ١٣١١م).

٦٨ - **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، دون ذكر سنة الطبع.

ابن هشام: أبو محمد عبدالملك بن هشام (ت٢١٣هـ/ ٨٢٨م).

٦٩ - **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبدالحفيظ شلبي، الطبعة الثانية، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

٧٠ - **السيرة النبوية**، الطبعة الأولى، دار الخير، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

ابن هشام: أبو محمد عبدالله جمال الدين بن يوسف (ت٧٦١هـ/ ١٣٥٩م).

٧١ - **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة المدني، القاهرة، دون ذكر سنة الطبع.

أبو داود: سليمان بن الأشعث السجستاني (ت٢٧٥هـ/ ٨٨٨م).

٧٢ - **سنن أبي داود**، إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس، عادل السيد، الطبعة الأولى، دار الحديث، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

أبو شامة: أبو القاسم عبدالرحمن المقدسي (ت٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م).

٧٣ - **الباعث على إنكار البدع والحوادث**، تحقيق بشير محمد عيون، الطبعة الأولى، مكتبة المؤيد، الطائف، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

أبو يعلي: محمد بن الحسين الفراء الحنبلي (ت٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م).

٧٤ - **الأحكام السلطانية**، تحقيق محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م.

٧٥ - **طبقات الحنابلة**، مطبعة السنة المحمدية، بدون ذكر سنة الطبع.

الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبدالله بن أحمد (ت٢٢٣هـ/ ٨٧٥م).

٧٦ - **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق رشدي الصالح ملحس، الطبعة الثانية، دار الثقافة، مكة المكرمة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

٧٧ - طبعة أخرى تحت عنوان «**تاريخ مكة شرفها الله تعالى**» تحقيق هشام عطا وآخرون، إشراف سعيد عبدالفتاح عاشور، الطبعة الثانية، المكتبة التجارية، مصطفى الباز، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

الأسدي: أحمد محمد المكي (ت١٠٦٦هـ/ ١٦٥٦م).

٧٨ - **إخبار الكرام بأخبار المسجد الحرام**، تحقيق الحافظ غلام مصطفى، الطبعة الأولى، دار الصحوة، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

الإسنوي: جمال عبدالرحيم (ت٧٧٢هـ/ ١٣٧٠م).

٧٩ - **طبقات الشافعية**، تحقيق عبدالله الجبوري، دار العلوم للطباعة والنشر، الرياض، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨١م.

الأنصاري: عبدالرحمن عبدالكريم (ت١١٢٤هـ/ ١٧١٢م).

٨٠ - **تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما للمدنيين من الأنساب**، تحقيق محمد العروسي المطري، الطبعة الأولى، المكتبة العتيقة، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

البخاري: أبو عبدالله محمد بن إسماعيل البخاري (ت٢٥٦هـ/ ٨٧٠م).

٨١ - **صحيح البخاري**، دار الفكر، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

البغدادي: أبو بكر أحمد بن علي المعروف بالخطيب البغدادي (ت٤٦٣ هـ/ ١٠٧٠م).

٨٢ - **تاريخ بغداد أو مدينة السلام**، المكتبة السلفية، المدينة المنورة، دون ذكر سنة الطبع. **الكفاية في علم الرواية**، ١٣٥٧هـ.

البلاذري: أبوالحسن أحمد بن يحيى (ت٢٧٩ هـ/ ٨٩٢م).

٨٣ - **فتوح البلدان**، قام بمراجعته والتعليق عليه رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

البلوي: خالد بن عيسى (ت٧٦٥ هـ/ ١٣٦٤م).

٨٤ - **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، تحقيق العلامة الحسن السائح، مطبعة فضالة، الرباط، بدون ذكر سنة الطبع.

ابن عباد: إسماعيل بن عباد (ت٣٨٥هـ/ ٩٩٥م).

٨٥ - **المحيط في اللغة**، تحقيق الشيخ محمد حسن آل ياسين، الطبعة الأولى، عالم الكتب، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

البيهقي: إبراهيم بن محمد.

٨٦ - **المحاسن والمساوئ**، تحقيق محمد سويد، الطبعة الأولى، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

التجيبي: القاسم بن يوسف السبتي (ت٧٣٠هـ/ ١٣٢٩م).

٨٧ - **مستفاد الرحلة والاغتراب**، تحقيق عبدالحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

الجزيري: عبدالرحمن.

٨٨ - **الفقه على المذاهب الأربعة**، دار الفكر ودار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

الجزيري: عبدالقادر بن محمد الأنصاري (ت٩٧٧هـ/ ١٥٦٩م).

٨٩ - **الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، أعده للنشر حمد الجاسر، الطبعة الأولى، دار اليمامة، الرياض، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٩٠ - طبعة المطبعة السلفية تحت عنوان «**الدرر الفوائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**».

حاجي خليفة: مصطفى بن عبدالله القسطنطيني (ت١٠٦٧هـ/ ١٦٥٦م).

٩١ - **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، دار العلوم الحديثة، بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

الحجاوي: **شرف الدين أبو النجا موسى بن أحمد (ت٩٦٠هـ/ ١٥٥٢م).**

٩٢ - **الروض المربع بشرح زاد المستقنع والشرح للعلامة منصور بن يونس البهوتي**، الطبعة الثامنة، دار الكتب العلمية - بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

الحموي: **شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت (٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).**

٩٣ - **معجم الأدباء**، الطبعة الثالثة، دار الفكر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٩٤ - **معجم البلدان**، الطبعة الأولى، طبع بمطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م.

الحميري: **محمد بن عبدالمنعم (ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م).**

٩٥ - **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، الطبعة الأولى، طُبع على مطابع هيدلبرغ، بيروت، ١٩٧٥م.

الخزرجي: **علي بن الحسين (ت٨١٢هـ/ ١٤٠٩م).**

٩٦ - **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**، تحقيق محمد بسيوني عسل، دار الثقافة، ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م.

خسرو: **ناصر (ت٤٨١هـ/ ١٠٨٨م).**

٩٧ - **سفرنامة**، نقلها إلى العربية يحيى الخشاب، دار الكتاب الجديد، بدون ذكر سنة الطبع.

الدارمي: أبو محمد عبدالله بن عبدالرحمن (٢٥٥هـ/ ٨٦٨م).

٩٨ - **سنن الدارمي**، تحقيق مصطفى ديب البغا، الطبعة الأولى، دار القلم، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

الديار بكري: حسين بن محمد بن الحسن (ت٩٦٦هـ/ ١٥٥٨م).

٩٩ - **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**، مكتبة المعارف، الطائف، دون ذكر سنة الطبع.

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ/ ١٣٤٨م).

١٠٠ - **تذكرة الحفاظ**، صُحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي الشريف، تحت إعانة وزارة المعارف للحكومة العالية الهندية، دار الكتب العلمية، بيروت، دون ذكر سنة الطبع.

١٠١ - **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الزبيدي: محمد مرتضى (ت١٢٠٥هـ/ ١٧٩٠م).

١٠٢ - **تاج العروس من جواهر القاموس**، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية، مصر، ١٣٠٦هـ.

١٠٣ - سبط ابن الجوزي: شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزاوغلي (ت٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م).

١٠٤ - **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، تحقيق جنان جليل الهموندي، الدار الوطنية، بغداد، ١٩٩٠م.

١٠٥ - **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**، تحقيق مسفر سالم الغامدي، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

السبكي: قاضي القضاة تاج الدين عبدالوهاب (ت٧٧١ هـ/ ١٣٦٩م).

١٠٦ - **طبقات الشافعية الكبرى،** تحقيق محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح محمد الحلو، الطبعة الأولى، بدون ذكر سنة الطبع.

١٠٧ - **طبقات الشافعية الكبرى،** الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

١٠٨ - **معيد النعم ومبيد النقم،** تحقيق محمد علي النجار، أبو زيد شلبي، محمد أبو العيون، الطبعة الثانية، مكتبة الخانجي، مصر، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.

السخاوي: محمد بن عبدالرحمن (ت٩٠٢ هـ/ ١٤٩٦م).

١٠٩ - **التبر المسبوك في ذيل السلوك،** مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، بدون ذكر سنة الطبع.

١١٠ - **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة،** طُبع على نفقة وزير الدولة السيد حسن الشربتلي، عني بطبعه ونشره أسعد الحسيني، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

١١١ - **الذيل على رفع الإصر أو بغية العلماء والرواه،** تحقيق جوده هلال ومحمد محمود صبح، مراجعة على البجاوي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون ذكر سنة الطبع.

١١٢ - **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع،** الطبعة الأولى، دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

السَّراج: محمد بن محمد الأندلسي الوزير (ت١١٤٩هـ/ ١٧٣٦م).

١١٣ - **الحلل السندسية في الأخبار التونسية،** تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥م.

السمعاني: أبو سعد عبدالكريم بن محمد بن منصور التميمي (ت٥٦٢هـ/ ١١٦٦م).

١١٤ – **الأنساب**، تحقيق: عبدالرحمن بن يحيى اليماني، الطبعة الثانية، الناشر: محمد أمين دمج، بيروت، لبنان، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

السنامي: عمر بن محمد بن عوض (ت٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م).

١١٥ – **نصاب الاحتساب**، تحقيق وتقديم موئل يوسف عز الدين، الطبعة الأولى، دار العلوم للطباعة والنشر، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

السنجاري: علي بن تاج الدين بن تقي الدين (ت١١٢٥هـ/ ١٧١٣م).

١١٦ – **منائح الكرم في أخبار مكة والبيت وولاة الحرم**، دراسة وتحقيق ماجدة فيصل زكريا، الطبعة الأولى، قام بتمويل الكتاب على نفقته الخاصة الشريف منصور صالح أبو رياش، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

السيوطي: جلال الدين عبدالرحمن بن محمد (ت٩١١هـ/ ١٥٠٥م).

١١٧ – **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، القاهرة، ١٩٦٤م.

١١٨ – **تدريب الراوي شرح تقريب النواوي**، حققه وراجع أصوله عبدالوهاب عبداللطيف، الطبعة الثانية، دار الكتب الحديثة، ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

١١٩ – **حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة**، مطبعة الموسوعات، مصر، طبع على نفقة مصطفى أفندي فهمي الكتبي وأخويه، بدون ذكر سنة الطبع.

١٢٠ – **نظم العقيان في أعيان الأعيان**، تحقيق: فيليب حتى، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤١٩هـ/ ٢٠٠٢م.

١٢١ – **الوسائل إلى معرفة الأوائل**، تحقيق عبدالرحمن الجوزو، الطبعة الأولى، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

الشاطبي: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الغرناطي (ت٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م).

١٢٢ - **الاعتصام**، المكتبة التجارية الكبرى، بدون ذكر سنة الطبع.

الشافعي: أبو عبدالله محمد بن إدريس (ت٢٠٤هـ/ ٨٢٠م).

١٢٣ - **الأم**، أشرف على طبعه وباشر تصحيحه محمد زهري النجار، الطبعة الأولى، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

الشوكاني: محمد بن علي (ت١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م).

١٢٤ - **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**، دار المعرفة، بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

الصابي: أبو إسحاق إبراهيم بن هلال الكاتب (ت٣٨٤هـ/ ٩٩٤م).

١٢٥ - **المنتزع من كتاب التاجي لأبي إسحاق الصابي**، تحقيق وشرح محمد حسين الزبيدي، وزارة الأعلام، العراق، ١٩٧٧م.

الصفدي: صلاح الدين خليل بن ايبك (ت٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م).

١٢٦ - **الوافي بالوفيات**، باعتناء هلموت ريتر، الطبعة الثانية، فرانز شتاينر، فيسبادن،١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

الصنعاني: محمد بن إسماعيل الأمير اليمني (ت١١٨٢هـ/ ١٧٦٨م).

١٢٧ - **تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد**، طُبع على نفقة الفقير لله سعد بن محمد بن عبدالعزيز آل سعود، بدون ذكر سنة الطبع.

الصيرفي: علي بن داود (ت٩٠٠هـ/ ١٤٩٤م).

١٢٨ - **نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان**، تحقيق حسن حبشي، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٣م.

طاش: كبري زاده (ت٩٨٦هـ/ ١٥٦٠م).

١٢٩ - **مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

الطبري: علي عبدالقادر (ت١٠٧٠هـ/ ١٦٦٠م).

١٣٠ - **الأرج المسكي في التاريخ المكي**، تحقيق أشرف أحمد الجمال، الطبعة الأولى، المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز، مكة المكرمة، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

الطبري: محب الدين أحمد بن عبدالله (ت٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م).

١٣١ - **القرى لقاصد أم القرى**، تحقيق مصطفى السقا، دار الكتب العلمية، بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

الطرطوشي: أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد (ت٥٢٠هـ/ ١١٢٦م).

١٣٢ - **الحوادث والبدع**، تحقيق عبدالمجيد تركي، الطبعة الأولى، دار الغرب الإسلامي، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

العبدري: أبو عبدالله محمد بن محمد (ت٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م).

١٣٣ - **رحلة العبدري المسماة الرحلة المغربية**، حققه وقدم له وعلق عليه محمد الفاسي، الرباط، ١٩٦٨م.

العز بن فهد: عز الدين عبدالعزيز بن عمر (ت٩٢٢هـ/ ١٥١٦م).

١٣٤ - **بلوغ القرى في ذيل إتحاف الورى بأخبار أم القرى**، الجزء الأول تحقيق صلاح الدين إبراهيم من عام ٨٨٥هـ-٨٩٥هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ، الجزء الثاني تحقيق عليان المحلبدي من ٨٩٦هـ-٩٠٩هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ، الجزء الثالث تحقيق عبدالرحمن أبو الخيور

من ٩١٠هـ-٩٢٢هـ، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، ١٤٢٢هـ.

١٣٥ - **غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام**، تحقيق فهيم محمد شلتوت، الطبعة الأولى، دار المدني، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، الجزء الثاني والثالث، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

العصامي: عبدالملك بن حسين المكي (ت١١٠١هـ/ ١٦٨٩م).

١٣٦ - **سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي**، المطبعة السلفية ومكتبتها، القاهرة،١٣٨٠هـ/ ١٩٦١م.

العمري: شهاب الدين أحمد بن يحيى (ت٧٤٩هـ/ ١٣٤٨م).

١٣٧ - **التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق محمد حسين شمس الدين، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

الفاسي: تقي الدين محمد بن أحمد بن علي (ت٨٣٢هـ/ ١٤٢٨م).

١٣٨ - **الزهور المقتطفة من تاريخ مكة المشرفة**، إعداد حمد المهنا، الطبعة الأولى، مكتبة الأوقاف، مجمع الأوقاف، الكويت، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٣٩ - **شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام**، تحقيق عمر عبدالسلام تدمري، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

١٤٠ - **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق فؤاد السيد، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.

١٤١ - **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩هـ.

الفاكهي: أبو عبدالله محمد بن إسحاق (تبعد٢٧٢هـ/ بعد ٨٨٥م).

١٤٢ - **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، تحقيق عبد الملك بن دهيش، الطبعة الأولى، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

الفيروز أبادي: مجد الدين أبي طاهر محمد بن يعقوب (ت٨١٧هـ/ ١٤١٤م).

١٤٣ – **القاموس المحيط**، الطبعـة الثانية، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

الفيومي: أحمد محمد على المقرئ (ت٧٧٠هـ/ ١٣٦٨م).

١٤٤ – **المصباح المنير**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م.

القطبي: عبدالكريم محب الدين بن علاء الدين (ت١٠١٤هـ/ ١٧٠٢م).

١٤٥ – **إعـلام العلمـاء الأعـلام لبنـاء المسـجد الحـرام**، تحقيـق أحمـد محمد الجمـال، عبدالعزيـز الرفاعـي، عبداللـه الجبـوري، الطبعـة الأولى، دار الرفاعي، الرياض، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

القلقشندي: أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٢١هـ/ ١٤١٨م).

١٤٦ – **صبح الأعشـى في صناعة الإنشـا**، المطبعة الأميرية بالقاهرة، دار الكتب الخديويـة، ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م.

١٤٧ – **نهاية الأرب في معرفة أنسـاب العرب**، تحقيق إبراهيـم الأبياري، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٩م.

الكاساني: علاء الدين أبو بكر بن مسعود الحنفي (ت٥٨٧هـ/ ١١٩١م).

١٤٨ – **بدائع الصنائع في ترتيب الشـرائع**، الطبعة الأولـى، دار الكتـاب العربي، بيروت، ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م.

مالك: أبو عبدالله مالك بن أنس الأصبحي (ت١٧٩هـ/ ٧٩٥م).

١٤٩ – **موطأ الإمام مالك**، صححه ورقمه وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث العربي، بدون ذكر سنة الطبع.

الماوردي: أبو الحسن على بن محمد البصري البغدادي (ت٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م).

١٥٠ - **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**، الطبعة الثالثة، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

١٥١ - **أدب القاضي**، تحقيق محيي هلال السرحان، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.

مسلم: أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري (ت٢٦١هـ/ ٨٧٤م).

١٥٢ - **صحيح مسلم**، الطبعة الأولى، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

المقدسي: أبو عبدالله محمد (ت٣٨٧ هـ/ ٩٩٧م).

١٥٣ - **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، الطبعة الثانية، مطبعة ليدن، ١٩٠٩م.

المقريزي: تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت٨٤٥ هـ/ ١٤٤١م).

١٥٤ - **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق محمد مصطفى زيادة وسعيد عاشور، الطبعة الثانية، مطبعة دار الكتب، ١٩٧٠م.

١٥٥ - **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، الطبعة الأولى، مكتبة مدبولي، ١٩٩٨م.

المنذري: زكي الدين عبدالعظيم بن عبدالقوي (ت٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).

١٥٦ - **الترغيب والترهيب من الحديث الشريف**، تصحيح مصطفى عمارة، ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م.

النسائي: أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب (ت٣٠٣هـ/ ٩١٥م).

١٥٧ - **سنن النسائي بشرح الحافظ جلال الدين السيوطي وحاشية الإمام السندي**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

النهروالي: محمد بن أحمد بن محمد بن قطب الدين (ت٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م).

١٥٨ - **الإعلام بأعلام بيت الله الحرام**، مطبعة المدرسة المحروسة، مدينة غتنقه، ١٣٧١هـ.

النووي: أبو زكريا محيي الدين بن شرف (ت٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م).

١٥٩ - **فتاوى الإمام النووي المسماة بالمسائل المنثورة**، ترتيب علاء الدين بن العطار، مطبعة التوفيق، دمشق، ١٣٤٨هـ.

١٦٠ - **المجموع شرح المهذب**، دار الفكر، بدون ذكر سنة الطبع.

الهيتمي: شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن حجر (ت٩٧٣هـ/ ١٥٦٥م).

١٦١ - **تحرير المقال في آداب وأحكام وفوائد يحتاج إليها مؤدبو الأطفال**، تحقيق محمد سهيل الديس، إشراف محمود الأرناؤوط، الطبعة الأولى، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

اليافعي: أبو محمد عبدالله بن أسعد بن علي (ت٧٦٨هـ/ ١٣٦٦م).

١٦٢ - **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يُعتبر من حوادث الزمان**، الطبعة الثانية، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

رابعًا: المراجع العربية:

إبراهيم: جمال عبدالرحيم.

١٦٣ - **الفنون الزخرفية الإسلامية في العصرين الأيوبي والمملوكي**، القاهرة، ٢٠٠٠م.

إبراهيم: رجب عبدالجواد.

١٦٤ - **المعجم العربي لأسماء الملابس في ضوء المعاجم والنصوص الموثقة من الجاهلية حتى العصر الحديث**، تقديم محمود فهمي حجازي،

راجع المادة المغربية عبدالهادي التازي، الطبعة الأولى، الشركة الدولية للطباعة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

إبراهيم: رجب عبدالجواد.

١٦٥ - **معجم المصطلحات الإسلامية في المصباح المنير**، الطبعة الأولى، دار الآفاق العربية، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

إبراهيم: عبداللطيف.

١٦٦ - **وثائق الوقف على الأماكن المقدسة**، دراسات في تاريخ الجزيرة العربية، الجزء الثاني، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.

أبو سليمان: عبدالوهاب إبراهيم.

١٦٧ - **الحرم الشريف، الجامع والجامعة**، نادي مكة الثقافي الأدبي، بدون ذكر سنة الطبع.

أبو علفة: رائد صبري.

١٦٨ - **معجم البدع**، الطبعة الأولى، دار العاصمة للنشر والتوزيع، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

أبو فارس: محمد الحجاج عبدالقادر يوسف.

١٦٩ - **تقرير عن رسالة القاضي أبي يعلي الفراء وكتابه الأحكام السلطانية**، الطبعة الأولى، جامعة الأزهر،١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

الألباني: محمد ناصر الدين.

١٧٠ - **صحيح سنن الترمذي باختصار السند**، إشراف زهير الشاويش، الطبعة الثامنة، مكتب التربية العربي لدول الخليج العربي، الرياض، ١٤١٨هـ.

أمين: محمد محمد.

١٧١ - **الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر**، دراسة تاريخية وثائقية، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م.

أمين: محمد محمد وليلى علي إبراهيم.

١٧٢ - **المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية**، الجامعة الأمريكية، القاهرة، بدون ذكر سنة الطبع.

الأنصاري: عبدالقدوس.

١٧٣ - **مع ابن جبير في رحلته**، الطبعة الأولى، المطبعة العربية الحديثة، ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م.

أنيس: إبراهيم، عبدالحليم منتصر، عطية الصوالي، محمد خلف الله أحمد.

١٧٤ - **المعجم الوسيط**، أشرف على الطبع حسن علي عطية، ومحمد شوقي أمين، دار الفكر، بدون ذكر سنة الطبع.

باسلامه: حسين عبدالله (ت١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م).

١٧٥ - **تاريخ عمارة المسجد الحرام بما احتوى من مقام إبراهيم وبئر زمزم والمنبر وغير ذلك**، الطبعة الثالثة، تهامة للنشر، جدة، ١٤٠٠هـ.

١٧٦ - **تاريخ الكعبة المعظمة - عمارتها وكسوتها وسدانتها**، الطبعة الأولى، تهامة للنشر، جدة، ١٣٥٤هـ.

باشا: إبراهيم رفعت (ت١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م).

١٧٧ - **مرآة الحرمين أو الرحلات الحجازية والحج ومشاعره الدينية**، الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م.

الباشا: حسن (ت١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

١٧٨ - **الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار**، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٧م.

١٧٩ - **الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية**، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٦م.

١٨٠ - **موسوعة العمارة والآثار والفنون الإسلامية**، الطبعة الأولى، مكتبة الدار العربية للكتاب، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

باقاسي: عائشة بنت عبدالله.

١٨١ - **بلاد الحجاز في العصر الأيوبي**، دار مكة للطباعة والنشر، بدون ذكر سنة الطبع.

البتنوني: محمد لبيب (ت١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م).

١٨٢ - **الرحلة الحجازية**، الطبعة الثانية، مطبعة الجمالية، مصر، ١٣٢٩هـ.

بدر: فايز.

١٨٣ - **وقفة أمام الكعبة**، مؤسسة الجريسي للتوزيع والإعلان، مطبعة سفير، بدون ذكر سنة الطبع.

البغدادي: إسماعيل باشا (ت١٣٣٩هـ/ ١٩٢٠م).

١٨٤ - **هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين**، دار العلوم الحديثة، بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

البقلي: محمد قنديل.

١٨٥ - **التعريف بمصطلحات صبح الأعشى**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

بكداش: سائد.

١٨٦ - **فضل الحجر الأسود ومقام إبراهيم وذكر تاريخهما وأحكامهما الفقهية وما يتعلق بهما**، الطبعة الأولى، دار البشائر الإسلامية، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

البلادي: عاتق بن غيث.

١٨٧ - **فضائل مكة وحرمة البيت الحرام**، الطبعة الأولى، دار مكة للنشر والتوزيع، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م.

١٨٨ - **معجم قبائل الحجاز**، الطبعة الثانية، دار مكة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

١٨٩ - **معجم المعالم الجغرافية في السيرة النبوية**، الطبعة الأولى، دار مكة، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

١٩٠ - **معجم معالم الحجاز**، الطبعة الأولى، دار مكة، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

بلطه جي: علي عبدالحميد.

١٩١ - **صحيح مسلم بشرح الإمام محيي الدين النووي**، الطبعة الأولى، دار الخير، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

ابن باز: عبدالعزيز بن عبدالله عبدالرحمن.

١٩٢ - **مجموع فتاوى ومقالات متنوعة**، جمع وإشراف محمد بن سعد الشويعر، مكتبة المعارف، الرياض، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.

الجار الله: عبدالله بن جار الله إبراهيم.

١٩٣ - **رسالة إلى أئمة المساجد والمؤذنين والمأمومين**، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

الجهني: مانع بن حماد.

١٩٤ - **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة**، الطبعة الثالثة، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٨هـ.

الحجبي: محمد صالح العبدري (ت١٣٣٥هـ/ ١٩١٦م).

١٩٥ - **إعلام الأنام بتاريخ بيت الله الحرام**، تحقيق إسماعيل أحمد إسماعيل حافظ، مطبوعات نادي مكة الثقافي الأدبي، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

حسن: حسن إبراهيم.

١٩٦ - **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، الطبعة الثالثة عشرة، دار الجيل، بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

حسين: جميل حرب محمود.

١٩٧ - **الحجاز واليمن في العصر الأيوبي**، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

حلاق: حسان علي.

١٩٨ - **الإدارة المحلية الإسلامية - المحتسب**، الدار الجامعية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠م.

١٩٩ - **مكة المكرمة من خلال رحلتي ابن جبير وابن بطوطه**، الطبعة الأولى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦م.

الخانجي: محمد أمين.

٢٠٠ - **منجم العمران في المستدرك على معجم البلدان**، الطبعة الأولى، ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م.

الخربوطلي: علي حسني.

٢٠١ - **الحضارة العربية الإسلامية**، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون ذكر سنة الطبع.

الخضري: محمد بك.

٢٠٢ - **إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء**، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٢٠٣ - **نور اليقين في سيرة سيد المرسلين**، الطبعة الثامنة عشرة، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ١٩٦٥م.

الخطيب: محمد عجاج.

٢٠٤ - **أصول الحديث - علومه ومصطلحه**، الطبعة العاشرة، دار المعارف، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

خليفة: ربيع حامد.

٢٠٥ - **الفنون الإسلامية في العصر العثماني**، الطبعة الأولى، مكتبة زهراء الشرق، ٢٠٠١م.

خورشيد: إبراهيم زكي، أحمد الشنتناوي، عبدالحميد يونس.

٢٠٦ - **دائرة المعارف الإسلامية**، أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية أئمة المستشرقين في العالم وتشرف على تحريرها تحت رعاية الاتحاد الدولي للمجامع العلمية دار الشعب، بدون ذكر سنة الطبع.

دحلان: أحمد زيني (ت١٣٠٤هـ/ ١٨٨٦م).

٢٠٧ - **خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام**، الطبعة الأولى، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٥هـ.

دهمان: محمد أحمد.

٢٠٨ - **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي**، الطبعة الأولى، دار الفكر، دمشق، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

الردادي: عائض الردادي.

٢٠٩ - **الأسرة الطبرية المكية**، الطبعة الأولى، دار الرفاعي للنشر والطباعة والتوزيع، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

رفيع: محمد عمر.

٢١٠ - **مكة في القرن الرابع عشر الهجري**، الطبعة الأولى، دار مكة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

الزركلي: خير الدين (ت١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م).

٢١١ - **الأعلام**، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.

الزهراني: عبدالرحمن بن علي.

٢١٢ - **كتابات إسلامية من مكة المكرمة**، الطبعة الأولى، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

الزيلعي: أحمد عمر.

٢١٣ - **مكـة وعلاقاتهـا الخارجيـة**، الطبعـة الأولـى، مطابـع جامعـة الريـاض، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

السباعي: أحمد محمد (ت١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م).

٢١٤ - **تاريخ مكة، دراسـات في السياسـة والعلم والاجتماع والعمـران**، الطبعة السابعـة، مطبوعات نادي مكة الثقافي، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

السليمان: علي بن حسين.

٢١٥ - **العلاقـات الحجازية المصرية زمن سـلاطين المماليـك**، جامعة القاهرة، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

الشامخ: محمد عبدالرحمن.

٢١٦ - **التعليم في مكة والمدينة آخر العهد العثمانـي**، الطبعة الثانية، دار العلوم، الرياض، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

الشقيري: محمد عبدالسلام خضر.

٢١٧ - **السـنن والمبتدعـات**، الطبعـة الأولـى، دار الكتـب العلميـة، بيـروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

شلبي: أحمد.

٢١٨ - **موسـوعة النظم والحضارة الإسلامية، الجزء الخامس، التربية الإسلامية، نظمهـا، فلسـفتها، تاريخهـا**، الطبعة السادسـة، مكتبة النهضـة المصرية، ١٩٧٨م.

الشهاوي: إبراهيم دسوقي.

٢١٩ - **الحسبة في الإسلام**، مكتبة دار العروبة، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

الشيبي: طلحة حسن.

٢٢٠ - **تحقيق المرام في تاريخ البيت الحرام**، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

شير: السيد أدّى شير.

٢٢١ - **الألفاظ الفارسية المعربة**، الطبعة الثانية، دار العرب للبستاني، القاهرة، ١٩٨٧م-١٩٨٨م.

الشيزري: عبدالرحمن نصر.

٢٢٢ - **نهاية الرتبة في طلبة الحسبة**، تحقيق السيد الباز العريني، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

الصالح: صبحي إبراهيم مصطفى.

٢٢٣ - **علوم الحديث ومصطلحه**، الطبعة الأولى، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م.

الصاوي: أمينة.

٢٢٤ - **الكعبة المعظمة**، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون ذكر سنة الطبع.

الصباغ: محمد لطفي.

٢٢٥ - **الحديث النبوي، مصطلحه - بلاغته - كتبه**، الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

طراوه: حجازي حسن.

٢٢٦ - **دور الحج في إثراء الحركة العلمية في الحرمين الشريفين في عهدي الراشدين والأمويين**، الطبعة الأولى، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

الطيار: عبدالله بن محمد بن أحمد.

٢٢٧ - **الصلاة، وصف مفصل للصلاة بمقدماتها مقرون بالدليل من الكتاب والسنة**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

الظاهر: خالد خليل وحسن مصطفى طبره.

٢٢٨ - **نظام الحسبة «دراسة في الإدارة الاقتصادية للمجتمع العربي الإسلامي»**، الطبعة الأولى، دار المسيرة، عمّان، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

العاملي: يوسف رغدا.

٢٢٩ - **معالم مكة والمدينة بين الماضي والحاضر**، الطبعة الأولى، دار المرتضى، بيروت، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

عباس: وصي الله بن محمد.

٢٣٠ - **المسجد الحرام، تاريخه وأحكامه**، الطبعة الثانية، طبع على نفقة الأمير متعب بن عبدالعزيز آل سعود، ١٤١٣هـ.

عبد الجبار: عمر.

٢٣١ - **دروس من ماضي التعليم وحاضره بالمسجد الحرام**، الطبعة الأولى، دار ممفيس للطباعة، مصر، ١٣٧٩هـ.

عبدالعزيز: محمد الحسيني.

٢٣٢ - **الحياة العلمية في الدولة الإسلامية**، وكالة المطبوعات، الكويت، بدون ذكر سنة الطبع.

عبدالله: عبدالرحمن صالح.

٢٣٣ - **تاريخ التعليم في مكة المكرمة**، الطبعة الأولى، دار الفكر، ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٣م.

عبيد: فيصل محمد أحمد.

٢٣٤ - **زمزم والزمازمة**، دار القبلة للثقافة الإسلامية، ١٤١٥هـ.

العبيكان: طرفة عبدالعزيز.

٢٣٥ - **الحياة العلميــة والاجتماعية في مكة في القرنين الســابع والثامن للهجرة،** مطابع الناشر العربي، الرياض، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

علي: أحمد رجب محمد.

٢٣٦ - **المســجد الحرام بمكــة المكرمــة ورســومه في الفــن الإســلامي،** الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

علي: جواد.

٢٣٧ - **تاريــخ العــرب قبــل الإســلام،** مطبعــة المجمــع العلمــي العراقــي، ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.

عنقاوي: فؤاد عبدالحميد.

٢٣٨ - **مكة الحج والطوافة،** الطبعة الأولى، دار خضر، بيروت، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

العوامري بك: أحمد ومحمد أحمد جاد المولى بك.

٢٣٩ - **مهــذب رحلة ابن بطوطة المســماة تحفة النظــار،** طُبع بالمطبعــة الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٩٣٨م.

العوفي: محمد بن سالم بن شديد.

٢٤٠ - **تطور عمارة وتوسعة المسجد الحرام حتى عهد خادم الحرمين الشريفين،** جامعة الإمام محمد بن سعود الإســلامية، الإدارة العامة للثقافة والنشر، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

الغزالي: محمد.

٢٤١ - **فقه السيرة،** عالم المعرفة، بدون ذكر سنة الطبع.

القحطاني: راشد سعد راشد.

٢٤٢ - **أوقاف السلطان الأشرف شعبان على الحرمين**، الرياض، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م.

القرطبي: محمد بن وضاح.

٢٤٣ - **البدع والنهي عنها**، تحقيق محمد أحمد دهمان، الطبعة الثانية، دار البصائر، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

كحالة: عمر رضا.

٢٤٤ - **معجم المؤلفين**، تراجم مصنفي الكتب العربية، مكتبة المثنى، بيروت ودار إحياء التراث العربي، بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

الكردي: محمد طاهر المكي.

٢٤٥ - **التاريخ القويم لمكة وبيت الله الكريم**، الطبعة الأولى، دار مصر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤٢٠هـ.

كوشك: يحيى حمزة.

٢٤٦ - **زمزم طعام طعم وشفاء سقم**، الطبعة الأولى، دار العلم للطباعة والنشر، جدة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

لقبال: موسى.

٢٤٧ - **الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي - نشأتها وتطورها**، الطبعة الأولى، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧١م.

اللميلم: عبدالعزيز محمد.

٢٤٨ - **رسالة المسجد في الإسلام**، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

مالكي: سليمان عبدالغني.

٢٤٩ – **بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد**، دار الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

المحامي: محمد فريد بك.

٢٥٠ – **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، تحقيق: إحسان حقي، الطبعة الثانية، دار النفائس، بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

محفوظ: علي.

٢٥١ – **الإبداع في مضار الابتداع**، الطبعة الخامسة، المكتبة العلمية، المدينة المنورة، ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م.

المراغي: عبدالله مصطفى.

٢٥٢ – **الفتح المبين في طبقات الأصوليين**، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م.

مرزا: معراج نواب وعبدالله صالح شاووش.

٢٥٣ – **الأطلس المصور لمكة المكرمة والمشاعر المقدسة من القرن الخامس حتى الربع الأول من القرن الخامس عشر الهجري**، طبع على نفقة خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود، دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٢٤هـ.

المشيقح: إبراهيم حمود.

٢٥٤ – **تاريخ أم القرى، مكانة المرأة العلمية فيها من خلال الدر الكمين لابن فهد**، الطبعة الأولى، مطابع المنار، القصيم، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٢٥٥ – **المنجد الأبجدي**، الطبعة الثانية، دار المشرق، بيروت، ١٩٦٧م.

٢٥٦ – **المنجد في اللغة والأعلام**، الطبعة الخامسة والعشرون، دار المشرق، بيروت، المكتبة الشرقية، بدون ذكر سنة الطبع.

مورتيل: ريتشارد.

٢٥٧ - **الأحوال السياسية والاقتصادية بمكة في العصر المملوكي**، الطبعة الأولى، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

النباهين: علي سالم.

٢٥٨ - **نظام التربية الإسلامية في عصر دولة المماليك في مصر**، الطبعة الأولى، دار الفكر العربي، ١٩٨١م.

نواب: عواطف محمد يوسف.

٢٥٩ - **الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين- دراسة تحليلية مقارنة**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

الوشلي: عبدالله قاسم.

٢٦٠ - **المسجد ونشاطه الاجتماعي على مدار التاريخ**، الطبعة الأولى، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

خامسًا: المراجع المعربة:

قائدان: أصغر.

٢٦١ - **تاريخ آثار مكة والمدينة**، ترجمة الشيخ إبراهيم الخزرجي، الطبعة الأولى، دار النبلاء، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩١م.

متز: آدم.

٢٦٢ - **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام**، نقله إلى العربية محمد عبدالهادي أبو ريدة، أعد فهارسه رفعت البدراوي، دار الكتاب العربي، بيروت، بدون ذكر سنة الطبع.

هورخرونيه: سنوك.

٢٦٣ - **صفحات من تاريخ مكة المكرمة**، نقله إلى العربية علي عودة الشيخ، أعاد صياغته وعلق عليه محمد محمود السرياني، معراج نواب مرزا، راجعه محمد إبراهيم علي، مكتبة الدار المئوية، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

يلماز: طرجان.

٢٦٤ - **الكعبة المشرفة دراسة أثرية لمجموعة أقفالها ومفاتيحها المحفوظة في متحف طوب قابي بإستانبول**، ترجمة تحسين عمر طه أوغلي، مراجعة أحمد محمد عيسى، تقديم أكمل الدين إحسان أوغلي، الطبعة الأولى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول، استانبول، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

سادسًا: الرسائل العلمية:

آل مشاري: منى حسن.

٢٦٥ - **المجاورون في مكة والمدينة في العصر المملوكي**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، ١٤٠٩هـ-١٤١٠هـ.

الباز: عبدالكريم علي.

٢٦٦ - **إتحاف الورى بأخبار أم القرى لنجم الدين عمر بن فهد**، دراسة وتحقيق، رسالة دكتوراه مقدمة إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

البدرشيني: أحمد بن هاشم.

٢٦٧ - **أوقاف الحرمين الشريفين في العصر المملوكي**، دراسة تاريخية حضارية وثائقية من واقع أرشيف القاهرة، رسالة دكتوراه غير منشورة، مقدمة إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

الجابري: خالد محسن حسان.

٢٦٨ - **الحياة العلمية في الحجاز خلال العصر المملوكي، ٦٤٨هـ-٩٢٣م/ ١٢٥٠م-١٥١٧م**، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.

الزهراني: عائض محمد عائض.

٢٦٩ - **التاريخ السياسي والحضاري لمكة المكرمة من خلال كتاب نيل المنى بذيل بلوغ القرى لتكملة إتحاف الورى**، من سنة ٨٩١هـ-٩٥٤هـ/ ١٤٨٦م-١٥٤٧م، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

السالمي: عبدالحفيظ بن حمدي بن حامد.

٢٧٠ - **الحياة الدينية في مكة خلال العصر المملوكي**، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٢٤هـ/ ١٤٢٥هـ.

السنيدي: عبدالعزيز بن راشد.

٢٧١ - **الحياة العلمية في مكة في القرنين الثاني والثالث الهجريين**، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية العلوم الاجتماعية، قسم التاريخ والحضارة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

الشريف: فريال عبدالمجيد.

٢٧٢ - **مكة المكرمة كما جاءت في كتب الرحالة المسلمين منذ القرن السادس الهجري حتى نهاية القرن التاسع الهجري**، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الملك عبدالعزيز، ١٤٠٠هـ-١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م -١٩٨١م.

الطبري: محمد بن علي بن فضل (ت١١٧٣هـ/ ١٧٥٩م).

٢٧٣ - **إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن**، تحقيق ناصر بن عبدالله البركاتي، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة مانشستر، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

العبدلي: عائشة مانع عبيد.

٢٧٤ - **إمارة الحاج في عصر الدولة المملوكية وأثرها على الأوضاع الداخلية بمكة المكرمة، ٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م**، دراسة تاريخية تحليلية، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م.

الفعر: محمد فهد عبدالله.

٢٧٥ - **تطور الكتابات والنقوش في العصرين المملوكي والعثماني من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر الهجري**، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٦هـ-١٤٠٧هـ.

معتوق: صالح يوسف.

٢٧٦ - **علم الحديث في مكة المكرمة خلال العصر المملوكي**، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٧هـ.

الهمزاني: بندر محمد رشيد.

٢٧٧ - **علاقات مكة المكرمة الخارجية في عهد أسرة الهواشم، ٤٥٦-٥٩٧هـ/ ١٠٦٣-١٢٠٠م**، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة أم القرى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

سابعاً: الدوريات العلمية:

الباز: عبدالكريم علي عبدالكريم.

٢٧٨ - **ناظر الحرم في العصر المملوكي**، مجلة جامعة أم القرى، العدد الخامس، السنة الثالثة، عام ١٤١١هـ.

البركاتي: ناصر بن عبدالله سلطان.

٢٧٩ - **التطور التاريخي لمكتبة الحرم المكي**، مجلة العصور، المجلد الثاني، الجزء الثاني، دار المريخ، لندن، ذو القعدة - ١٤٠٧هـ/ يوليو - ١٩٨٧م.

جامعة أم القرى.

٢٨٠ - **منار الجامعة**، صحيفة تدريبية تصدر عن قسم الإعلام بجامعة أم القرى، العدد ٨٥، شوال - ١٤٢٤هـ/ ديسمبر - ٢٠٠٣م.

الدهاس: فواز علي.

٢٨١ - **المدارس في مكة المكرمة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي**، مجلة الجمعية التاريخية السعودية، العدد الثاني، السنة الأولى، ربيع الأول، ١٤٢١هـ، الرياض.

الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي.

٢٨٢ - **الحرمان الشريفان والتوسعة والخدمات خلال مائة عام**، بدون ذكر سنة الطبع.

الطاسان: محمد صالح.

٢٨٣ - **التعليم في مكة في العهد المملوكي**، مجلة جامعة الملك عبدالعزيز، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، المجلد الثامن، الجزء الثالث، ٣-٤-٦، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبدالعزيز، جدة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٢٨٤ - **القضاء في مكة المكرمة في العهد المملوكي**، مجلة العصور، المجلد السادس، الجزء الثاني، ٢٩٩-٣١٨، ١٩٩١م.

٢٨٥ - **الوظائف الدينية والإدارية في المسجد الحرام في عهد دولة المماليك**، مجلة العصور، المجلد الخامس، الجزء الثاني، ٢٨٣-٣١٠، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

مالكي: سليمان عبدالغني.

٢٨٦ - **الطبريون مؤرخو مكة «أنشطتهم العلمية ووظائفهم في الحرم المكي»** جريدة الندوة، الجزء الأول، العدد ١٣٨٢، السنة ٤٦ - شعبان ١٤٢٣هـ/ ٢١ - أكتوبر ٢٠٠٢م، جريدة الندوة، الجزء الثاني، العدد ١٣٨٨، السنة ٤٦، ٢٢ - شعبان ١٤٢٣هـ/ ٢٨ - أكتوبر ٢٠٠٢م.

مرداد: حسن سيد عبدالله.

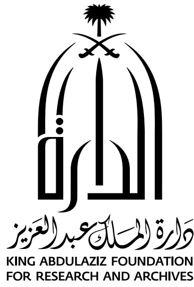
٢٨٧ - **المجاورون المصريون في الحرمين الشريفين (٥٦٧-٦٤٨هـ/ ١١٧١-١٢٥٠م)**، المجلة التاريخية المصرية، المجلد ٣٨، الدار العربية للكتاب، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م.

المنجد: صلاح الدين.

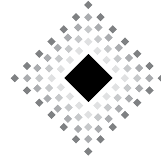
٢٨٨ - **إجازات السماع في المخطوطات القديمة**، مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد الأول، الجزء الأول، سنة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٥م.

الهمزاني: بندر محمد رشيد.

٢٨٩ - **أثر السلاطين والأمراء والأعيان في تنشيط الحركة العلمية في مكة في القرنين السابع والثامن الهجريين**، مجلة كلية اللغة العربية، العدد العشرون، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.



ص.ب: ٢٩٤٥ – الرياض ١١٤٦١
المملكة العربية السعودية
هاتف: ٠١١/٤٠١١٩٩٩
فاكس: ٠١١/٤٠١٣٥٩٧
P.O.Box: 2945 - Riyadh 11461 - K.S.A.
Tel: 011- 4011999 Fax: 011-4013597
موقع الإنترنت: www.darah.org.sa
البريد الإلكتروني: info@darah.org.sa



مركز تاريخ مكة المكرمة

The Center of
Makkah History

ص.ب: ٦٥٣٥ – مكة المكرمة (العزيزية)
٢١٩٥٥ المملكة العربية السعودية
هاتف: ٠١٢/٥٥٨٨٨٨٩
فاكس: ٠١٢/٥٢٨٦٣٤١
P.O.Box: 6535
MAKKA (Al-Aziziya) 21955
Kingdom of Saudi Arabia
Tel: 012-5588889 Fax: 012-5286341